سردم العربي

فصلية تعنى بالتواصل الثقافي الكردي- العربي

تصدر عن دار سردم للطباعة والنشر

السنة الأولى- العدد الثالث- شتاء 2004

رئيس مجلس الإدارة والمدير المسؤول:

شيركو بيكەس

سكرتير التحرير

نوزاد أحمد أسود

هيئة التحرير:

رؤوف بيكرد

آزاد برزنجي

شاهو سعيد

دانا احمد مصطفى

المراسلات:

تلفاكس: 00447043129839

ايميل: info@www.sardam.net

موقع دار سردم على الإنترنيت: www.sardam.net

تصميم الغلاف: قادر ميرخان

المصمم المنفذ: جمال حسين

- المقالات تعبر عن آراء الكتاب انفسهم ولا تعكس بالضرورة آراء المجلة
- يخضع ترتيب المواد لإعتبارات فنية

محتويات العدد

دار سردم للطباعة والنشر



www.sardam.info

الكرد ومعركة الديمقراطية في العراق

د. خالد يونس خالد*

النقد والخوف من الذات والخوف من الآخر

لا يمكن لفرد واحد أن يحدد الديمقراطية، فالديمقراطية لا تمنح إنما تكتسب بالعلم والمعرفة والنضال. إنها ليست سلعة تصدير وإستيراد إنما خيار يختاره الشعب عن إيمان وقناعة. فالديمقراطية شئ عقلاني في النهاية كما قال نهرو، وهي أيضا تربية وثقافة ومسؤولية وممارسة قبل كل شئ، لذلك فهي أفضل أنواع الحكم ولكنها لا تخلو من عيوب كما قال تشرشل.

في معرض نقدي لبعض ديمقراطيات الشرق الأوسط في الجزئين الأول والثاني من هذا البحث، وأعني تلك الدول التي تصنف كدول ديمقراطية، وليست تلك الأنظمة الإستبدادية التي يحصل رؤساؤها على 99،9 ٪ من الأصوات، وصلتني رسائل تقول: كيف تريد الديمقراطية؟ وقد سبق أن جاوبت عن ذلك السؤال في الكلمات المذكورة أعلاه.

الإشكالية هي هناك بعض القراء لا يميزون بين النقد، والإنتقاد، والتهجم، والشتم، والإعتداء، والعنف، والإرهاب، ويعتبرون جميع هذه المصطلحات مترادفات. فالنقد عندهم شتم وإعتداء وعنف ومهاترة وإرهاب لأنهم يخافون من ذواتهم، ويخافون من الآخر. لا يفهمون بأن النقد العقلاني البَناء، هو للإصلاح والخير، ولا يعلمون بأن الناقد مُعرض هو الآخر للنقد، لذلك يجب أن يكون الناقد نزيها وبعيدا عن التجريح والتشخيص والإهانات والمهاترات. الكل يخطئ، والكل بحاجة إلى التعاون مع الآخرين للخير إن أراد خيرا.

أنا هنا لست بصدد تحديد تلك المفاهيم، لأن ذلك يأخذ كتابة عشرات الصفحات، ومَن أراد معرفة تلك الإختلافات عليه أن يرجع للقواميس اللغوية كلسان العرب، وقاموس المحيط، والمنجد وماشابه. لكن ما ينبغي، بل مايجب أن أقول هو أنه عندما ينقد كاتب ما الوضع الراهن في العراق، ينقده لحبه للإصلاح، ولرغبته في أن يتطور الوضع نحو الأفضل، ولأنه يعمل ذلك محبة لشعبه، وإحتراما للقيادة التي تريد الخير للشعب. ولكن مع ذلك تتصاعد النداءات

من بعض أعوان دعاة النظام المنهار الذين أصبحوا اليوم دعاة للحرية، بأن الكاتب قد يدافع عن سياسات العهد البائد. مثل هؤلاء يعتبرون أنفسهم اليوم حماة الوطن، وقد نسوا أنهم بالأمس ساهموا في قتل الشعب حين كانوا في قلب النظام الدكتاتوري في عهد صدام رمز الفاشية في الربع الأخير من القرن الماضي. وحين ينقد الكاتب التجربة الديمقراطية العراقية اليوم رغم إيجابياتها، يعتبرون النقد تخريبا أو تهجما، وكأن الكاتب نسي إيجابيات هذه الديمقراطية بعد أن ولى الطاغية وسقط صنم ساحة الفردوس. أو كأن الكاتب يفضل الحياة السياسية في سوريا أو السودان أو أفغانستان أو عراق العهد البائد. مهلا ياإخوتي ما هكذا تعالج مسألة الديمقراطية! إنكم تختلطون الأوراق.

نظام صدام المنهار نموذج الإرهاب ضد الشعب

نقول ونعترف بأن نظام صدام وأولئك الذين يدافعون عنه كانوا أكثر الأنظمة العربية المسلمة قمعا وعنجهية وإستبدادا، وظلما وإرهابا ضد الشعب العراقي. فالمقابر الجماعية التي نشاهدها كل يوم في العراق من كردستان ومرورا ببغداد وإلى الجنوب أدلة دامغة تدين ذلك الرجل السادي الإرهابي الدموي. نحن نعتقد بأن خوف بعض الأنظمة والفضائيات العربية من تغيير العراق نحو الديمقراطية تجعلهم يفقدون مراكزهم وعروشهم، وهم قد تربوا على فتات الأنظمة الشمولية التي تحكم شعوب المنطقة. فنقدُ السلطان يعتبر جريمة عقوبتها الموت، وكثير من هؤلاء السلاطين موظفون في الإدارة الأمريكية. فالإدارات الأمريكية المتتالية ساندت الأنظمة العسكرية في المنطقة من جهة، ومن جهة ثانية دعمت الحركات الإسلاموية في السنين الماضية، إلى أن وصلت إلى مرحلة ممارسة العنف والمواجهة، لتجد الولايات المتحدة طريقها في التدخل وبناء القواعد العسكرية، لمساندة الأنظمة الدكتاتورية في مواجهة الموقف.

بدايات التدخل الأمريكي في العراق

الولايات المتحدة ساندت النظام العراقي البائد ببناء ترسانته العسكرية، وخاصة في سنوات الحرب العراقية الإيرانية. كما لم تعارضه الولايات المتحدة بغزو الكويت، في معرض جواب السفيرة الأمريكية في بغداد عام 1990 حين قابلت صدام، وجاوبت عن سؤاله الكبير بأن العراق يضرب الكويت لأن الكويت قد إستولت على آبار النفط العراقية، على حد تعبيره. فكان جواب السفيرة الأمريكية، بأن القضية داخلية في البيت العربي. ذلك كان الفخ الكبير لفتح أكبر الأبواب أمام أمريكا بدخول الشرق الأوسط بعد حماقة صدام بضرب الجارة دولة الكويت.

الخطوة الأولى التي إتخذتها الولايات المتحدة كانت ضرب العراق وتحرير الكويت، ولكن مع الإبقاء على نظام صدام المستبد لوقت أطول كعامل إستراتيجي لترسيخ النفوذ الأمريكي، من خلال تخويف الأنظمة الخليجية من عدوانية صدام حسين. الخطوة الثانية كانت عقد إتفاقيات عسكرية بين غالبية دول

الخليج وأمريكا ببناء القواعد العسكرية، وإيجاد منطقة آمنة للكرد العراقيين في كردستان العراق، ودخول القوات والمخابرات الأمريكية في دول الخليج وتركيا وكردستان. ومن ثم جاءت الضربة القاضية بضرورة دخول القوات الأمريكية لتحرير الشعب العراقي من إرهاب صدام.

إنني هنا أجد مبررا لموافقة المعارضة العراقية بدخول القوات الأمريكية والبريطانية لإسقاط نظام صدام حسين. فالرجل المخلوع كان يبطش بأبناء الشعب العراقي ويقتل الأطفال والنساء ويدفن الصغير والكبير أحياء. فنظام البعث العراقي البائد كان قد تجاوز كل حدود اللاإنسانية، ومارس الأرهاب بأجلى صورها، وكان الشعب عاجزا عن المقاومة، وأصبح كالغريق يطلب النجدة من أي كان. إنني هنا أتفق مع المعارضة العراقية ، من أن الغريق لا يسأل الجهة التي تنجي الغريق، المهم أن يأخذه المنقذ إلى بر الأمان، وبعد ذلك تبدأ المرحلة الأخرى. فأمريكا ستخرج من العراق، ولكن بعد حين. المهم أن العراق تحرر من حكم الطاغية.

مرحلة التهيئة للديمقراطية

دخل العراق مرحلة التحرير من الظلم والفاشية ، في 4 نيسان/ أبريل من هذا العام، وبدأت مرحلة الديمقراطية ولكن في ظل الإحتلال الأمريكي. لقد إعترفت الولايات المتحدة بعد إقرار الأمم المتحدة بالإحتلال. وقالت أمريكا بأنها ستنسحب بعد تحقيق الأمن والإستقرار، طبعا بعد تحقيق الإستراتيجية الأمريكية في المنطقة أيضا.

تشهد هذه المرحلة حالة فوضى، وعمليات إرهابية من قبل العناصر المأجورة وازلام السلطة البعثية المنهارة. ونشطت عصابات السرقة والخطف وضعاف النفوس لإرهاب المواطنين بغية زرع البلبلة والخوف في نفوس المواطنين العراقيين.

لا أجد بأن الوقت ملائم لإنسحاب القوات الأمريكية من العراق، لأن إنسحابها يؤدي إلى الحرب الأهلية، وسيطرة القوة الأكثر عنفا على الأوضاع، وتبدأ المجازر الدموية لتصفية الثارات والمعارضين. فإنسحاب القوات الأمريكية في الوقت الحاضر له مساوئه الكثيرة التي تفوق إيجابياته. لابد من إكمال مستلزمات عديدة قبل الإنسحاب أهمها:

1-تصفية جيوب المقاومةالمعادية للديمقراطية ولونسبيا، وملاحقة الإرهابيين والمرتزقة الذين دخلوا العراق من الخارج.

2-بناء المؤسسات الديمقراطية أو شبه الديمقراطية من العراقيين أنفسهم، وممارسة العمل الديمقراطي ولو في أقل مراحله، لتربية القادة والمواطنين على الديمقراطية، فكثير من قادة العراق اليوم في مجلس الحكم الإنتقالي يفتقدون للتربية الديمقراطية.

3-الحفاظ على الأمن والإستقرار، وهو من أهم مستلزمات الوضع الراهن.

4-إيجاد فرص العمل للعاطلين.

5-تشكيل المحاكم والعمل بالقوانين الديمقراطية.

6-وضع لجنة مؤقتة لوضع الدستور تمهيدا للإستفتاء.

7-تهيئة الفرص اللازمة لإجراء إنتخابات ديمقراطية وإنتخاب برلمان وحكومة شرعية من قبل الشعب.

8-الإستفتاء على الدستور.

9-وضع صيغة ديمقراطية سلمية ناجعة لحل القضية الكردية ، بشكل يؤمن للشعب الكردي في التمتع بحقوقه الوطنية والديمقراطية في إختيار شكل العلاقة مع العراق.

10-تشكيل قوة عسكرية وشرطة وطنية لحماية الوطن.

11-تجريد الميليشيات العسكرية لجماعات الضغط في العراق من الأسلحة

12-حماية حقوق الإنسان

13-الإعتراف بحقوق الأقليات القومية والطائفية

14-بناء المؤسسات الثقافية والتربوية والزراعية والصناعية

15-تأمين الحاجيات الأساسية للمواطن العراقي

16-إضافة إلى عشرات النقاط الأخرى المتعلقة بتهيئة الأجواء الديمقراطية والمعيشية. وحينذاك تبدأ المطالبة الجدية بضرورة إنسحاب القوات الأمريكية.

بدايات الحياة الديمقراطية

الديمقراطية ليست مجرد إنتخابات ممثلي الشعب في البرلمان، ووجود أغلبية وأقلية برلمانية. لابد من فصل السلطات الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية. ولابد أن تكون السلطة القضائية مستقلة عن التحزب السياسي، وكذلك ضرورة إستقلالية السلطة الرابعة، وأعني الإعلام المركزي. أهمية الإعتراف بحقوق الإنسان، وحقوق الشعب الكردي والأقليات، وحماية هذه الحقوق بموجب الدستور الذي يستفتي عليه الشعب. ممارسة حرية الرأي والإرادة الحرة المفعمة بالمسؤولية، وحماية المجتمع من الفساد والعنف والإغتصاب و الجريمة.

الأهم من كل ذلك هو الحفاظ على سيادة العراق بمنع أي تدخل أجنبي وخاصة من دول الجيران كتركيا وإيران وسوريا والسعودية والكويت والأردن وإسرائيل.

من المهم جدا تجاوز الخلافات المذهبية والطائفية والعرقية، والإرتفاع إلى مستوى المسؤوليات الوطنية. إتخاذ الإجراءات العادلة بحق المجرمين والقتلة، وضمان أمن المواطنين.

الكرد في بداية معركة الديمقراطية

من الصعب الحكم على التجربة الديمقراطية العراقية، وهي ما زالت في مرحلة التكوين في هذه الفترة القصيرة التي تحرر فيها العراق، في ظل حكم الحاكم الأمريكي بريمر. فقد كان العراق في ظلام دامس وفي قهر ورعب وظلم وإرهاب منذ 17 يوليو/تموز عام 1968-3 أبريل/نيسان عام 2003. كان الشعب يخاف من كل ما هو حوله،

وكان القتل والإغتصاب السمة الأساسية لنظام البعث المنهار. وكان صدام وعشيرته وزمرته يتحكمون بأرواح الشعب وممتلكاته بأساليب همجية، مما جعل العراق سجنا كبيرا لكل أبناء الشعب العراقي. ولذلك فإن أجيالا عديدة في فترة 35 عاما قد تربت في ظل الخوف من الذات والخوف من الآخر. حتى بعض أولئك الذين كانوا يعيشون في الخارج، وهم في قلق وخوف على ذويهم وأقربائهم، حيث كان يُسفر بعضهم أو يُساقون إلى التحقيق بسبب وجود أقربائهم في المهجر. كما كان للنظام عملاء وجواسيس من العراقيين ومن العرب من البلدان العربية الأخرى المتواجدين في الخارج. أي حياة هذه، وأي جحيم كان أبناء عراق الحضارة يعيشون فيها خلال هذه الفترة، خاصة اولئك الذين ولدوا وترعرعوا على العهر الثقافي البعثي في الداخل؟ كم من العراقيين رجعوا إلى الداخل؟ بل كم من الكرد المهجرين رجعوا إلى كردستان المحررة منذ أحد عشر عاما من حكم الكرد؟ أليست موجات الهجرة الكردية والعربية والأقليات إلى الخارج مستمرة؟ نعم إنها ما زالت مستمرة.

أنا شخصيا لا أعتمد كثيرا على المساومات التي تجري على التوجهات اليسارية واليمينية من علمانية وإسلامية فيما يتعلق بالقضية الكردية. فجميع الإتجاهات الفكرية والسياسية العراقية ساهمت بشكل أو بآخر لضرب الحركة التحررية الكردية نسبيا، رغم وجود فوارق بين هذه التوجهات في مراحل معينة. فموقف الجماعات السياسية الإسلامية السنية والشيعية كان بشكل عام سلبيا من القضية الكردية، وكانت هذه الجماعات ترفض الفدرالية وهي خارج السلطة، وستكون على ما أظن على حالها في المحك العملي على المدى البعيد، وإن ظهر بعض المرونة على المدى القريب كما كان الحال في إيران الخميني، من الإعتراف بحق الكرد في الحكم الذاتي إلى قطع رؤوس الكرد بدون محاكمة من قبل آية الله الخلخالي الذي عين خصيصا كجلاد للشعب الكردي في مرحلة ما بعد التحرير (راجع الجزء الثاني من هذا البحث، سبق وأن نشر في إيلاف). ربما يكون موقف الأحزاب اليسارية أكثر مرونة من موقف الأحزاب القومية العروبية، مع إعترافنا بأن هذه الأحزاب اليسارية هي الأخرى قد ساهمت مساهمة جادة في ضرب الحركة التحررية الكردية بين سنوات 1973 -1978 بالتعاون مع قوات البعث العراقي بعد الإتفاقية العسكرية العراقية السوفيتية، ومشاركة الحزب الشيوعي العراقي (اللجنة المركزية) في الجبهة القومية التقدمية مع حزب البعث العربي الإشتراكي، معتبرين مناضلي الكرد عصاة رجعيين، وهم نفس العصاة الذين كانوا يتعاونون مع مناضلي الحزب الشيوعي قبل عام 1973 وبعد عام 1988، وكانت حينذاك نضالاتهم مشروعة، لأنهم كانوا يحمون الشيوعيين.

اليمينيون والشوفينيون من بقايا البعث والجماعات المتطرفة كانوا دائما الخنجر المسموم في

ظهر القضية الكردية، وكانوا يشنون حرب الإبادة ومحو الشخصية القومية الكردية.

أنا هنا لست بصدد عرض المآسي التي مر بها العراق عموما، والشعب الكردي خصوصا، إنما أنا بصدد عرض الحالة العراقية في الماضي، وما يمكن أن يترتب عليه الوضع في الحاضر. العملية الديمقراطية ليست عصا سحرية تفعل فعلها ما تريد، والناس لن يكونوا ديمقراطيين في يوم وليلة. لقد ذكرتُ في بداية هذا المقال، بأن الديمقراطية هي تربية وممارسة وأخلاق وثقافة ومسؤولية، ولذلك فإن كثيرا من الأحزاب العراقية المساهمة في مجلس الحكم المحلي، ليست لها تجربة ديمقراطية أصيلة، وقد خرجت هذه الأحزاب من حالة التمزق والتشرذم وتعرضت للقمع والإضطهاد من قبل نظام صدام الدموي الفاشي. وإن هذه الأحزاب بقياداتها وقواعدها بحاجة إلى فترة زمنية طويلة نسبيا لتقَبُل الديمقراطية، وحل القضية الكردية حلا ديمقراطيا، يؤمن للشعب الكردي حقوقه في الحرية. ولكن الإشكالية هي مدى تقبل هذه القيادات والأحزاب في التربية الديمقراطية في المحد العملي.

إنني أطالب بضرورة دخول عدد كبير من القياديين العراقيين دورات تثقيفية لفهم الديمقراطية وممارستها في المحك العملي، وكيفية معالجة القضايا الساخنة التي تحكم التناقضات العراقية وخاصة القضية الكردية وقضايا الأقليات القومية والدينية. لماذا؟

مقولات جديدة ومخيفة في بدايات معركة الديمقراطية

ما آلمني أن أقرأ بعض تصريحات زعماء سياسيين عرب يقولون بأن الطريق إلى الحكم الذاتي للكرد طويل. وهؤلاء هم الذين ساهموا بشكل مباشر أو غير مباشر بالتوقيع على وثيقة مؤتمر لندن لعام 2002، ومؤتمر صلاح الدين لعام 2003. وهي الوثيقة التي إعترفت بعراق ديمقراطي فدرالي تعددي برلماني. أين هي الديمقراطية في منظور هؤلاء؟

الخلافات الكردية في ظل معركة الديمقراطية

الكرد العراقيون أمام معركة ديمقراطية عراقية في الأيام المقبلة، لكن الكرد أنفسهم، ومن خلال قياداتهم فشلوا في توحيد صفوفهم لمواجهة هذه المعركة المصيرية بصورة ديمقراطية وسلمية. فمنذ مايو/أيار عام 1992، والكرد يحكمون الجزء الأكبر من كردستان حكما مباشرا، وبشكل ديمقراطي، وأبدع الشعب الكردي في إثبات قدرته الكبيرة في ممارسة الديمقراطية، والتعامل مع الشعب العربي والأقليات، ودول الجوار الكردي العراقي. لكن القيادات الكردية فشلت في توحيد صفوفها رغم الوساطات العديدة من قبل الأخوة الشيوعيين من جهة، ومن قبل الولايات المتحدة من جهة أخرى، وخاصة إتفاقية واشنطن عام 1998، والتي قضت بضرورة حل الخلافات الكردية الكردية. حيث وافق الزعيمان الكرديان في واشنطن على الإتفاقية،

وبحضور وزيرة الخارجية الأمريكية آنذاك مادلين ألبرايت، بدمج الإدارتين الكرديتين في إدارة واحدة خلال ستة أشهر. حيث كان يجب دمج البرلمانيين الكرديين في أربيل والسليمانية في برلمان واحد، ودمج الحكومتين الكرديتين في حكومة واحدة، وتوحيد الميزانية والكمارك والواردات والمصروفات. ولكن لم يتحقق ذلك حتى هذه الساعة.

الإنجاز الكبير الذي حققه الكرد هو وقف حرب الإقتتال الأخوي بين الحزبين الكبيرين الديمقراطي الكردستاني والوطني الكردستاني بعد معارك طاحنة وخاصة أعوام 1994-1996. والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن للكرد أن يواجهوا الحالة الراهنة في معركة الديمقراطية العراقية ببرلمانين، وحكومتين، ورئيسين، وقواعد متصارعة متنافسة؟

الوعي بالتاريخ

سُئِل وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق موشي دايان عن أسباب هزيمة العرب في حرب حزيران عام 1967، فأجاب: العرب لا يقرؤون. ماذا كان الأعور دايان يقصد من مقولته المعروفة؟

إن قراءة بسيطة للخطط الإسرائيلية في دراسة نفسية العرب، تعطينا نوعا من القناعة، عن رغبة الصهاينة في الدخول إلى العقل العربي من الباب والشباك. ففي أوربا اليوم نجد أن اليهود قد سيطروا على أغلب المؤسسات الثقافية للدراسات العربية اللغوية والأدبية والسامية بشكل عام، في الوقت الذي لجأ أغلب الأكاديميين العرب إلى الدراسات الإجتماعية وخاصة السياسية. الهدف من تعمق اليهود واللوبي الصهيوني في الآداب العربية هو دراسة الإنسان العربي من خلال التراث العربي الإسلامي، وهذه الظاهرة برزت بعد الحرب العالمية الثانية، حين فشل الخبراء السياسيون الأمريكان فهم نفسية الأنسان الياباني إبان فترة الحرب العالمية الثانية، وتوصلوا إلى نتيجة مهمة مفادها أنه لايمكن تخطيط السياسة وفهمها إزاء شعب من الشعوب بدون فهم نفسية ذلك الشعب. ومن هنا ظهرت فروع جديدة لدراسة الآداب والعلوم الإجتماعية من خلال دراسة الأدب. ومن هنا أيضا إزداد الإهتمام الأمريكي والصهيوني واليهودي بدراسة الإستشراق، فبرز مستشرقون كبار قسم منهم عملاء للمخابرات، وقسم منهم لتشويه التراث العربي الإسلامي، وقسم آخر منصف. كما نجد اليوم كثيرا من المستشارين في الدوائر السياسية الأمريكية والأوربية والإسرائيلية ممن يجيدون اللغة والآداب العربية.

مايهمنا في هذا البحث المقتضب هو مغزى جواب دايان من أن العرب لا يقرؤون.

العرب يقرؤون بالتأكيد كتبا كثيرة وكثيرة، ويؤلفون كتبا كثيرة وكثيرة، ولكنهم يتعرضون لهزيمة تلو هزيمة، ومأساة تلو مأساة، والسبب في ذلك أن العرب لايقرؤون التاريخ عن وعي. فإنعدام الوعي بالتاريخ أدى إلى هزيمة العرب في حرب الأيام الستة، وما لحقها من هزائم.

ماأريد أن أقوله هنا أيضا، هو عجز العقلية العربية في مواجهة إسرائيل، وعجزها في مواجهة الأزمات. وأعني هنا بالتأكيد، عدم قدرة العرب في إيجاد حل واحد للأزمات التي تحكم الشرق الأوسط. لا أريد هنا أن أدخل تفاصيل هذه الأزمات، إنما أحدد الفكرة في موضوع واحد أنا بصدد دراسته، وهو القضية الكردية في معركة الديمقراطية في عراق المستقبل.

نماذج سيئة للعقلية المتشنجة في الوضع الراهن

الأنظمة العراقية المتعاقبة دفعت الشعب الكردي في العراق إلى الإستياء من السياسات الظالمة التي مارستها تلك الأنظمة ضد الكرد، وما لحقها من دمار بالعراق والكرد والعرب والأقليات. كما أن عددا كبيرا من العناصر المثقفة العراقية والعربية إتخذوا مواقف معادية ومتشنجة من حقوق الكرد، فازدادت الخلافات بين الجانبين، وتوسعت الفجوة بين الشعبين، إلى درجة شعر كثير من الكرد، إستحالة العيش مع العرب، مثلما شعر كثير من العرب، ضرورة ضرب الكرد بالقوة، بينما الحلول الناجعة هي إيجاد حل أخوي عادل لقضاياهم.

أعطي هنا مثالا بسيطا لكاتب عراقي، يسئ إلى العرب قبل أن يسئ إلى الكرد، وهو الكاتب سليم مطر، من خلال مقالاته التي تعبر عن العقلية العربية المتشنجة والمعادية للحقوق القومية الكردية. فبدلا من الدعوة للحوار الهادئ البناء، والحوار العقلاني المفيد، وتبادل الآراء، لجأ سليم مطر إلى كتابة مقالات تنبعث منها الكراهية، والإتهامات ضد شعب بكامله على القنوات الفضائية العربية المعروفة بزرع الأحقاد بين الكرد والعرب والتركمان، وإختيار هذه القنوات لعناصر معينة تجيد الشتم السياسي بين القوميات والطوائف العراقية.

أنا هنا لست ضد الأستاذ سليم مطر كفرد عراقي، فله الحق أن ينقد، مثلما للكردي الحق أن ينقد، ولكنني لا أعتقد أن له الحق أن يشهر بشعب كامل كالشعب الكردي، لأن ذلك قد يشجع كثيرا من الكرد أن ينزل إلى ذلك المستوى ليشهر بالشعب العربي، وهذا خطأ جسيم، فعلى الكردي أن يحترم الشعب العربي والشعوب الأخرى، مثلما على العربي وغيره أن يحترم الشعب الكردي. وإنه بدون الإحترام المتبادل بينهما وبين الأقليات العراقية الأخرى لا يمكن إيجاد حل للأزمات التي تحكم المنطقة. لقد ذكرت في كتابي الأخير، كتابي الثاني عشر الذي حاز على جائزة من وزارة الثقافة السويدية، بعنوان "القضية الكردية بين الحلول الإسلامية والعلمانية والدولية" الطبعة الثانية، يونيو 2003، من أن العرب المتشددين والحاقدين على الكرد شجعوا كرد كردستان العراق بالتوجه نحو الولايات المتحدة الأمريكية، وربما إسرائيل تدريجيا.

صدام حسين بكل عنجهيته وإرهابه إعترف بوجود الشعب الكردي، ولو نظريا، واعترف بإصطلاح كردستان العراق، وقد إستخدم الأسلحة الكيماوية ضد الكرد، في حين يرفض العراقي سليم مطر ذلك. وأقول جازما بأنه يضر بالقضية

العراقية عموما أكثر مما يضر بالقضية الكردية، وأنه شجع، بكتاباته، كثيرا من الكرد أن يتحولوا إلى جبهة التشدد القومي الكردي والدعوة إلى الإنفصال، ومطالبة هذه القوى الكردية المتشددة من القيادات الكردية بإتخاذ مواقف أكثر صرامة وحزما. إنه، أي مطر وأمثاله يشجعون بعض الكرد إلى معاداة العراق أيضا، وهذا ما لانريده نحن أبدا، فبالعداء لا نجد حلا لمعضلة، وبالحقد نصل إلى طرق مسدودة، تزهق فيها أرواح آلاف الأبرياء ، وأنا وسليم مطر وعشرات أمثالنا نعيش في أوربا، وكأننا نعيش بأمان، لكن لا أمان لإنسان شريف لا يتضامن مع شعبه، ولا يقاسم مآسي أمته ووطنه، ولا يفهم بأن للآخرين حقوقا كما له ولشعبه الذي ينتمي إليه.

الإعلام العربي، وتأكيدا قناة الجزيرة والعربية وأبو ظبي نماذج سيئة لخلق الكراهية بين الشعوب والقوميات والأقليات والطوائف العراقية. العهر الإعلامي يضر مجتمعا بكامله بخلق الفوضى والبلبلة والحقد والكراهية، وبث المعلومات الخاطئة، والتحريض على القتل والشتم والسلب والنهب جرائم بحق الإنسانية. واقول جازما، وعن وعي وإدراك ودراسة، ومن خلال مساهمتي في السيمينارات والندوات والمناقشات على عدة مستويات، من أن بعض الفضائيات العربية ساهمت مساهمة جدية في تقوية المواقف الكردية المتعصبة، والجماعات القومية الكردية المتطرفة، وأضعفت الجهات التي تدعو إلى التعايش مع الأخوة العرب، والحفاظ على وحدة العراق. وأقول عن قناعة أيضا، بأن العمل من أجل تشكيل دولة كردية، أصبح مطلبا أساسيا كنتيجة من نتائج أكاذيب بعض الفضائيات العربية.

نعم النقد البناء واجب من أجل الإصلاح، لكن التهجم وإنكار حقوق الآخرين، وإهانة القيادات التي تقود شعبا آخر من أجل الحرية ليس نقدا. سحقا لعقليات كهذه، تثير الفتن، وتعمق الخلافات، وتتفرج لرفات تناجي السماء بين المقابر الجماعية التي هي نتائج لمثل تلك العقليات المتخلفة والإستبدادية. كفانا تجارة بدماء الابرياء من العرب والكرد والأقليات، وقليل من الحياء، من الهزائم التي تصيب شعوبنا، ونحن لا نخجل من أنفسنا، ومن أطفالنا، ومن تلك الأرواح الطاهرة التي سقطت بسبب هذه الغباءات التي نعيش فيها.

إساءة إستعمال الديمقراطية قد تكون وسيلة للإضطهاد والإستغلال

ممارسة الديمقراطية تحتاج إلى وعي بالتاريخ، ودراسة أسباب الفشل، للتخطيط الناجح من أجل المستقبل. والعمل بالمثل الديمقراطية يحتاج إلى فهم الفكر الديمقراطي ومزايا الديمقراطية ومساوئها، وتربية الذات على الإلتزام بها. الإشكالية الكبيرة هي التقلب في المواقف، والتراجع عن الآراء، وخرق الإتفاقيات.

لقد كان الإتفاق بين قوى المعارضة العراقية في لندن في أواخر عام 2002، وفي مؤتمر صلاح الدين في أوائل عام 2003، على عراق ديمقراطي فدرالي

برلماني تعددي. ولكننا نسمع اليوم تصريحات كثيرة تدعو إلى الحكم الذاتي ، أو أقل من الحكم الذاتي للكرد.

الديمقراطية وسيلة ناجعة لحل المشكلات الأثنية والطائفية بالإعتراف المتبادل وحق الجميع في ممارسة الحرية، والإحتفاظ بحقوقها. ولكن الديمقراطية قد تكون وسيلة للإضطهاد والتنكيل إذا ما أسيئت إستخدامها، وفسرت على أساس سيطرة قومية واحدة لتضطهد قومية أخرى ، كما هو الحال في تركيا اليوم. في حين نجد بأن الديمقراطية أعطت حلا شاملا لتعايش أربع قوميات مختلفة في سويسرا.

الديمقراطية لا تجد حلا سحريا للأزمات إذا إفتقدت الإرادة في الممارسة، وإذا سيطر الحقد القومي الشوفيني على العقول. وحينذاك تصبح الديمقراطية وسيلة للإضطهاد والإستغلال. الجميع يعلم بأن هتلر وصل إلى السلطة في ألمانيا عن طريق الإنتخابات الديمقراطية، وشن حروبا عنصرية قذرة ضد الجيران، مما أدى إلى إندلاع الحرب العالمية الثانية. والجميع يعلم أن شارون وصل إلى السلطة في إسرائيل عن طريق الإنتخابات الديمقراطية أيضا، وهو يفتك بالشعب الفلسطيني. والجميع يفهم بجلاء أن حزب الفضيلة الإسلامي التركي قبض على السلطة بالإنتخابات البرلمانية في تركيا، ووزير الخارجية التركي غول يقول اليوم بكل تخلف بأن تركيا لن تسمح بالفدرالية للكرد في العراق، وهو وحزبه الجديد، تحت مظلة الإسلام الذي يؤمن بالأتاتوركية أكثر من إيمانه بالقرآن الذي إعتبره أتاتورك، الكتاب الأسود، يقتل ويفتك بالشعب الكردي في كردستان الشمالية، كما يفتك بالشعب الأرمني.

الإستفتاء على مستوى العراق أم على مستوى كردستان بين الحرب والسلام

إذا كان للديمقراطية ذلك الوجه القبيح، رغم إيجابياتها، فكيف يمكن أن تكون الديمقراطية في عراق المستقبل حين تجري الإنتخابات الديمقراطية؟ قد يصرح شيخ أو آية الله بأن الفدرالية كفر ، ومَن يصوت للفدرالية فهو كافر. أو قد يدعو زعيم قومي علماني بأن الفدرالية تضر بالعراق، ويجعله معزولا عن الوطن العربي. كيف تكون النتيجة في هذه الحالة إذا أجري إستفتاء في العراق على الدستور الدائم الذي يدعو إلى الديمقراطية والتعددية والفدرالية؟ وكيف يمكن أن تقود الديمقراطية في العراق على مستوى شعب خرج لتوه من براثن العبودية والقهر والظلم البعثي الصدامي، وهو لم يمارس الديمقراطية، ويتأثر بأبسط الدعايات المغرضة؟ ماذا هيأت القيادات العراقية للممارسة الديمقراطية وللإستفتاء لحل المشكلات العرقية وعلى رأسها القضية الكردية وقضايا الأقليات القومية والدينية؟

الإستفتاء على الفدرالية على مستوى العراق يمكن أن يكون كارثة على الشعب الكردي، لأن المخاطر الجسيمة تكمن في فقدان التجربة

الديمقراطية للشعب العراقي، إضافة إلى الخوف من الفدرالية، بسبب ضعف الوعي التاريخي لدى الكثيرين من أبناء الشعب العراقي، حيث ان أجيالا كثيرة ترعرعت بين القنابل والحروب والخوف والقتل والإضطهاد.

أعتقد بأن التصريح الذي أدلى به الأستاذ مسعود البارزاني رئيس الحزب الديمقراطي الكردستاني، من أن الشعب الكردي هو الذي يختار شكل العلاقة مع السلطة المركزية، تصريح في محله. فالأستاذ البارزاني يفهم المخاطر الموجودة، وهو يعلم بأن فشل المطلب الكردي في التعددية الديمقراطية والفدرالية يعني الحرب بين الجانبين الكردي والسلطة المركزية العراقية. وأعتقد بأن جميع الكرد سيتوحدون خلف القيادة الكردية إذا ما فشل مطمح الفدرالية، في حين توجد في الوقت الحاضر خلافات وتناقضات بين شرائح كردية كثيرة وقياداتها. وعلى هذا الأساس فإنني أعتبر بأن الإستفتاء على مستوى كردستان هو الحل الأمثل لإختيار شكل العلاقة مع النظام الديمقراطي الحاكم في العراق. لأن الأتحاد مثلا في العراق عن قناعة سيقوي العراق الموحد، ويرضى الجميع، في حين أن الإتحاد القهري سيؤدي إلىحروب دموية طاحنة بين الكرد والسلطة المركزية، ولن تكون بمقدور القوات العراقية، مواجهة حرب العصابات، بعد كل هذه المآسي التي لحقت بالعراق، خاصة إذا أدركنا بأنه لن يكون للعراق جيش هجومي، بعد أن جرد من السلاح الهجومي. كما أن بدء الحرب بين الكرد والسلطة يشجع الكرد باللجوء إلى الدول الأخرى ومنها إسرائيل. والأهم من كل ذلك وجود لوبي كردي قوي جدا في أوربا وأمريكا ويعتبر ثاني اكبر قوة مهاجرة منظمة بعد اللوبي الصهيوني، كما أنه لا توجد خلافات بين الجماعات الكردية المثقفة في الخارج كالخلافات الموجودة بين القيادات الكردية وقواعدها في الداخل، لأن العوامل التي تبقي الخلافات بين القيادات الكردية غير متوفرة في الخارج.

تشكيل لجان كردية من أجل تنظيم الإستفتاء على مستوى كردستان

الوضع في العراق غير مستقر، والمخاوف تزداد لدى قطاعات كبيرة من الكرد من تأزم الوضع، وإمكانية سيطرة قوى مستبدة، أو جماعات دينية متشددة معادية لحقوق الشعب الكردي، أو تكتل مجموعات قومية شوفينية أو عروبية معادية لكل ما هو غير عربي، جعلت الكرد في المهجر بشكل خاص، وفي كردستان بشكل عام إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى بلجان العمل من أجل إستفتاء في كردستان بإشراف الأمم المتحدة والقوى الدولية المحايدة لغرض إختيار شكل العلاقة بين الكرد العراقيين والحكومة المركزية العراقية. وهناك أيضا جماعات تستعد نفسها للحالات الطارئة لغرض مواجهة الموقف السلبي المحتمل من هضم حقوق الكرد في كردستان العراق.

كردستان العراق بين مفترق طريقين إثنين إما إجراء الإستفتاء على مستوى كردستان لتقرير مصير الكرد في كردستان العراق، أو البدء بتجديد الثورة الكردية فيما إذا رفضت الحكومة المركزية الإعتراف بحق الكرد في الفدرالية كأقل تقدير، كما تم الإتفاق عليه في مؤتمرات المعارضة العراقية كما ذكرنا أعلاه. ويبدو أن الكرد يستوعبون المخاطر المحتملة من فشل العملية الديمقراطية، أو جعل الديمقراطية وسيلة لإضطهاد الشعب الكردي، كما هو الحال في تركيا وإيران. وهنا من الضروري التأكيد على ان الكرد في كردستان العراق، يختلفون في توجهاتهم ومطالبهم ووعيهم عن الكرد في الأجزاء الأخرى من كردستان، بسبب الظروف الخاصة التي مر بها الكرد، والحالة الخاصة للمنطقة الآمنة التي كانت تحت سيطرة الإدارات الكردية، منذ عام 1992، بعد إجراء الإنتخابات الديمقراطية المحلية هناك في أيار من ذلك العام.

الخطوة التي أقدم عليها المهاجرون الكرد، بشكل منظم، وبعد دراسة مستفيضة، وإقامة عشرات الندوات والسيمينارات لتوعية المهاجرين الكرد بتوحيد الصفوف، والإتصال بالحكومات الأوربية، لكسب الرأي العام العالمي، لها مبرراتها، وهي دليل على وعي الكرد بإشكاليات المستقبل في العراق في الممارسة العملية تحت المظلة الديمقراطية.

الخلافات الفكرية والسياسية بين القيادات الكردية والجماهير الكردية

لابد من الإعتراف بوجود خلافات فكرية وسياسية بين مئات الآلاف من الكرد في كردستان بشكل عام، والمهاجرين الكرد في الخارج بشكل خاص حول طريقة أداء القيادات الكردية في التعامل مع الأحداث. فهناك مجموعات كردية، وهي غير منظمة في أحزاب سياسية، تطالب القيادات الكردية بضرورة التأكيد على كردستان ورص الصفوف، وتوحيد الإدارتين في السليمانية وأربيل، وتوحيد قوات البيشمركة كجيش ثوري محتمل لمواجهة الأحداث، وتوعية الشعب، بحق الكرد في تقرير مصيره بنفسه. في حين هناك جماعات أخرى تؤكد على حق الكرد في تشكيل دولة كردية والإستفادة من الظروف الراهنة، والمراهنة أساسا على كردستان وليس على العراق، وذلك بسبب المواقف السلبية لكثير من التنظيمات والأفراد من حق الكرد، وصعوبة مواجهة المد القومي العروبي المتطرف، والمد الإسلامي والإسلاموي المتطرف أيضا، والخوف من تنظيم هذه القوى نفسها لضرب الكرد، إذا لم يكن الكرد منظمين.

الغرض من تنظيم الكرد في الداخل والخارج، هو لمنع وقوع حوادث دامية، حيث لابد أن يشعر الكرد بالأمان، وبقدرته على الرد في وقت الحاجة. ومَن يعلم أين يقود الصراع بين بعض القيادات الكردية وبين بعض القوى الكردية الجماهيرية الغاضبة. ولكن كما ذكرت، بأن أي عمل من قبل السلطة المركزية العراقية ضد

الكـرد يـؤدي إلى رص صـفوف جميـع الفئـات الكردية، والوقوف وراء القيادات الكردية لمواجهة الموقف. أما إذا إتخذت القيـادات الكرديـة مواقـف غير مبدئية ومساومة وإستسلمت للذين يهضمون حقوق الكـرد، فـذلك يعـني نهايـة هـذه القيـادات على المدى البعيد.

التنظيمات السياسية الكردستانية في الخارج

التنظيمـات السياسـية الكردسـتانية في الخـارج لا تملـك زمـام المبـادرة، فعـدد أعضـاء التنظـيمين الكبيرين، الحـزب الـديمقراطي الكردسـتاني والإتحاد الوطني الكردستاني لا يتجاوزون خمسة بالمئـة (5٪) بين المهاجرين الكرد. فإذا أخذنا السويد مثلا، كأكبر مركز تجمع كردي، وفيها ما يقارب مئة ألف كـردي، لهـم إذاعـات وعشـرات الصـحف والمجـلات ومواقـع أنترنت ودور نشر ومطابع، ويصدر فيها أكبر عـدد ممكن مـن الكتـب والدراسـات، نجـد بأنـه لا يتجاوز عدد أعضاء كل تنظيم ألف عضو، بل أقل مـن ذلـك، ومـن هنـا يظهـر لنـا حقيقـة مفادهـا أن القيـادات الكردية يجب أن تستمع لآراء الكـرد في المهجـر، إذا مـا فكرنا بمئات الآلاف بل الملايين من الكـرد المهـاجرين من الأجزاء الأربعة من كردستان.

صحيح أن التنظـيمين الكـبيرين مسـيطران على الوضـع نسـبيا في كردسـتان العـراق، لكـن الخلافـات بينهمـا قائمـة، إلى درجـة يصـعب عليهمـا توحيـد الإدارتـين في السـليمانية وأربيـل، وهـذا مـا يـؤدي إلى إسـتياء الكـرد منهمـا لأن هـذه الخلافـات في حقيقتهـا ليست على أساس المبادئ والأساسيات إنما على أسـاس مـادي وشخصـي، رغـم تبـادل القـبلات بـين هـذه القيـادات. ومـع كـل ذلـك فـإن الكـرد بشـكل عـام يحترمـون قيـاداتهم، لعـدم وجـود البـديل في الوقـت الحاضر، ولأن الظروف تتطلب هذا التأييد والإلتفاف حـول القيـادة. لكـن الإسـتياء ظـاهر، خاصـة حـين تمـارس هـذه القيـادات أسـاليب التحـزب المتعنـت، بإجبـار النـاس بـالإنخراط في صـفوف الحـزبين الكبيرين في داخل كردستان للحصول على الوظائف والمسؤوليات، وهي على أساس الـولاء للحزب، ولـيس على أساس الوطنية والكفاءة في أغلب الأحوال. فنحن هنا نعطي لأنفسنا الحق في النقـد النزيـه مـن أجـل الأفضـل، مـع الإحـترام والتقـدير لهـذه القيـادات، وضـرورة تصـحيح المسـارات السـلبية الـتي تضـعف الصف الكردي.

الطريق إلى السلام في العراق

الطريق إلى السلام في العـراق يمـر عـبر كردسـتان العراق، لأن القضية الكردية كانت دائما عامل ضعف وإمتصـاص للقـوة العسـكرية والإقتصـادية العراقيـة، كمـا أنهـا كانـت عـاملا مسـاعدا ومباشـرا للتـدخلات الدوليـة في العـراق. إضـافة إلى كـون كردسـتان كانـت المنطقـة الآمنـة للقـوى المعارضـة للسـلطة المركزيـة. وقد ساهم عدد كبير من العناصر اليسارية والدينية العربية في نضالات الشعب الكردي من اجل الحريـة. كمـا أن الطريـق إلى السـلام يمـر مـن بوابـة الديمقراطيـة، وممارسـتها، علـى أسـاس الإعـتراف بحقوق الإنسان، وحق الجميع في الحريـة على أسـاس

العدالـة والمساواة بعيـدا عـن الشـوفينية والعنصـرية والمذهبية.

من الصعب إعتبار العـراق أفغانسـتان آخـر، ومـن الصعب أيضا إعتباره كإيران الخميني لسبب بسيط، وهو أن نفسية الإنسان العراقي، تواقـة للحريـة، لكن الإشكالية هي فقدان الممارسة الديمقراطية والتجربة الديمقراطية، ومن هنا تأتي المخاوف. يجب علـى عناصــر قياديــة كــثيرة فهــم الديمقراطيــة مــن خلال قراءة التاريخ العراقي عـن وعـي، فـالوعي بالتاريخ، والوعي بالنكسات التي مر بهـا العـراق، والوعي بحضارة العراق التي حاول صدام حسين أن يفسـدها، والـوعي بالهزيمـة وسياسـات البعـث الهمجيـة، كافيـة لإعطائنـا درسـا مـن أن العنـف والإرهـاب والظلـم والقهـر والحـرب لـن تحـل أيـة مشكلة عراقية. على العراقيين أن يفهموا من أن العراق يتكون من شعبين إثنين، الشعب العربـي، والشـعب الكـردي، إضـافة إلى الأقليـات القوميـة الأخرى مـن تـركمـان وآشـوريين وكلـدان وسـريان وطوائــف دينيــة أخــرى غــير المســلمين الســنة والشـيعة، مـن مسـيحيين وأيزيـديين ومنـدائيين ويهود وغيرهـم. ولكـل هـؤلاء الحق في أن يعـيش بحريـة وأمـان وإسـتقرار علـى قـدم المسـاواة. أمـا الـذين يحـاولون زرع الفـتن والأحقـاد، وينكـرون علـى الشـعوب والأقليـات حقـوقهم فليـذهبوا إلى الجـديم، وليعلمـوا أن العــراق لــن يبقــى آمنــا ومستقرا وموحدا بالقوة والإضطهاد.

القضية الكردية بين الشرق والغرب ودورها في مستقبل الشرق الاوسط

بـادئ ذي بـدء أود التمييـز بـين بضـعة مفـاهيم متداولـة في الفكـر العربـي الإسـلامي حتـى نسـتطيع تحديد المفاهيم، كما قال كونفوشيوس، بـأن تحديـد المعاني يساعدنا على فهم الموضوع الذي نعالجه.

1. التمييـز بـين الإسـلام كعقيـدة ومـنهج وبـين التحزب السياسي الإسلامي الأحادي الجانب والعقليـة الإسلاموية التي تحتكر الحقيقة وترفض الآخر.

2. التمييــز بــين العلمانيــة الشــرق أوســطية الإستبدادية وبـين العلمانيـة الديمقراطيـة والتنـوير الفكري التعددي وذلك بسبب فشل العلمانية الشرق أوسـطية الإسـتبدادية (تمييـزا عــن العلمانيــة الديمقراطية) وفشل العقلية الإسلاموية المتحزبـة في إيجاد حـل لقضـية اثنيـة وطائفيـة واحـدة في العـالم المسلم المعاصر.

3. التمييز بين حق الشعوب في تقريـر مصـيرها وممارسـة هـذا الحق في المحك العملي وبـين بيانـات السلطات المركزية بمـنح شـعب مـن الشعوب أو أقليـة من الأقليات حكما محليا محدودا.

4. التمييــز بــين الأخــوة علــى أسـاس العدالـة والمساواة بنفس الشروط وبين الأخوة تحت واجهات قومية ودينية غارقة في ممارسات القهر والإضطهاد.

القضية الكردية بين الشرق والغرب

أولا: التفكير الغربي والأمريكي للقضية الكردية:

المؤسسات السياسية والإستراتيجية الأوربية والأمريكية تنظر إلى القضية الكردية نظرة تختلف في منطلقاتها وتحليلاتها عن نظرتها للقضايا العربية، وذلك يعود لجملة أسباب إستراتيجية لتلك الدول بالتعامل مع الذاكرة الثقافية الكردية التي تتردد بين الحرية والعبودية. فهناك من ناحية مصلحة أمريكية أوربية إسرائيلية بتشكيل دولة كردية مرتقبة للتوازن العروبي الإسلاموي والإسرائيلي الأمني ، ومن ناحية أخرى إستعداد الكرد للتعامل الإستراتيجي مع الغرب من منطلق ماعاناه الكرد من إضطهاد وإستغلال وقهر وحملات إبادة من قبل الأنظمة العربية والمسلمة التي تحكم كردستان، إضافة إلى اللامبالاة العربية الإسلامية للقضية الكردية ومواقفها السلبية من الكرد وكردستان.

الدراسات التي تبحث في المؤسسات الأستراتيجية عن القضية الكردية تدور حول محور مهم وإستراتيجي وهي الجواب عن سؤال كبير وخطير "ماذا يمكن أن تعطي الدولة الكردية المرتقبة للعالم؟"

إلتقيت كطالب باحث في منتصف الثمانيات بأستاذ جامعي أوربي متخصص في الدراسات الدولية وتحديدا الصراعات القومية الأقليمية الدولية والبحث عن السلام، فطرح عليّ السؤال المذكور "ماذا يمكن أن تعطي الدولة الكردية المرتقبة للعالم؟" وبينما أنا أفكر بالجواب قال: لا تجاوبني لأنني لا أستفيد من جوابك فأنت لست صانع القرار. إسأل بعض القياديين الكرد والعرب والفرس والترك وأتني بالجواب بعد ستة أشهر.

سألت بعض المسؤولين الكبار بما فيهم بعض رؤساء الأحزاب بشكل مباشر وغير مباشر. وأتيت له بالجواب. وأتأسف أن أقول بأن الجواب كان ساذجا إلى أبعد حدود السذاجة، حيث أكد الكل على حماية المصالح الغربية دون فهم هذه المصالح، ودون تعليل الموقف، كما أكد الأغلبية على النفط وما إلى ذلك. ضحك الأستاذ الخبير وقال: القيادات الكردية ليست مؤهلة لمواجهة الحدث، والكرد لا يستحقون دولة كردية لأن أحزابهم تجهل خفايا نظام العلاقات الدولية، ولأن الكرد لايريدون أن يستفيدوا من جهل الأنظمة التي تتحكم بكردستان. وقال أيضا. الكويت وحدها كدولة عربية صديقة للغرب تملك من النفط أكثر من كل كردستان.

كان ذلك في منتصف الثمانينات كما ذكرت، وكانت القيادات الكردية لا زالت تفكر بالمثاليات في السياسة ، والسياسة لا تؤمن بالمثاليات. وكانت القيادات الكردية لا زالت تغني أغاني الاسطوانات الرجعية والتقدمية واليمينية واليسارية والدينية والقومية والطائفية، وكانت في نفس المستنقع السياسي الإنهزامي كما كانت أكثرية القيادات العربية والتركية والفارسية مع الأسف. لم يكن للكرد أن يفكروا حتى ذلك الحين بشئ إسمه المصلحة بعيدا عن المثاليات، ولم يكن ان يفكروا بما يمكن أن يعطيه للغرب مقابل ما يمكن أن يأخذوا منه.

إذن ماذا يمكن للكرد أن يعطوا للعالم؟ والعالم هنا يعني بالمفهوم الغربي، الغرب وأمريكا، والغرب عندهم، هو العالم الحر، والمدنية والديمقراطية. والرأسمالية عندهم هي نهاية التاريخ. وطبيعي هذا غير صحيح، ولكن هذا هو الواقع، بكل مآسيه وآلامه، من فقر مدقع لأكثر من مليار إنسان في العالم الثالث، وإستغلال بشع وإستعمار غربي وأمريكي. ولكن الواقع يفرض نفسه أن نتعامل معه بشكل عقلاني، بعيدا عن المثاليات.

إذن كيف يمكن للكرد أن يتعاملوا مع هذا الواقع من زاوية الإضطهاد الذي يعانونه من قبل إخوانهم العرب والترك والفرس. إنهم بدأوا يستوعبون حقيقة واحدة ولكن إستراتيجية، وهي إستحالة قبول إستمرارية الإضطهاد والقهر العربي التركي الفارسي منذ تأسيس هذه الدول القومية، وأؤكد على كلمة القومية، بعد الحرب العالمية الأولى وإنهيار الامبراطوريتين العثمانية والفارسية.

لقد حذرت في كتابي الأخير الصادر في يونيو من العام الماضي، بعنوان (القضية الكردية بين الحلول الإسلامية والعلمانية والدولية) ، القوى الفاعلة في الشرق الأوسط من أن الكرد العراقيين وبعدهم الكرد الآخرين، سيجدون أنفسهم مجبرين بالتوجه نحو الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية إذا لم تجد الدول العربية وإيران وتركيا والمؤتمر الإسلامي حلا للقضية الكردية، وسيحدث خلل في التوازن لغير صالح العرب والدول التي تتحكم بكردستان وتحكمها بالعلاقات الإستعمارية، وهي العراق وسوريا وتركيا وإيران.

بدأ الشعب الكردي وقياداته تخرج من مستنقع المثاليات السياسية وتدخل عالم السياسة الواقعية، بالتعامل مع الأحداث من منطلق المصلحة المتبادلة، وكما قال كيسنجر: "نساعد الذين يساعدون أنفسهم". ويعني ذلك ما ينبغي أن تقدمه للغرب والولايات المتحدة مقابل ما يمكن أن تأخذه. لم يكن أمام الكرد إلا خيار واحد وهو تغيير طريق تفكيرهم السياسي والبراغماتي من الشرق إلى الغرب. وكانت القيادات الكردية مجبرة أن تتخذ هذا السبيل حين وجدت بأن كل الطرق الشرقية أمامهم مغلقة. وأنا مقتنع بأن النظام العربي المنهار والنظام الشرق أوسطي الجديد بالتفاعل مع العوامل التي سبق وأن اشرت إليها هي التي عبدت الطريق أمام الكرد أن يتجهوا هذا الإتجاه.

ثانيا: التفكير العربي الإسلامي للقضية الكردية

نؤكد هنا على الدور العربي الإسلامي في القضية الكردية لما له من تأثير مباشر على توجه الكرد نحو الغرب وتدويل القضية الكردية. أما الدور السوفيتي للإتحاد السوفيتي المنهار فليست له فاعلية بعد تغيير جغرافية وإستراتيجية روسيا بمجئ غورباشوف ومن بعده يلتسين ثم بوتين. فالسياسة الروسية الحالية ليست لها فاعلية كبيرة في القضية الكردية لأن القضية الكردية لا تهدد مصالحها المباشرة في الشرق الأوسط. ومن ناحية أخرى طالب

السيد الطالباني بضرورة أن تلعب روسيا دورا أكبر في قضية العراق والكرد. على أي حال نحاول تناول الموقف العربي الإسلامي من القضية الكردية لفاعليته في رسم سياسة الشرق الأوسط بالجزء الذي يتعلق بالقضية الكردية مباشرة، بينما نترك الدور السوفيتي لدراستنا المرتقبة في هذا الموقع من الإنترنت.

–إضعاف النظام العربي العام، وتردد سياسة الأمن العربي منذ الستينات، بعد هزيمة حرب الأيام الستة، والنكسة المؤلمة التي ألمت بالعالم العربي، وإحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وصحراء سيناء من قبل إسرائيل.

–سيطرة حزب البعث العربي الإشتراكي على مقاليد الحكم في كل من العراق وسوريا، وهما الحزبان الدكتاتوريان اللذان حاولا إحتكار الحقيقة ضد الأنظمة العربية الأخرى.

–السياسة العدوانية لنظام صدام حسين، خاصة بعد تصفية صدام لخصومه وتسلم رئاسة العراق عام 1979، وممارسة حرب شاملة على الشعب الكردي، والتخطيط لمحو شخصيته القومية، وإستخدام السلاح الكيمياوي بحق الشعب العراقي عربا وكردا وأقليات، وسياسة التصفيات الجسدية والقمع والإرهاب. وحدث كل ذلك أمام أنظار الدول العربية، وغالبا بتأييد من بعض الأنظمة العربية، وتمويلها.

–شن صدام حربا عدوانية على إيران، وتمويل ماكنة الحرب من قبل دول الخليج لصالح العراق، ومن قبل سوريا لصالح إيران.

–شن حرب عدوانية ضد الجارة دولة الكويت، وإحتلالها، وهتك الأعراض وسرقة الأموال، وحرق آبار النفط، والعمل على إذلال الإنسان العربي والمسلم.

-إنهيار إستراتيجية الأمن القومي العربي وفتح الأبواب أمام القوات الأمريكية بدخول الشرق الأوسط من أوسع أبوابها، ودفع فاتورة التواجد الأمريكي من قبل العرب أنفسهم.

-الإهمال الكلي للقضية الكردية من قبل المنظومة العربية وخاصة جامعة الدول العربية، مستثنيا موقف الزعيم الليبي معمر القذاني في تصريحاته بحق الشعب الكردي في تقرير مصيره بنفسه، إدراكا منه بخطورة الوضع العربي القادم نحو التقسيم والتشتت إذا تجاهل العرب حقوق قومية تعدادها أربعين مليونا محرومة من حقوقها في الشرق الأوسط.

-عدم إدراج القضية الكردية في جدول أعمال جامعة الدول العربية حتى بعد إستخدام السلاح الكيمياوي بحق الشعب الكردي، بل على العكس من ذلك، تضامنت جامعة الدول العربية مع نظام صدام حسين، وأعلن المجلس الوزاري للجامعة إستنكاره لما أسماه، الحملة الإعلامية الهادفة إلى تشويه الإنتصارات العراقية ، مؤكدا تضامنه التام مع العراق (أنظر جريدة السفير ، العدد 5075 في 14 أيلول 1988). ومن المؤسف أن موقف منظمة

التحرير الفلسطينية هو الآخر كان سلبيا معتبرا بأن الحملة الأمريكية تهدف إلى إرهاب العراق وابتزازه. (أنظر تصريح منظمة التحرير الفلسطينية بتونس في 20 أيلول 1988 في جريدة العرب). (وانظر التفاصيل بهذا الصدد في كتابنا ، موقف المنظمات الفلسطينية من الكرد، الصادر في السويد، مطبعة جامعة أوبسالا، 1995).

-رفض وزراء خارجية الدول الإسلامية المجتمعين بعمان بُعيد مجزرة حلبجة إتخاذ موقف مندد بالنظام العراقي. (أنظر ظفر الإسلام خان، حلبجه- كيف أباد النظام البعثي مواطنيه الأكراد بالغازات السامة، القاهرة، دار الصحوة 1991 ، ص 113).

–الموقف السلبي للمؤتمر الإسلامي من القضية الكردية، والمواقف العدائية للتنظيمات السياسية الإسلاموية العربية والفارسية والتركية من القضية الكردية، وعدم التفكير بإيجاد حل لها ، جعل الكرد يفكرون ألف مرة لإيجاد وسيلة للخروج من هذا المأزق.

-أمام هذه المشاهد المؤلمة والبعيدة عن فهم العواقب التي قد تترتب على مستقبل الشرق الأوسط، قررت القيادات الكردية، وبتأييد من الجماهير الكردستانية المسحوقة بالتوجه نحو الغرب، وإيجاد علاقات صداقة وتعاون، ليدخلوا المعادلة الدولية لرسم خارطة الشرق الأوسط، بشكل يضمن لهم كما لغيرهم حقوقا ديمقراطية.

التنظيمات السياسية الكردستانية والأمر الواقع

كردستان العراق:

نجحت القيادات الكردستانية العراقية في تكوين علاقات جيدة مع الإتحاد الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية. وتمكن التنظيمان الكردستانيان الكبيران الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة البارزاني، والإتحاد الوطني الكردستاني بزعامة الطالباني أن يجدا موقعهما في الإشتراكية الدولية، حيث يساهمان في إجتماعاتها الدولية، ويصيغان مع التنظيمات الديمقراطية الإجتماعية قرارات لصالح القضية الكردية، منها على سبيل المثال مؤتمر الإشتراكية الدولية الحادي والعشرين في 8-10 نوفمبر عام 1999 والذي حضره ممثلون من الحزبين الكردستانيين الديمقراطي والوطني. حيث أكد المؤتمر، بأن السلام الحقيقي لن يتحقق في الشرق الأوسط بدون إيجاد حل عادل للقضية الكردية. هذا إضافة إلى ضغط الإتحاد الأوربي على النظام التركي بضرورة إيجاد حل للقضية الكردية وإشاعة الديمقراطية وإحترام حقوق الإنسان قبل قبولها عضوا في الإتحاد. ومن الجدير بالذكر أن كلا من بريطانيا وفرنسا ساهمتا في إيجاد المنطقة الآمنة في كردستان العراق، وإقناع الولايات المتحدة بدعم القرار عام 1991. كما ساهمت الدول الأوربية في تنظيم ومراقبة الإنتخابات البرلمانية الكردستانية في كردستان العراق في أيار عام 1992.

وجدت التنظيمات الكردستانية العراقية ضالتها في الغرب ولو نسبيا، وقد يكون الموقف تكتيكيا من جانب الغرب، أو إستراتيجيا، حسب

المعطيات الدولية. ودخلت الولايات المتحدة في المعادلة بقوة أكبر لدعم الشعب الكردي في كردستان العراق من خلال دعم المعارضة العراقية، وقرار مجلس الأمن 688 القاضي بوقف حملات القمع ضد الشعب العراقي، وخاصة الشعب الكردي، ومراقبة الأجواء العراقية بمنع إستطلاع الطائرات العراقية ومنع تدخل القوات العراقية في كردستان. ونجحت الولايات المتحدة بإيجاد قاعدة إستخباراتية في كردستان، والتي تم إجلاء بعض موظفيها أثناء تدخل القوات العراقية في العاصمة الكردية أربيل بطلب من قيادة البارزاني في النصف الثاني من التسعينات لطرد قوات الطالباني. ثم ما لبث أن رجعت الولايات المتحدة إلى المنطقة بزخم أكبر. كما ساهمت الولايات المتحدة في "إتفاقية المصالحة والسلام" في 17 أيلول/ سبتمبر عام 1998 والموقعة من قبل السادة مسعود البارزاني وجلال الطالباني وديفيد ويلش مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت. وتضمن الإتفاق إدانة الإقتتال الداخلي، وإقامة حكومة أقليمية موحدة على أساس نتائج إنتخابات عام 1992 وتوحيد الإدارتين في كردستان. وذهبت الولايات المتحدة أبعد من ذلك من خلال تنظيم إجتماع المعارضة العراقية في نيويورك في 29 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1999. حيث ساهم الموقف الأمريكي في بلورة المشروع الفدرالي الديمقراطي التعددي البرلماني للعراق بموافقة المعارضة العراقية. وتوالت التطورات على الساحة العراقية والشرق اوسطية لصالح الكرد بعد أن إتخذت القيادات الكردستانية العراقية موقفا أكثر وضوحا في تعاملها مع أمريكا، لصالح القضية الكردية والعراقية ككل طبقا لتحليلاتهم. وخاصة بعد نجاح أمريكا تهميش الدور التركي بمنع القوات التركية بالتدخل في كردستان العراق، وحرمان الشركات التركية بالمساهمة في إعادة بناء العراق، والمطالبة مؤخرا بإنسحاب القوات التركية، وقوامها 5000 جندي من كردستان العراق.

كردستان في الشمال والشرق والغرب:

وجاء دور كردستان تركيا التي يسميها الكرد كردستان الشمالية أو كردستان المركزية، إضافة إلى كردستان سوريا (الغرب) وكردستان إيران (الشرق). كل متتبع لتطورات القضية الكردية وأحداث الشرق الأوسط يعلم بوجود إتفاقية الأمن بين تركيا وسوريا والعراق وإيران منذ عام 1978، كان الغرض منها تحييد الدور الكردي، ومنع تسلل ما أطلقوا عليها "العصابات التخريبية عبر الحدود". ويعلم كل باحث شرق أوسطي بأن حزب العمال الكردستاني المعروف ب (PKK) كان ذات صلة بالنظام السوري، حيث نجح أوجلان في تكوين علاقات جيدة مع سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكانت هناك عناصر حزب العمال

الكردستاني من كردستان تركيا تساهم في تدريبات في وادي البقاع اللبنانية. ووقف أوجلان وحزبه موقفا سلبيا من التنظيمات الكردستانية العراقية، ووصفها بالعملاء لأمريكا. ودخل في قتال عنيف مع فصائل القوات الكردية تارة ضد البارزاني وتارة أخرى ضد الطالباني. وصرح أوجلان في مقابلة معه في مجلة الوسط في 12 أبريل عام 1998 بأن "هناك تطلعات وجهودا لتوحيد هاتين القوتين (الحزب الديمقراطي الكردستاني والإتحاد الوطني الكردستاني) ضمن دائرة النفوذ الأميركي الإسرائيلي التركي". وقال بصدد تشكيل كيان كردي في كردستان العراق مايلي: "سيكون ذلك الكيان في أساسه مبنيا على أساس معاداتنا بكل تأكيد، أي أنهم سيجعلون من ذلك الكيان خنجرا يطعننا من الخلف، ولهذا كان تبرير هذا الكيان وعرقلة قيامه واجبا أساسيا على عاتقنا وهدفا أساسيا لنا، وذا أهمية حيوية بالنسبة إلى شعوب المنطقة. ولهذا أيضا دخلنا في مرحلة مقاومة شديدة وعنيفة وكثيفة جدا في الجنوب (كردستان الجنوبية-العراق)". إنتهى تصريح السيد أوجلان.

فشل أوجلان وحزبه في إضعاف دور الحزب الديمقراطي الكردستاني والإتحاد الوطني الكردستاني، بل ساعد بشكل غير مباشر بتحالفهما مع الغرب وتوحيد جهودهما لمواجهة الخطة الأوجلانية السورية الإيرانية، والسماح للقوات التركية بالتدخل المباشر في كردستان العراق لضرب مواقع حزب أوجلان PKK . وتغيرت السيناريوهات، وتخلت سوريا بسهولة عن أوجلان وأجبرته بمغادرة سوريا بعد التهديد التركي، وتم خطفه من قبل عناصر المخابرات التركية بالتعاون مع الموساد الإسرائيلي في أفريقيا، وسيق إلى سجن إنفرادي في جزيرة تركية.

وطبيعي تغيرت الأحداث بعد تحرير العراق من دكتاتورية صدام حسين، ثم تحول التحرير إلى إحتلال للعراق، وتوثيق التعاون الكردي الأمريكي. وهنا ظهر بوادر الخوف التركي والسوري والإيراني. وحاولت الدول الثلاثة إحياء معاهدة الأمن لعام 1978 ولكن فشلت هذه الجهود نتيجة ضغوطات أمريكية على تركيا.

نجحت أمريكا إدخال سوريا وإيران في المعادلة بإتهام الأولى مساندة صدام والإرهاب، وإتهام الثانية دعم تنظيم القاعدة ومحاولة إنتاج أسلحة الدمار الشامل. وهنا دخلت القضية الكردية في دائرة الإستراتيجية الأمريكية ضمن مرحلة جديدة، بإعتبارها ورقة للضغط على كل من سوريا وإيران بتحريك الكرد في البلدين على غرار دور كرد العراق والتهديدات التركية واللعب على المسارين، وتحويلها إلى سبعة مسارات (الكرد، العراق، فلسطين، إسرائيل، تركيا، إيران وسوريا).

*باحث كوردي مقيم في السويد.

*هذا المقال هو الجزء الأول من مقال طويل وبعناوين مختلفة، سننشر الجزء الثاني في العدد القادم.

تعلق الكرد التاريخي بالحرية و حكم بلادهم بأنفسهم

عصمت شريف وانلي

بعد القضاء على الامارات الكردية الواحدة بعد الأخرى بدون ان تتمكن من توحيد طاقاتها للدفاع عن البلاد مع نصيب من النجاح اصبح تاريخ القرن التاسع عشر في كردستان العثمانية خاصة عبارة عن سلسلة من الثورات الشعبية يقودها شيوخ طرق صوفية و رجال دين في سبيل الأستقلال و طرد "الروم" من كردستان. و كان يقصد (بالروم) الدولة العثمانية و أي فاتح اجنبي يأتي من الغرب (أي القسطنطنية بالنسبة للكرد) لاخضاع البلاد الكردية لحكمه, بل ان سلاطين ال عثمان الأوائل كانوا انفسهم يسمون بلادهم التركية باسم (روم) كما فعل السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر في فرمان كان يفتخر به بالحكم على العديد من البلاد ذكر منها (روم) و (روملي أي البلقان) و كردستان و شبه جزيرة القرم و سوريا و فلسطين و مصر و مكة المكرمة و غيرها. و كانت كلمة (روم) تشير سابقا الى دولة (بيزنطة) و هي نفسها تعني (الامبراطورية الرومانية الشرقية). منذ تقسيم امبراطورية روما لقسمين, قسم شرقي و اخر غربي. و كان اول من اطلق اسم (تركيا) على تركيا الاسيوية الرحالة ابن بطوطة من بلاد المغرب العربي و اصل بربري المولود في طنجة عام 1304م. و لاشك ان استمرار الكرد في تسمية الاتراك العثمانيين باسم (الروم) يرمز ايضا في الذاكرة الجماعية الكردية الى ان كافة القواد و الملوك الاجانب الذين اتوا من الغرب بغية فتح البلاد الكردية كانوا من الظالمين و يجب ردهم و لا فرق في هذا بين الأغريق و الرومان القدماء و بين بيزنطة

و ال عثمان. و حملات القادة اليونانيين و الاباطرة الرومان في البلاد الكردية مسجلة في الاثار القديمة, و كان الكرد يقاومونها بدون هوادة.

و في عام 1880 ثار الشيخ عبيدالله شمديناني في مدينة نهري و مقاطعة هكاري (في كردستان العثمانية جنوبي وان, حاليا في كردستان تركيا) على الدولة العثمانية, و كان شيخ الطريقة النقشبندية في المنطقة, فأسس (رابطة استقلال كردستان) و كاتب القنصل البريطاني في اورمية طالبا مساعدة بريطانيا لتحقيق هذا الهدف, واعداً باحترام الأقليات المسيحية في كردستان, و كان له اتباع كثيرون في كردستان الايرانية, فاجتاح حدودها و كاد يحتل تبريز, فتعاونت تركيا و ايران ضد حركته, و كان ينقصها التنظيم, و وقفت كل من انكلترا و روسيا ضده. و كانت روسيا لا ترغب في قيام دولة كردية اسلامية على حدودها الجنوبية بعد الصعوبات التي لاقتها في القضاء على ثورة الشيخ شاميل الاسلامية في القفقاس. فالقي القبض على الشيخ عبيدالله و نفته تركيا الى مكة حيث وافته المنية.

و في صيف عام 1919 ثار الشيخ محمود برزنجي, دليل الطريقة القادرية في منطقة السليمانية, على بريطانيا, و يقول الكولونيل ويلسون الحاكم المدني البريطاني انذاك في العراق. "كان للشيخ محمود اتباع كثيرون بين العشائر الكردية في ايران ممن يؤيدون مشروعه في تأسيس كردستان حرة و موحدة". و حدثت المعركة بين القوات البريطانية و الكردية في مضيق بازيان, شرقي كركوك, فجرح الشيخ في المعركة و اخذ اسيرا لبغداد. و لما زاره الكولونيل ويلسون في المستشفى حيث كانت تعالج جروحه انكر الشيخ حق اية محكمة بريطانية في محاكمته و استمر مطالبا بحرية كردستان ثم فتح حجابا كان ملفوفا على ذراعه و به اوراق من القرآن كان قد كتب عليها بالترجمة الكردية نص البنود الأربعة عشر التي كان قد اعلنها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون حول حق الشعوب في تقرير مصيرها و نص البيان المشترك الذي كان قد اعلنه البريطانيون و الفرنسيون بتأريخ 1918/11/8 حول حق الشعوب التي كانت ترزح تحت النير العثماني في الأنعتاق و التحرر (انظر كتاب: Arnold Wilson Loyalties 1917-1920, Oxford 1936, pp. 137-139).

و من هذه الحركات الوطنية التي قادها شيوخ و رجال دين يمكن اعطاء امثلة اخرى كثيرة, و منها الحركات البارزانية و ثورة الشيخ سعيد بيران في ديار بكر و ثورة سيد رضا في درسيم, بل و لحد ما اعلان جمهورية مهاباد التي ترأسها القاضي محمد. انما هنالك ايضا حركات كردية كانت تقودها منظمات غير دينية بل سياسية كثورة ارارات (اغري داغ) اعوام 1927-1930 التي اعلنتها منظمة (خويبون) الاستقلالية, فضلا عن ثورات العقود الأخيرة التي نظمتها احزاب سياسية.

و كل هذه الحركات كانت تقول و تؤمن بحق الشعب الكردي في تقرير مصيره بنفسه, هدفها ان

يحكم هذا الشعب نفسه بنفسه و يكون سيد نفسه على ارض بلاده كردستان, سواء عن طريق الاستقلال التام, او الحكم الذاتي او اتحاد متكافئ بين الأمة الكردية و الأمم المجاورة.

و كان معظم المراقبين و الرحالة الغربيين الذين جابوا كردستان خلال القرن التاسع عشر و حتى الحرب العالمية الأولى يتوقعون للأمة الكردية مستقبلا باهرا كدولة مستقلة بشرط نبذ الخلافات الداخلية و وحدة العمل الوطني, ثم حدث ما حدث و سبق ذكره من وعود الحلفاء باستقلال كردستان في معاهدة سيفر, ثم خيانتهم لوعودهم في معاهدة لوزان بعد نجاح الحركة الكمالية في تركيا و تقسيم كردستان. و كان رد الفعل الكردي. حمل السلاح و الثورة على الدول التي تقتسم كردستان و الدول الأوروبية التي كانت تساعد هذه الاخيرة بالمال و السلاح لمنافعها الخاصة, و منها النفط بالنسبة لبريطانيا. و كان هدف هذه الانتفاضات في البداية الأستقلال الوطني الكردي كما في ثورة الشيخ سعيد, و ثورة الشيخ محمود برزنجي الأولى و ثورة (خويبون) – و هذه الكلمة تعني "الاستقلال" بالكردية – في منطقة ارارات. ثم حملت الظروف الواقعية بعد بروز الاحزاب السياسية الكردية للمطالبة بالحكم الذاتي لكردستان داخل حدود الدول القائمة كما حدث في جمهورية مهاباد (التي لم تعش سوى سنة واحدة) و الثورات التي قادها مصطفى البارزاني في كردستان العراق على رأس الحزب الديموقراطي الكردستاني. و كما رأينا اصبح هدف الأحزاب الكردستانية في العراق منذ عام 1992 الوصول الى حل فدرالي ضمن عراق ديمقراطي, مع التأكيد على حق تقرير المصير. اما حزب العمال الكردستاني برئاسة عبدالله اوجالان فقد بدأ بالثورة في كردستان تركيا عام 1984 مطالبا في الوقت ذاته بالديمقراطية في تركيا و تحرير كردستان.

و في الواقع لم يكن الشعب الكردي في بداية القرن العشرين في اوضاع اجتماعية و اقتصادية تمكنه من مواجهة تحديات هذا القرن. فقد فقد اخر اماراته الأقطاعية شبه المستقلة في منتصف القرن التاسع عشر, و على كل حال لم تكن الأرستقراطية و طبقة النبلاء التي حكمت تلك الأمارات قادرة بالتعريف على حمل عبئ النضال الوطني لأنقساماتها العديدة بعضها على بعض و ولاء معظم امرائها للسلاطين و شاهات ايران. و كانت الحركات الشعبية التي قادها رجال دين و مشايخ طرق صوفية تفتقر للتنظيم العصري, تهب كالنار في الهشيم ثم تخمد بعد حين. و لم تسمح هذه الظروف و لا الوقت في مطلع القرن العشرين بظهور طبقة بورجوازية و مثقفين كرد بعدد كاف و تجربة تؤهلهم لدفع النضال الى الأمام مع نصيب كاف من النجاح. و خرجت كردستان من الحرب العالمية الأولى قاعا صفصفا خربتها الجيوش التركية و الروسية و البريطانية و شاعت فيها المجاعات و اجبر الكرد مع ذلك لمشاركة العثمانيين في "الجهاد" أي في حرب لا ناقة لهم فيها و لا جمل. و بعد

الحرب انكر الحلفاء الوعود التي كانوا قد قطعوها للكرد و لم يكن لهؤلاء الحظ الذي كان للعرب في قيام الحلفاء بانشاء دول عربية لمصالحهم و لكنها حصلت على استقلالها بعد حين.

و اضافة لكل هذا حدث تغيير جذري في الفلسفة السياسية و ايديولوجية الحكم في الدول الشرقية ما بين قبل الحرب و بعدها. فكانت الدولة تقوم على الولاء لشخص السلطان في تركيا العثمانية و لشخص الشاه في ايران, و على الدين, الأسلام السني في تركيا و الاسلام الشيعي في ايران بدون أي تمييز اخر بين المسلمين على اساس اللغة او القومية, مع الأعتراف ببعض الحقوق الشخصية "لأهل الذمة" أي الطوائف المسيحية و اليهودية من (اهل الكتاب). و بعد الحرب تغيرت المفاهيم و اصبحت كافة الدول قومية تقوم على سيطرة القومية الكبرى او التي سبقت لها ممارسة السلطة على القومية او القوميات الأقل عدداً. حقا ان الحكم الملكي الهاشمي في العراق – مروراً بالأدارة البريطانية – كان يعترف ببعض الحقوق الثقافية "لأخواننا الأكراد" و لكنه لم ينفذ الوعود المعطاة لمثلي الكرد خلال فترة الأنتداب في جعل (كردستان الجنوبية) منطقة حكم ذاتي ضمن الحدود العراقية.

و من العوامل الأساسية التي اثارت اطماع الدول الامبريالية في كردستان و حرمت بالتالي الكرد من تأسيس دولة لهم بعد الحرب العالمية الأولى هي ثروات بلادهم و موقعها الجيوستراتيجي من الدرجة الأولى. و قال الأب توماس بوا, و كان من المستشرقين الفرنسيين الذين كتبوا كثير عن الكرد, "بأن كردستان هي العمود الفقري للشرق الأوسط و مخزن مياهه". فهي غزيرة الماء و النفط, ثروتين قلما تتواجدان سوية في البلاد المجاورة, و غنية بالوديان الخضراء و السهول الداخلية المزروعة بين سلاسل الجبال و بالمراعي الخصبة و المنتجات الحيوانية و الحبوب و التبغ و خشب الجوز و السنديان. و شعبها عامل لا يقتصد في بذل الجهود.

ادى فشل الثورات الكردية في كردستان تركيا في فترة ما بين الحربين العالميتين الى انتكاسة خطيرة في نفسية الشعب الكردي و لقبول اعداد متزايدة من الكرد بسياسة التتريك. و لكن اندلاع ثورة حزب العمال الكردستاني (ب.ك.ك) منذ عام 1984 بزعامة الأخ عبدالله اوجالان كان لها ان تغير هذه الأتجاهات السلبية بفضل تنظيمها المرتكز على وحدة المثقفين و العمال و الفلاحين و الاستعداد للتضحية بالنفس, فأعادت سنوات النضال الى الشعب الكردي شعوره بالعزة القومية و الأمل في المستقبل و التحرر الوطني, و شاركت الجماهير الكردية في النضال حسب طاقاتها و اصيبت بأضرار جسيمة. و لم تكن اهداف الثورة الأنفصال بل مخضرمة أي مزدوجة من جهة (تحرير كردستان) و من جهة اخرى (دمقرطة تركيا). و قد اعلن قائد الثورة مرتين وقف القتال بغية الوصول الى حل سلمي للنزاع عن طريق الحوار مع تركيا التي رفضت العرض لأعتبارها حزب العمال "كمنظمة ارهابية" لا يمكن الدخول معها بأي حوار. و بعد القاء القبض

على عبدالله اوجالان في شباط من عام 1999 نتيجة لمؤامرة دولية ترأستها امريكا, كان دفاعه عن نفسه و حركته امام محكمة امن الدولة التركية مركزا على ندمه لحمل السلاح و الأكتفاء بالمطالبة بتحويل تركيا سلميا الى (جمهورية ديمقراطية) يعيش فيها كافة المواطنين بالمساواة و ينعمون بالحريات الشخصية. في الواقع ان هذه المطاليب تكاد لا تعني شيئا لشعب قاتل خلال 15 عاما تحت راية حزب العمال و لم يخسر مقاتلوه الحرب ضد دولة عاتية يحكمها الجيش عمليا و تعتبر نفسها مع ذلك دولة ديمقراطية و انها قد تغلبت عسكريا على "الأرهاب". و الأرهاب بنظرها هو الحركة الوطنية الكردية مهما كانت اساليب نضالها و لو كان بالقلم فقط.

حق الشعب الكردي في تقرير مصيره

كتبت صحيفة (لوموند Le Monde) الفرنسية في افتتاحية لها بتأريخ 19 نوفمبر 1998 "ان الكرد اخر شعب كبير مايزال يرفض له حق تقرير المصير". و جاء في مجلة التايم (Time) الأمريكية عدد اول اذار 1999 "ان الكرد يشكلون اكبر قومية اثنية في العالم لا دولة لها". و صرح هيلموت شميدث مستشار المانيا الاسبق (رئيس حكومتها) في حديث له مع الصحيفة الألمانية. (برلينر تاغس شبيغل Berliner Tagesspiegel) العدد 31 ديسمبر عام 2000 قائلا "ان الجاليات الكردية و التركية تتقاتل في شوارع مدينتنا هامبورغ, احيانا بالسلاح. كان خطأ فادحا ان الدول العظمى لم تأخذ قرارا في معاهدة فرساي عام 1919 بانشاء دولة كردية مستقلة. فهل يجب ان ندخل هذا النزاع الخطير لحظيرة الأتحاد الأوربي؟".

بالنسبة لحق تقرير المصير يجب التمييز بين مجرد وجوده على الصعيد الطبيعي, و هو نظري, و بين امكانية استعماله و كذلك الرغبة او الأرادة في ممارسته و لأي غرض, و هذه الأسئلة تثير قضايا مختلفة على الصعيد المثالي و الأخلاقي, و على الصعيد الحقوقي, و الصعيد السياسي. و الصعيد المثالي الأخلاقي هو ما تقول به المثل العليا كالعدالة و قانون الطبيعة, و الحقوقي هو ما يقول به القانون او العرف الدولي, و الأجوبة تختلف حسب وجهة النظر المطروحة و لا يمكن الاطالة في مناقشة هذه الأسئلة انما محاولة الأجابة بشكل مقتضب.

يؤمن الشعب الكردي, و كاتب هذه السطور هو احد ابنائه, بانه شعب واحد, و ان وطنه كردستان هو بلد واحد. بالرغم من تجزئته السياسية, و لأن للكرد حق تقرير المصير كأي شعب اخر. هذه هي النظرة المثالية و الطبيعية. فحق الشعب الكردي في تقرير مصيره بنفسه هو حق طبيعي أي قائم بمجرد وجود هذا الشعب, و حق ابدي غير قابل للمساومة و البيع و الشراء. لا يستطيع أي انسان كردي و لا أي حزب كردي و لا أي جيل كردي التخلي عن هذا الحق او الأنقاص من محتواه على حساب الأجيال القادمة. و اذا ما مارسته احدى الأجيال بشكل ما تستطيع الأجيال القادمة اعادة

ممارسته بشكل او اخر. و لا يستطيع أي طرف اخر غير كردي, أكان دولة او مجموعة من الدول, حرمان الشعب الكردي من حقه في تقرير المصير, باسم القانون و الدستور او بالقوة. انه حق باق ما بقي الشعب الكردي على وجه الارض. و يلاحظ ان الصحافة العالمية عندما تطرح القضية الكردية في احدى الدول الحاوية على جزء من كردستان فانها قلما لا تطرحها في الوقت ذاته في الدول الأخرى المجاورة أي بمجموعها. ففي عقيدة الرأي العالمي ايضا ان الشعب الكردي هو شعب واحد.

و القانون الدولي هو ما اتفقت عليه الدول المستقلة فيما بينها: و لا يمثل العدالة و المثل العليا بالضرورة, بل قد يمثل العكس. و الهيئة الشاملة التي تجسم القانون الدولي هي الأمم المتحدة, و هذه منظمة أي جمعية دولية اعضاؤها دول مستقلة و متساوية نظريا في الحقوق و الواجبات, و لها مجلس امن لأخذ القرارات السياسية او العسكرية لفرض احترام القانون الدولي, عند اللزوم بالقوة. و قد تكون الدول العضوة. ديمقراطية او نصف ديمقراطية او دكتاتورية بل همجية النظام, فلا اهمية لذلك و لها كلها نفس الأعتبار مادامت عضوة في (ندوة مانهاتن العليا) كما سبق لي ان سميت الأمم المتحدة, انما قد تتخذ المنظمة قرارا ضد احد اعضائها اذا ما تجاوز القانون الدولي بشكل سافر, كما حدث ضد عراق صدام حسين لدى احتلاله لدولة الكويت. اما حرب عام 2003 على دكتاتورية صدام فكانت حربا اميركية – بريطانية و لم تحدث بقرار من الأمم المتحدة. و يلاحظ انه مازال في العالم دكتاتوريات اخرى كثيرة تظلم شعوبها, و لكنها مازالت عضوة في الأمم المتحدة و تتمتع باعتبارها و بكامل حقوق العضوية.

و يلاحظ ان الشعب الكردي يمثل كتلة بشرية تفوق بعددها و مساحة و ثروات بلادها و طاقاتها الكامنة و خطورة قضاياها ما تمثله معظم الدول الأعضاء في الأمم المتحدة, اكثر من ثمانية اعشارها, و لكنه في نظر القانون الدولي لا شخصية دولية له ذات حقوق و لا يستطيع كشعب تمثيل نفسه امام هيئات الأمم المتحدة او المحاكم الدولية لطلب العدالة. فلا وجود للشعب الكردي في نظر القانون الدولي الا كأفراد مواطنين في الدول التي تقتسم كردستان و خاضعين لقوانين هذه الدول. و لا حق للشعب الكردي تمثيل نفسه حتى امام (لجنة حقوق الأنسان) التابعة للأمم المتحدة – الا في حالة رفع قضيته من قبل دولة اخرى عضوة في المنظمة الدولية, و يمكن انذاك لمثل هذه الدولة رفع القضية حتى امام مجلس الأمن او الجمعية العامة للأمم المتحدة – كما فعل الأتحاد السوفياتي عام 1963 بعد سقوط عبدالكريم قاسم لصالح كرد العراق, و لكن محاولات السوفيات باءت بالفشل لعدم توفر اكثرية من الدول لصالحها. و يمكن ايضا لأفراد كرد من مواطني تركيا تقديم شكاوي ضد تركيا امام (المحكمة الأوروبية لحقوق الأنسان), علما ان تركيا هي عضوة في المجلس الأوروبي (و ليس في الاتحاد الأوروبي حتى الآن) و هذا ما فعله محامو السيد

عبدالله اوجالان و كرد اخرون من تركيا. و لكن البت في قضايا حقوق الأنسان الفردية ليس من شأنها حل القضية الوطنية الكردية و اهميتها رمزية فقط.

و من العجيب ان حق تقرير المصير, و هو في جوهره حق جماعي للشعوب, قد اصبح في عرف القانون الدولي الحالي جزءا من حقوق الأنسان, و هي حقوق فردية بالتعريف. و كان الأمر يختلف في القرن التاسع عشر و حتى نهاية الحرب العالمية الأولى, فقد كان حق تقرير المصير في تلك الحقبة الطويلة يتماشى عمليا و يتطابق مع (مبدأ القوميات) القائل بأن كل قومية لها العدد الكافي و ارض تمثل بها الأكثرية و طاقة اقتصادية مساعدة و الارادة في التحرر الوطني تستطيع ان تصبح دولة مستقلة حسب حق تقرير المصير – عادة بعد اجراء استفتاء في المنطقة. و قام نابليون خلال حروبه في اوربا بتطبيق هذا المبدأ باسم الثورة الفرنسية, كما طبق مبدأ القوميات من قبل الدول الأوربية الكبرى لمساعدة الشعوب البلقانية في التخلص من النير العثماني خلال القرن التاسع عشر, و طبق اخيراً سند بعد نهاية الحرب العالمية الأولى لتصفية الأمبراطورية النمساوية – المجرية و الأمبراطورية العثمانية و مساعدة شعوبها للحصول على الأستقلال. و كما رأينا كان الشعب الكردي الشعب الوحيد الذي وعد بالأستقلال انذاك ثم نقضت الوعود المعطاة له. اما الشعب الأرمني في تركيا العثمانية, و كان مبعثرا في كافة مدنها من كردستان الشمالية الى الأناضول فالقسطنطنية و البلقان, فقد ذهب بأمر من القائمين على شؤون الدولة ضحية القتل الجماعي عام 1915, اثناء الحرب و لجأ من نجا منه الى البلاد المجاورة و ارمينيا الروسية.

و كانت ثمة (مستعمرات رسمية) معترف بها كمستعمرات في القانون الدولي و لها اسمها و حدودها على الخرائط الرسمية, و كانت هنالك "وزارة مستعمرات" رسمية في كل من بريطانيا و فرنسا حتى ما بعد الحرب العالمية الاولى, و كانت عصبة الامم (مجلس الانتدابات) في حينها تسلم ادارة المستعمرات الرسمية كما في افريقيا الى دول صناعية متقدمة, اوربية في اغلب الأحيان, ثم تساعدها للوصول الى الأستقلال, كما حدث في ناميبيا مثلا و في الكونكو. و ثمة بلاد اخرى كانت مستعمرة في الواقع بدون ان يعترف بها كمستعمرة كالجزائر التي كانت فرنسا تعتبرها مقاطعة فرنسية, و بلاد اخرى تحت الحماية الفرنسية او البريطانية و غيرهما. و بعد الحرب العالمية الثانية و حركات تحرر الشعوب تمكنت معظم المستعمرات من تحرير نفسها, اما برضاء الدول الصناعية المستعمرة (كما فعلت بريطانيا في الهند و الباكستان و فرنسا في عدد من البلاد الأفريقية و مدغشقر), او بمساعدة الأمم المتحدة (مجلس الوصاية), او عن طريق الحرب التحررية, و هذا ما حدث في الجزائر و في (الهند – الصينية) الفرنسية كما كانت تسمى مجموعة من ثلاث دول حاليا هي الفيتنام و كامبودج و لاووس. و دامت

الحرب لتحرير فيتنام ثلاثة عقود, ضد فرنسا اولا ثم اميركا.

و مازال في العالم عدد من (المستعمرات غير الرسمية) تحت اسماء مختلفة, لا يعترف بها كمستعمرات, و لاشك ان احداها هي كردستان في تركيا, و لعل وضعها اسوأ بكثير من غيرها, فهي بلد محتل عسكريا, مهدد في تراثه الثقافي و لغته, و لاحق له في المطالبة بهويته و لا حتى استعمال اسمه. و لايختلف رأي السوسيولوجي التركي اسماعيل بيشكجي عن هذا في الموضوع, و نشر به كتبا عديدة بالتركية ادت الى سجنه بنحو عشرين عاما (و من كتبه "كردستان مستعمرة دولية").

لقد توصلت (المستعمرات الرسمية) الى الاستقلال تقريبا بدون قتال و في اغلب الأحيان برضاء الدول المستعمرة و مساعدة الأمم المتحدة. اما (المستعمرات غير الرسمية) فكان عليها في اغلب الأحيان ان تخوض حربا تحررية طويلة الأمد, و لكن ظروفها كانت تختلف. فقد استفاد شعب الفيتنام في حربه التحررية من مساعدات الصين الشيوعية, و استفادت الجزائر من دعم البلاد العربية لها و معظم الرأي العام الفرنسي و العالمي, فقد انقسم الشعب الفرنسي نفسه اثناء حرب استقلال الجزائر الى معسكرين متخاصمين الأول ينادي بالمحافظة على الجزائر كمقاطعة فرنسية و الثاني يعمل لمساعدة الجزائريين و اعتراف فرنسا بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه, و هذا ما حدث عندما تسلم الجنرال ديغول الحكم في فرنسا, و كان يفهم مسيرة التاريخ, فاعترف بحق تقرير المصير للجزائر و ادت ممارسة هذا الحق الى الأستقلال عام 1962.

و لكن حرب الأنصار في سبيل تحرير كردستان تركيا قد حدثت في ظروف مختلفة و عسيرة. فتركيا دولة عسكرية كبيرة و "ديموقراطيتها" المعلنة في الدستور زائفة و خاضعة لأرادة الجيش و هي حليفة اميركا الأولى في المنطقة مع اسرائيل و عضو اساسي في حلف الأطلسي, و تلقت مساعدات عسكرية و مالية هائلة من اميركا و الدول الأوربية الكبرى. و ارضاء لتركيا وضعت اميركا اسم حزب العمال الكردستاني على لائحة المنظمات الأرهابية منذ بدء القتال و تبعتها بعد حين معظم الدول الأوربية الكبيرة. و امتنعت الدول العربية و الأسلامية في هذه الظروف عن تقديم اية مساعدة لهذه الحركة الكردية التحررية, ماعدا سوريا بشكل محدود حتى عام 1998, بسبب قضية شحة المياه التي بقيت لسوريا و العراق نتيجة للسدود التي اقامتها تركيا على نهر الفرات في كردستان. اما دعم الأوساط الديمقراطية التركية للحركة التحررية الكردية فكان محدوداً لحفنة من الأشخاص دفعوا ثمنه غاليا و جمعية حقوق الأنسان و عدد من الشبان الذين شاركوا في حرب الأنصار و تنظيمات حزب العمال عن عقيدة, فالرأي العام التركي يتبع عادة وسائل الأعلام و هذه تقيد نفسها بارادة الجيش الا ما ندر, و نشهد مع ذلك انفتاحا محدودا في الصحافة التركية في السنوات الأخيرة.

و هنالك فرق اخر بين الحركة التحررية التي قادها حزب العمال الكردستاني في تركيا و الحركات التحررية في معظم المستعمرات الأخرى, فقد كانت هذه الأخيرة تقع جغرافيا (فيما وراء البحار) بالنسبة للدول الصناعية الأوربية المستعمرة و تنتمي اضافة لذلك لثقافات و حضارات اسلامية او افريقية او اسيوية تختلف كليا عن التراث الثقافي للدول الأوربية المستعمرة التي كانت تعرف نفسها بانتمائها للحضارة المسيحية و قيامها على التراث الفكري الأغريقي او الروماني القديم, كما ان بعضها كان يفسر احتلاله لبلاد متخلفة صناعيا و اقتصاديا "بجلب المدنية لها" كما كانت تفعل فرنسا و انكلترا و غيرها في البلاد المستعمرة. اما كردستان الشمالية و الغربية فلا ثمة بحر يفصلها جغرافيا عن بقية الدولة التركية, كما ان الشعبين التركي و الكردي ينتميان لنفس المجموعة الأسلامية و ليس هنالك سوى الطبقة التركية الحاكمة التي تدعي بانها (اوربية) و هي بمثابة غطاء شفاف ليس من شأنه طمس التقاليد الأسلامية التي تتقيد بها الأكثرية الساحقة من الأتراك.

و على كل حال لا يفترض في ظاهرة الأستعمار ان يكون المستعمر الظالم ابيض اللون او مسيحيا او اوربيا و المستعمر المظلوم ان يكون اسود او اسمر او اصفر اللون و الا يكون مسيحيا. فالأستعمار قام على احتلال بلاد متأخرة صناعيا و عادة فيما وراء البحار من قبل دول متقدمة صناعيا لحب السيطرة و الحصول على المواد الخام بأبخس الاثمان.

و هنالك امثلة لأنقسام بلد له نفس المستوى الحضاري الى بلدين مستقلين بدون ان يكون ثمة بحر يفصل بينهما, كما حدث بين الهند و باكستان عام 1947 ثم بين الباكستان و بنغلاديش, و بين الجمهورية التشيكية و سلوفاكيا, و بين اريتريا و الحبشة في عام 1993, بعد حرب تحرر وطني خاضها الشعب الأريتري دامت سبعة و عشرين عاما. و كانت اريتريا بمثابة نافذة الأمبراطورية الحبشية على البحر الأحمر.

هل يمكن التوفيق بين عراق فدرالي و حق الكرد في تقرير المصير؟

كان كاتب هذه السطور في الكتاب الذي نشره بالفرنسية عام 1970 عن القضية الكردية في العراق (جاء ذكره اعلاه) قد اقترح, اضافة لحل فدرالي ديمقراطي للقضية الكردية في العراق, حلاً لهذه القضية في كل من ايران و تركيا و سوريا على نفس الأسس الديمقراطية الفدرالية, و في مرحلة تالية في المستقبل, عندما تتوطد مفاهيم الديمقراطية في المنطقة و تتوضح المصالح المشتركة بين اممها المختلفة, حلاً لمجموع القضية الكردية بازالة الحدود التي تفصل – بصورة اصطناعية – بين اجزائها الأربعة و توحيدها ضمن دولة كردية فدرالية ديمقراطية مع المحافظة على العرى الفيدرالية التي تجمع بين الكرد و جيرانهم من العرب و الترك و الفرس الايرانيين و غيرهم, و ذلك ضمن نطاق اتحاد فدرالي او كونفدرالي للبلاد و

الامم الشرقية على شاكلة ما تحاول الأمم الأوربية تحقيقه فيما بينها حالياً ضمن اطار الأتحاد الأوربي. و يترأس حاليا السيد جيسكار دي ستان و هو رئيس سابق للجمهورية الفرنسية, لجنة اوربية عليا لوضع دستور لأتحاد اوربي يجمع ما بين نحو خمس و عشرين دولة اوربية و حسب مشروع هذه اللجنة سوف يكون للأتحاد الأوربي رئيس واحد منتخب من قبل البرلمان الأوربي, و مجلس وزراء و دفاع مشترك (لمن يرغب) و اقتصاد موحد و علاقات خارجية موحدة يديرها "وزير خارجية اوروبا" تحت اشراف الرئيس الاوروبي, و برلمان اوربي قائم حاليا و انما بصلاحيات موسعة. هذا مع المحافظة على الدول الأوربية "الوطنية" القائمة حاليا مع تقليص صلاحياتها لصالح الأتحاد الأوربي, اذ لا يمكن الغاء ما يسمى "بالدول الوطنية" التي عاشت في اوربا خلال قرون بالحروب فيما بينها و نشرت في القارة الدمار و الكراهية بين الأمم بين ليلة و ضحاها.

و اذا ماتم في المستقبل انشاء مثل هذا الاتحاد الفدرالي او الكونفدرالي بين الأمم و الشعوب الشرق – اوسطية او في منطقة الشرق الأدنى سوف تحل القضية الكردية بمجموعها بشكل سلمي و ديمقراطي و تصبح كردستان الموحدة فدراليا ارض سلام و رخاء و همزة وصل بموقعها الجغرافي المتوسط بين الأمم التركية و العربية و الفارسية اضافة للكردية و غيرها لمصلحة المجموع و مصلحة كل منها. و منذ عام 1970 كرر هذا الكاتب نفس الاراء في مناسبات اخرى. و قد تبدو هذه الاراء خيالا. و لكن الأتحاد الأوربي كان خيالا و لاسيما بين فرنسا و المانيا اللتين انهكتا قواها في الحروب فيما بينها في القرن التاسع عشر ثم في الحربين العالميتين, و هما الان ركيزتا الاتحاد الاوربي, و مازال هذا الاتحاد يحاول شق طريق وحدته و توسيعها و توثيقها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الان, و يخطو خطوة الى الأمام ثم يتوقف لتوطيد ما حققه. و هنالك معارضات للأتحاد الأوربي حتى داخل الدول العضوة و دول اوربية لم تدخل في الأتحاد او لم تتوفر فيها شروط العضوية. و رفضت سويسرا الدخول في الأتحاد الأوربي, و هي في حد ذاتها مثال حي للأتحاد, بل اكتفت بعقد اتفاقات معه في المجالات التي تخص الطرفين.

و لكن امكانيات الأتحاد بين الدول الشرقية و الرغبة به مازالت بعيدة, و لو ان التاريخ يسير بسرعة لم تكن معروفة سابقاً. و اذا كانت فكرة انشاء اتحاد فدرالي او كونفدرالي بين الأمم الشرقية فكرة سابقة لأوانها فيجدر عدم نسيانها في مستقبل لا نعرفه تفصيلاً منذ الان. انما يجب البدء بما هو ممكن و قابل للتحقيق حاليا, و ما هو ممكن و قابل التحقيق هو بناء العراق الجديد. انها فرصة يجب على جميع العراقيين الا يدعوها تذهب عبثاً و ان يأخذوها بروح العزم و الأخاء. و قد تتوقف على حسن البناء تطورات بعيدة المدى.

و بالرغم من الثورات التي قام بها الشعب الكردي او الظلم الذي حل به داخل العراق و ايران

و تركيا و سوريا, فان تقسيم كردستان بين هذه الدول و تعايش الكرد الى جانب العرب في العراق و سوريا, و الى جانب الفرس و الاذريين و غيرهم في ايران, و الترك في تركيا, قد ادى خلال ثمانين عاما لظهور مصالح مشتركة و تفهم متبادل – تختلف درجته من دولة لأخرى – بين الشعب الكردي و الشعوب المجاورة. و لاشك ان اوثق هذه العلاقات بين الكرد و جيرانهم هي ما بينهم و بين عرب العراق و ذلك لأسباب تاريخية و لأن الشعبين عرفا سوية مساوئ الدكتاتورية و ناضلا متحدين للخلاص منها. و مما لا شك فيه ان عزم المعارضة العراقية لحل القضية الكردية في العراق على اسس فدرالية و تحقيق ذلك بشكل سليم سيكون من شأنه توثيق العرى الأخوية العربية – الكردية و توطيد الوحدة العراقية. و بالعكس ان استمرار احدى هذه الدول بانكار حقوق الشعب الكردي و ظلم ابنائه سوف يعطيه الحق في الأنفصال, او الأتحاد مع دولة اخرى مجاورة يتمتع فيها الكرد بكامل حقوقهم.

و لكن تطلعات الكرد لدولة توحدهم يجب الا ينظر اليها نظرة سلبية, كعقاب لدولة ظالمة, فهو حق لهم. و كما جاء ذكره ان الحل الفدرالي هو في حد ذاته اتحاد بين دول تترك قسما من الصلاحيات للحكومة الفدرالية المركزية. و اذا كان الأتحاد الفدرالي يصلح لحل القضية الكردية في الدول التي تقتسم كردستان فلماذا لا يصلح لتوحيد اجزاء الشعب الكردي نفسه؟

نعلم ان العرب يؤمنون جميعاً بوجود امة عربية واحدة و يعلمون تعذر توحيدها في دولة واسعة لسعة اقطارها و لأسباب جغرافية و تاريخية و اقتصادية و لوجود عدد كبير من الدول العربية المستقلة لكل منها مصالح خاصة. و لكن توحيد بعض هذه الدول قد يكون ممكنا بشكل او اخر, اذا شاءت الشعوب العربية ذلك. اما كردستان فعلى سعتها فهي وطن واحد متجانس جغرافيا و يشعر سكانه بانهم شعب واحد تبلورت وحدته المعنوية بالالام و الامال المشتركة, و غالبا بتقاسم النضال, رجالا و نساء. و ليس في كردستان ما يقسمها جغرافيا الى مناطق متباعدة كما في العالم العربي.يجب ان لا يخشى الشعب العربي في العراق من الحركات التحررية الكردية الهادفة للوحدة الكردية, فلن يكون ثمن أي وحدة كردية فصم العرى التي تربط ما بين الشعبين العربي و الكردي في العراق. لا يتعارض حق تقرير المصير للشعب الكردي مع وجود دولة عراقية فدرالية تجمع ما بين هذين الشعبين. و يمكن تصور اتحاد بين العراق و سوريا من شأنه حل القضية الكردية في سوريا و توحيد العرب من جهة و الكرد من جهة اخرى بين البلدين. من شأن الفدرالية انها مبادئ ديمقراطية تستطيع التطابق مع الواقع و ليس تغيير الواقع حسب العقائد. انها مبادئ قابلة لتطبيقات براغمانية. لنفرض ان كردستان تركيا قد توصلت لوضع تستطيع به اختيار مستقبلها بعد تأسيس الدولة الفدرالية العراقية حسب المبادئ التي جاء

ذكرها: و عند ذلك ان المبادئ الفدرالية نفسها لا تمنع من ايجاد اتحاد فدرالي بين كردستان تركيا و كردستان العراق مع المحافظة على العرى الفدرالية بين كردستان العراقية و العراق العربي, و يمكن ان نتصور ادخال تركيا التركية في هذا الكيان الفدرالي او ان تتحد معه على اسس كونفدرالية, اذ يمكن للفدرالية و الكونفدرالية ان تتعايشا سوية في مجموع واحد حسب المعطيات الاساسية و رغبة الاطراف المعنية. و هذا وارد ايضا بالنسبة لايران. و الشروط اللازمة لحصول مثل هذه التطورات هي تطبيق الديمقراطية و تفهم روح المبادئ الفدرالية التي بامكانها الوصول لحلول مثلى لأوضاع مختلفة من منطقة لأخرى. و على كل حال سوف يترتب على تحويل العراق لدولة فدرالية مسؤوليات خاصة لجمهورية كردستان العراقية الاتحادية تجاه الشعب الكردي خارج العراق. و يمكننا ان نتصور مراحل تدريجية من التعاون و التضامن بين كرد العراق و كرد ايران و تركيا و سوريا قبل تحقيق ديموقراطية فدرالية في هذه الدول. كما في مجالات اللغة و التعليم و الثقافة و الصحة و المواصلات و التجارة حسب الامكانيات المتوفرة, و ذلك بعلم و مشاركة الدولة الفدرالية العراقية.

(كُرد- كورد) وليس (الاكراد)

يقال للكرد بالعربية (الكرد) و (والاكراد) كما يقال: الترك والاتراك، او العرب والاعراب. والاصح هو (الكرد: بضم الكاف واسكان الراء) وهو الاصل كما يقال في الكردية وفي اللغات الاوروبية. واسم (الاكراد) او (الاتراك) بالعربية هو من جمع التكسير ويقصد به القلة من الناس، والمخصص للأسماء الأعجمية، في حين ان اسم (الاعراب) يدل على اصول البداوة لدى العرب.

مجتمع الأنفال: نساء بلا رجال و اطفال بلا آباء و ذاكرة ملأى بالجثث

خالد سليمان

اركز هنا على مأساة "الأنفال" و اثارها الاجتماعية و النفسية في كردستان, بالإضافة الى التركيز على الأسئلة التي طرحها حجم تلك العملية الاستئصالية ضد المجتمع الكردي في ظل صمت دولي و اقليمي سمح لجماح الرغبة في القتل لدى البعث بالتوسع عبر جميع الوسائل المتاحة. و كانت الوسيلة الفعالة في تنفيذ "الأنفال" على ارض كردستان عام 1988 و بعد اسبوعين فقط من جريمة قصف مدينة "حلبجة" بالأسلحة الكيمياوية, هي خوض معركة وجودية خارجة عن منطق الحروب التقليدية التي تعتمد المال و السياسة و الجغرافيا و الدين, رغم انه استخدم الصبغة الدينية و استعار منها اسم الأنفال لعمليات الإبادة التي اقترفها في كل انحاء كردستان و راح ضحيتها 182000 شخص من النساء و الشيوخ و الأطفال و تدمير 4500 قرية و بلدة.

وضعت الأنفال المجتمع الكردي امام تجربة تاريخية قاسية مع خيالات نظام فاشي تمت مقاربتها مع الواقع وفق مشروعية الجسد الكردي للتنكيل, و كان "المحال" في تلك المقاربة بين خيال البعث و الموت و الواقع هو بقاء شيء من الواقع و لهذا قال "علي كيمياوي" في اجتماعه مع دوائر الأمن و المخابرات العسكرية و الفرق البعثية في مدينة اربيل عام 1987: "لا يبقى منزل في القرى الكردية في سهول اربيل ما عدا القرى العربية. أنا اشرف بنفسي على العملية و اذا بقي منزل واحد فسأعرف ماذا افعل بالقيادة المسؤولة للعملية". و قد تم تنفيذ جميع اوامر "الكيمياوي" بعد ان نصبه صدام حسين القاتل الأول في كردستان بقرار رسمي صادر عن مجلس قيادة الثورة.

على المستوى التقني للعملية استخدم البعث "الرعب القياسي" في تنفيذ خطته العسكرية, و

قصف للوهلة الأولى القرى قصفاً جوياً و برياً ثم بدأ بهجوم شامل شاركت فيه القوات العراقية النظامية و الحرس الجمهوري و الاستخبارات العسكرية و الفرق البعثية بالإضافة الى قوات المرتزقة الكردية "الجحوش" و تم تطبيق قول البعث التاريخي في العملية و هو "التصفية او التجميع".

كانت الخطوة الأولى التصفية و اعتقال المجموعات البشرية نحو الجنوب العراقي "سجون نقرة السلمان الواقعة في الصحراء الغربية حصراً" في جو من السرية و الكتمان بحيث لم يعرف مصير هؤلاء الأطفال و النساء و الشيوخ الا بعد سقوط البعث و مقابره الجماعية. و لابد من الاشارة هنا الى العثور على دمى الأطفال في احدى المقابر الجماعية قرب مدينة كركوك و كانت الجثث للنساء و الأطفال فقط.

اما الخطوة الثانية فكانت "التجميع" في مجمعات سكنية قسرية تم تأسيسها قبل و اثناء الأنفال, و هناك الان اكثر من 20 مجمعاً في كردستان تعيش فيه نساء بلا رجال, رجال بلا نساء و اطفال, و اطفال بلا اباء و امهات, و نساء اصبحن ارامل مع كشف المقابر الجماعية.

لقد عاشت تلك النسوة اكثر من 14 عاماً من الانتظار بأمل عودة اطفالهن و ازواجهن يوماً ما, و تحملن ظروفاً قاسية بين ثقل الايام و اسئلة الصغار الذين ولدوا في المجمعات دون ان يتعرفوا على وجوه الاباء و الركض وراء الحصادات الالية في كل صيف يأتي للحصول على باقة من السنابل و بالتالي على كسرة خبز تبث الحرارة و الدفء في الغرف المجردة من التدفئة و الضوء. و كانت السنابل و التهرب من اسئلة الصغار حول عودة الكبار شكلاً من اشكال مقاومة الحياة التي تجسدت صورها في انتظار مطلق, انتظار لم يشبه الا الوباء و الشيخوخة المبكرة و التلاشي في الحر البعثي, و انهاء الانهيار البعثي ايضاً.

مجمع الأنفال

و في هذه الفترة ذاتها بدأ المجتمع الكردي يعاني من ثقل المأساة التي ترفدت في ذاكرة الناس و الحياة الاجتماعية و السياسية و الثقافية و النفسية. اذ ظهرت مدن افقية - المجمعات القسرية - كأورام خبيثة في جميع مناطق كردستان, و اصبحت بخشونتها و غلاظتها المعمارية جزءاً من تفاصيل الحياة اليومية تضم في احشائها مجتمعا معزولا عن العالم و التاريخ, مجتمعا قطعت اوصاله عبر فكر استئصالي تمخض عن خيال و تراث سياسيين تجسدا في التجربة البعثية بكل اشكالها العلنية و المخفية. علماً بأن هذه المدن كانت نموذجاً لأسلوب العمارة الحديث في استراتيجيات الهندسة العسكرية و الأمنية للتجميع. و اذا نظرنا لبناها الأساسية نرى انها تخضع للمراقبة و السيطرة الكاملتين من حيث موقعها الجغرافي. و بهذا استطاع البعث ابعاد الناس عن اسلوب عمارتهم العفوي و المنسجم مع طبيعة الوديان و الجبال التي تضمن الأمن و سلامة الناس وفق ثقافة الموروث و غرائز الحياة. اما الخطوة الثانية بعد اختيار الموقع فكانت خريطة "المجمع" و كيفية تجسيد فكرة "التجميع" التي تلت التصفية كرؤية كليانية تتطلبها يوميات دولة البعث.

فقد شرع قانون هندسي خاص يضمن الأفكار التي بنيت من اجلها المجمعات, و تجسدت الرؤية وفق هذا القانون في اشكال بناء البيوت و اقامة الشوارع و توزيع المياه و الحصص التموينية الغذائية و مداخل و مخارج المجمع.

ان المشكلة المستعصية التي تواجه الجميع هنا هي حجم المأساة و قدرتها على انتاج ذاتها على المستوى الاجتماعي و النفسي و الثقافي, و حسب الدراسات الميدانية الكردية فإن المجتمع المؤنفل هو مجتمع مجرد من التنمية الاجتماعية و السكنية و التربوية و تصل فيه الحاجات الضرورية للإنسان (الأكل, الشرب, السكن, الجنس, الراحة) الى ادنى مستواها, هذا بالاضافة الى تلك الذاكرة الاليمة التي تحملها ارامل الانفال و ايتامها عن يوميات تنفيذ العملية و تتماتها في معسكرات القتل في توبزاوا و دبس و قورتو و كوبتبة و اخيراً في نقرة سلمان. تسقي هذه الذاكرة حياة المجتمع المؤنفل بمياه نموذج خاص من الابادة الجماعية التي نفذها فكر "خلاق" في استئصال الاخر.

في دراسة ميدانية حول تأثير الانفال على النساء يقول الكاتب الكردي "طه سليمان": اذا كان عام 1988 عاماً لعمليات الانفال على الكرد و هويته القومية من قبل البعث, فإن الاعوام التي تليها هي "انفالات" مستمرة على حياة تلك النسوة اللاتي اصبحن في هوامش العملية و هن يتحملن مشاكل اجتماعية و اقتصادية و نفسية صعبة جداً. يطرح الكاتب جانباً مهماً في الاثار التي تركتها الانفال و هو ان هناك "الانفال الهامش" أي المجتمع الناقص الذي يتكون من بقايا الموت و يعيش في مخيمات الاشباح.

و سبق للكاتب نفسه ان الف كتاباً عن المشكلة نفسها بعنوان "في هامش الانفال" و هو عبارة عن تحقيقات صحافية حول حدث عام 1988 الذي اصبح فيه القتل مركزاً و المذلة هامشاً, و شكلاً من اشكال الترمل الجماعي لشريحة اجتماعية واسعة اطلق البعث سراحها كي توضح الصورة التي رسمها للانفال, و الا فماذا يعني اطلاق سراح امرأة وحيدة و قتل اولادها و زوجها او اطلاق سراح امرأة اخرى ولدت في احد معسكرات التجمع مع وليدها و قتل زوجها. تعطي هذه النماذج التي يذكرها الكاتب في تحقيقاته الميدانية فكرة واضحة عن رغبة البعث في دراسة نتائج العملية و تقييم ابعادها على ضوء الهامش الواسع الذي تركته انفالاته التسعة. و نذكر هنا بعض النسوة اللاتي يتحدثن للكاتب المحقق عن المجتمع الهامش و بطلاته المغرقات بين المجمعات و البحث عن السنابل و بين سرد الماسي و قيامة التجمع في كوبتبه و قورتو و توبزاوا و نقرة سلمان. فـ"شمسه محمد" مثلاً انفلت عائلتها المكونة من 15 فرداً و لم ينج منها الا الصغير و حفيد لها, اما "فتحية سيد رضا" فلم تبق لها الا صور الايام الاولى من الانفال مع عائلتها التي راحت بالكامل. "امنة خورشيد", عادت من نقرة سلمان بعد ان ماتت اثنتان من بناتها هناك من الجوع. و لكنها لم تر زوجها الا في اليوم الاول من تركهم القرية.

الان و في المجمعات او "معسكرات التجميع" هناك مجتمع يعيش على هامش سرد الحكايات عن

تلك اللحظات التي ظهر فيها الموت بأشكال عديدة في كل تلك المجمعات المذكورة لا كشواهد حية على ما جرى, بل كتجليات تاريخية خلاقة في تطبيق تمارين القتل الخيالية و رسم نموذج الدولة و السياسة وفقها. و يمكننا القول انه مجتمع سردي جديد يعتمد الحزن في اظهار عناصره, و يتكلم الصمت و الدموع في حضور البهجة و الفرح, انه مجتمع اقتضته صورة الغابة المقلمة التي كان يبتغيها الفكر البعثي.

في الوقت الذي تخبرنا فيه صور المقابر الجماعية عن موت ذوينا و تسدل ستارة الانتظار الجميل الذي كنا نعيشه, تتجذر ظاهرة "الترمل" التي اعلنها اسقاط البعث لآلاف من الكرديات, و تتأصل مظاهر التراجيديا في دوائر اخرى تختلف عن سابقاتها التي تجسدت في مونولوج طويل في سرد انشطار الذات بين باقات من الانتظار و ايام من جمع السنابل و سنين كبرت معها اسئلة المؤنفلين على ارضهم.

تبقى مشكلة المجموعات التي نجت من الأنفال و خاصة النساء و الأطفال كثرات متجددد لخيالات السياسة القومية البعثية في المنطقة, و لا تتوقف في ادامة الحزن التاريخي و اقامة جسر بينها و بين جيل لم يتعرف على هويتها الا من خلال الأنفال و الطروحات (الافنا عرقية) التي شردت الأسماء عن امكنتها عبر سياسة الترميل و التيتيم و التقبير في احتفالات دفن الأحياء.

بدأت مرحلة ما بعد المأساة مع اكتشاف المقابر الجماعية التي اعلنت بداية تاريخ ترمل جماعي لنساء المجمعات اللواتي عشن المراحل الأخرى من المأساة في الانتظار و البحث عن اشياء كانت تقلل من ثقل المذلة. و كان احد هذه الأشياء الرحلات اليومية الصيفية في الحقول و جمع السنابل المتبقية من الحصادات الالية لمدة ثلاثة الى اربعة اشهر, و تتجمع الفصول الأخرى في حواريات لانهائية في التدمع و الصمت, و كان هناك وقت للتفكير بحياة المؤنفلين رغم اليقين المطلق بأنهم ماتوا.

وقد دخل الجميع الى عالم "الفقدان" و لم يبق شيء للتذكر الا الذين انفلوا و لم يرد احد التصديق انهم قبروا, و اصبح الانتحار و الاختفاء و العزلة و الروتين و انتظار الصيف من اجل جمع السنابل و الاجتماعات الأسبوعية التي كانت تفرضها "المنظمة البعثية" في كل مجمع على بقايا المؤنفلين و التفتيشات المباغته للبيوت بحثاً عن رأس يصلح للقطع و تقديمه لمهندسي الأنفال, اصبحت كل هذه الأشياء سكيجات يومية لحياة اخر ارامل القرن العشرين و اولى يتامى القرن الواحد و العشرين.

"استخدم صدام الأكراد للتمرين" حسب تعبير كريستين غوستن الطبيبة الاختصاصية بعلم الوراثة في تعليقها على استخدام الأسلحة الكيمياوية ضد الكرد. و لنهايات هذا التمرين صورة ام اسمها "سلمى عزيز بابان" فقدت وعيها و تخشب جسمها بعد ان رأت رجلي و يدي ولدها في انياب الكلاب المدربة على اكل جثث الموتى

كردية قلعة كركوك من دلالاتها الاثرية و اشاراتها التاريخية

كمال نوري معروف

كركوك مركز المحافظة تقع في اقليم كردستان و موقعها على خط طول 44 و 38 شمالي خط الاستواء, عدد سكانها زهاء مليون نسمة, مساحتها تبلغ (9500 كم2) و تعلو عن سطح البحر بنحو (1160 قدم), و هي قائمة في وسط هضبة قليلة الارتفاع, تشرق على سهل منحدر الى الجنوب و محيط بها من الشمال و الشمال الشرقي و الشمال الغربي سلسلة من التلال قليلة الارتفاع تسمى (جبل بور). و على سفوحها منابع من بحار النفط و هي تطفو فوقها, و قد ازدهرت المدينة بعد حفر اول بئر للنفط فيها بتأريخ 14 تشرين الاول 1927, و مدينة كركوك تعتبر المدخل الاول الى اقليم كردستان و تتفرع منها الطرق الرئيسة الى المحافظات (اربيل, السليمانية, نينوى), و تحد المدينة من الشمال محافظتا اربيل و السليمانية و من الشرق محافظة السليمانية و قسم من محافظة ديالى و من الجنوب و الغرب سلسلة جبال حمرين و محافظة صلاح الدين, و تقع على نهر خاصة صو. تقسم المدينة الى قسمين (القلعة العالية الحصينة) و (القورية) في الجهة الغربية من المدينة.

قلعة كركوك او (قلاى كركوك) كما يسميها الكورد تقع داخل المدينة, شكلها دائري تقريباً و ابعادها (500 × 400م), ترتفع عن مستوى سطح الارض حوالي 18م, سكنت القلعة منذ منتصف الالف الثالث ق.م الى الوقت الحاضر و تضم ثلاث محلات هي الحمام و اغالق و ميدان, و لها اربعة مداخل رئيسية, باب الطوب (طوب قابي) و البوابة الحجرية و بوابة قزلر و البوابة الحلوجية. و تقوم مدينة كركوك القديمة و هي المعروفة باسم القلعة فوق مستوطن اثري قديم, اشتهرت منذ عصور قديمة بنارها في منطقة (باباكركر) و البابا يطلق

على المريـدين الزرادشـتيين مـن الـذين لعبـوا دورا كبيرا في انتشار الديانة الزرادشتية, و يـذكر ان هـذه النار هي النار الازلية, حيث ان الناس يدورون حولها و يقيمـــون الاحتفـــالات متـــبركين و يطلبـــون (باباكركر).

و لعل اسـم كركـوك مشـتق مـن تسـمية (كركـر) الكوردية و هي اسم بقعة النار الملتهبة خارج القلعة, كما ان البلدانيين و المؤرخين العرب لم يـذكروا اسـم كركـوك و لا (كـرخ سـلوخ), و لكـن يـاقوت الحمـوي ذكر القلعة باسم (كـرخيني) بـين داقـوق و اربيـل و وصفها بأنها علـى تـل عـال, و هـذا مـا ينطبـق علـى موضع كركوك, و جاء اسم (الكرخيتى) و الكرخيني في الحوادث الجامعة (القرن السابع للـهجرة) و ذكرهـا ابـن الاثـير ايضـا في كتابـه (الكامـل) باسـم بلـد الكرخيني, و لعل اقدم ذكر لاسـم كركـوك مـا ذكـره (علـي اليزيـدي) مـن اهـل القـرن التاسـع للـهجرة في كتابـه (ظفـر نامـة) مـن انهـا قـرب (طـاوق), و لعـل اقدم ذكر لمدينة كركوك يرجع الى العهود السومرية الاولى من عصور فجر السلالات (2600 ق.م) و هـي المدينة العريقة في القدم (ارابخـا) الـتي ظهـرت اثنـاء قيـام الدولـة الميتانيـة الخوريـة في منتصـف الالـف الثاني ق.م, و كانت تقـوم علـى مجـرى نهـر (خاصـه صـو) و اكـدت هـذه الحقيقـة قـراءة الـرقم الطينيـة المستخرجة مـن سـطح القلعـة صـدفة عـام 1923 و بلغ عددها (51) رقماً ذكر فيها اسم المدينة بصيغة (ارابخا)حيـث حـرف الى (ارافـا) و شـاع بـين الاهـالي باسم (عرفـة) الـذي اصـبح عـام 1948 حيـاً لعمـال شركة نفط العراق و قد عثر اثناء حفـر اسـس هـذا الحي على مجموعة من الاثـار يـرجع زمنهـا الى عهـد الحضـارة السـومرية قوامهـا (اسـلحة و ادوات مـن النحاس و اواني من الفخار). وهناك رأي اخـر يقـول ان اسـم كركـوك جـاء مـن تسـمية (كـار) الاشـورية حيث يأتي بمعنى القلعة و هذا ينطبق علـى موضـع كركوك.

في حـدود (2210 ق.م) وقعـت مدينـة كركـوك ضمن نفـوذ السلطة الاكديـة (ارابخـا) و مـن بعـدهم (الكوتيين) و هم من الاقوام الاصـلية الجبليـة غـزوا البلاد من جبال (زاكـروس) و بقـوا في الحكـم قرابـة قرن من الزمان و بعد انسحابهم الى الجهات الشمالية اختاروا مدينـة كركـوك (ارابخـا) مركـزاً لهـم.

في اواخر الالف الثالث ق.م استولت علـى السـلطة في البلاد موجة سامية معروفة بـ(الاموريين) الـذين اسسـوا سـلالة بابـل الاولى و كـان حمـورابي صـاحب اقـدم شـريعة مدونـة في العـالم مـن اشـهر ملـوكهم (1750-1792 ق.م) و في عهـده تم توحيـد القطـر بمملكـة واحـدة فأصـبحت مدينـة (ارابخـا) ضـمن السلطة البابلية, و المعروف ايضـاً ان كركـوك تقـع في اقليم قديم نشأت فيه عدة مراكز من عهود حضارة وادي الرافدين القديمة مثل (نـوزي) (يورغـان تبـه) الحاليـة قـرب قريـة (تـركلان) الـتي كانـت مركـزا للخوريين و قد نقبت فيـه في عـام (1925-1926) بعثـة مشـتركة مـن المتحـف العراقـي و المدرسـة الاميريكية للابحاث الشرقية, فوجـدت نحـو (550) لوحـة مـن الطـين, و اسـتؤنف التنقيـب في (1927-

1931) مـن قبـل جامعـة (هارفـارد) الاميركيـة فعثرت على بقايا بيوت سكنى خارج التل و قصر و معابـد في التـل و وجـدت مجموعـات اخـرى مـن الـواح الطـين بعضـها رسـائل و الـبعض الاخـر نصوص اقتصادية و وثـائق قانونيـة و قـد دلتنـا هـذه الكتابـات علـى ان (نـوزي) كـان مسـتوطناً (خوريا – فيتانيا) كبيرا في منتصف الالف الثـاني ق.م, و وجد نوع خاص مـن الفخـار دقيـق الصـنع فسمي باسم فخار (نوزي), حيث يمتاز بالزخـارف الحلزونية بلون ابيض على ارضية ملونـة و وجـد في (نـوزي) مـا يماثـل هـذه الاطـرزة في الزخـارف الملونة على الجدران و كان الموضع مأهولا ايضا في عصـور اقـدم مـن العهـد الخـوري مثـل العهـد السومري, في منتصف الالف الثـالث ق.م كـان اسـم المدينة (Ga-sur) (كاسوور) و الجـديـر بالـذكر ان مـن بـين الالـواح المكتشـفة لوحـاً مـن الطـين فيـه خارطة قديمة لمدينة (نوزي) و هي اقدم خارطـة مــن نوعهــا. و في حــدود 1200 ق.م اصــبحت (ارابخا - كركوك) من المدن الخاضعة للامبراطورية الاشــورية و في عــام (1151-1165 ق.م) تمكـن العيلاميون من مد سيطرتهم على مدينة (ارابخا) في عهـد ملكهـم (انشوشـيناك). و في عهـد الملـك الاشوري شلمنصر الثالث (824-858 ق.م) قامت ثـورة داخليـة في بـلاد اشـور بزعامـة احـد ابنائـه المسمى (اشوردان ابلي) و انحازت الى جانبه سبع و عشرون مدينة من بينها مدينة اشور و نينـوى و اربل و ارابخا (كركوك).

و في عهد حكم الملك الاشوري (سـردانابال) 800 ق.م اسـتولى (اربـاق), احـد ضـباط الميـديين علـى اراضي (ارابخا) بين الزاب الصغير و شهرزور فعاقبـه الملك الاشوري فعزله و عين مكانـه اميرا اخـر اسمـه (كرمـي) و امـر بانشـاء قلعـة حصـينة في (كـورة بـاجرمي) (مدينـة ارابخـا) و جـاء بمجموعـة مـن الاشوريين و اسكنهم فيها و بنى قصـورا و معابـد في قلعة كركوك الحالية.

في ربيــع عــام 615 ق.م وقعــت معركــة بــين البـابليين و الاشـوريين في ولايـة (ارابخـا) (كركـوك) الواقعة شرقي دجلة و قـد اسـتطاع البـابليون دحـر الاشوريين و الاستيلاء علـى امـاكنهم المتواجدة, و في 614 ق.م اسـتطاع جـيش (مـاد) بقيـادة (كياكسـار) عن طريق هضاب (ارابخا) شمـالي نينـوى عبـور نهـر دجلة و الاستيلاء على مدينـة (طـربيس) و التقـدم نحـو اشـور و محاصـرة المدينـة و الاسـتيلاء عليهـا و تخريبها و نهب كل مـا وقـع في ايـديهم مـن الامـوال الثمينة.

وفي عهـد الملـك البـابلي (نبوخـذ نصـر) (605-562 ق.م) اعيد بناء المدينـة المخربـة حيـث دون في مسلة النصر الـتي اقامهـا في مدينـة (ارابخـا): دخلـت كيرخـو (ارابخـا) و قبلـت اقـدام الالـه (ادد) و قامـت بتنظيم البلاد.

كانت مدينة (ارابخا) مركزا لعبادة الاله ادد (الـه الرعد و الامطار) و كان له معبد في قلعتها الحالية.

بعـد الملـك البـابلي (نبوخـذ نصـر) جـاء العهـد البــابلي الاخــير (539-626 ق.م) و حكــم ملــوك

ضعفاء اخرهم الملك (بيل شاصر) ابن (نبونائيد) و لم يستطع هذا صد هجمات الفرس الاخمينيين فسقطت بابل بيد ملكهم (كورش الثاني) عام 539 ق.م و بقيت كركوك تحت سيطرة الاخمينيين الذي دام حكمهم للفترة (539-331 ق.م) حيث اجتاح اسكندر المقدوني بلاد العراق و بعد عبوره نهر دجلة انتصر على الامبراطور دارا الثالث في معركة اربيلا (كوكاميلا) قرب باستورة عام 331 ق.م و من ثم توجه نحو مدينة كركوك فاستولى عليها فاصبحت المدينة ضمن املاك امبراطوريته. بعد وفاة اسكندر المقدوني عام 323 ق.م تقاسم قواده الثلاثة مملكته من بعده و كانت كركوك من نصيب (سلوقس). و من المحتمل تعيين كركوك بالمدينة الوارد اسمها في المصادر الارامية بصورة (كرخا. د. بيت سلوخ), أي مدينة السلوقيين و بصورة (كرخ سلوخ) بالمعنى ذاته, ازدهرت في العهد السلوقي في العراق (312-135 ق.م) حيث بنى فيها سلوقس مؤسس السلالة السلوقية سورا و انشأ فيها العمارات و جعلها مركز اقليم تابع لمملكته.

بعد ضعف السلوقيين في اواخر حكمهم تمكن الغرثيون (139 ق.م – 226 م) بقيادة قائدهم (ايندداتس) من دحر جيش (انتيوخوس) و السيطرة على حكم العراق فأصبحت بيت كرماني أي كركوك من ضمن ممتلكاتهم.

كثرت الفتن و الاضطرابات الداخلية و اندلعت حروب طاحنة بين الفرثيين و الرومان مما اضعف دولتهم فهجم عليهم (اردشير الاول) (226-241 م) مؤسس الدولة الساسانية و اسقط حكم (ارطبان الخامس) (216-224 م) و بذلك انتهت فترة حكم الفرثيين و وقعت (كرخيني - كركوك) في قبضة الساسانيين و ظلت تحت سيطرتهم حتى انهيار دولتهم.

نستنتج من خلال ما مر علينا من الدلالات الاثارية و الاشارات التاريخية الخاصة بقلعة كركوك منذ عصور فجر السلالات و لغاية انتهاء الحكم الساساني في عام 637 م النقاط الاتية:

1-ان الاثار المعثورة في قلعة كركوك قد تعود للسومريين الاوائل و موطنهم الاصلي هو في كردستان, او للخوريين الميتانيين و هم فرع من الاقوام الهندواوروبية.

2-اما في الفترات التاريخية فكركوك كانت اما تحت سيطرة الفروع السامية او خاضعة لسيطرة اقوام (زاكروس) و من ضمنهم (الكوتيون), او اقوام اخرى هندواوروبية و في مقدمتهم الميديون و الهخامنشيون و سيطرة الاسكندر المقدوني و السلوقيين و الفرثيين الذين هم احفاد الميديين و انتهاء بالساسانيين.

3-لم تجر الى الان اعمال التحري و التنقيب في القلعة و هذا ناتج عن سياسات الحكومات المركزية المتعاقبة لعدم رغبتهم في كشف الحقائق التاريخية و الاثارية الخاصة بالقلعة.

4-ان بعض التسميات التركية لبعض المناطق و المحلات في كركوك يرجع ظهورها الى فترة سيطرة العثمانيين على بلاد العراق و التي دامت (400) عام و انتهت عام 1918م.

بعد انهيار الدولة الساسانية في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (ر.ض) في واقعة القادسية عام 636م احتلت كركوك من قبل جيش الاسلام بقيادة (هاشم بن عتبة) الذي عاونه في ذلك (الاشعث الكندي) و بسقوط المدينة سقطت مدينتا (داقوق - داقوقا) و (خانيجار) ايضا نتيجة معارك بين طرفي النزاع و بذلك سقط اقليم (باجرمي – كه رميان) باجمعه و امتدت ايدي الاحتلال الى حدود شهرزور, و في حملة اخرى قادها (جرير بن عبد الله البجلي) قائد جيش المسلمين العرب استطاع دحر بقايا فلول الكرد في خانقين و نتيجة لذلك سيطر على اقليم سواد العراق بصورة نهائية.

ظلت كركوك على حالتها حتى اكتسح المغول بلاد العراق فاصبحت تحت حكم التتار و في عهد الاحتلال التتري فقدت كركوك كثيرا من مركزها و مظاهر الحضارة فيها جراء ما اصابها من خراب و دمار.

و تذكر المصادر المملوكية ان الحاج محمد وزير صاحب (ماردين) الارتقي قدم على البريد في العاشر من محرم سنة (796 هـ) أي 15 تشرين الثاني 1393 م و اخبر السلطان برقوق بان الكرد انضموا الى تيمور و صاروا من اتباعه, و اكد ابن الفرات هذا الخبر و اورده بدقة اكثر مشيرا الى ان الملك (عماد الدين) ملك الكرد دخل في طاعة تيمور. لم يجد تيمور نتيجة لما سبق اية صعوبة في تقدمه, فوصل بلدة (طوق = طاوق = داقوق = طاوغ) في بداية شهر صفر سنة 796 هـ أي كانون الاول 1393 م, و منها اتجه نحو قلعة كركوك فخرج اليه اهلها لاستقباله و عرضوا ولاءهم له. و كانت قلاع كركوك (كرخيني) و داقوق و خورماتو, و ما تتبعها من اعمال و قرى يتولى حكمها الامراء الكرد المحليون و حكام التركمان و الاويرات, فبلاد الكرخيني و داقوق كانت بيد قبيلة كوردية زاد عدد رجالها عن سبعمئة و كان لهم امير (يار علي), جمع تيمور عند وصوله كركوك الامراء و اصحاب القلاع بالمنطقة امثال (جهانكير) و قزل مير علي وثلة من امراء الاويرات, بالاضافة الى (يار علي بن قره محمد) القره قوينلو نائب اخيه قره يوسف على الموصل, و امتثلوا بين يديه و اعلنوا خضوعهم و انقيادهم التام له, و حافظوا بذلك على بقاء اهلهم و قبائلهم مصونة, فأحسن اليهم تيمور و خلع عليهم, و منحهم الاحزمة الذهبية كما اقطع كركوك سيورغالا للامير (يار علي) القره قوينلو لقاء مرافقته للحملة.

ثم توالت فترات اخرى و في كل فترة و امام كل غزوة كان اهل كركوك الكردستانيون يستبسلون في الدفاع عن مدينتهم و بطون التاريخ مليئة بتلك الحوادث, كيف ان هؤلاء الكرد كانوا صامدين امام هؤلاء الغزاة الطامعين. في اوائل القرن السادس عشر الميلادي و بعد سلسلة معارك طاحنة بين الصفويين الايرانيين و الاتراك العثمانيين وقعت مدينة كركوك تحت حكم العثمانيين (1049-1335 هـ) أي (1639-1917 م), بعد احتلالهم للعراق و هزيمة الجيوش الصفوية امام زحف القوات الغازية

التركية, و خلال فترة حكمهم تعرضت كركوك لهجمات عديدة من حكام فارس, كانت اقواها تلك التي وقعت في عام 1156 هـ (1742 م) و المعروفة بحملة (نادرشاه) حيث قاد جيشاً كبيرا من اصفهان باتجاه الاراضي الكردية قوامه مئة الف محارب, و بالقرب من طوز خورماتو القريبة من كركوك توقف (نادر شاه) و ارسل قسما من قواته لغزو مدينة كركوك و لكن تلك القوات واجهت مقاومة باسلة من الكرد فعجزت عن احتلال المدينة فشددت حصاراً على قلعة كركوك و احدثوا ثغرات في سورها بقذائف المدفعية و المنجنيق فلم يبق امام اهلها الا الاستسلام فدمرت المدينة و لم يسلم احد من ضرباتهم و بعد عبورهم نهر خاصه صو حاصروا قرية (قورية) الواقعة في الجانب الغربي فاستسلمت القرية ايضا.

و في ظل الاحتلال العثماني اصبحت مدينة كركوك قصبة تابعة لولاية شهرزور, ثم اصبحت سنجقا تابعاً لولاية الموصل و ظلت كذلك حتى الحرب العالمية الاولى و خروج العثمانيين عام 1918 و قيام الدولة العراقية سنة 1920 فجعلت كركوك مركزاً ادارياً للواء كركوك.

اثناء سيطرة جمعية الاتحاد و الترقي على مقاليد الحكم في بلاد العثمانيين و قيامهم بخلع السلطان عبدالحميد الثاني عام 1908 تم تدبير مؤامرة سرية ضد (الشيخ سعيد) والد الشيخ محمود برزنجي و بمعاونة جماعة من تجار السليمانية لاتهامه بميله نحو السلطان و تعاونه معه, و نتيجة لذلك ارسل والي الموصل طلب حضوره, و لما وصل الشيخ الجليل مع ثلة من اتباعه و معه ابنيه الشيخ محمود و الشيخ احمد دبر له مؤامرة حيث استشهد امام باب السراي و في يده نسخة من المصحف الشريف و قتل معه بعض اعوانه من ضمنهم ابنه احمد.

وصلت انباء استشهاد الشيخ سعيد الى اهالي المنطقة و اظهروا سخطهم و خرج الكثير من سكان اربيل و كركوك لاستقبال الشيخ محمود الذي نجا باعجوبة, في طريقه الى اربيل و كركوك و معه وجهاء المنطقة كانت تبدو عليهم ملامح الغضب و الرغبة في الانتقام, و لما وصلوا الى اربيل لم يمكثوا بها بل اتجهوا الى كركوك و حلوا ضيوفاً على سيد احمد خانقاه و لكن المسلمين و الوفود القادمة طلبوا مقابلة الشيخ محمود للاطمئنان على سلامته, وهم يصيحون: لقد تكررت مأساة كربلاء, لذلك يجب ان ننتقم لشهدائنا, و اتفقوا على ان افضل حل لهذا الوضع هو الاتحاد لاعادة السلام الى المنطقة و طرد الاتراك من كردستان بدلا من قتل اهالي الموصل الابرياء.

في اب 1930 زار وفد برئاسة المندوب السامي البريطاني و معه وكيل رئيس وزراء العراق فخامة (جعفر باشا العسكري) مدن اربيل و كركوك و السليمانية بهدف استطلاع اراء المواطنين بخصوص الانضمام الى دولة العراق الحديثة او طلبهم بالاستقلال في تشكيل حكومة كردية, و قد رفض وجهاء مدينة كركوك من العشائر الانضمام الى حكومة العراق و مساندة الملك فيصل الاول. و حين اشرقت شمس الحرية بزوال السلطة الدكتاتورية

البعثية في 2003/4/9 عادت الهوية الكردستانية الى المدينة المضطهدة بعد غياب دام 35 عاماً من التبعيث و التعريب و الترحيل بحق ابنائها البررة من الكرد.

المصادر:

1-غائب فاضل كريم. كركوك و قلعتها الاثرية. رسالة تحتوي على معلومات مفيدة ارسل الى كاتب المقال في 2000./3/17

2-طه باقر و فؤاد سفر. المرشد الى مواطن الاثار و الحضارة. الرحلة الرابعة. بغداد. كركوك. السليمانية - بغداد 1965. ص 8, 10, 11.

3-طه باقر. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين. جـ1. طـ2. بغداد 1986 ص 376, 507, 529.

4-ئى.م. دياكۆنۆف.. ميديا, بورهان قانع له فارسييه‌وه گۆڕيويه‌تى دەزگـاى رۆشـنبيرى و بلاوكردنه‌وەى كوردى. چاپى يەكەم 1978, لا 478. (باللغه الكرديه)

5-تاريخ سياسى و اجتماعى اشكانيان. تأليف و ترجمه د. محمد جواد مشكور و مسعود رجب بنا. چاپ دوم. (1367) لا 155. (باللغه الفارسيه)

6-شوان عثمان مصطفى. (كوردستان و ثرؤسةى بة ئيسلام كردنى كورد). السليمانية. (2002 م). طـ 1 لا 152-153. (باللغة الكردية)

7-الدكتور زرار صديق توفيق. (كردستان في القرن الثامن الهجري – دراسة في تاريخها السياسي و الاقتصادي). (2001 م). ط 1. ص218-.219

8-صحيفة زيان. العدد 257. (14) اوغسطس 1930 م.

في الاعداد القادمة:

- حول مئوية الشاعر الكردي عبدالله گوران.
- براءة الى اطفال كردستان- رسالة الراحل الاستاذ هادي العلوي.
- كردستان اثناء الحرب العالمية الاولى- سروه اسعد صابر.

تأريخ كركوك الحديث و المعاصر

د. نوري طالباني

كانت مدينة كركوك جزءاً من إمارتي أردلان (617هـ - 1284هـ) وبابان (1106هـ - 1267هـ) خلال فترات متفاوتة، ثم أصبحت مركزا لولاية شهرزور العثمانية حتى عام 1879.[1] وقد أشار إلى ارتباطها بإمارة بابان ومن ثم كونها مركزا لولاية شهرزور شاعر كركوك المعروف الشيخ رضا طالباني (1835-1910) في قصائد وأشعار له باللغات الكردية والفارسية والتركية.[2] فقد قال في قصيدة مطولة له باللغة الكردية: انه يتذكر أيام حكم إمارة بابان التي كانت السليمانية مركزاً لها والتي لم تكن خاضعة لا لحكم العجم ولا لسلطة آل عثمان.[3] و عندما كان الشاعر في العقد الثالث من عمره تقريبا ونوى زيارة الأستانة، زار وهو في طريق سفره إليها قرية (بريفكان) لزيارة مرقد الشيخ نور الدين البريفكاني.[4] ونظم الشاعر أمام مزاره قصيدة باللغة الفارسية مجّد فيها الشيخ البريفكاني أحد كبار شيوخ التصوف في كردستان. يبدأ الشاعر القادم من كركوك قصيدته بالقول: انه جاء من بلاد شهرزور في طريق سفره لبلاد الروم- ويقصد بها تركيا حيث يطلق عليها الكرد هذه التسمية- ليزور مرقد الشيخ نور الدين.[5]

وفي عام 1879م عندما قررت الدولة العثمانية نقل مركز أيالة شهرزور من كركوك إلى الموصل، سجل لنا الشاعر في بيت شعري له باللغة التركية حزنه وأساه، محذرا الأهالي أيضا من هذا التحول، وذكر أيضا اسم الوالي الجديد الذي يبدو انه كان معروفاً لديه, حيث كان في كركوك قبل ذلك التاريخ. يقول الشاعر: أصبحت الموصل مركزاً للولاية، وأصبح (نافع أفندي) والياً عليها، فالويل للرعية وليطمر الأهالي رؤوسهم بالرماد![6]

إضافة لهذه الشهادة الشعرية للمراحل التي مرت بها كركوك ودونها لنا الشاعر قبل قرن

ونيّف، سجلَ لنا رحالة عثماني معروف شهادته عن هذه المدينة في موسوعة له باللغة التركية تعرف باسم (قاموس الأعلام). يقول العلامة شمس الدين سامي بصدد مدينة كركوك في موسوعته تلك: "أنها تقع ضمن ولاية الموصل التابعة لكردستان و على بعد 160كم من الجنوب الشرقي لمدينة الموصل. و هي مركز أيالة سنجق شهرزور، لها من النفوس 30000 نسمة، و فيها قلعة و 36 جامعاً و مسجداً و 7 مدارس و 15 تكية و خانقاه، و 12 خاناً و 1282 دكاناً و 8 حمامات".[7] و عن الحالة القومية في مدينة كركوك كتب: "أن ثلاثة أرباع الأهالي من الكرد، والبقية من الأتراك والعرب وغيرهم. وفي المدينة 760 يهودياً و460 كلدانياً ".

واحتفظت مدينة كركوك بطابعها الكردي رغم محاولات الإدارة العثمانية تقوية نفوذ ومراكز بعض الأسر التركية التي كانت موضع ثقة سلاطين آل عثمان والتي استقر أجدادها في كركوك بعد نجاح حملة السلطان مراد الرابع عام 1048هـ واستعادته العراق من الصفويين.[8]

وقد عهدت الإدارة العثمانية لرؤساء هذه الأسر التركية الأصل منصب (المتسلمية) أي الإدارة، مع منحهم ألقاباً عالية.[9] وقدمت هذه الأسر بدورها دعماً مستمراً للحكم العثماني وثقافته، "وكانوا مصدراً خصباً لتزويده بالموظفين".[10]

وتتطرق دائرة المعارف الإسلامية للوضع الإداري في منطقة كركوك خلال الفترة الأخيرة من الحكم العثماني قائلة: "كانت كركوك مركزاً لايالة شهرزور في القرن الثامن عشر التي كانت تضم الألوية الحديثة التالية: كركوك وأربيل والسليمانية. ثم أطلق اسم شهرزور على سنجق كركوك وألحق به لواء كركوك، في حين ظل شهرزور التاريخي – أي السليمانية - خارج السنجق الجديد. وشكلت ولاية الموصل عام 1879، وبقيت كركوك مدينة عسكرية مهمة".[11] ثم تضيف أن ولاية الموصل كانت مكونة من ثلاثة سناجق أو ألوية هي الموصل وكركوك والسليمانية، وفي عام 1918 فصل ثلاثة أقضية في شمال الزاب الصغير عن كركوك لتشكل منها لواء أربيل.[12] وبقيت هذه السناجق تابعة لولاية الموصل لحين اندلاع الحرب العالمية الأولى، حيث تمكنت القوات البريطانية من احتلالها في نهاية الحرب. فقد احتلت تلك القوات مدينة كركوك في 17 أيار 1918 بقيادة الجنرال مارشال الذي إنسحب منها في 27 من الشهر نفسه، وعاد أخيراً لاحتلالها بصورة نهائية في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه، لدى إبرام معاهدة

صلح مدروس بين بريطانيا والدولة العثمانية.[13] ويلاحظ أنه باستثناء منطقة السليمانية التي تشكلت فيها إدارة كردية برئاسة الشيخ محمود الحفيد يعاونه بعض المستشارين الإنجليز، كانت المناطق الأخرى من ولاية الموصل خاضعة للإدارة المباشرة لجيش الاحتلال الإنجليزي بإشراف عدد من الضباط السياسيين البريطانيين. واكتشف الإنجليز خلال هذه الفترة من احتلالهم للولاية منابع النفط الهائلة في كركوك، فأعادوا النظر في سياستهم السابقة في المنطقة وسعوا إلى البقاء فيها رغم أنها لم تكن ضمن حصتهم بموجب إتفاقية سايكس-بيكو السرية المبرمة عام 1916 بينهم وبين فرنسا. وأدت الجهود التي بذلوها لدى فرنسا إلى إقناعها بالتنازل عن هذه الولاية وإبرام معاهدة سان ريمو في 24 نيسان 1920، التي تنازلت فرنسا بموجبها عن الولاية لقاء إعطائها نسبة محددة في شركة النفط التركية TPC التي كانت قد تأسست سابقا بين تركيا العثمانية وألمانيا بهدف البحث عن النفط واستثماره في حدود ولايتيْ بغداد والموصل.[14] وهكذا كان اكتشاف النفط في كركوك وفي أطرافها سبباً أساسياً لإلحاق ولاية الموصل بالدولة العراقية التي أنشأها الإنجليز عام 1921 من ولايتيْ بغداد والبصرة والذين نصبوا الأمير فيصل بن الشريف حسين ملكاً عليها.[15]

وقد تم إلحاق ولاية الموصل التي تشكل كركوك جزءاً مهماً منها بالعراق بعد صدور قرار مجلس عصبة الأمم في كانون الأول 1925 لتسوية حدود هذه الولاية. وقد اتخذ القرار المذكور بعد تقديم لجنة الحدود الدولية تقريرها إلى مجلس العصبة، عقب زيارتها للولاية في شهر شباط من العام نفسه.[16] وكانت الإدارة البريطانية قد جعلت الأجواء مناسبة لزيارة هذه اللجنة الدولية للولاية والتي قدمت إليها بقصد الاستكشاف والاستطلاع. فقد نظمت في كانون الأول من عام 1924 زيارة للملك فيصل الأول لأرجاء ولاية الموصل باستثناء منطقة السليمانية، لحث الناس فيها على طلب الانضمام للدولة العراقية الحديثة التي تأسست في أواسط 1921. وقد جعلت الإدارة البريطانية من زيارة الملك للولاية مناسبة لرفع العلم العراقي على مباني الدوائر الرسمية فيها، وذلك قبل البت بمصيرها من قبل مجلس عصبة الأمم.[17]

ويؤكد العديد من الباحثين العراقيين، وفي مقدمتهم المرحوم عبد الرحمان البزاز على أن الجهود البريطانية هي التي حسمت الأمر لصالح العراق وجعلت ولاية الموصل جزءاً منه. ويجب القول هنا بأن المصالح الاقتصادية و الإستراتيجية لبريطانيا هي التي دفعتها لإلحاق ولاية الموصل بالعراق. فقد كانت بريطانيا الدولة المنتدبة

على العراق، تخطط لإرسال نفط كركوك إلى الموانئ الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، ومن ثم شحنها من هناك إلى أوروبا والغرب. وكان يتعذر آنئذ إرسال نفط كركوك إلى تلك الموانئ إلا عبر الأراضي العراقية، عن طريق إنشاء خط للأنابيب يمتد من كركوك حتى الموانئ السورية واللبنانية. فلم يكن بإمكانها مثلا إرسال نفط كركوك عبر الأراضي التركية نظرا لتوتر العلاقات آنذاك بين بريطانيا وتركيا التي كانت تطالب بولاية الموصل وتعتبرها جزءاً منها. وقد تم فيما بعد - في أواسط الثمانينيات - ربط كركوك بميناء جيهان التركي بأنبوب خط جديد لنقل النفط، ليتم شحنه من هناك إلى أنحاء العالم.[18]

ورغم أن إلحاق ولاية الموصل بالدولة العراقية المستحدثة قد تم بقرار دولي، إلا أنه كان مشروطاً بوجوب التزام كل من بريطانيا والعراق "الأخذ بالحسبان رغبات الكرد الذين كانوا يطالبون بوجوب تعيين موظفين من أصل كردي لإدارة بلادهم، وبأن تكون اللغة الكردية هي اللغة الرسمية في المرافق الخدمية المختلفة".[19] لكن الحكومات العراقية المتلاحقة تراجعت عن هذه الالتزامات الدولية ومارست في منطقة كركوك بالذات سياسة مغايرة لتلك الالتزامات، إذ حاولت دوما منع الكرد من لعب إي دور لهم في مقدرات كركوك، خاصة بعد إدراكها لأهميتها الاقتصادية والإستراتيجية بالنسبة للدولة العراقية المستحدثة وللمصالح الحيوية الإنجليزية.[20] تبين ذلك مباشرة بعد احتلال كركوك، حيث قررت الإدارة البريطانية المحتلة ومن بعدها الحكومات العراقية المتعاقبة إبقاء اللغة التركية لغة للتعليم والإدارة في كركوك وحتى نهاية العشرينيات، مع إعطاء دور للتركمان لا يتناسب مع حجمهم ونسبتهم السكانية داخل المدينة وفي اللواء، وهي نفس السياسة التي كان العثمانيون يتبعونها فيما مضى. وتم التنسيق بين الحكومات العراقية المختلفة وإدارة شركة نفط العراق التي كان الإنجليز يديرونها وتتخذ من كركوك مركزاً لها، بهدف استقدام أبناء المحافظات العراقية الأخرى لاستخدامهم في منشآت الشركة داخل كركوك وفي أطرافها. ولهذا السبب بالذات "تهافت على لواء كركوك آلاف من العمال و المحترفين و الفنيين، تتبعهم آلاف أخرى من أصحاب المهن المختلفة وصغار التجار والباعة وطالبي الرزق".[21] وترتب على استخدام هذا العدد الهائل من العمال و الفنيين و غيرهم في منشآت الشركة والقادمين من الألوية الأخرى، ظهور أحياء شبه مستقلة خاصة بالعرب والآشوريين والأرمن داخل الأحياء القديمة في كركوك

القريبة من تلك المنشآت.[22] و يقدر بعض الباحثين نسبة الزيادة في عدد سكان كركوك للفترة من 1919 إلى 1968 إلى خمسة أضعاف ماكان عليه، وعدد المهاجرين إليها للفترة مابين 1947-1957 وحدها بـ(39000) مهاجر.[23] و تجب الإشارة هنا إلى أن نسبة العمال والمستخدمين الكرد في منشآت الشركة كانت تأتي بعد الآخرين و لا تتناسب مطلقاً مع عدد نفوسهم في المدينة وفي اللواء (المحافظة).[24] تبين ذلك بوضوح بعد إنشاء شركة النفط في بداية الخمسينيات لمئات الدور السكنية لمستخدميها في منطقة أطلق عليها أسم (عرفة/Arrapha) أو كركوك الجديدة.

لقد كان معظم شاغلي تلك الدور من الآشوريين والأرمن والعرب والتركمان، ما جعل الكرد يشعرون بالغبن الذي لحق بهم منذ البداية. وهكذا أدى استثمار حقول النفط في كركوك وفي أطرافها إلى استيطان أعداد كبيرة من أبناء المحافظات الأخرى داخل مدينة كركوك. واستمرت الحكومات العراقية في العهد الملكي في إتباع السياسة نفسها، أي تشجيع غير الكرد على الاستيطان في كركوك و منع استخدام اللغة الكردية في التعليم الابتدائي في الأحياء الكردية[25]. كما منعت الكرد أيضا من الاحتفال بعيد نوروز في كركوك، بينما كانت تسمح بإحيائه أحيانا في بعض مدن أخرى من كردستان. و مع ذلك يجب القول ان هذه الحكومات لم تكن تمارس سياسة طرد الكرد من كركوك، و لا توضع العراقيل أمام هجرة الفلاحين إليها من القرى الكردية التابعة للواء خلال سنوات القحط والجفاف. غير ان وزارة ياسين الهاشمي خططت منذ أواسط الثلاثينيات لتوطين عشائر عربية رحالة في سهل الحويجة في جنوب غربي اللواء، وذلك بإنشاء مشروع للري لجلب الماء من نهر الزاب الصغير إلي السهل المذكور.[26]

واستبشر الكرد في كردستان وفي كركوك بالذات بوقوع ثورة تموز 1958 وساندوها بقوة، بأمل أن تضع حدا لسياسة التمييز التي كانت تمارس ضدهم، وطالبوا قيادتها بالسماح باستخدام اللغة الكردية في مرحلة التعليم الابتدائي في المناطق الكردية من كركوك.[27] لكن تعيين عدد من المسؤولين العسكريين والمدنيين المعروفين بضيق أفق تفكيرهم السياسي في مناصب حساسة في كركوك حال دون وقوع أي تغيير في أوضاع الكرد فيها، كما استمرت الأجهزة الأمنية في ملاحقة العناصر السياسية التي كانت ملاحقة خلال العهد الملكي. وبحجة العمل على حفظ التوازن بين الكرد والتركمان في كركوك، اتخذ المسؤولون الجدد،

خاصة قائد الفرقة الثانية في كركوك وهو الجنرال ناظم الطبقجلي، عدداً من الإجراءات التي كان يستشف منها الانحياز للتركمان.[28] كذلك بعث الطبقجلي بالعديد من الكتب الرسمية السرية إلى وزارة الدفاع في بغداد التي كانت تتولى عمليا حكم العراق، متهماً فيها الكرد بإثارة المشاكل والزعم بأنهم يعملون في كركوك على (إنشاء جمهورية كردستان) و (بعث إقليم كردستان).[29] وقد اعتبر الطبقجلي مطالبة المثقفين الكرد إنشاء مديرية للإشراف على الدراسة الكردية في كركوك "دليلاً على نواياهم وسعيهم لإنشاء هذه الجمهورية المزعومة".[30] و كانت هذه المديرية موجودة في كركوك عام 1931 تحت اسم (مفتشية معارف منطقة كردستان). وقد أيدت نقابة المعلمين المركزية و أوساط سياسية عراقية أخرى هذه المطالب الكردية. ولا نجافي الحقيقية إذا ماقلنا ان ما قام به الطبقجلي عندما كان قائداً للفرقة الثانية في كركوك وحاكماً فعلياً لكل المنطقة الشمالية لم يصب في خانة حفظ التوازن بين القوميات المتآخية في كركوك و في المنطقة، بل ساهم في إثارة التفرقة بينها. إن تعيينه بهذا المنصب الحساس كان خطأ من جانب قيادة ثورة تموز التي يبدو أنها سارت على نهج الحكومات العراقية السابقة التي كانت تعين كبار المسؤولين في المنطقة الكردية من العرب وحدهم، بينما كانت تسمي بعض الكرد مسؤولين في وسط أو في جنوب العراق. و لهذا السبب عين الجنرال فؤاد عارف (الكردي) متصرفا للواء كربلاء بدلاً من تسميته قائداً للفرقة الثانية أو متصرفاً للواء كركوك أو لأحد الألوية الكردية الأخرى.[31] لقد كان الجنرال فؤاد عارف يتمتع بثقة زعيم الثورة الجنرال عبد الكريم قاسم وكان قريباً منه، بل حال دون اغتياله في مكتبه في وزارة الدفاع من قبل العقيد عبد السلام عارف في تشرين الأول من عام 1958.[32] والراجح لدينا أن وجود الجنرال فؤاد عارف في كركوك كان سيحول دون توتر الأوضاع فيها الذي مهّد – فيما بعد- لوقوع الأحداث الدموية المؤسفة التي وقعت في كركوك في تموز 1959. في الواقع أن الأوضاع في كركوك قد توترت بعد وصول الطبقجلي إليها بسبب انحيازه المكشوف لإحدى القوميات فيها، ولإثارته النعرات والتفرقة بين القوميات المتآخية فيها. تبين ذلك بوضوح بعد الكشف عن مضامين الكتب السرية التي أرسلها إلى وزارة الدفاع بعد فترة قصيرة من وصوله كركوك.[33] واستمرت هذه الأوضاع غير الطبيعية في كركوك حتى بعد إحالة الطبقجلي على التقاعد في شهر آذار 1959 وتعيين قائد جديد للفرقة الثانية هو الجنرال داود الجنابي

الذي كان معروفاً بميوله اليسارية. لقد عين الجنابي عقب المحاولة الانقلابية الفاشلة للعقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل والذي كان متعاونا مع الطبقجلي والأوساط القومية والبعثية. وخلال وجود الجنابي في كركوك أصبح الوضع طبيعيا بالنسبة للكرد، فاحتفلوا فيها بصورة علنية بعيد نوروز وبمشاركة المسؤولين فيها أيضا. ومع ذلك فان الأوضاع العامة في المدينة بقيت متوترة وغير طبيعية، وجاءت الأحداث السياسية اللاحقة لتؤكد ذلك، خاصة بعد إحالة الجنرال الجنابي على التقاعد في أواسط حزيران من عام 1959. وقد لعبت الأجهزة الأمنية في كركوك والدوائر المسؤولة في وزارة الدفاع دورا مؤثرا ومكشوفا في إثارة التفرقة بين الكرد والتركمان من جديد، ما مهد لإعادة الأوضاع في كركوك إلى ما كانت عليها في عهد الجنرال الطبقجلي. وهكذا أصبحت الأجواء مهيأة لوقوع الأحداث المؤسفة التي وقعت في تموز من عام 1959، تلك الأحداث التي أحدثت شرخاً في العلاقة مابين الكرد والتركمان.[34]

ومما زاد في تعقيد تلك الحالة غير الطبيعية وتوتر الأوضاع في المدينة، قيام منظمات سرية تركمانية باغتيال وجوه كردية في كركوك، بالتعاون مع الأجهزة الأمنية فيها.[35] وقد أجبرت هذه الاغتيالات عشرات بل مئات العوائل الكردية في الأحياء المختلطة من المدينة إلى ترك مساكنها أو الانتقال إلى المدن الأخرى، هذا فضلاً عن أن عدداً من الموظفين الكرد نقلوا إدارياً إلى خارج كركوك. وعقب حوادث تموز 1959، نقلت وزارة الدفاع بدورها عدة وحدات عسكرية من الفرقة الثانية إلى وسط وجنوب العراق، وكان معظم منتسبيها من ضباط وضباط صف من الكرد. كذلك ساد في كركوك بعد تلك الأحداث إرهاب شديد ضد الكرد، و اعتقل مئات الأشخاص الذين أحيل معظمهم الى المحاكم العرفية العسكرية في بغداد. وتعتبر هذه الفترة بداية لسياسة إجبار الكرد على ترك كركوك بوسائل شاركت في تنفيذها الدوائر الأمنية والتنظيمات الإرهابية التركمانية السرية التي أمعنت في تنفيذ عمليات الاغتيال وحرق المحال التجارية للكرد، مع عدم اتخاذ أية إجراءات قانونية جادة بحقهم.[36]

وتعرض الكرد بعد نجاح انقلاب 8 شباط 1963 إلى اعتداءات كثيرة، كما اعتقل عدد كبير منهم من قبل (الحرس القومي) الذي انخرط في صفوفه أعداد من الشباب التركماني. وقامت الأجهزة الأمنية بالتعاون مع الحرس القومي بهدم عدة أحياء شعبية كردية في كركوك وإجبار ساكنيها على الرحيل من المدينة. واشتدت عمليات الانتقام ضد الكرد بعد مباشرة

الجـيش العراقـي هجومــه علـى البيشـمركة (المقـاتلين الكـرد) في حزيـران 1963. وقامـت السـلطة أيضـاً بتـدمير جميـع القـرى الكرديـة المجـاورة لمدينـة كركـوك أو للمنشـآت النفطيـة والـتي بلـغ عـددها (13) قريـة، كمـا طـردت الفلاحين الكرد من (33) قرية أخرى في ناحية (دوبـز) القريبـة أيضـاً مـن كركـوك.[37] واتخـذ النظـام منـذ ذلـك الحـين إجـراءات عديـدة استهدفت جميعاً طرد الكرد من المدينة، منها:

1-نقـل أعـداد كـبيرة مـن المـوظفين في دوائـر الدولة الرسمية وشبه الرسمية، الذي شمـل أيضا المعلمين والمدرسين الذين نقلوا إلى وسط وجنوب العــراق، مــع اســتقدام المـوظفين العــرب مــن المحافظات الأخرى لإحلالهم محل الكرد.

2-نقل أعداد كبيرة من العمال الكـرد العـاملين في منشآت النفط أو تسريحهم مـن العمـل، مـع إحلالهـم بـالعرب الوافـدين وتعيينـهم في أمـاكنهم رغـم عـدم كفاءتهم لان معظمهم كانوا من أبناء العشائر.

3-إنشـاء الربايـا العسـكرية فـوق المرتفعـات والـتلال المحيطـة بكركـوك وبالمنشـآت النفطيـة واعتبارها (مناطق أمنية) لا يجوز الاقتراب منها، مع زرع الألغام حولها.

4-تسليح العشـائر العربيـة الـتي تم توطينهـا في القرى التي طرد منها الكرد، وتشكيل وحـدات نظامية منهم ومن العشـائر العربيـة القاطنـة في قضاء الحويجة، وذلك لمساندة الجيش في هجماتـه على القرى الكردية في اللواء.

5-تغيير أسماء المدارس والشوارع وحتـى أسماء المحلات التجارية داخـل كركـوك، بأسماء عربيـة لاتمت بصلة الى تاريخ المنطقة.

و اسـتمر نظـام الأخـوين عبـد السـلام وعبـد الرحمـان عـارف في اتبـاع السياسـة ذاتهـا ولكـن بدرجـة أخـف، وذلك بعـد الإطاحـة بـالبعثيين والانقـلاب علـيهم في تشـرين الأول مــن عــام 1963.

لكـن سياسـة تغـيير الواقـع القـومي لمدينـة كركوك اتخذت لها بعـداً آخـر بعـد عـودة حـزب البعــث الى السـلطة في انقــلاب آخـــر في تمــوز 1968. فقـد خطـط النظـام الجديـد لسياسـة أخـرى اصـبح هـدفها الأسـاس إجـراء تغـييرات عميقـة في الحالـة القوميـة في كركـوك مـع الأمـر بتنفيـذها والالتـزام بهـا بدقـة مـن قبـل جميـع أجهزة النظام كمنهج ثابت للدولة.

ولكي يـبرر النظـام سياسـته هـذه، ضـاعف مــن هـواجس الخـوف والقلـق لـدى المـواطن العربي لإشعاره بأنه في مواجهة خطـر هيمنـة الكـرد علـى نفـط كركـوك، منبـع الثـروة في العـراق[38]. ونشـير بصـدد ممارسـات النظـام بهدف تعريب كركوك، خاصة منذ أواسط عام 1975 إلى:

1-نقل البقية المتبقية من الموظفين الصغار والعمال الكرد العاملين في مختلف قطاعات ومنشآت الدولة إلى خارج كركوك، وجلب العرب لإحلالهم محلهم. والكردي الذي يترك كركوك، موظفاً كان أم عاملاً لا يسمح له بالعودة الى مدينته حتى بعد إحالته على التقاعد أو تركه الوظيفة لأي سبب كان.[39]

2-تبديل أسماء الأحياء الكردية وإطلاق أسماء عربية عليها بعيدة عن تراث المنطقة، وكذا الأمر بالنسبة للمدارس والمحلات التجارية التي لاتحمل أسماء عربية.

3-فتح شوارع عريضة في الأحياء الكردية واستملاك الدور فيها بتعويضات زهيدة، مع عدم السماح لأصحابها بشراء قطع من الأراضي أو دور أخرى داخل كركوك، لإجبارهم على تركها.

4-منع الكرد من حق بيع دورهم وعقاراتهم لغير العرب، كذلك منعهم من شراء أي عقار أو دار بأي وجه من الوجوه.

5-امتناع دائرة البلدية من إعطاء الكرد (إجازة البناء) أو (إجازة ترميم البناء) حتى ولو كان دورهم أو عقاراتهم بحاجة ماسة للترميم.

6-نقل مركز المحافظة من بنايتها القديمة الى المنطقة المعربة من المدينة (طريق كركوك-بغداد)، ونقل معظم الدوائر الرسمية الأخرى ومقرات المنظمات المهنية والنقابات الى المنطقة ذاتها.

7-إنشاء العديد من المعامل والمنشآت الحكومية في المنطقة الجديدة من كركوك التي تم توطين الألوف من العوائل العربية فيها، خاصة بالقرب من طريق كركوك-الحويجة، مع بناء البيوت السكنية للعمال الذين استقدموا من وسط وجنوب العراق للعمل فيها.

8-توطين عشرات الألوف من العرب الذين تم جلبهم من وسط وجنوب العراق داخل مدينة كركوك. وقد جلبوا في مجموعات متلاحقة وتم توفير السكن والعمل لهم. والعملية لاتزال مستمرة لحد الآن أيضاً.

9-تشجيع الكرد على مغادرة كركوك و اعلان النظام بقرارات عديدة استعداده لاعطاء منحة مالية للأسرة الكردية التي تتركها، مع تأمين السكن لها في (منطقة الحكم الذاتي) أو في وسط وجنوب العراق، باستثناء تكريت وبغداد وديالى. ثم أصدر قراراً يحمل الرقم 1391 في 20 تشرين الأول 1981، تشكل بموجبه لجنة للإشراف على نقل (العاطلين عن العمل في منطقة الحكم الذاتي) بالإضافة إلى سكان كركوك إلى وسط وجنوب العراق.

10-بناء العديد من الأحياء الجديدة داخل مدينة كركوك لتوطين (العرب الوافدين) فيها.[40] وتشبه هذه الأحياء المستوطنات الإسرائيلية التي تم بناؤها في الأراضي

الفلسطينية المحتلة. ويتمتع المستوطنون العرب في كركوك بنفس الامتيازات التي يتمتع بها المستوطنون الإسرائيليون في الأراضي الفلسطينية المحتلة، كحقهم في حمل السلاح والحصول على السكن وتأمين العمل لهم، وهو ما جعلهم ينظرون للسكان الأصليين نظرة استعلائية كونهم أدوات الاستيطان في المنطقة. ويتمتع المستوطنون الجدد أيضا بالحماية الأمنية الخاصة التي توفرها لهم النظام الذي سلح معظمهم بالأسلحة الخفيفة. وقد تم تعيين معظم هؤلاء (الوافدين) – وهو التسمية الرسمية لهم - في دوائر الأمن والشرطة والمخابرات، أو في منشآت النفط والمؤسسات والمعامل والمصانع الحكومية. كما أن كثيراً من منتسبي القوات المسلحة من ضباط وضباط صف وجنود تم توطينهم في الدور الخاصة التي بنيت لهم داخل كركوك وفي أطرافها، بالقرب من الوحدات العسكرية للفيلق الخامس ومعسكر خالد المستحدث من قبل النظام. ووزع النظام أيضا في بداية عام 2001 قطع أراض سكنية أخرى على مجموعات جديدة من منتسبي القوات المسلحة، مع منحهم تسهيلات من المصرف العقاري لأجل الإسراع بتشييد الدور عليها.

ونكتفي هنا بالإشارة الى أسماء الأحياء الجديدة التي بناها النظام داخل مدينة كركوك خلال السنوات الأخيرة. علماً بأن عملية إقامة أحياء جديدة مازالت مستمرة نظراً لاستمرار النظام في جلب المزيد من العوائل العربية لتوطينها في كركوك وفي أطرافها. والأحياء أو (المستوطنات) العربية المستحدثة في كركوك منذ بداية السبعينيات هي: حي الكرامة قرب الطريق العام بين كركوك والسليمانية،[41] وحي (المثنى) على الطريق بين كركوك وياورلي قرب مخازن عتاد الفرقة الثانية شمالي مدينة كركوك، وحي (شهداء قادسية صدام) بالقرب من حي (الكرامة)، وحي (الأندلس) على الطريق بين كركوك وأربيل في شمالي المدينة، وحي (البعث)، وحي (الواسطي)، وحي (السكك)، وحي (غر ناطة)، وحي (الحجاج)، وحي (العروبة)، وحي (الشرطة)، وحي (قتيبة)، وحي (الأمن)، وحي (الوحدة)، وحي (الحرية). كذلك أضاف النظام حوالي ألف وحدة سكنية جديدة لحي (عرفة) للعمال العرب الوافدين الذين تم استخدامهم في شركة النفط، وبنى أيضاً عدة مئات من الدور السكنية للعمال الوافدين العاملين في معمل استخلاص الكبريت وفي مصفى النفط على الطريق بين كركوك - دوبز (التي عرِبَت تسميته الى الدبس). وقد حول النظام أطراف مدينة كركوك الى قواعد عسكرية ضخمة بنى فيها مئات الدور للضباط

ومئات أخرى لضباط الصف، خاصة قرب معسكر خالد ومقرات الفرق العسكرية والفيلق الخامس.[42] و تجب الإشارة أيضاً الى العمل التخريبي الذي قام به النظام العراقي في قلعة كركوك التاريخية، حيث حولها الى قلعة حربية بعد تدمير جميع الدور والمباني الأثرية فيها، بما فيها من جوامع مع كنيستها القديمة. وإذا كان النظام العراقي قد باشر سياسته العنصرية هذه ضد الكرد منذ 1963 وشدد في تنفيذها منذ بداية السبعينيات، فقد بدأ بتنفيذها ضد التركمان أيضاً منذ بداية الثمانينيات. أما الآشوريون والأرمن، فقد اعتبرهم عرباً بجرة قلم! ولكي يسبغ (الشرعية) على عمليات توطين عشرات الألوف من العوائل العربية في كركوك، قام بتزوير سجلات الأحوال المدنية فيها والمستندة الى الإحصاء الرسمي للسكان لعام 1957، وذلك بإضافة أسمائهم إليها حتى يعتبروا كما لو كانوا مسجلين فيها قبل التأريخ المذكور. ولتحقيق هذا الهدف بالذات، استبدل جميع الموظفين غير العرب من منتسبي دائرة الأحوال المدنية في كركوك، بآخرين بعثيين جلبوا من مناطق أخرى من العراق. وبذلك يمكن القول ان الدولة أخذت تمارس بنفسها عملية تزوير رسمية، من أجل أهداف سياسية غير مشروعة. وفي السياق نفسه, بدل النظام الاسم التاريخي لكركوك وأطلق على المحافظة اسم (التأميم) بعد تأميم شركات النفط العاملة في العراق في حزيران 1972. كذلك قلص من مساحة المحافظة عن طريق ضم أربعة اقضية منها للمحافظات المجاورة، بهدف جعل الكرد أقلية سكانية في محافظة كركوك. فقد ألحق عام 1976 قضاء طوزخورماتو بمحافظة صلاح الدين (تكريت) المستحدثة والبعيدة عن طوزخورماتو، بينما لم يلحق بها قضاء الحويجة المجاور لها رغم أن معظم سكانه من العرب. كذلك ألحق قضائي جمجمال وكلار بمحافظة السليمانية، وقضاء كفري بمحافظة ديالى. وأخيرا، جعل من قضاء دوبز ناحية ملحقة بقضاء كركوك، بينما حول ناحية داقوق إلى قضاء، واستحداث ناحية جديدة فيه باسم (الرشاد). وأجرى النظام تعديلات أخرى في الحدود الإدارية لجميع الأقضية والنواحي التابعة لمحافظة (التأميم) بهدف تحقيق هدفه المشار إليه أعلاه، أي جعل الكرد أقلية سكانية في كل الوحدات الإدارية التابعة للمحافظة باسمها الجديد.

ومع تنشيط عمليات الاستيطان في كركوك وأطرافها وإحداث تغييرات ديموغرافية عميقة فيها لإسباغ الطابع العربي عليها، دمر النظام البنية التحتية للمناطق الريفية التي لم يستطع

توطين العرب فيها لأسباب أمنية خاصة بها.[43] فقد قام بتدمير جميع القرى الكردية في المناطق الشرقية والشمالية من المحافظة، وأجبر سكانها على النزوح منها والاستيطان في مجمعات سكنية بنيت خصيصا لهم تدار من قبل الأجهزة الأمنية. وعندما نفذ النظام عمليات الأنفال السيئة الصيت خلال عامي 1987 و1988 والتي تجاوز عدد ضحاياها 180 ألف مدني كردي، كانت حصة منطقة كركوك منها اكثر من النصف، إذ لم يكن بوسع القرويين في هذه المناطق البعيدة نسبياً عن الحدود الدولية الوصول إليها، فاضطروا إلى تسليم أنفسهم للسلطات العسكرية والأمنية التي أرسلتهم إلى جنوب العراق قرب الحدود السعودية، ليدفنوا أحياء في صحاريها القاحلة.[44]

واستمر النظام العراقي في تنفيذ سياسته الرامية لتعريب كركوك وأطرافها وسط صمت وعدم اكتراث على النطاقين الإقليمي والدولي، رغم أن ممارساته العنصرية هذه كانت أشد قسوة ووحشيةً من ممارسات الأنظمة العنصرية المدانة دولياً. وهكذا فقدت كركوك منذ بداية الثمانينيات وجهها الطبيعي بسبب نزوح موجات (العرب الوافدين) إليها وهيمنتهم على جميع مراكز القوى وعلى الإدارة والأجهزة الأمنية والمخابراتية فيها، فضلاً عن سيطرتهم على المرافق الاقتصادية والمؤسسات والتنظيمات المهنية المختلفة واستحواذهم على معظم الأراضي الزراعية في المحافظة. واصبح بوسع المرء أن يلاحظ بسهولة وجود حشود من البشر لا صلة لهم بالمدينة وبالمنطقة قد أصبحوا الآمرين والناهين فيها، بينما تحول أبناء المدينة إلى غرباء وعرضة للاضطهاد والاحتقار من قبل الوافدين من المستوطنين الجدد.[45]

وشدد النظام من إجراءاته القمعية ضد أبناء كركوك بعد اندحاره في حرب الخليج الثانية واندلاع شرارة الانتفاضة في الجنوب والفرات الأوسط. فقد أمر علي حسن المجيد وزير الدفاع و المشرف على القاطع الشمالي آنذاك، اتخاذ إجراءات قسرية ضد أبناء المدينة خوفاً من وقوع أي تحرك فيها، فأمر في البداية بإلقاء القبض على اكثر من ثلاثين ألف كردي من أبناء كركوك، كان من بينهم العديد من العسكريين المجازين. وقد مات بعضهم بسبب حشرهم في أماكن ضيقة وغير صحية، مع عدم تقديم الماء والمأكل لهم لأيام، علما بأن معظمهم كانوا صائمين بمناسبة شهر رمضان المبارك. وخلال الفترة نفسها، أمر المجيد أيضا بهدم حي كردي في (شوريجة) وحي آخر يسكنه الكرد والتركمان في (ألماس)، قرب منطقة (كاورباغي). وازدادت هواجس الخوف لدى رموز النظام بعد تحرير

معظم أجزاء كردستان خلال الأسبوعين الأولين من شهر آذار 1991، فاتخذوا استعدادات عسكرية واسعة خوفاً لتعرض المدينة لهجوم المقاتلين الكرد الذين تقدموا نحو كركوك وأحاطوا بها من أطرافها الشمالية والشرقية. وبعد قتال عنيف داخل شوارع المدينة دام بضعة أيام واستخدم فيه الراجمات والصواريخ والمدافع والمروحيات العسكرية في ضرب الأحياء الكردية، أضطر النظام إلى التقهقر والانسحاب منها. وتم تحرير المدينة مساء يوم نوروز ولكن بثمن باهض دفع من دماء العشرات من البيشمركة وآخرين من أبناء المدينة، بينهم بعض النساء اللواتي كن يساعدن المقاتلين أثناء دك المعاقل الأمنية والمخابراتية ومقرات حزب البعث فيها.[46]

ونظراً لأهمية كركوك بالنسبة للنظام وكونها تشكل عازلاً أمنياً لمناطق تكريت وبغداد، فقد ضاعف من استعداداته العسكرية وتنسيقه الأمني مع مجموعات (مجاهدي خلق) الإيرانية التي تحولت الى قوة من المرتزقة تدافع عن النظام بشراسة، فاستطاعت عدة مفارز منها دخول مدينة كركوك بعد تخفي أفرادها بالأزياء الخاصة بالمقاتلين الكرد. وتعرضت المدينة خلال ثلاثة أيام متوالية اعتبارا من 27 آذار 1991 إلى قصف مركز بجميع أنواع الأسلحة الثقيلة، مما أجبر سكانها على الخروج منها تاركين وراءهم جميع أموالهم وممتلكاتهم التي تعرضت للنهب والسرقة من قبل منتسبي وحدات القوات الخاصة و(العرب الوافدين) الذين هرب معظمهم بعد وصول البيشمركة للمدينة، ثم عادوا إليها بصحبة الجيش والقوات الخاصة.

وتعذر على الكثيرين من الكرد والتركمان الذين اضطروا الى ترك كركوك، العودة الى دورهم فيها خوفاً من القصف ومن بطش القوات الخاصة فيها. وهكذا كان فشل انتفاضة آذار 1991 سبباً آخر يضاف للأسباب الأخرى التي أجبرت أبناء كركوك على الرحيل منها، خاصة الشباب الذين شاركوا في الانتفاضة بشكل أو بآخر.

وتعرض أبناء كركوك بعد عودة الأجهزة الأمنية والتنظيمات الحزبية إليها في بداية نيسان 1991 الى حملة شرسة شملت هدم عدد من الدور في الأحياء الكردية، بالإضافة الى إلقاء القبض على الكثير من الشباب بتهم المشاركة في الانتفاضة، وهو ما دفع الآخرين إلى الهروب والتوجه نحو المناطق الأخرى من كردستان. ولم يحترم النظام تعهداته التي التزم بها لممثلي الجبهة الكردستانية خلال التفاوض معه في أواسط 1991 والمتمثلة بالسماح لأهالي كركوك بالعودة إلى ديارهم. وكان ذلك بداية لحملة

جديدة أخرى من الطرد والترحيل أخذت تشتد مع الأيام. ويتبين من الإحصاءات التي نشرتها المنظمات الكردية والعالمية المهتمة بحقوق الإنسان، والمراكز التي تشكلت داخل وخارج كردستان للدفاع عن حقوق المهجرين والمرحلين من أبناء كركوك، أن وتيرة الطرد بدأت بالزيادة بعد إخفاق المفاوضات مع النظام وسحبه لأجهزته الإدارية من محافظات أربيل و السليمانية ودهوك في أيلول 1991. واشتدت حملات الطرد خلال السنوات 1994 و1995 و1996، خاصة منذ بداية 1997 أثناء تهيئة النظام الأجواء لإجراء إحصاء رسمي في ذلك العام.[47] ولجأ النظام إلى أسلوب آخر غير مألوف حتى في الدول المؤسسة على أسس عنصرية، كجمهورية جنوب أفريقيا سابقاً وإسرائيل. فقد طالب الكرد بتغيير قوميتهم وتسجيل أنفسهم عربا، وأعد استمارات خاصة بذلك ورد فيها حقل يدون فيه رب العائلة أن تسجيلهم ككرد تم (خطأ) في الإحصاءات السابقة![48] وهدد النظام بطرد جميع من لا يملأ تلك الاستمارات من كركوك. وباشر باتخاذ هذه الإجراءات قبل تنظيم إحصاء عام 1997 الذي جاء اكثر تزويراً من الإحصاء العام لسنة 1977.[49] وقد استمر النظام في ممارساته العنصرية هذه حتى بعد إتمام عملية الإحصاء. فقد جاء في خطاب لأحد أقطاب النظام المشرف على تعريب كركوك، وهو عزت إبراهيم الدوري، أنه ليس بوسع غير العرب البقاء في كركوك ! [49] وذهب النظام إلى ابعد من ذلك، حيث منع في السنوات الأخيرة نقل جثث موتى (الوافدين العرب) الشيعة إلى مدينة النجف الأشرف وإجبار ذويهم علي دفنهم في كركوك، وذلك كي تكون للعرب مقبرة خاصة بهم في المدينة على غرار المقابر الخاصة بالكرد و التركمان. فمن المعلوم لدى الجميع انه لا توجد في هذه المدينة غير مقابر خاصة بالكرد، وأخرى بالتركمان.

إن الإحصاءات الأخيرة تشير إلى أن عدد المرحلين من كركوك وأطرافها إلى المنطقة المحررة من كردستان قد تجاوزت 108000 إنسان، معظمهم من مدينة كركوك. ويعيش هؤلاء التعساء في ظروف سيئة للغاية وفي مخيمات ومجمعات لا تتوفر فيها أبسط مقومات الحياة، ويعتمد معظمهم في عيشهم على المساعدات التي تقدمها لهم المنظمات الإنسانية. وأمام حالة اليأس والبؤس التي يعيشون فيها والتي استمرت سنوات عديدة، حاول ويحاول العديد من أبناء هؤلاء المرحلين التوجه نحو الغرب بطرق غير شرعية. وفقد الكثيرون منهم حياتهم أو ما في حوزتهم من مال قبل وصولهم إلي إحدى الدول الأوروبية.

ومـن المؤسـف أن المجتمـع الـدولي لا يـزال يتجاهل الأوضاع المأساوية لهؤلاء المرحلين من ديار آبائهم وأجدادهم، ولا يمارس الضغط على النظام العراقي لوقف حملات الطرد والسياسة العنصرية المناوئة لقرار مجلس الأمن الدولي الـرقم 688 لسـنة 1991ولجميـع المواثيـق الدولية التي التزم بها العراق كونه عضواً في الأمم المتحدة وفي هيئاتها العديدة.(50)

والمؤسف أيضا أن معظم أطراف وفعاليات المعارضة العراقية لا تزال تتجاهل هي أيضا ممارسات النظام ولا تدينها بصورة صريحة، وهو ما يضع مسألة الثقة بين العرب والكرد في امتحان عسير وما يترتب على ذلك من آثار قد تهدد الكيان العراقي بالانهيار.

إن من واجب جميع المخلصين لوحدة الكيان العراقي ولاستمرار العلاقات التاريخية بين العرب والكرد والتركمان والكلدو-آشوريين إدانة سياسة النظام العراقي الرامية إلي تغيير الواقع القومي في كركوك وفي المناطق الأخرى من كردستان الخاضعة لسيطرته. ويجب قبل أن تتفاقم سياسة النظام وتصل إلى حد طرد جميع السكان الأصليين من كرد وتركمان وكلدو-آشوريين من هذه المناطق، وما يترتب على ذلك من آثار خطيرة في المدى البعيد، وضع هذه المناطق تحت حماية المجتمع الدولي تطبيقاً للقرار الدولي الرقم 688 لسنة 1991 الذي يلزم الحكومة العراقية باحترام حقوق الإنسان في العراق بوجه عام، وفي المنطقة الكردية بوجه خاص.

إن استمرار النظام العراقي في تنفيذ سياسته الرامية الى إخلاء كركوك من سكانها الأصليين وعدم اكتراثها بالاحتجاجات شبه المستمرة والتقارير الدورية للمنظمات العالمية المهتمة بحقوق الإنسان وبتقارير المنسق الدولي لحقوق الإنسان في العراق، يؤكد أن لاشيء يوقف النظام عن تنفيذ سياسته العنصرية هذه إلا بإجباره على إيقاف الترحيل. كما يجب إلزامه بإعادة المرحلين الى ديارهم تحت إشراف دولي، وإعادة المستوطنين العرب الى المناطق التي جلبوا منها. ولا يتم ذلك إلا بوضع هذه المناطق تحت حماية دولية لحين سقوط النظام وإقامة نظام ديموقراطي سليم في العراق، وهو ما طالبت به عشرات المنظمات المدنية والأحزاب السياسية الكردستانية والهيئات والمنظمات والشخصيات العالمية المعروفة العاملة في مجال حقوق الإنسان التي قدمت مذكرة في 29 كانون الأول 2000، موجهة إلى رئيس وأعضاء مجلس الأمن و الى جميع الهيئات الدولية الأخرى في المنظمة العالمية.

لندن 2002/5/30

الهوامش

(1)تأسست إمارة أردلان في القسم الشرقي من كردستان عام 617هـ، وكانت على جانب كبير من القوة والشأن، واتسعت حدودها لتشمل خلال فترات معلومة منطقة كركوك، وانتهت الإمارة عام 1284هـ. أما إمارة بابان الثانية، فقد تأسست عام 1106 هـ وكانت بلدة (قلاجوالان) عاصمة لها، ثم بنى إبراهيم باشا بابان عام 1199هـ /1784م مدينة السليمانية وإتخذها عاصمة له، وانتهت أيام الامارة عام 1367هـ/ 1851 لتصبح خاضعة للإدارة العثمانية المباشرة. محمد أمين زكي، تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الإسلامي، ترجمة محمد علي عوني، الطبعة الثانية المنقحة، لندن 1986، ص276-291، وص416-422.

(2)الشيخ رضا طالباني هو من مشاهير شعراء كردستان وكركوك بالذات، وهو نجل الشيخ عبدالرحمان طالباني (خالص) الذي كان واحداً من أكابر شيوخ التصوف في كردستان ومن أبرز علماء وشعراء كركوك في القرن التاسع عشر. وقد طبع ديوان أشعار الشيخ رضا باللغات الكردية والفارسية والتركية لأول مرة في بغداد عام 1935 ولكن بصورة ناقصة، ثم أعيد طبع ديوانه مرات أخرى، منها طبعة جديدة في بغداد أيضا تحت إشراف حفيده المحامي علي طالباني عام 1946، وطبعة ثالثة في إيران، وأخرى في السويد عام 1996(وهما إعادة لطبعة 1946)، وطبعة خامسة في السليمانية عام 1999، وأخرى في أربيل عام 2000 وسابعة في اربيل أيضا عام 2001. وقد كتب عن الشاعر وعن أشعاره العديد من الكتب والدراسات والبحوث، بعضها باللغة الإنجليزية كدراسة لجي.دي.ادموندز، كما نوقشت في 2 أيار 2001 رسالة ماجستير تحت عنوان: شعر الهجاء عند الشيخ رضا طالباني مقارناً مع ابن الرومي، أعدت من قبل السيد هاوكار رؤوف محمد أمين في كلية العلوم الإنسانية بجامعة السليمانية. صحيفة (الاتحاد) الأسبوعية الكردستانية، العدد 419 في 4 أيار 2001.

(3)يقول الشاعر في قصيدة مطولة باللغة الكردية عن إمارة بابان:

له بيرم دێ سليمانى كه دار و لمولكى بـابـان بـو
نهمهحكومى عهجهم، نه سوخره كێشى ئالى عوسمان بو
(ديوان الشاعر، طبعة 1946، القسم الكردي)

(4)يقول الشاعر في قصيدة له باللغة الفارسية لدى زيارته قرية (بريفكان):

عزم ديار روم جو كردم ز شهرزور
افتاد در ديار بريفكان مرا عبور (ديوان الشاعر، طبعة 1946، القسم الفارسي)

(5)بريفكان قرية تقع حاليا ضمن حدود محافظة دهوك بكردستان العراق، والشيخ نور الدين هو نجل الشيخ عبد الجبار بن الشيخ زين العابدين بن الشيخ شمس الدين المعروف بالقطب. وقد ولد عام 1205هـ و توفي عام 1218 هـ في قريته (بريفكان).

(6)يقول الشاعر في بيت شعر له باللغة التركية:

موصل أولدى ولايت، نافع أفندي والي
ويل لكم رعية، كول باشوه أهالي

عطا ترزي باشي المحامي، كركوك شاعرلري (باللغة التركمانية) أي(شعراء كركوك)، الجزء الثاني، مطبعة الجمهورية، كركوك 1968، ص144.

(7)شمس الدين سامي، قاموس الأعلام (باللغة التركية العثمانية)، مطبعة مهران، استنبول 1315هـ/1898م. راجع أيضا الدكتور هلكوت حكيم، كركوك مدينة النار والنور، مجلة (جريكه/ الصرخة)

التي كانت تصدر باللغتين الكردية والعربية في لندن، العدد الثالث، آب 1984، ص14 وما بعدها.

(8)عبدالمجيد فهمي حسن، دليل تاريخ مشاهير الألوية العراقية، الجزء الثاني الخاص بلواء كركوك، مطبعة دجلة، بغداد 1947، ص284. وقد ورد فيه بصدد أسرة (آل النفطجي) وبلسان رئيسها المرحوم ناظم بن صالح باشا آل النفطجي أن نسب هذه الأسرة ينتهي "إلى قبيلة تركية كانت تسكن آسيا الصغرى (الأناضول)، ثم هاجر بعض أفرادها إلى العراق، وكان جد هذه الأسرة وهو (قهرمان آغا) هو الذي اكتشف منابع النفط في كركوك ووضع يده عليها وعلى الأراضي المجاورة لها".

(9)عبدالمجيد فهمي حسن، المصدر السابق، ص284 بصدد آل النفطجي، وص301 بخصوص (آل آوجي).

(10)دائرة المعارف الإسلامية (باللغة الفرنسية)، الجزء الخامس، وقد ألف ما يتعلق بـ (كركوك Kirkuk) فيها المستشرق (كرامرز)، ثم أضاف إليها (تومابوا) ملاحظات هامة قبل إعادة طبعها ثانية، ص147.

(11)دائرة المعارف الإسلامية، المصدر السابق.

(12)المصدر نفسه.

(13)يتبين من بعض الوثائق البريطانية السرية أن وزارة الخارجية البريطانية كانت قد حذّرت قيادة قواتها في جبهة العراق من التقدم شمالاً صوب حدود ولاية الموصل. فقد جاء في مذكرة سرية مؤرخة في 14 آذار 1915 موقعة من قبل السير آرثر هيرتزل مسؤول القسم السياسي في الخارجية البريطانية "أنه يجب عدم تجاوز سلسلة جبال حمرين بأي وجه من الوجوه، لما يمكن أن يترتب من مشاكل مع السكان الكرد في المنطقة". راجع كل من: Briton Cooper Bush, Britain, India and Arabs, P.40; and Marian Kent, Oil and Empire, P.120.

و كانت بريطانيا وفرنسا قد اتفقتا سابقا بموجب معاهدة سايكس-بيكو السرية على ان تكون ولايتا بغداد والبصرة من حصة بريطانيا، وولاية الموصل لفرنسا، وهذا يعني أن هاتين الدولتين لم تكونا تنظران للعراق بحدوده السياسية الحالية ككيان واحد. راجع بحثنا الذي قدمناه في مؤتمر قانوني نظم في شهر تشرين الثاني عام 1999 من قبل مؤسسة أحمد للدراسات الكردية في واشنطن والذي نشر في:

An Analysis of The Legal Rights of the Kurdish People; Nouri Talabany, Southern Kurdistan in International Law, Virginia, USA 2000, P96.

(14) ibd. , P.97

(15) Stephen Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925, p.312n. Helmut Mezcher, Imperial Quest for Oil, Iraq, 1910-1928, Oxford, 1976, p.76.

ومؤلفنا: منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعها القومي، الطبعة الثانية، لندن 1999 ، ص 47و48. (يلاحظ أن دار الحكمة للطباعة والنشر في لندن التي تولت طبع ونشر الطبعة الثانية من الكتاب لم تضع اسمها عليه لأسباب غير معلومة لدينا!).

(16)اكتفت اللجنة الدولية بإجراء استفتاء شكلي بين الوجهاء والمختارين في الولاية عن طريق طرح أسئلة محددة عليهم. د.فاضل حسين، مشكلة الموصل، مطبعة إشبيلية، بغداد 1977، ص6.

(17)مؤلفنا، منطقة كركوك، المصدر المشار إليه آنفاً.

(18)بحثنا الذي قدمناه في الندوة التي نظمها نواب حزب الخضر الفرنسي في بناية البرلمان الفرنسي بتأريخ الخامس من شباط 2001حول آثار الحصار الاقتصادي

على العراق ووضع حقوق الإنسان فيه، وكان البحث بعنوان:

La Politique de l'Aarabization de la Region de Kirkuk par les Regimes Irakiens.

وأود أن سجل هنا للتاريخ ما سمعته من المرحوم توفيق وهبي، الوزير الكردي السابق في العهد الملكي الذي كان مقيما في لندن، حيث قال ان رئيس الوزراء العراقي الأسبق نوري السعيد استشار عام 1956عددا من السياسيين والوزراء السابقين بسبب توتر العلاقات آنذاك بين الحكومتين السورية والحكومة العراقية، فاقترح البعض قطع خط أنابيب النفط بين كركوك وسوريا وإنشاء خط جديد بين كركوك والموانئ التركية، فرفض الاقتراح جملة و تفصيلا قائلا انه لا يريد إلحاق ضرر بشعب سوريا، لكن النظام البعثي في العراق نفذ في الثمانينيات ما رفضه نوري السعيد عام 1956.

(19)د.وليد حمدي، الكرد وكردستان في الوثائق البريطانية، دراسة تاريخية ووثائقية، لندن 1992، ص186، ومقال عدنان حسين في مجلة (الزمن) بعنوان: القضية الكردية ، قصة أم المشاكل في العراق، العدد 26، ديسمبر 1997، ص7. وقد أشار الدكتور وليد حمدي إلي وثيقة بريطانية سرية تتضمن إثارة المندوب السامي البريطاني في العراق موضوع استخدام اللغة الكردية في كردستان طبقاً للالتزام الدولي المذكور، وذلك في اجتماع له مع الملك فيصل الأول بتأريخ 20 أيار 1930، مع الإشارة إلى عدم اتخاذ الحكومة العراقية أي إجراء بهذا الشأن وعدم تأسيسها منطقة تعليمية موحدة في المنطقة الكردية، ص186 من المصدر المشار إليه آنفا.

(20)الدكتور جبار قادر، كركوك : قرن ونصف قرن من التريك والتعريب، مجلة (الملف العراقي)، العدد99، آذار 2000، ص42.

(21)عبدالمجيد فهمي حسن، دليل تأريخ مشاهير الألوية العراقية، الجزء الثاني الخاص بلواء كركوك، مطبعة دجلة، بغداد 1947، ص54

(22)مؤلفنا، منطقة كركوك المشار إليه آنفاً، ص51

(23)الدكتور أحمد نجم الدين، أحوال السكان في العراق، معهد الدراسات العربية، القاهرة 1970، ص109

(24)مؤلفنا: منطقة كركوك، المصدر السابق، ص36. يلاحظ أن الدوائر البريطانية في العراق كانت قد قدرت عدد نفوس الكرد في لواء كركوك عام 1921 بـ (75000) والأتراك بـ(35000) والعرب(10000) واليهود بـ(1000) والكلدان بـ(600)، وهذه التقديرات البريطانية مستمدة من أرشيف السجلات المحفوظة في المكتبة العامة في ستوكهولم، حيث كانت السويد هي الدولة المشرفة على تنظيم عملية الاستفتاء في ولاية الموصل. وبلغت نسبة الكرد في كركوك بموجب الإحصاء السكاني الرسمي لسنة 1957، 48,3٪ والعرب 28,2٪ والتركمان 21,4٪. وبدأت بعد ذلك، خاصة منذ 1968، عمليات الترحيل والطرد الجماعي للقوميات غير العربية من كركوك ، مما أفقدت الإحصائيات اللاحقة مصداقيتها وشرعيتها.

(25)أود الإشارة هنا بوجه خاص لتجربتي الشخصية المريرة التي عشتها مع تلاميذ آخرين في مرحلة الدراسة الابتدائية في كركوك. فقد كنا نضطر لحفظ الكتب المدرسية عن ظهر قلب لأننا لم نكن نفهم منها شيئاً لكونها باللغة العربية. واستمرت معاناتنا هذه

حتى فيما بعد، أي في المرحلة الثانوية، ولكن بدرجة أخف نسبياً.

(26)راجع مؤلفنا: منطقة كركوك ، المشار إليه آنفاً، ص51-56.

(27)قدمت مذكرات عديدة إلى وزارة المعارف (التربية حالياً) من قبل ممثلي القائمة المهنية في انتخابات نقابة المعلمين في العراق بخصوص الحقوق الثقافية الكردية، كالتدريس باللغة الكردية والاهتمام بالثقافة الكردية و إنشاء مديرية تربية للإشراف على الدراسة الكردية في المنطقة الكردية، واعتبرت هذه المطالب – والتي أيدتها نقابة المعلمين المركزية فيما بعد- بمثابة (تهيئة لإنشاء جمهورية كردستان) من قبل قيادة الفرقة الثانية في كركوك، وعلى رأسها الجنرال ناظم الطبقجلي.

(28)من بين الإجراءات التي اتخذها قائد الفرقة الثانية الجنرال ناظم الطبقجلي بعد وصوله كركوك بفترة قصيرة هي مفاتحته وزارة الداخلية لإقالة رئيس بلدية المدينة الكردي، وتعيين آخر تركماني بدلا عنه وكان واحدا من رموز جماعة الإخوان المسلمين في المدينة.

(29)مؤلفنا، منطقة كركوك، ص58.

(30)كتاب قيادة الفرقة الثانية / الاستخبارات / سري والمرقم 1س/142 في 1959/1/19 الموجه إلى رئيس أركان الجيش تحت عنوان "الحالة السياسية في منطقة مسؤولية الفرقة الثانية".

(31)عينت قيادة ثورة تموز اثنين من كبار الضباط العرب متصرفين للوائي السليمانية وأربيل، ومدنياً عربياً متصرفاً للواء كركوك هو السيد عبد الجليل الحديثي, فضلاً عن تعيين الجنرال ناظم الطبقجلي قائداً للفرقة الثانية التي يقع مقرها ووحدات مهمة منها في مدينة كركوك. كانت لهذه الفرقة أيضا وحدات أخرى في كل من مدن السليمانية وأربيل والموصل وقصبات قلعه دزه وروانـدوز وعقره. وكان معظم منتسبي هذه الفرقة من ضباط وضباط صف وجنود من الكرد، يليهم العرب والتركمان والآشوريين من أبناء المنطقة الشمالية بوجه عام.

(32)عاتب عبد السلام عارف - بعد الإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم - زميله فؤاد عارف لمنعه إياه من قتل عبد الكريم قاسم في مكتبه في وزارة الدفاع عام 1958، حيث كان موجودا معهما أيضا. فقد عاد عبد السلام عارف فجأة من ألمانيا الغربية التي عين سفيرا فيها اثر خلافه مع قاسم، وتوجه من المطار مباشرة إلى وزارة الدفاع لمقابلة قاسم ناويا قتله. والراجح أنه لولا وجود فؤاد عارف في مكتب قاسم وأخذه المسد س من يد عبد السلام، لوقعت جريمة قتل قاسم في تشرين الأول عام 1958، وليس في شباط 1963 لدى نجاح انقلاب 8 شباط 1963.

(33)أرسل قائد الفرقة الثانية في كركوك عدداً من الكتب السرية الى وزارة الدفاع بشأن الحالة السياسية في كركوك، منها كتاب قيادة الفرقة /الاستخبارات المرقم ح – ش 3-914 في 1958/9/9 حول (مذكرة المدرسين الأكراد إلى وزارة المعارف حول رفع مستوى الثقافة في كردستان خاصة)، وكتاب الفرقة / الاستخبارات المرقم ح – ش- 3 – 17 في 6 /1 /1959 حول (مراجعة نقابة المعلمين في كركوك حول بعث مديرية معارف كردستان)، وكتاب قيادة الفرقة أيضاً/ الاستخبارات المرقم 1 س / 142 في 19 /1 / 1959 حول (الحالة السياسية في منطقة مسؤولية الفرقة الثانية). وقد نشرنا النصوص الكاملة لهذه المراسلات

السرية لقيادة الفرقة الثانية في مؤلفنا: منطقة كركوك المشار إليه آنفاً (الملاحق)، ص113-120

(34)الدكتور نوري طالباني، العلاقات الكردية – التركمانية، مجلة (راية الإسلام) التي تصدر في لندن، السنة الخامسة عشر، العدد الأول ، آذار 2001،ص2.

(35)مؤلفنا، منطقة كركوك، المصدر السابق، ص65.

(36)ساهم بعض المرتزقة الكرد أيضاً في قتل بعض وجوه كردية معروفة داخل كركوك لقاء دراهم معدودات. وقد اعترف بعضهم فيما بعد بان عدداً من التركمان - وكشفوا عن أسمائهم - اتصلوا بهم وأعطوهم المال والسلاح لقتل أشخاص محددين بالاسم. ونشير هنا بوجه خاص للمعلومات التي أدلى بها المدعو لطيف فرقاني روزبياني الذي كان يسكن حي شوريجه بكركوك، واعترف فيها بتسلمه مبلغ 800 دينار مع مسدس لقاء كل جريمة قتل ارتكبها. وكان الأفراد الذين يتصلون به يؤكدون له أن الأجهزة الأمنية لن تلقى القبض عليه، وغالباً ما كانوا يطالبونه بتحديد وقت ومكان ارتكاب الجريمة لكي يبتعد عناصر الأمن عن المكان والزمان المحددين!

(37)ذكرنا أسماء جميع القرى الكردية المجاورة لكركوك والقريبة من المنشآت النفطية التي دمرها النظام البعثي عام 1963 في مؤلفنا: منطقة كركوك المشار إليه أعلاه ،ص68. وتعود ملكية قريتين من تلك القرى المدمرة لأسرتنا، الأولى هي (سونه كولي) المجاورة للحدود الشمالية لبلدية كركوك، والثانية قرية (عمشه) الواقعة بالقرب من الطريق العام بين كركوك-دوبز.

(38)برزت فكرة الاستيطان في منطقة كركوك بدافع الهيمنة على منابع النفط الموجودة فيها أثناء المفاوضات التي جرت بين النظام العراقي وبين وفد من (الجبهة الكردستانية) في أواسط عام 1991. فأثناء الحديث عن حدود المنطقة الكردية الخاضعة للحكم الذاتي، كان وفد النظام يستعين بخرائط تفصيلية للمواقع التي تتوافر فيها منابع النفط. ولاحظ الجانب الكردي أن وفد النظام كان يصر على وجوب اعتبار المناطق التي تتوافر فيها منابع النفط خارج حدود المنطقة الكردية الخاضعة للحكم الذاتي، بينما لم يكن متشدداً بشأن الأماكن الأخرى التي لا تتواجد فيها حقول النفط. وفي ذلك يشبه أسلوب تفاوض وتعامل النظام العراقي مع الكرد، مع طريقة تفاوض وتعامل النظام الإسرائيلي مع الوفد الفلسطيني لدى التفاوض معهم بشأن تحديد مستقبل الأراضي الفلسطينية المحتلة التي تكثر فيها منابع المياه القريبة من المجمعات الاستيطانية الإسرائيلية. وهو ما فعله أيضاً العنصريون الصرب في جمهورية البوسنة والهرسك وفي كوسوفو أيضاً. راجع مقال الكاتب الإسلامي فهمي هويدي: الأكراد شعب الله المختار، كركوك سبقت كوسوفو في خطط الاقتلاع والإبادة، مجلة (المجلة)، العدد 1005، 16-1999/5/22.

(39)وهذا ما وقع لي شخصياً، حيث منعت من العودة إلى بلدتي كركوك بعد إحالتي على التقاعد كأستاذ في جامعة بغداد لأسباب سياسية عام 1982 ، فاضطررت إلى الاستقرار في مدينة أربيل. وقد أخبرني سائق سيارة الحمل الذي نقل أثاث دارنا من بغداد إلى أربيل أن أحد عناصر دائرة أمن كركوك رافقه من نقطة مدخل مدينة كركوك على الطريق العام بينها وبغداد، لحين وصول السيارة إلي نقطة الخروج منها

على الطريق العام بين كركوك – أربيل، ليتأكد من خروج السيارة من كركوك!

(40)راجع بشأن جميع هذه الممارسات العنصرية للنظام العراقي ضد الكرد من أبناء مدينة كركوك، مؤلفنا المشار إليه آنفاً، ص71-77.

(41)بنيت أحياء (الكرامة) و(شهداء قادسية صدام) و(الإسكان) القديم والحديث في منطقة (جوار باغ) التي تقع في شمال شرقي المدينة، قرب الطريق العام بين كركوك والسليمانية، وكانت تضم بستانا كبيرا ومزارع عائدة لأسرة طالباني. وكانت هذه البساتين والمزارع مرتعاً للناس خلال فصل الربيع بوجه خاص، حيث كانوا يذهبون للتمتع بجمال الطبيعة وقضاء أوقات التسلية البريئة فيها، كما كانت فيها اكثر من كهريز للماء ويمر عبرها أيضا - حتى أواسط الخمسينيات - جدول للماء لسقي البساتين فيها وتزويد التكية الطالبانية بالماء. وكان الجدول متفرعا من نهر (الخاصة)، بالقرب من (آشه سوركه) شمال شرقي المدينة، علي طريق يارولي - كركوك.

(43)رغم أن المؤسسة العسكرية كانت تتمتع بصلاحيات واسعة في كردستان، وكان بإمكانها استخدام الأسلحة الكيمياوية أيضاً، إلا انه لم يكن بإمكانها حماية المستوطنات في المناطق الواقعة في شمالي وشرقي كركوك ذات التضاريس المتموجة، وذلك خوفا من هجمات المقاتلين الكرد عليها. وكان أمن المستوطنات العربية يتمتع بأهمية قصوى لدى النظام العراقي، لذلك اقتصر إنشاء المستوطنات العربية في المناطق السهلية من المحافظة حتى عام 1996

(44)كتب الكثير عن الأنفال وعن ضحايا هذه الجريمة الكبرى، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أسماء بعض من كتبوا عنها باللغة الكردية، من بينهم طه سليمان، في ظل الأنفال، الجزء الأول، مطبعة (ئاسا)، السليمانية 1999، و هفال أبو بكر، الأنفال بين شراسة العدو وعدم اكتراث الأصدقاء، مجلة (كركوك)، العدد الأول، السنة الثانية، صيف 2000، ص 57 وما بعدها، والدكتور معروف عمر كول، الأنفال مرحلة لتقيد جريمة الإبادة، مجلة (كركوك)، العددين الثاني و الثالث، خريف 1999، ص7 وما بعدها.

(45)مؤلفنا: منطقة كركوك المشار إليه سابقاً، ص109.

(46)سجل العديد ممن شاركوا في تحرير مدينة كركوك ذكرياتهم وأدوارهم فيه، نشير بوجه خاص إلى ما نشرته مجلة (كركوك) في عددها الرابع الصادر في ربيع عام 2000، ص55-86. ويؤكد معظمهم أن المقاتلين الكرد كانوا يستقبلون بحفاوة ليس من قبل المواطنين الكرد وحدهم، بل من قبل المواطنين التركمان والآشوريين والعرب من سكان المدينة. وتعرضت الأحياء الكردية إلى خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، خاصة بعد تعرضها من جديد لهجوم شرس شنته القوات الخاصة وقوات (مجاهدي خلق) الذين فتكوا حتى بالجرحى الراقدين في المستشفيات، مما أجبر الناس على الخروج من كركوك والتوجه نحو السليمانية وأربيل، فقامت تلك القوات و(العرب الوافدين) بنهب ممتلكاتهم.

(47)نشرت منظمة العفو الدولية والمنظمة الكردية لحقوق الإنسان في بريطانيا ومنظمات حقوق الإنسان في كردستان والمراكز التي تأسست للدفاع عن حقوق أبناء كركوك، خاصة المرحلين والمؤنفلين منهم، في كل من السليمانية وأربيل وفي أوروبا، نشرت قوائم بأسماء المرحلين مع بيان تأريخ طرد كل عائلة. ونكتفي هنا

بالإشارة إلى القوائم التي نشرتها مجلة (كركوك) في عددها الخامس، ومجلة (هاواري كركوك) في عدديها الثالث والرابع، وفي الدراسة القيمة التي نشرت في السليمانية تحت عنوان (أربع سنوات في خدمة المرحلين عن كركوك) التي تتضمن أسماء وعناوين وتاريخ طرد آلاف العوئل الكردية خلال السنوات 1996، 1997، 1998 و 1999.

(48)كانت نسبة القومية الكردية في لواء كركوك بموجب إحصاء عام 1957، 48،3٪، وانخفضت في إحصاء عام 1977 إلى 37،53٪، بينما ارتفعت نسبة القومية العربية من 28،2٪ في إحصاء عام 1957 إلى 44،14٪، والقومية التركمانية انخفضت نسبتها من 21،4٪ في إحصاء عام 1957 إلى 16،13٪ في إحصاء 1977. وتوضح هذه النسبة العالية في الارتفاع والانخفاض السريع وغير الاعتيادي أساليب النظام ولجوئه لإجراءات قسرية وغير طبيعية، من بينها ترحيل عشرات الألوف من العائلات الكردية وآلاف من العائلات التركمانية جبراً عن كركوك وأطرافها، مع جلب المزيد من العائلات العربية من مناطق أخرى من العراق لتوطينها في هذه المدينة وفي أطرافها. وبطبيعة الحال ستكون نتائج إحصاء عام 1997 -غير المعلنة لحد الآن- اكثر دلالة في فضح ممارسات النظام، خاصة بعد إجباره المواطنين الكرد على (تصحيح قوميتهم) وترحيل من لم يملأ تلك الاستمارات الشاذة إلى المناطق المحررة من كردستان، مع استمراره في جلب الألوف من العوائل العربية لتوطينها في المنطقة. راجع الدكتور خليل إسماعيل خليل، البعد القومي لسياسة (الترحيل والتجميع) في محافظة كركوك، مجلة (هاواري كركوك)، العدد الأول، أيلول 1998، ص 128 وما بعدها.

(49)خطاب عزة الدوري في كركوك في بداية أيلول 2000، وتأكيده على ذلك في كلمة أخرى أمام المسؤولين البعثيين والعسكريين في المدينة في اجتماع آخر له بمناسبة وجوده فيها. جريدة (الحياة) ليوم 21 أيلول 2000.

(50)في مذكرة أرسلت إلى رئيس وأعضاء مجلس الأمن وجميع الهيئات الأخرى في المنظمة الدولية وعدد من دول العالم، وجه (مركز كركوك للبحوث والدراسات) مع (122) تنظيما مدنيا وحزبا سياسيا كردستانيا من داخل وخارج كردستان، بالاضافة إلى عدد كبير من المنظمات والشخصيات المهتمة بحقوق الإنسان في أوروبا، طالبوا فيها المجتمع الدولي بوضع المناطق الكردية الخاضعة لسيطرة النظام تحت إشراف دولي تطبيقا للقرار الدولي الرقم 688 لسنة 1991بسبب ممارسة النظام العراقي لسياسة التطهير العرقي ضد القوميات غير العربية فيها. وجاء في المذكرة أيضا أن هذا الطلب و بتماشٍ مع القرارات التي اتخذها المجتمع الدولي في مناطق أخرى من العالم تعرضت هي أيضا لسياسة التطهير العرقي. راجع نص المذكرة المنشورة في ملحق مؤلفنا:

Arabization of the Kirkuk Region, Published by Kurdistan Studies Press in Sweden, Uppsala, 2001, p.131.

الكرد: نبذة وجيزة

الفصل الثاني

مهرداد ئيزدي

ترجمة عن الانجليزية: هادي محمد

التضاريس

+ تعد جبلية كردستان من أكثر السمات الجيوفيزيائية البارزة لها على نحو واضح. تتألف كردستان في وقتنا الحاضر و بشكل رئيسي من جبال زاكروس المركزية و الشمالية و الثلثي الشرقيين من جبال طوروس و بنطس و النصف الشمالي من جبال أمانوس. المحوطتان الكرديتان الكبيرتان المنفصلتان تقعان في مرتفعات ريوند (*Rivand*) للقسم الشرقي لجبال ألبرز شمالي أيران في أقليم خراسان و في جبال بنطس المركزية في أناضول المركزية وشمال اناضول المركزية، مجاورةً العاصمة التركية أنقرة. بالأضافة الى ذلك، لقد كانت هناك و على مر القرون محوطات كردية عديدة اصغر حجماً تمتد من المرتفعات البركانية لغرب بلوجستان الى سلسلة جبال ألبرز المركزية في شمال أيران الى جبال علو (*Ulu*) الواقعة على شاطيء بحر أيجا غربي تركيا.

+ في كردستان المتصلة (أي كردستان الكبيرة كما يتم تداولها اليوم –المترجم-)، و كذلك في كثير من المستوطنات الكردية النائية، الجبال تشكل الظاهرة الطبيعية الأوحد كما و زودت التأريخ و الشعب و التقاليد و الثقافة الكردية شكلا معينا. مناطق الكرد تنتهي فجأةً حيث تبدأ السهول.

+ لكردستان الشمالية أعلى معدل المرتفعات. و بعبارات ويليام أيغلتن، "أنها موطن السيول الهادرة، و الوديان العميقة و الأفاجيج (الوديان الضيقة العميقة-المترجم-) الوارفة الظلال و الجسور المعلقة". و من جهة أخرى، فأن لكردستان المركزية أوطأ معدل المرتفعات مع أكثر المناخات دفئاً، و غالباً ماتكون لطيفاً في كردستان برمتها. والقسم الآخر

مـن المسـاحة الممتـدة مـن الأرض يقـع بـين هـذين الطرفين النقيضـين. تشـكل الجبـال الكردية متراساً للهضبتين الأيرانية و الأناضولية شرقاً و غرباً على التوالي، مفصلة أياهما من السهول المنبسطة للجزيرة العربية بأتجاه جنوب و جنوب شرق، و حوض بحر الأسود شمالاً. يمتد اللكام (جملة مـن الجبـال تشكل كتلة واحدة) المركزي على الامتداد الكلي لكردستان من الطرف الأول الى الطرف الآخر على شكل عمود فقري ضخم.

+ و القمم الأعلى في كردستان هي على التـوالي، جبـل ألونـد في الجنـوب (في أيـران) و الـتي يصـل أرتفاعه الى 11745 قدم، و جبل هلكرد (أو الكرد) في شمال كردستان المركزية (في العراق) و الذي يصل أرتفاعه الى 12249 قدم، و جبل مونزور في الغرب (في تركيا) و الذي يصل أرتفاعه الى 11646 قدم و جبـل أرارات في الشـمال (في تركيـا) و الـذي يصـل أرتفاعه الى 16946 قدم.

جيولوجيا

+ كردسـتان فعالـة تمامـاً مـن الناحيـة الجيولوجية. و ارض كردستان تفرشح على المنطقة المنسـحجة (أو منطقـة الغـوران –المترجـم-) بـين الصـفائح التكتونيـة الأوراسـية و الأفريقيـة المتصـادمة. محليـاً، الصـفيحة العربيـة الصـغيرة المنفصلة تهبط تحت الصفائح الصغيرة الأيرانيـة و الأناضولية بمقدار عدة أنجات قليلة سنوياً، و نتيجة لذلك، فأن جبال زاكروس و كردستان – نقطة هذا الأصـطدام – تنضغط و تنـدفع الى الأعلـى بمقـدار عدة أنجات سنوياً. دفع هذا الأصطدام القاري الـذي بدأ منذ نحو 15 مليون سـنة، منطقـة كردسـتان الى الأعلى من على قاع بحر تيثـيس (*Tethys*) و الـذي غطـى جنـوب غربـي آسـيا و يزيـد هـذا الأصـطدام حتى الآن من علو جبال كردستان حديثة العهد.

+ المنطقة الجيولوجية للتلال الكردية (أو سـفوح الجبـال الكرديـة –المترجـم-)و الـتي تواجـه سـطيح (***platform***) الجزيرة العربية تشكل أساساً أمتـدادا لنفس التشكيل الأرضي و الذي يقع أبعد الى الجنـوب تحت الخلـيج الفارسـي – البقيـة الباقيـة مـن بحـر تيثس القديم بثروتـه الهايدروكربونيـة. تمتـد هـذه التشـكيلات و بـدون تغـيير تقريبـاً مـن السـاحل الشـرقي لبحـر الأبـيض المتوسـط مـن أنطاكيـة الى مضيق هرمز. في الحقيقة، فقد غسـلت ميـاه الخلـيج الفارسي سفوح الجبال الكردية حتى وقت متـأخر، و ذلك بلغة و مقاييس جيولوجية، حيث انضمت تلك المياه الى المحيط الهنـدي الى بحـر الأبـيض المتوسـط و منه الى المحيط الأطلسي، مفصلة أوراسيا من أفريقيا و الجزيـرة العربيـة. و هكـذا يجـب أقـرار بفضـل (*credited for*)الطبقـة الجيولوجيـة الغنيـة بالبترول للخليج الفارسي لمكونـات الثـروة البترولية و الغاز الطبيعي في كردستان.

+ و جددت تدفقات بركانية هائلة سطوح أجـزاء واسعة من كردستان في الشمال و الشمال الشـرقي. و تعد مرتفعـات آرارات الأكثـر و الأقل علـواً، و كـذلك جبـل نمـرود (أو نمـروت داغ) الواقـع علـى سـواحل

بحيرة وان ثلاث نتائج بارزة لهذه الجيولوجيا الفعالة. كذلك تعد بحيرتا وان و أورومية كلتاهما نتائج لعملية خزن (أقامة سد –المترجم-) طبيعية لقنوات الأنهار بواسطة تدفق الحمم البركانية في ماضي حديث من الناحية الجيولوجية. تطوق بقية الأرض خطوط صدع متعددة تعبر كردستان، و بشكل رئيسي بأتجاه الشمال الغربي و الجنوب الشرقي، و لكن شرقاً و غرباً على نحو تقريبي في كردستان الغربية. و قد أغنت التدفقات النارية الأرض بموارد معدنية قيمة من الناحية التجارية. كما لونوا المشهد الطبيعي بهكذا غنى في ألوان الصخور بحيث أستمرت على نحو متواصل في أدهاش الغرباء الذين يزورونها لأول مرة.

+ كما جعلت جيولوجيتها الفعالة من كردستان أرضاً تكون معرضة للزلازل. و نتيجة واحدة لهذه الحقيقة هي أن عددا قليلا جدا من الآثار الأثرية الباقية بقيت منتصبة فوق الأرض. و في منطقة كنكاور في كردستان الجنوبية، تحمل المعابد الضخمة للآلهة أناهيتا شواهد دراماتيكية على قوة و أستمرار تلك الهزات الأرضية. و تعد الأعمدة المقذوفة بعيداً، و السلالم الضخمة المحطمة، و المنصات المبنية من الحجر و الأسمنت و الجدران المهدمتين شواهد حية على 2200 عام من زلازل متواصلة. و التماثيل العملاقة المشوهة المبتورة في جبل نمروت داغ (لا يخلطه القاريء مع نمرود المذكور سلفاً) في شمال أديامن "*Adyaman*"في أقاصي كردستان الغربية، أمثال أخرى على هذه الزلازل. و تؤشر كل الحكايات و الخرافات الشعبية للمدن و القرى التي "أبتلعتها الأرض" الى هذه الفعالية الجيولوجية على مدى العصور.

المناخ و هطول الأمطار

+ يتباين متوسط درجات الحرارة بشدة في كردستان مع تباين علو المرتفعات، أذ تنخفض مع الصعود نحو قمة اللكام (جملة من الجبال مجتمعة ككتلة واحدة –المترجم-) المركزي. قد يكون الصيف في المرتفعات الأقل علواً حارا على نحو قابض للصدر و مضايق و شبه رطب بينما يكون باردا (بارد بأعتدال *cool*) بصفاء و لطافة في مناطق تقع بعمق داخل الجبال. و يكون فصل الشتاء، بأستثناء المناطق الواقعة على الطرف التي تواجه السهول، باردا برداً قارساً و كثير تساقط الثلج.

+ و قد شدد من هذا التناقض في المناخات و على نحو مطرد، تدمير الغابات و التجاوز في أستخدام الحقول للرعي (أي الرعي الزائد – المترجم) في المرتفعات الأقل علوا. و كثير من المناطق التي عُرفت بمناخاتها الملآئمة حتى وقت متأخر جداً، الآن اصبحت مناظر طبيعية شبه جدباء و جرداء و التي تختلف بالتعاقب بين حر الصيف و تقرّس الشتاء.

+ كل المناطق الأكثر برودة تقريباً، مع معدل درجات الحرارة السنوية تحت نقطة التجمد، تقع في كردستان الشمالية في أناضول مما يسمح بوجود مساحات جليدية دائمة في المرتفعات الأكثر علواً.

تشكل المناطق الأكثر برداً حوالي 5٪ من أرض كردستان.

+ و تشكل المناطق التي يتراوح معدل درجات الحرارة فيها بين نقطة التجمد و 5 درجات مئوية (40 درجة فهرنهايت) حوالي 15٪ من كردستان. و هذه المناطق منتشرة بشكل رئيس عبر كردستان الشمالية في تركيا و الى داخل ايران، و لكنها تتضمن نتوءات جبلية طويلة تمتد الى داخل شمال غربي كردستان في درسيم و جنوباً داخل العراق. قد تشهد هذه المناطق سقوط الثلوج سبعة أشهر في السنة. تقع مدن كارز (***Kârs***) و أردهان (***Ardahân***) داخل هذه المنطقة.

+ تكون أشهر الشتاء في كردستان الشمالية أكثر برداً في المعدل منها في مدينتي أنكوراج و جونو (عاصمة آلاسكا –المترجم) في آلاسكا. و أضيفت الى التقارير الحية للمؤرخ الأغريقي زينوفون، حيث شق هو و 10000 آلاف من الجنود الأغريق طريقهم مصارعين بيأس مع البرد أبان عودتهم عبر كردستان (آناباسيس ***IV***-1-3)، أضيفت اليها تقرير بلوتارج عن رحلة القائد الروماني لوكولوس هناك حوالي قرنين بعد هذا التأريخ. في تلك المناسبة، حل الشتاء مبكراً في نهاية أيلول، و يروي بلوتارج، "مع العواصف و تساقط الثلج مراراً، و الصقيع و الجليد حتى في أكثر الأيام صفاءا، مما جعل من المياه غير قابلة للشرب للأحصنة الا بالكاد و ذلك لفرط البرد، (و مما جعل الأرض) غير قابلة للعبور عبر الجليد الا بالكاد مما أرهق و أنهك الأحصنة" (***Lives, "Lucullus"***). حدث تمرد وسط صفوف الجيش الروماني مما أدى الى تقهقر. و بعد ذلك و في القرون الوسطى، وصف الرحالة الفينيسي (نسبة الى مدينة فينيسيا أي البندقية الأيطالية –المترجم) ماركو بولو، البرد "بأنه تجاوز كل الحدود" (***Travels, I. vi***)

+ و لبقية كردستان الشمالية معدل درجات حرارة سنوية تتراوح بين 5 – 10 درجة مئوية (40 – 48 فهرنهايت)، كما هو الحال بالنسبة لأجزاء واسعة من كردستان الغربية و الشرقية، ممتدةً نحو الجنوب على شكل جيوب الى همدان. و هذه المنطقة المناخية تشكل حوالي 20٪ من المساحة الكلية لكردستان المتاخمة. تقع مدن درسيم و بيتليس و موس و بنكول و آكري و وان و هكاري و قلادزه و كذلك بيجار و سردشت و مريوان و بانة و همدان داخل هذه المنطقة. تسقط الثلوج بمعدل خمسة أشهر في هذه المناطق معظم السنين.

+ ربما تشكل المنطقة التي تتراوح فيها معدل درجات الحرارة السنوية بين 10 – 15 درجة مئوية (أي 48 – 57 درجة فهرنهايت) الجزء الأكثر لطافةً في كردستان. هذه أوسع منطقة وحيدة و التي تشكل 40٪ من كردستان حيث تضم تقريباً ثلثي كردستان الجنوبية و نصف كردستان الغربية. تقع محوطة الأناضول المركزية و محوطة خراسان أيضاً بشكل رئيس داخل هذه المنطقة. تضم هذه المنطقة مدن ملاطية و أديامَن و أنتيب و و أيلازك و زاخو و دهوك و عمادية و هلبجة و مهاباد و سقز

و سنندج و كرمانشاه و شاهاباد و كنكاور و أيضاً مدن قوجان و بُنجرد و شيروان (في المحوطة الخُراسانية) و جيهانبيلي و هيمانة و بولاتلي و يوزكات و توكات (في المحوطة الأناضولية) (أنظر التمدين و المراكز المدنية). قد تكون لهذه المناطق حوالي 4 أشهر من تساقط الثلج.

+ تكون للمنطقة الرئيسة و ألأكثر دفئاً معدل درجات حرارة سنوية تتراوح بين 15 – 20 درجة مئوية (أي 57 – 65 درجة فهرنهايت). فمجمل كردستان سوريا، نصف كردستان المركزية في العراق و حوالي 15٪ من كردستان الغربية تقع في هذه المنطقة الدافئة. تضم هذه المنطقة مدن: دياربكر و سيرت و ماردين و أورفة و قاميشلي و أفرين و سنجار و سليمانية و أربيل و قصر شيرين و أيلام و كيلان و بهلة. بأمكاننا توقع شهرين من تساقط الثلوج في هذه المنطقة.

+ و للمنطقة الصغيرة نوعما و التي تشكل أقل من 10٪ من الأراضي الكردية و التي تتألف من المناطق الحدودية بين كردستان و الأراضي المنخفضة المجاورة لها، درجات حرارة تتراوح بمعدل 20 – 25 درجة مئوية (أي 65 – 74 درجة فهرنهايت). تقع عموم هذه المنطقة تقريباً في كردستان العراق. ألا أن المدن المهمة: كركوك و كفري و توزخورماتو و خانقين و مندلي و بدرة و مهران تقع داخل هذه المنطقة حيث يمكن المحافظة على بساتين الزيتون و الحمضيات و التين. و تساقط الثلوج هناك غير منتظم و قصير جداً.

+ و في تناقض حاد مع معظم أجزاء الشرق الأوسط، فأن الترسيب (***precipitation***) (أي مخزون المياه في الأرض – المترجم -) في كردستان ترسيب منتظم و وافر. أنه يتبع في ذلك النظام المتوسطي، مع كونه في أعلى درجاته خلال الشتاء و الربيع. فيكون معظم الترسيب على شكل الثلوج الذي قد يتساقط لمدة 6 أشهر في السنة في بعض المناطق مكونة مساحات جليدية دائمية على أعلى القمم. يكون الصيف أقل الفصول هطولاً للأمطار، و لكن بسبب المياه المتشكلة نتيجة ذوبان الثلوج من اعلى المرتفعات، يكون للأنهار أكبر صرف للمياه حجماً في الصيف حيث تزود مياه ري غزيرة يمكن الأعتماد عليها.

+ يكون معدل الترسيب 50 – 80 أنجاً في السنة في اللكام المركزي و ينخفض الى 20 – 40 أنجاً حين النزول الى حدود الأراضي المنخفضة في كردستان. و يكون أقل معدل الترسيب في المنطقة التي تواجه اراضي مابين النهرين (بلاد الرافدين) المنخفضة.

المحيط و البيئة

+ خلال 100 الف عام الماضية، شهدت كردستان عدة دورات من نوبات الجفاف و الرطوبة و التي تسببت في حياة نباتية خصبة في المنطقة و تغييرات شديدة الأثر في الطبيعة و غزارة النباتات و الحيوانات المحلية.

+ في ذروة العصر الجليدي الأكثر حداثة، كانت أصقاع شاسعة من الأراضي في المرتفعات العالية

قاحلة نتيجة للبرد المتواصل و تجمد القمم العالية على نحو أكثر شدة بكثير. كما حظيت المناطق المنخفضة بترسيب أقل بسبب تحول في المناطق المناخية و تحول نافورات الأنهار صوب الجنوب.

+ أبان فترة تدجين (**domestication**) المحاصيل و الحيوانات في كردستان، منذ حوالي أثني عشر (12000) عام، كان لايزال هناك قدرا كبيراً من الثلج الجليدي كما كان هناك نظام ترسيب ليس مختلفا عما يوجد الآن رغم ان نمطه الفصلي كان مختلفا تماماً. السمة الأكثر بروزاً للنظام البيئي في تلك الفترة كانت الأراضي المكسوة بالأعشاب الغنية و السريعة التفشي، مع ثروة من النباتات ذات البذور و و الأعشاب_ الغريبة من نوع بلانتيكو(**plantago**) و أيضا الزهور المنتفخة و أنواع أخرى منها (رايت 1968، 334 - 339). قطعان كبيرة من الغنم و الماعز و الخنزير البري و الثدييات آكلة اللحوم و الطيور المهاجرة كانوا موجودين لبزل هذه الثروة الغذائية. كان المكان مثاليا لأبداع نوعين من تكنولوجيا حديثة و أنقلابية: الا و هما الزراعة و تربية المواشي. و قد أخذت أراضي كردستان مع الأراضي المنخفضة المجاورة لميزوبوتاميا و سوريا-فلسطين، أخذت أسم "الهلال الخصيب" لهذا السبب. (أنظر التطور التقني الحديث)

+ الحدث الأخير بشأن التغيير المناخي و البيئي بدأ قبل حوالي 8000 عام، مع التراجع الأخير للمجلدات (الأنهار الجليدية –المترجم-) و عودة الغيوم الدافئة الحاملة للأمطار بكل قوتها، مهيجاً أياها التحول في التيارات الهوائية النفاثة في أعالي الجو بأتجاه الشمال. و تقدم نظام الرياح الموسمية هذا الى الهضبة و الى شرق كردستان قبل حوالي 6000 عام، محدثاً بحيرات شاسعة داخل البلاد. و عجّل ذلك كثيرا من تراجع الجليد و أنتشار النباتات حتي الى منحدرات كردستان عن طريق أضافة هطول أمطار صيفية كافية الى الشتاء غزير المياه و ترسيب مياه الينابيع على هذه الجبال.

+ التندرة (سهل أجرد في المنطقة القطبية الشمالية – المترجم-) الباردة و الأراضي المغطاة بالأعشاب المتناثرة فسحت المجال لغابات كثيفة لأشجار الأرز و الصنوبر و العرعر و ئورينتال سيبرس (**oriental cyprus**) و الدردار و الحور و الجميز و الأهم من كل ذلك أشجار الكستناء و البلوط. كما و ظهرت أشجار الفواكه و الجوز و البندق في الوديان الأكثر حماية. و انتشرت حيوانات جديدة كالدب البني و الأسود مع أنتشار الغابات الجديدة. و اصبحت الآن القمم الأكثر أرتفاعاً أراضي مغطاة بالأعشاب.

+ و بدأت الرياح الموسمية الآسيوية تراجعا بطيئاً الى الوراء نحو الجنوب قبل حوالي 4000 سنة، مما أدى الى أنقطاع هطول الأمطار الصيفية بشكل دراماتيكي. بينما كانت نباتات القمم العالية تتحمل هذا الأنخفاض في هطول الأمطار، بسبب درجات حرارة سنوية أدنى (و بالتالي نسب تبخر أدنى)، كانت الأراضي المنخفضة و الوديان بقيت في

حالة من الهشاشة. وأصاب الهضبة الأيرانية المجاورة الخراب. و التيار الطويل الأمد و البطيء نحو الجفاف مستمر الى يومنا هذا.

+ الكتابات الباقية من الوثائق التاريخية المسمارية لحضارات ميزوبوتاميا، و التي تبدأ بملحمة كلكامش ذات 4000 عام من العمر، كلها تمجد زاكروس كونها ارض "غابات الأرز" و التي "امتدت مسافة عشرة آلاف فرسخ في كافة الأتجاهات" (أنظر الثقافة الشعبية و السجية القومية). "نزلا معا الى داخل الغابة، و أتيا الى الجبل الأخضر. و هناك، وقفا بلا حراك، كانا مشدوهين صامتين؛ وقفا بلا حراك ممعنين النظر في الغابة، في جبال أشجار الأرز حيث مسكن الآلهة. أرتفعت ضخامة أشجار الأرز من أمام الجبل، وكان ظلها رائعا، زاخرا بالراحة، كان الجبل و الفرجات الفاضية في الغابة مخضرة بالأجمات" (ساندارس، ترجمة و تحرير ملحمة كلكاميش، "رحلة الغابة" 1972).

+ لابد أن هذه الادغال الجبلية الكثيفة قد بدت للقدامى و كأنها معين لاينضب للأخشاب لأستخدامها في البناء و للفحم للأفران المصنوعة من الآجر، و للأستخدام المنزلي. و لكنها أنتهت الى النضوب. في الحقيقة، مع بدء الألفية الأولى لما قبل الميلاد، كانت غابات الأرز في زاكروس (المسمى بـ "كونار" بالكردية) قد نضبت (أو كانوا ضحية لتغيرات مناخية) الى حد كانت روايات الملحمة فيما بعد تعزو "غابات الأرز الى لبنان" رغم التباين الجغرافي الواضح، كانت تعزوها الى لبنان حيث كانت الأخشاب المعطاة قيمة ثمينة لم تزل تقطع بغزارة في ذلك الحين. في الحقيقة، ذهب بعض الباحثين المعاصرين، بعد ملاحظة التباين الجغرافي و لكن متحيرين من غياب طويل لأي مجاميع كبيرة لأشجار الأرز في زاكروس، الى تفسير الكلمات القديمة للملحمة كـ"أشجار الصنوبر" أكثر من كونها تعني "أشجار الأرز".

+ منذ فترة ظهور الأخمينيين (550 قبل الميلاد) (أنظر التأريخ القديم) الملتزمين بالتقاليد المتمتعة بقداسة القدم الا وهي أستخدام دعامات خشب الأرز لتغطية السقوف، منذ ظهورهم لم تعد كردستان توفر الخشب. كان لابد للملك الأخميني؛ الداريوش الأول، ان تستورد الأرز من لبنان النائية لقصوره في شوش و برسيبوليس (***Susa and Persepolis***). و لم تستغرق طويلا، بأي من المقاييس، أن لاقت أشجار الأرز في لبنان نفس مصيرنظيراتها في كردستان.

+ كثير من الغابات الكردية هي بقايا لماض أكثر رطوبة، و ليست بقادرة على تجديد انفسها ما ان أزيلت أزالة تامة مرة في أصقاع شاسعة من الأرض. ما ان أزيلت الغابات أزالة تامة لمرة، سيزول فعلا المناخ الدقيق (***micro-climate***) و النظام البيئي اللذان تحتفظ بهما هذه الغابات. و بالتالي، فمعظم هذه الغابات ليس بمعين قابل للتجديد بالمعنى الدقيق للكلمة و يجب أن تولى أهمية كبيرة لأدارة الغابات القديمة هذه و الأنتفاع منها. ذهبت أشجار

الأرز أولا، ثم تلتها أشجار الصنوبر. يمكن تحديد تأريخ تقريبي لخراب غابات الصنوبر بالقرن الثالث و الرابع قبل الميلاد و ذلك من خلال ملاحظة أن أشجار الصنوبر تم تصويرها على أنها من خيرة الأشجار، و كون أكواز الصنوبر من الأشكال المتكررة في النقوش أو النحوت البارزة خلال فترات الآشوريين و الميديين و الأخمينيين، و التي أنتهت في 330 قبل الميلاد – و ليس بعد تلك الفترة.

+ لقد كان بالطبع لهذا التلف التدريجي في الغطاء النباتي تأثيراً قوي و سيئ على المناخ العام و قدرة النظام البيئي على اصلاح الضرر (أنظر المناخ و هطول الأمطار). أن الضرر الذي الحق بتلك الغابات في القرنين التاسع عشر و العشرين جعلت من التأثيرات الكلية لكافة أسآت ألأستخدام السابقة منذ قديم الزمان، جعلت منها تبدو و كأنها تأثيرات صغيرة بالنسبة اليها. أن مقارنة سريعة للبيئة الحالية مع وصف الرحالة الأوروبيين في القرن الماضي ترعب القاري لمدى التغيير السلبي الذي طرأ على الثروة النباتية و الحيوانية للمنطقة. التربة الفوقية (سطح التربة -المترجم-) الخصبة، نتيجة حرمانها من غطائها النباتي الواقي، تتعرى بسبب تدفقات تيهورات الثلوج في فصلي الربيع و الشتاء و التي تعقبها التيهورات الطينية في فصل الربيع لسد الطرق و الحاق الضرر بالمستوطنات الواقعة في الأسفل. التربة الفوقية الثمينة الغارقة في شبكة الأنهار تجرف ليس فقط الأنتاجية الطبيعية المستقبلية للأراضي، بل تثقل فوق طاقتها و بدرجات مذهلة السدود التي بنيت لبزل القدرات الهايدروليكية الهائلة للمنطقة (أنظر الموارد الطبيعية: الماء).

+ ليست كردستان وحدها بالطبع سارية على درب الهلاك هذا، نظراً الى ان النظام البيئي للمناطق المجاورة، و في الحقيقة في العالم بأسره، تقع عليه على نحو مشابه، حدة أساءة الأستخدام البشري. و قد تم بذل القليل جدا (من الجهد) للحفاظ على و أحياء الغطاء النباتي. و الوجود المتواتر بأستمرار لحالة المحاصرة أو حالة الحرب الكلية في المنطقة لم يكن مساعداً أيضاً. و قد ساهمت تحركات الآليات العسكرية الثقيلة و عمليات القصف و الحرائق المتعمدة في غضون العمليات العسكرية، ساهمت كلها في تدهور تلك البيئة الهشة.

النباتات و الحيوانات

(*Flora and Fauna*)

+ و بقيت على قيد الحياة مجاميع كافية من أشجار البلوط و البلوط الصغير و الكستناء و العرعر و الصنوبر و الأرز و أشجار الثمار البرية، في كردستان اليوم لتنقل الينا لمحة عن الغابات القديمة (أنظر البيئة و علم البيئة). و تعد أشجار البلوط و البلوط الصغير الآن من أكثر الأشجار شيوعا في غابات زاكروس الباقية. و تشكل غابات البلوط الانظمة البيئية المثالية لعدة أنواع ثمينة جداً من الفطر مثل الكمأة و التي تتوفر بغزارة و تشكل مع الكستناء غذاءً للفقراء. و عدد كبير من الفواكه

البرية و الثمرات اللبية و الجوز و كالعنب و الكرز و العرموط (الكمثري –المترجم-) و السفرجل و التوت و العوسج و البندق و الجوز و اللوز، تجمع كل ذلك في الغابات أيضاً.

+ كانت الأرض معروفة و منذ قدم الزمان بثروتها من الأزهار الزاهية(أنظر الثقافة الشعبية). ربما كانت كردستان موطناً لتدجين كثير من الأزهار المنتفخة (مصباحية الشكل-المترجم-) كالخزامي (التيوليب) و زهرة الياقوتية و زهور جلاديولس و النرجس البري و الأعشاب الطبية كنبات الناردين و زهرة الربيع. و قد تكون غزارة كردستان بالأزهار و ألأعشاب العطرية مصدراً للرائحة الزكية الطيبة الشهيرة لمنتوجات ألبان كردستان.

+ و تحتفظ الحيوانات بغناها، و ذلك لكثرة الدببة السوداء و البنية و الذئاب و الضباع و الخنازير البرية و الثعالب و القنادس و بنات آوى و القطط النمرية و الفهود و الطيور المهاجرة و الساكنة كالعقبان والحباري و القبرة و طائر الزرقان و طائر السماني و القبج و الزواحف من أمثال السلاحف الصغيرة و الكبيرة و السحالي و الأفاعي. بالأضافة الى ذلك، مجموعة من الأسماك التي تعيش في تشكيلة متنوعة من بحيرات و أنهار ذات مياه عذبة كاشبوط و السلمون المرقط و أكثر من أربعين نوعا من أسماك الربيع و أسماك الكهوف الواقعة تحت الأرض، من ضمنها السمك الأعمى أو سمك الكهوف، توجد في المياه المحلية.

+ الفخاريات الكردية القديمة و النحوت الآشورية البارزة تصور عدداً من الحيوانات التي لم تعد موجودة في كردستان. بناءً على الأدلة المتعلقة بعلم الآثار، تبدو أن الفيلة (من جنس ***loxodonta***) و النعامات تم صيدهما في سفوح الجبال الكردية في بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد، بينما تبدو الأسود (من جنس ***felis leo persica***) انها قد عاشت ربما حتى بداية القرن الماضي (أي القرن التاسع عشر –المترجم-). الثدييات الكبيرة كانت هدفاً رئيسياً لعمليات الصيد حيث شاركت بعض منها في تلك المذابح. و على سبيل المثال، يؤكد الملك الآشوري تيغلات فلايسر الأول (فترة حكمه من 1114 الى 1076 قبل الميلاد) في كتاباته الباقة لحد الآن بأنه قتل اربعة ثيران برية و عشرة فيلة و 920 أسداً في فصل صيد واحد.

+ و تبدو أن نمور(***tigers***) (من جنس ***Felis tigris Tigris***) حوض نهر الدجلة (حيث أن اسم الحيوان هو باللغات الأوروبية) قد عاشت حتى العصور الكلاسيكية (الأغريقية و الرومانية – المترجم-) الأخيرة فقط. و النمور التي تم تقديمها في العاب الصيد المنظمة التي كانت تقام في المدن الرومانية ربما قد أتوا من هذا المصدر. ألا أنه من المكن أن لا تكون النمور الكردية هذه نمورا (***tigers***)على الأطلاق بالمعنى الضيق للكلمة، بل ربما كانت نمورا (***leopards***) كبيرة الحجم التي توجد حتى الآن في كردستان، و لو كانت بأعداد تتناقص دوما [1]. و الكلمة (***tiger***) التي وضعت لها

أولا تم أستردادها من قبل الرومانيين لأطلاقها على النمور الحقيقية لغابات قزوين – هركينيا (*Caspian-Hyrcania*) [2] بعد ان نضب المصدر الكردي لحيوانات أخرى و مشابهة مستخدمة في الألعاب.

+ و قد تم اخراج عظام اجنحة طيور كبيرة الحجم من تحت الأرض، ربما أستخدمت في طقوس دينية (أنظر الأيزدية)، في الطبقة العلوية لكهوف شانيدار-زاوي-جمي (*Shanidar-Zâwi-Chami*) في كردستان المركزية و يعود تأريخها الى حوالي ما قبل 10800 عام. و تضم تلك الطيور النسور الملتحية و الرخ (النسر العقابي و هو نسر كبير أسود الجناحين –المترجم-) و النسور البحرية ذات الذيول البيضاء و النسور الصغيرة و الحباري. معظم هذه قد انقرضت الآن في كردستان و الطائرين الأكبر حجما بين هذه الطيور هما عقبان المنحدرات الصخرية (*halo'i*) التي أستخدمت كنموذج لشعار النبالة للملك صلاح الدين و السلالة الأيوبية الكردية (أنظر التأريخ القروسطي)، و (*Shawât*) أو الحباري الكبيرة (*Otis tarda*)، قد عاشوا بأعداد قليلة في مناطق أكثر تعذراً الوصول اليها من أرض كردستان. و يبلغ أمتداد أجنحة هذين الطائرين ذوي المهابة 8 أقدام ما يجعلنا نتفهم أستخدامها في ممارسات دينية قديمة في كردستان.

هوامش المترجم:

(1) كلمة *tiger* تعني النمر المخطط الكبير بينما تعني *leopard* النمر الصغير المرقط. و أحيانا تم ترجمة *tiger*بـ (بَبر). و لكنني أستخدمت كلمة نمر لكونها الأكثر شيوعاً.

(2) *Hyrcania* منطقة في بلاد فارس القديمة الواقعة على الشاطيء الجنوبي الشرقي لبحر قزوين و الشمال الشرقي لبلاد جنوب بحر قزوين (قديما) و الشمال الغربي لقوهستان وهو (بلد واسع في التاريخ القديم الى الجنوب من بحر قزوين).

المصدر:

The Kurds: A Concise Handbook, By Mehrdad Izady, Department of Near Eastern Languages and Civilizations, Harvard University, Taylor and Francis International Publishers/ Washington – Philadelphia - London.

التناغم الذهني و فاعلية الصورة الشعرية

قراءة في الطاقات الإيقاعية للشعر العربي والفارسي والكردي

شاهو سعيد

تحفل الآداب العربية والفارسية والكردية، بنصوص شعرية مشحونة بطاقات ابداعية، لا يمكن حصرها أو الحديث عنها في نطاق معين. ومن بين تلك الطاقات التي تتجدد باستمرار هي إيقاعية الصور الشعرية التي تتدفق من بين ثنايا النصوص الحية للآداب الثلاثة، بشكل لايمكن استنطاق مستوياتها الدلالية إلا من خلال تشريح مكونات كل نص على حدة، واكتشاف علاقات التفاعل والتناص بينه وبين النصوص التي تسبقه، أو التي تشكل امتداداً له..ومن ثم من خلال إعداد جداول إحصائية هائلة، لرصد الصور الشعرية في النصوص، وتحديد فاعليتها في كل مرحلة من مراحل تطور الشعر في الآداب الثلاثة، وهذا ما نعجز عن إنجازه.

من هنا فإن مهمتنا هنا تأخذ منحى اخر، نحو محاولة اكتشاف المؤثرات اللغوية والثقافية والدينية التي شاركت، ايجاباً وسلباً، وبشكل غير مباشر، في تزويد الأبنية الإيقاعية للنصوص الشعرية بمصادر الإنفتاح، أو بواعث الإنغلاق، على الطاقات الإيحائية التي تتولد منها الإيقاعات الذهنية.

ومن بين تلك المؤثرات وجدنا أن طبيعة اللغات التي دونت بها النصوص الشعرية للآداب الثلاثة، وطبيعة الإيقاعات الخارجية التي نشأت عنها أوزان تلك النصوص..أثرتا، بشكل أو بآخر، على بروز الصور الشعرية أو إنحسارها. كما واحتفظ العامل الديني بدوره الفاعل في هذا المضمار، خصوصاً وأن أصحاب الآداب الثلاثة يجمعهم الإنتماء الى دين واحد، وأن الحضارة الإسلامية التي شاركت الشعوب الثلاثةفي بنائها، ولدت اتجاهات فكرية وعقادية مختلفة، وانتجت بالتالي وسائل مختلفة إعتمدها الشعراء نحو بلورة رؤياهم التي عكستها صورهم الشعرية والإيقاعات الذهنية لنصوصهم. وكان

الخيال العرفاني احدى تلك الوسائل التي عمّقت القدرة التخييلية للشعراء، في حين برزت اتجاهات قللت من شأن الخيال والقدرات الذهنيةللشعراء، وتمكنت من النفوذ الى العلوم البلاغية والنقدية.

إختلفت استجابة الشعراء العرب والفرس والكرد لهذه المؤثرات الخارجية باختلاف إنتماءاتهم الى قومياتهم التي تميّزت، كل على حدة، بخصوصيات لغوية وثقافية ودينية. ولكن قبل تناول هذه القضية، من الضرورة بمكان التطرق الى طبيعة أهم تلك المؤثرات:

أولاً / اللغة والإيقاع الذهني: تملي الصورة الشعرية، بوصفها انعكاساً للحالة الكامنة داخل الذات، على الشاعر ان يخلق جملة ارتباطات جديدة، ويخرج عن السياق المألوف الى سياق لغوي مليء بالايحاءات الجديدة(1). ولاشك أن اللغة، أي لغةٍ، تحوي كلمات معجمية تتسم بالانفتاح النسبي على الصورة لقابلياتها التكوينية والايحائية أو لدلالاتها المجازية. لكن الانفتاح الكامل على الصورة الشعرية لايتم إلا من خلال وضع المفردة في السياق الشعري كي تكون لها قدرات توليدية على إستدعاء مفردات أخرى(2)؛ ومن خلال التداعي بين المفردات اللغوية يتولد التداعي بين الصور التي تنشأ عنها الإيقاعات الذهنية بتفريعاتها المختلفة. من هنا فإن اللغات التي تعتمد على السياق والتركيب لخلق الصور الذهنية، أقدر من اللغات التي تعتمد على الجرس والايحاءات المجازية للمفردة الواحدة..في تجسيد الإيقاعات الذهنية، وسوف يأتي توضيح هذه النقطة.

ثانياً / انعكاس الإيقاع الخارجي على الإيقاع الذهني: وينشأ هذا الإنعكاس عن جدلية العلاقة بين الإيقاعين، لأن الإيقاع الخارجي ليس مجرد بناء مفرغ من الدلالة والإيحاء، بل يتشاكل مع الصور والألوان والإيحاءات الشعرية لتجسيد الإيقاعات الذهنية. لكن الإيقاع الخارجي يفقد هذه السمة عندما يصبح مجرد وعاء تزييني، لإظهار براعة الشاعر في الصناعة الشعرية.

ثالثاً / إشكالية اللفظ والمعنى: إستأثرت هذه القضية باهتمام المتكلمين والفقهاء والبلاغيين المسلمين منذ بواكير الحضارة الإسلامية، الى أن اصبحت في القرن الثالث حتى القرن الخامس الهجري على رأس القضايا البيانية(3)، ولا زالت إمتداداتها متواصلة، بشكل أو باخر، حتى الآن(4). وعلى رغم من أن هذه الإشكالية نبعت أساساً من القراءات المختلفة للقرآن الكريم من قبل المتكلمين والمفسرين والبلاغيين...إلا أنها أصبحت، فيما بعد، عائقاً أمام التحليل النقدي الموضوعي للأدبيات والنصوص. لأن المفاضلة بين اللفظ والمعنى عرقلت عملية البحث الجدي عن العلاقة الجدلية بينهما..وقللت من شأن الصورة الشعرية، إن لم نقل غيبت دورها، وقد انعكست تداعيات هذه القضية على الآداب العربية والفارسية والكردية التي نشأت في مناخات ثقافية مماثلة، ولكن بدرجات متفاوتة، وهذا ما سنتناوله لاحقاً.

رابعاً / الخيال العرفاني والصورة الشعرية: يقوم عنصر الخيال في الشعر بدوره المتفرد الخلاق في

الجمع بين الأطراف المتضادة، وخلق علاقات جديدة منها، وإحداث الصدمة الشعرية عند المتلقي. والخيال ((أداة لاغنى عنه للفنان، لأنه لايستطيع إلا بمعونته أن يتصور الأشياء والحوادث في صور حية قوية))(5)، وينوه به عبد القاهر الجرجاني في باب المجاز بقوله: ((يختصر البعد بين المشرق والمغرب، ويرينا الأضداد ملتئمة، ويأتينا بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين))(6).

وقد أعلت التجربة الصوفية في الآداب العربية والفارسية والكردية من شأن الخيال، ووظفته لتوسيع المساحات الدلالية، وتكثيف الصور الذهنية للشعر. فالتصوف الى جانب كونه سلوكاً، يعد منهجاً أساسه التأمل الباطني والمجاهدة الروحية وسواها من السبل التي تأخذ بالصوفي السالك في مدارج المعرفة حتى الوصول به الى المشاهدة القائمة على الإلهام والكشف أو ما يصطلح عليه المتصوفون بالإشراق، وهو ظهور الأنوار العقلية وفيضانها بالإشراقات على النفس عند تجردها(7).

من هنا فإن المتصوفة منحوا الخيال اسمى مايمكن ان يناله من قداسة وتقدير...لأن الخيال عندهم ((ينير الطريق لإدراك طائفة من الحقائق المتعالية التي لايصل اليها العقل الصارم للفيلسوف، ولا يقترب منها ذهن الرجل العادي المنصرف الى الظواهر والأعراض الزائلةوالطارئة، والذي يتعامل مع الأشياء من زوايا المنفعة، دون أن ينفذ الى دلالاتها الرامزة الى المعاني الروحية العميقة. إن الصوفي يعتمد كل الإعتماد على البصيرة والحدس، ويثق بالنشوة الروحية الغامرة، وبالخيال المحلق الذي يسمو حتى يدنو من الحقيقة الإلهية أو يحوم حول حماها))(8).

يبدأ الصوفي رحلته من خلال التأمل الباطني، وتجربته الشخصية المستقلة في مقامات أشبه بالأودية والعقبات(9)، ويستولي عليه ميل جامح للرحيل عن هذا العالم، والتحرر من قبضته وقيوده(10). وأثناء هذه الرحلة..يلجأ الصوفي، وخصوصاً عندما يكون شاعراً، الى نقل إشاراته الباطنية الى الظاهر، اي ترجمة أحاسيسه التي يتخللها أعمق درجات الخيال الى ((العبارة)). وتتضمن عبارات الشاعر الصوفي صوراً يضيء بعضها بعضاً في حركات داخلية، وتداعيات، تلعب الإيقاعات الذهنية دوراً كبيراً في تجسيدها، ورصد تناسقها الحيوي في النص الشعري. وتلتقي الإيقاعات الذهنية التي ينتجها خيال الشاعر مع الصور التي تتلمسها الباصرة الداخلية للصوفي، ضمن تفريعات الإيقاع الذهني، على هذا النحو:

1-الإيقاع النفسي: أول ما يشعر به الصوفي هو الشعور بالغربة، اذ يرى نفسه مسافراً في عالم يراه غريباً عنه تماماً، فيتجه الى تمييز نفسه عن العالم، الى الإنفصال عنه، والقطيعة عنه(11). أي أن إيقاعه النفسي يقوم على ثنائية: الحضور الجسدي في العالم / الغياب الروحي عنه.

2-الإيقاع اللوني: يرى الصوفي أن العالم غارق في الظلام، وعليه أن يتجه نحو كوامن ذاته، كي ((يرتفع عنه الحجاب، ويتجلى فيه النور

الإلهي))(12). فهو، إذن في حالة حضور دائم بين نقيضي الثنائية اللونية (النور / الظلام). ولا شك أن قانون اللون، كجزء من قانون العلامة، يقوم على فرضية أن الأبيض والأسود هما أساس اللعبة اللونية بأكملها(13). وكلما زاد التضاد والتوتر بين الألوان..كبرت مساحة الإيقاعات الذهنية.

3-الإيقاع الزمكاني: عندما يقتنع الصوفي بأن النور الإلهي قد تجلى فيه..يمنح نفسه قدرة خارقة للعادة، تفوق قدرة الإنسان العادي، ((فلا يعود يعترف لا بقيود المكان ولا بقيود الزمان ولا بقيود الطبيعة، ولا بناموس أوسنة من نواميس الكون وسننه، وهكذا ينتقل في لح بصر من مكان الى مكان، ومن زمان الى زمان..لا يعترف بالمساحات المكانية ولا الزمانية، بل كل شيء عنده حاضر حضوراً زمانياً ومكانياً))(14). وحين تنتقل هذه الرحلات الخارقة للعادة الى الفضاء الشعري..تترجم الى ايقاعات زمكانية تزيد المساحات الذهنية للصور الشعرية بصور لايقدر على انتاجها إلا المخيلة المتفردة الخلاقة للشاعر الصوفي.

4-إيقاع الحدث: إن القدرة الخارقة للعادة للصوفي لا تقف عند هذا الحد، بل تجتاز حدود العالم المألوف، وتنفذ عالماً آخر و (تقلب الطبائع، وتأتي بالمطر في غير وقته }...{ تأتي بالطعام الذي يأكل منه المئات بل الآلاف، من لاشيء، وتأتي بالنصر وتجعل صاحبها يمشي في الماء ويطير في الهواء...)(15)، فتأتي هذه الأحداث اللامألوفة متشابكة، متداعية، في لوحات من الإيقاعات الذهنية.

وقد نفذت هذه التجربة الخلاقة للمتصوفة صميم العديد من الشعراء العرب والفرس والكرد..حتى أضحت تشكل خلفية ثقافية وإبداعية لهم، وأصبحت الصور الشعرية والإيقاعات الذهنية لنصوصهم عاكسة لذلك الباعث، او المؤثر.

لكن الاستجابة لهذا المؤثر...والمؤثرات التي سبق ذكرها، إختلفت باختلاف الشعراء، وإختلاف المناخات الثقافية التي نشأوا فيها، والآن ننتقل الى ما أحدثته هذه المؤثرات..من تحولات ايجابية، أو سلبية...في مضمار الصورة والإيقاع الذهني، في الأدب العربي والفارسي والكردي.

في الشعر العربي:

أفاد الشاعر العربي من الطاقات الإيحائية للغته، لا لتزيين ألفاظه وإيقاعاته المسموعة فحسب، بل كذلك لتجسيد صوره الشعرية وإيقاعاته الذهنية التي تدخل في علاقة جدلية مع الأبنية الأخرى المكونة للنص الشعري.

فالمعروف أن اللغة العربية تتصف بكونها لغة المجاز، بمعنى أن كل مفردة من مفرداتها تحتفظ بدلالتها الشعرية المجازية المطابقة لجرسها، حتى وان لم تقترن بمفردات اخرى ضمن السياق العام للجملة أو البيت الشعري. فجرس كلمة (الصحراء)-مثلاً- مطابق لدلالة الكلمة التي تبدأ بفونيم لثوي من مقدمة الفم /ص/، وينتهي بفونيم حلقي في أقصى الحنجرة /ء/، والذي تسبقه الألف الممدودة التي يمكن إشباعها ومطها الى أقصى حد ممكن...وهذا ما يلائم الإيحاء بالسعة والفضاء اللامتناهي للصحراء.

وفي كلمة(تتابع) –مثال آخر- نجد أن تكرار التاء يعطي الدلالة على حالة التعاقب والتوالي، وفي كلمة (تكرار) نجد أن تكرار الراء يعطي الدلالة على الحالة نفسها، وأن صوت المد في كلمة (باسقة) يعطي الدلالة على الطول العمودي...في حين يعطي الدلالة على الطول الأفقي في (فسيح)(16). وأن صوت الحاء يخرج من أقصى الحنجرة في كلمة (حزن) وكأنه ينبع من أعماق الذات...وهكذا. إن اللغة العربية وكغيرها من اللغات السامية ليس فيها تركيب للكلمات من خلال وصل كلمة بكلمة اخرى لتتكون منها كلمة أخرى ذات دلالة جديدة(17)، لأن الدلالة الذهنية الحقيقية كامنة في جرس الكلمة الأصلية ذاتها.

وهذا مادفع الشاعر الى تخييل الصورة الذهنية للعبارة أو البيت من خلال جرس المفردات وحركاتها، أكثرمن الصورة التي يجسدها السياق. أي أنه وظف الطاقات الإيحائية للغته توظيفاً موسيقياً شكلياً، لأنها (لغة انبثاق وتفجّر، وليست لغة منطق أوترابط سببي) على حد تعبير أدونيس(18)، الذي يرى أن اللغة العربية هي (امتداد انساني لسحر الطبيعة وأسرارها، وفي كل قصيدة عربية عظيمة قصيدة ثانية هي اللغة(19)،مشيراً الى أن الموجود المباشر الحقيقي في النصوص الشعرية العربية هواللغة لا العالم، وبذلك "كانت اللغة في نظر الجاهلي سحراً، وفي نظر العربي عامة عطية الله"(20).

من هنا بدأت إشكالية اللفظ والمعنى تهيمن، رويداً رويداً، على تفكير البلاغيين والمفسرين والفقهاء، ومن خلالهم على رؤية الشعراء ونقاد الشعر. وتنطلق تلك الإشكالية من تساؤلٍ رئيسي مفاده: هل أن النص بليغ بألفاظه؟ أم بمعانيه؟ أم بهما معاً؟(21). وهكذا بدأت الهوة تتسع بين الأبنية الصوتية والدلالية للنص، وبدأت اللغة والبلاغة والإيقاعات الخارجية (الأوزان والقوافي) تستأثر باهتمام البيانيين العرب، وتشغل شعراءهم ونقادهم.. والنتيجة كانت الالتزام المفرط بالقوانين البلاغية والخضوع للهندسية الصارمة التي استقرت عليها الايقاعات الخارجية للشعر العربي، وخصوصاً وحدة الوزن والقافية في القصيدة. اما الصورة الشعرية التي احتفظت بفاعليتها في الشعر العربي دون أن تسمّى، فقد اصبحت تشكل حلقة مفقودة بين شقي اللفظ والمعنى.

لانقصد بذلك أن البلاغيين والنقاد لم يفطنوا الى دلالة الصورة، بل تطرقوا اليها – دون أن يصطلحوا عليها- في مباحث التخييل والتشبيه والإستعارة والكناية والمجاز(22). لكنهم درسوها من خلال مقاييس علمي البيان والبديع، التي تؤطر طاقات الشاعر الإيحائية في معايير خارجية.. في حين أن الصورة الشعرية وايقاعاتها الذهنية لاتردّ الى معيار خارجي ثابت، وانما تتامَلُ بنوع من المباطنة(23). أي أن خلق الصورة الشعرية والإيقاعات الذهنية يستوجب أن يختار الشاعر بنفسه السياقات و الأنساق، غير التي تقتضيها معايير البلاغة المسبقة.

على الرغم من ذلك، وفي أجواء هذه الهيمنة، طرأت على الشعر العربي تحولات على صعيد الابداع والتنظير رفعت من شأن الصورة وعدّتها عنصراً مقوماً للشعر. إذ لجأ أبو تمام- علىسبيل المثال لا الحصر- الى استخدام الطاقة التخييلية، وجسّدها من خلال الخروج على قوانين اللغة المألوفة، وتحطيم العلاقات القديمة للغة الشعرية، والإتيان بعلاقات جديدة يمدّها الخيال بطاقة لاتنفد من الصورة(24). وعلى صعيد التنظير جاء الجاحظ المعتزلي، واستخدم لفظة التصوير: "انما الشعر صياغة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"(25). ومن آراء عبدالقاهر الجرجانى نشأ الميل الى التشكك في أن يكون مجرد الوزن والقافية مقياساً للتمييز بين الشعر والنثر، أو ان تكون طريقة استخدام اللغة مقياساً في هذا التمييز، إذ قسم الجرجاني المعنى الى نوعين: تخييلي، وعقلي؛ فإذا كان النص قائماً على الأول يكون في رأيه شعراً، أما اذا كان قائماً على الثاني فلايكون شعراً، وان جاء موزوناً مُقفّى(26).

لكن هذه التوجهات والآراء لم تقدر على زعزعة أركان تلك النظرية الجامدة المبنية على اشكالية اللفظ والمعنى، فما برح ان وُجّه الإتهام الى أبي تمام بخروجه عن طريقة العرب في النظم والشعر، لكونه قد إرتكز على عملية التخييل وإستخدام الامكانات الشعورية والنفسية التي تقوم على تحوير اللغة، وإعارة اللفظ(27).

أما التجربة الهامة التي أحدثت تحوّلاً جذرياً في رؤيا الشاعر العربي. فكانت التجربة الصوفية، التي برزت في الثقافة العربية في أواخر القرن الثاني الهجري(28). اذ بدأ عدد من الشعراء يقتنعون بأنه لايوجد ماهو مكتمل، وليس هناك مايخلق أو يصنع، وكل مايحدث انما هو نقص بالقياس الى كماله الأول، وان المطلق الإلهي لم يعد وحده مركزاً بل صار الإنسان شريكاً له(29)، وهذا الاعتقاد دفع بالشعراء الصوفيين الى ترميز لغتهم بعبارات وصور لم تكن مالوفة من قبل، "فكان هذا بداية النزاع والشقاق الذي صار يتسع تدريجياً بين الصوفية من جهة، وبين الفقهاء والاصوليين والكلاميين من الجهة الأخرى، فصار الفقهاء والمتكلمون يرمون الصوفية بالزيغ والبدع ومحاولة تجاوز حدود الشرع..))(30).

بذلك، وعلى الرغم من الشرخ الذي أحدثته التجربة الصوفية في جدار البلاغة والعروض الصلب، ظلت مقاييس البلاغة وقواعد العروض والمضامين التقليدية للشعر العربي كالمدح والهجاء والوصف والرثاء، تحتفظ بهيمنتها الرافضة للخروج عن طريقة العرب في استخدام اللفظ والمعنى.

وفي العصر الحديث.. وجدنا ان بعض رواد الحداثة في الشعر العربي دعوا الى تحطيم مقاييس اللغة التقليدية وشحنها بعبارات وصور لامألوفة، وتوظيف الأسطورة(31)، والخيال العرفاني، لتوسيع مساحات النص الذهنية والدلالية. حتى بدأ تثار، عند شعراء معاصرين، صوفية معاصرة تلجأ الى

الغمـوض، وتمتـزج بالرمزيـة والسـريالية في بعـض الأحيـان، مسـتندة الى الـذوق، والكشـف الـذاتي، والتجارب الباطنيـة.. ومـن أبـرز هـؤلاء الشـعراء: ادونـيس، عبـدالوهاب البيـاتي، وصـلاح عبدالصبور(32).

في الشعر الفارسي:

لم يسـلم الشـعر الفارسـي مـن هيمنـة المؤثرات الثقافيـة والروحيـة الـتي اكتملت في ظلها الخطوط العامـة لأبنيـة الصور الشعرية والإيقاعات الذهنيـة لـلأدب العربـي، لكنـه احـتفظ، في الوقـت ذاتـه، بخصوصـياته.. واسـتقلاليته في الإسـتجابة لتلـك المؤثرات. عـدا ذلـك، فـإن الشـعر الفارسـي ومزايـاه اللغويـة والإيقاعيـة والصـوتية.. والـذاكرة الجماعيـة للشعراء الفرس المطعمـة بشعائر الأديـان والمعتقـدات القديمة التي سبقت الإسلام(33).. كل ذلـك ادى الى ان ينمو الشعر الفارسي، وتتبلـور مكوّناتـه الذهنيـة، في مناخ ثقافي وحضاري مغاير للمناخ الذي نشأ فيـه الشعر العربي، وترعرع وتأطّر.

سـبق وأن تطرقنـا الى ان اللغـة الفارسـية تـأثرت باللغـة العربيـة، منـذ انتشـار الإسـلام في المنطقـة، ونفذت صميمها في أوائل القرن الرابع الهجري(34).. الى أن اصبح الشعراء الفرس، وخصوصاً منـذ القرن الخـامس، يتسـابقون علـى إمكانيـة اسـتخدام اكثـر المفردات والتراكيب العربية في نصوصهم، وبـذلك لم توظـف الفارسـية الحديثـة (الدريـة) جانبـاً مـن طاقاتهـا الايحائيـة الأصـلية، بـل اكتسـبت طاقـات إيحائيـة وأدبيـة مـن لغـة غنيـة بالـدلالات الدينيـة والمجازيـة. لكـن هجـرة الألفـاظ العربيـة الى الفارسـية كانـت مصـاحبة لمشـكلة التطويـع والتحـوير، إذ أنَ العديـد مـن تلـك الألفـاظ طوّعـت فونيماتهـا، ورُقّقـت، بشـكل فقـدت جرسـها الصـلي، أو حـوّرت مـن خـلال تغـيير معانيهـا، أو تركيبهـا ووصـلها بكلمـات.. وألفـاظ عربيـة اخـرى(35). إنَ الفارسـية، ورغـم تأثرهـا بالعربية، إحتفظت باستقلالية تامة من حيث قواعد النطق والتركيب والأداء، ومن ابرز سماتها التي تميّزها عـن العربيـة هـي أن المفـردة الواحـدة فيهـا لاتعطـي دلالتها المجازية الشعرية التامة، إلاّ مـن خـلال موقعها ضمن العبارة أو الـنص. وبـذلك كانـت تشكيلة الصـور الشـعرية والإيقاعـات الذهنيـة في الشـعر الفارسـي.. تنبثق مـن كلمـاتٍ و عبـارات خاضعة لترابـط سـببي، وكان الشاعر حراً في اختيار نوعية ذلك الترابـط للغـةٍ كانت تتجدّد في كل عصر، بـل ربمـا عنـد كـل شـاعر. ولم تكن أمام الشاعر قوانين لغوية مستقرة ومسبقة تقيّـد إنطلاقـة خيالـه، بـل وجـد مرونـة في توظيـف اللغة لترجمة أحاسيسه، وتجسيد مكامن خياله.

كمـا أن هندسـية الإيقـاع الخـارجي (الـوزن والقافية) لم تكن صارمة في الشعر الفارسي بالصورة التي اتسمت بها وحـدة الـوزن والقافيـة في القصـيدة العربيـة.. وهـذا مـافتح أمـام الشـاعر آفاقـاً أخـرى لتجريـب إمكانياتـه في اسـتحداث تشـكيلات حافلـة بالصور والحركات الذهنية السريعة، كالتي تتضـمنها الملاحم و المثنويات والرباعيات وأشعار الغزل.

فمعظم مواضيع الغزل، مثلاً، تتناول العشق المنزه والحب العذري، وتعبر عن أماني الروح، وما تحتويه من احلام وآمال، وتصوَر نزعات النفس وماترجوه من ضراعة وابتهال(36). وتلعب الإيقاعات الذهنية دوراً بارزاً في تجسيد الصور الشعرية للغزليات، لأنها "أغانٍ تغنى، وأمانٍ تتمنى، يكون فيها ترويح للخاطر، وتحريك للمشاعر"(37).

وهذا لايعني أن الادب الفارسي انفلت من إشكالية اللفظ والمعنى، بل أن المفاضلة بين شقي تلك الثنائية شغلت، كذلك، بال الشعراء الفرس، حتى انتهت لدى بعض منهم بتفضيل المعنى على اللفظ.. وهذا مادفعهم نحو نظم الأشعار التعليمية والأشعار المتضمنة للأمثال والنوادر والنصائح(38)، وأنَ موجة من التقليد والمحافظة ومحاكاة القدماء سادت الساحة الأدبية الفارسية، وخصوصاً منذ العهد الصفوي(39).

لكن الطاقة الإبداعية الأكثر حضوراً في الشعر الفارسي نتلمسها عند الشعراء العارفين الذين فجرَوا طاقات اللغة الفارسية لتجسيد صورهم الذهنية المتحدة بإيقاعات العالم الروحي.. حتى أصبحوا ناطقين باسم الغيب(40).

تتميز التجربة الصوفية في الشعر الفارسي بكونها راجت رواجاً منقطع النظير في إيران والمنطقة بأسرها، حتى اجتازت زمانها ومكانها، وترجمت نماذجها القيمَة الى لغاتٍ عالمية، وقوبلت باستحسان وإعجاب كبيرين في أوروبا حتى سميت بالرومانسية الصوفية(41).

وأثارت هذه التجربة إعجاب الخاصة والعامة، رغم توظيفها لغةً مرموزة مشحونة بالعبارات والمصطلحات التي كانت غير مألوفة في زمانها، ورغم هيمنة الإتجاهات العقائدية التي وقفت بالضد من شطحات الصوفية، بل كفَرت قائليها في بعض الأحيان.. فإنها استمرت وشقت لنفسها الطريق حتى نفذت صميم الإيرانيين الذين أصبحوا يرددَون النماذج الشعرية للشعراء العارفين، ويبرَرون ألغازها وعباراتها اللامألوفة الطافحة بالصور الذهنية، من خلال فك رموزها، وإيصالها الى مرتبة لايمكن للإنسان العادي أن يجاريها، حتى قالوا فيهم: "حديثهم على ألسنة الطير، ولايدرك اسرارهم إلاّ من كان شبيهاً بسليمان"(42).

اذا وقفنا عند تجربة أحد ابرز هؤلاء الشعراء، ونقصد ذلك الملقب بـ(لسان الغيب وترجمان الأسرار)(43)، حافظ الشيرازي، الذي ترجمت آثاره الشعرية الى معظم اللغات الحية(44).. وذاعت شهرته بين الأوروبيين، حتى رأى فيه الشاعر الألماني الكبير (غوته) توأمه(45).. نجد أن تجربة هذا الشاعر إتسمت بجرأة تدميريَة خلاّقة، أعادت الدلالات المجازية لكلمات ومفاهيم فقدت بريقها بفعل نفوذ العبارات والأفكار الإسلامية الى حياة الإيرانيين.. كالكأس، الخمر، الحانة، شيخ المجوس، وجام جم.. وغيرها(46). كما تمكّنت من مداهمة الحياة وتلمسها بكل حركاتها وتناقضاتها وتداعياتها، لأن الوجود يتراءى أمام حافظ ككتلة من الحركة التي لاتهدأ، فليس النرجس والبنفسج يتحاوران

وحدهما مع ظفائر الحبيبة، بل أن القمر والسماء لهما حكايتهما معها أيضاً(47). وترتكز أشعار حافظ على إيقاعات ذهنية قائمة على التوازيات الطباقية للصور.. فهناك الصور القائمة على مسلمات ثابتة كفناء الانسان، وفناء العالم(48)... وهناك التنويعات الذهنية المنبثقة من حركية الحياة، التي لابد من اغتنام ملذاتها(49).

إن تجربة حافظ والشعراء العارفين عموماً، لها حضور دائم وفعّال في نفوس الإيرانيين، وحتى عند شعرائهم المجدّدين الذين يرون فيها جزءاً من اللغة الفارسية، وجزءاً من الشخصية الإيرانية(50).

في الشعر الكردي:

يشارك الشعر الكردي الشعر الفارسي في نقطتين جوهريتين، أدّتا الى تبلور الخطوط العامة لبناء الصور الشعرية والإيقاعات الذهنية في الشعر الكردي، بصورة مشابهة للصورة التي تمظهرت عليها المكوّنات الذهنية للشعر الفارسي بشكل عام. وتتمثل هاتان النقطتان في:

أولاً/ التجربة الصوفية: اذ بدأت اولى مراحل الشعر الكردي بتوظيف هذه التجربة توظيفاً جعل من الشاعر بابا طاهر الهمداني كائناً قلقاً متسائلاً، لاشيء يرضيه سوى التمرد والبحث والخروج من دائرة المكان الذي يضيق به، كي يتحد بالأفلاك، ويحاور القدر الإلهي(51).

واذ كانت العلاقة الجدلية بين الشعر والتصوف قد تجسّدت عند العديد من الشعراء العارفين في صور الوجد و الحلول مع الكائنات التي يغض الإنسان العادي الطرف عنها،كي يعيدها هو شعراً، بغية إيجاد التلاحم الكوني بين الأشياء التي إنفصلت عن البعض... فإن الملا أحمد الجزيري المتأثر بحافظ الشيرازي(52)، قد ترجم هذا الإحساس من خلال إيمانه بأن الحب والجمال كانا متحدين في البداية، لكنهما تفرّقا، وأن مهمة العاشق العارف تكمن في إعادة اللحمة اليهما(53).

إن الحنين الى الإنتقال والبحث عن نشوة الحياة يبلغان ذروتهما عند نالي الذي نشأ في مناخ ثقافي مطعّم بغزليات الشعراء العارفين "حافظ، سعدي، ومولانا جلال الدين الرومي.. وغيرهم"(54)، فيرى نالي أن الإغتراب عن الأشياء والعالم الخارجي، وحتى مع الذات، يبدأ حينما تأفل نجوم العشق(55). وهذه الروح الجامحة تبقى متقدة عند (مولوي) الذي يلجأ في بعض نصوصه الى ترميز لغته الشعرية(56)، كي يتمكن من النفوذ الى جزئيات الحياة والوجود. ولا شيء يُرضي الروح المتسائلة لـ (محوي)، ولاشيء يُنير دياجير التقوى أمام باصرته، إلاّ نور الكأس والخمر(57).

لقد شكّلت التجربة الصوفية تلك الخلفية الثقافية والروحية التي فتحت الآفاق أمام أذهان العديد من الشعراء الكرد.. نحو التأمل في الذات والعالم الخارجي تأملاً لايمكن تأطيره في قوالب مسبقة.

ثانياً/ تجريب الإيقاعات السريعة وانعكاسه الايجابي على طاقات الشاعر الذهنية: حيث راج

عند الشعراء الكرد إستخدام التشكيلات التي خفّفت من حدّة الهندسية الايقاعية الصارمة للقصيدة، ومنها الرباعي، والمثنوي، وتشكيلة الغزل التي يقل عدد أبياته عن عدد أبيات القصيدة، ويلتزم الشاعر بذكر لقبه الشعري في آخر بيت منها(58). وبما أن تشكيلة الغزل تتناول غالباً نزعات النفس، وتموجاتها، فإنّ الشعراء العارفين لجأوا الى استخدامها لترجمة أحاسيسهم، وشعرنة إيحاءاتهم الذهنية.

اما اللغة فقد كانت حقلاً مستقلاً وظفه الشاعر الكردي لإراءة صوره الذهنية بالصورة المتلائمة مع خصوصيات اللغة الكردية والطاقات المجازية والإيحائية لمفرداتها و تراكيبها النحوية. ومن أبرز مزايا هذه اللغة: أن العديد من الألفاظ والكلمات العربية التي دخلت الكردية، احتفظت بأوزانها، وفونيماتها، أو الفوناتها القريبة من جرس اصواتها الأصلية، وبذلك لم تفقد جانباً من دلالاتها المجازية.

فبعد قرون من الصمت الذي أعقب الفتوحات الإسلامية للمنطقة.. عادت الألفاظ الكردية تستخدم في النصوص الشعرية،ولكن بدلالات ذهنية جديدة دون دلالاتها الأصلية. فلفظة (ئاكر- النار)، مثلاً، لم تعد تستخدم للدلالة على النور والقداسة الإلهية لعلاقتها بدلالة النار في الديانة الزرادشتية، بل اصبحت تعطي دلالة مغايرة هي أقرب من دلالة نار جهنم في الدين الإسلامي. ورغم أن هذه الحالة لم تسلم منها لغات معظم شعوب المنطقة التي أسلمت بعد الفتح العربي –الإسلامي، ومنها الفارسية، لكن الكردية كانت اكثر عرضة من غيرها لمؤثرات الدين الجديد ولغته.. بدليل أن ظاهرة التطويع والتحوير لأصوات الألفاظ العربية الدخيلة ومعانيها، لم تصبح ظاهرة شائعة في اللغة الكردية كما شاعت في الفارسية، وبذلك لم يواجه الشاعر الكردي قوانين ثابتة أو مقاييس صارمة لتحديد صورة المنطوق الذي يناسب مدلوله الذهني.

ولكن ماينبغي الإشارة اليه، هو أن الأدب الكردي لم يسلم من هيمنة المحسنات اللفظية والبلاغية التي جعلت من الشعر، وخصوصاً في مراحله الكلاسيكية المتأخرة، مجرد صنعة. اذ أدى البحث عن وسائل تزيين اللغة وزخرفة الغطاء الخارجي للشعر الى إعاقة البحث المعمّق عن الصورة الفنية و إيقاعاته الذهنية.

إستقراء موازن:

جرى التنويه مما سبق بأن هناك مؤثرات رئيسية شاركت، ايجاباً وسلباً، في تزويد أبنية النصوص الشعرية في الآداب العربية والفارسية والكردية بمصادر الإنفتاح، أو بواعث الإنغلاق، على الطاقات الإيحائية التي تتولد منها الإيقاعات الذهنية.

والموضوع هنا ينصب على كيفية إستجابة الشعراء العرب والفرس والكرد لتلك المؤثرات التي انعكست بأشكال وصور مختلفة على نصوصهم الشعرية.

تبين مما تقدم أن الشعر العربي يعتمد إعتماداً أساسياً على اللغة وجرس ألفاظها التي تحفل بطاقات إيحائية ودلالات مجازية لتشكيل الصور الشعرية

والإيقاعات الذهنية. لكن الشعر الفارسي والشعر الكردي لا يعتمدان إلا إعتماداً جزئياً على جرس المفردة أو اللفظ، لأن الإنفتاح الكامل على الصور الشعرية في النصوص الفارسية والكردية لايتم إلا من خلال وضع المفردة في السياق الشعري كي تكون لها قدرة توليدية على استدعاء مفردات أخرى. وعلى الرغم من أن الشعر العربي يعتمد هو الآخر على سياق البيت أو الشطر الشعري، إلا أن احتفاظ معظم ألفاظها بدلالاتها المجازية وطاقاتها الإيحائية التي يقال بأن لها امتداداً عميقاً في الطبيعة والحياة، دفع الشاعر الى أن يتخيل الصورة الذهنية للنص الشعري والصورة الصوتية لكلماته في آن واحد، وبذلك توثقت العلاقة بين الصورتين الذهنية و الصوتية في الشعر العربي، بحيث اصبح البحث عن الأشكال الذهنية لا يتم إلا من خلال ايراد الألفاظ الواضعة لها مسبقاً. وعلى الرغم من أن هذه الميزة أوصلت الشعر العربي الى مرتبة راقية، إلا أنها أدت، في الوقت نفسه، الى تقوقع الشعر العربي في ذاته بشكل تصعب ترجمته الى اللغات الأخرى إلا في الحالات النادرة... لأن صوره الفنية وايقاعاته الذهنية ترتكز على طبيعة الجرس الذي لا يمكن ترجمته. لكن الحالة تختلف في الشعر الفارسي، بدليل أن ترجمات الآثار الشعرية لخيام وحافظ وسعدي وغيرهم من الشعراء الفرس قوبلت باهتمام كبير من لدن الأوروبيين[59].... في حين واجهت نتاجات بعض الشعراء العرب الكبار من أمثال: امرؤ القيس، المتنبي، ابو تمام، البحتري ... صعوبة في الترجمة، على الرغم من تبوؤهم مكانة راقية في خارطة الشعر العالمي [60]. ولاشك أن السبب الرئيس في ذلك يعود الى أن الصور الشعرية والإيقاعات الذهنية للقصائد العربية ترتبط ارتباطا وثيقا بجرس ألفاظها وموسيقاها التي لاتترجم.

من هنا، فإن الشعر العربي يركز، بصورة عامة، على محاورة أذن المتلقي، بدليل شيوع القصيدة لدى الشعراء العرب القدامى.. والإهتمام المفرط بأوزان الشعر ومحسناته اللفظية والبلاغية من قبل البيانيين، والتي نجد آثاراً لها لدى الشعراء الجدد المتمسكين بالتفعيلة العروضية. أما الشعر الفارسي، وخصوصاً في نماذجه المتضمنة للغزل الصوفي، فإنه يركز، بشكل عام، على محاورة الباصرة الداخلية للمتلقي، بدليل أنه يستعين غالباً بلغة العشاق، ويتوجه بالخطاب الى ذات اخرى بجوار ذات الشاعر، عن طريق اكتشاف استعارة أو مجاز جديد مدهش، أو إكتشاف تلاعب لفظي جديد، وما أشبه ذلك[61]. ويشارك الشعر الكردي الشعر الفارسي في هذه النقطة، بدليل شيوع الغزل الصوفي عند الشعراء الكرد بشكل واسع.

فياترى ماهي الأسباب التي أدت الى أن تسود التجربة الصوفية الأدب الفارسي، ومن ثم الأدب الكردي، بشكل أصبح الغزل الصوفي النموذج الشائع في كلا الأدبين.. في حين واجهت التجربة ذاتها في الأدب العربي معارضة شديدة من قبل معظم المتكلمين والفقهاء والبلاغيين الذين استحسنوا، بشكل أو بآخر، المضامين التقليدية للشعر كالمديح والهجاء والوصف

والرثـاء، وعارضـوا اسـتخدام اللغـة المرمـوزة الطافحـة بالإيحاءات والصور الذهنية للشعراء المتصوفين؟!

يرى العديد مـن البـاحثين أن التجربـة الصـوفية الـتي ظهـرت في الثقافـة العربيـة في أواخـر القـرن الثـاني الهجـري لها أصـول إيرانيـة قديمـة(62)، وأن هناك نماذج من الشعر العرفـاني في الآداب الإيرانيـة القديمـة تعـود الى أيـام الساسـانيين[63]، وأن ظهـور الاسلام في ايران كان مصاحبا لبروز مذاهب عرفانية جديـدة مطعمـة بتعـاليم الـدين الجديـد ومبادئـه، وإنشاء مراكز للتصوف امتد الى الشام والهند ومعظم المنـاطق العربيـة والاسـلامية[64]، لـذلك لم يجـد الشعراء الفـرس والكـرد الأوائـل مـن أمثـال (سـنائي، عطـار، باباطـاهر) صـعوبة في توظيـف الخيـال العرفـاني لتوسـيع المسـاحات الذهنيـة لنصوصـهم الشعرية، حتى أن البعض أطلق على باباطـاهر لقب (قدوة العارفين)[65].

أمـا التجربـة الصـوفية في الشـعر العربـي، وعلـى الرغم من إحداثها ثورة كوبيرنيكية في الأدب العربي على حد قول احـد المثقفين العـرب[66]، فإنها ظلت غريبة في الثقافة العربية، ولم يكتب لها أن تزحـزح أركان القصـيدة العربيـة القائمـة علـى وحـدة الـوزن والقافية ومضامين المدح والذم والفخر والرثـاء.. الخ، ولـو سمـح لهـذه التجربـة أن تأخـذ حيزهـا الزمـانى كاملاً لأحدثت تحولاً مهما في الأدب العربي[67]، لأنها (تقوم على تجاوز التـأريخ المكتـوب، ذلك انها تتجه الى المسـتقبل وتنتظـر المجـيء، وتقـوم علـى تجـاوز الظاهر المنظم في تعاليم وعقائد، ذلك أنها تتجه الى باطن العالم وتعنى بمعناه الخفـي أو المستورى وعلى تجاوز المنطق واحكامه)[68]. وفي التراث الصوفي وجـد الشـاعر العربـي أن الشـعر لاينحصـر في الـوزن، وأن طـرق التعـبير، وطـرق اسـتخدام اللغـة قـد تكـون شعرية، حتى وان كانت غير موزونة[69].

إذن، كان مـن الطبيعـي أن تواجـه هـذه التجربـة معارضة من قبـل البيـانيين العـرب وأغلـب نقـادهم، الـذين عـدوا الـوزن والقافيـة الحـد الأول للشـعر، وعرفوا العروض بأنه علم يميز صحيح أوزان الشعر عـن فاسـدها، وجعلـوا مـن شـروط فصـاحة الكلمـة والكـلام: خلوصـها مـن الغرابـة والتعقيـد اللفظـي والتعقيد المعنوي، وان تكون مألوفة الاستعمال[70].

في حـين نجـد أن التجربـة الصـوفية قوبلـت باستحسان كبير في الأدبين الفارسي والكـردي، مـع أن هذين الأدبين تـأثرا بشكل واضـح بقوانين البلاغـة والعروض والفصاحة العربية، وأن الخمريات والتغني بالكـأس والشـراب والإسـتنجاد بسـاقي الحانـة، أصـبح من اكثر النماذج الشعرية انتشاراً فيهما.

وعلى الرغم من أن لغـة الشـعراء العـارفين كانـت طافحة بالرموز الـتي وصـلت أحيانـاً حـد الشـطحات، غـير أن التجربـة اسـتمرت عنـد الشـعراء الفـرس والكرد، وأصبحت نماذجها تتردد في المجالس وحتى في المساجد، وبـرر رجـال الـدين مـن المتصوفة وغيرهـم استخدام الخمريات في الغزل العرفاني قائلين: إن لهـم -للشـعراء العـارفين- مصـطلحات وعبـارات يجـب أن لاتؤخـذ علـى معانيهـا الظـاهرة، لأن وراءهـا معـاني اخـرى أبعـد منـالاً، فأخـذوا يفسـرون (الخمـر) بأنها

خمر أزلية يديرها (الساقي) الذي يرشدك الى (طريق) الهداية، فيملأ لك (الكأس) من تعاليمه العالية التي تدفع عنك الضلالة والغواية[71].

عدا ذلك، وعند البحث عن (الصورة) في الأدب والفن العربيين.. نجد أن (الصورة) كمصطلح نقدي ومدلول ذهني غائبة الى حد ما في الثقافة العربية التي تسرب اليها مصطلح الصورة في بواكير عصر الترجمة[72]، ولم يكن له وجود قبل ذلك في الموروث النقدي والبلاغي.. وأن مايعلل ذلك هو أن العرب لم يهتموا بتوظيف الأحداث المتضمنة للصور والحركات الذهنية في نصوصهم، بدليل غياب الشعر القصصي والمسرحي في الأدب العربي[73]، وبدليل عدم عنايتهم بالفنون التشكيلية، وخلو الجزيرة العربية من شواهد وآثار معمارية. وأن تأكيد الإسلام على تحريم فنون الرسم والنحت[74]، كان مصاحباً للتقليل من شأن الصورة الشعرية، مقابل إيلاء اهمية زائدة بالإنتظام الوزني والتقفوي المسموع للقصيدة.

أما هذا التغييب لدور الصورة والفنون التشكيلية فلا نجده في إيران. ويطلعنا تأريخ الفن الإيراني على آثار فنية رائعة من التماثيل واللقيات واللوحات والجداريات التي ازدهرت في العهد الاسلامي، والتي كانت امتداداً للفن الساساني[75]. وعلى الرغم من انتشار تعاليم الدين الإسلامي، وخصوصاً تلك القاضية بتحريم الرسم والتصوير والنحت، فإن الفنون التشكيلية لم تصبح من المحرمات في ايران، حتى رسموا لوحات للإمام علي بن ابي طالب- رض - في العهد القاجاري[76].

فلاغرابة، إذن، أن نرى أن الصور الشعرية تحتل مساحة واسعة في الشعر الفارسي، وأن الإيقاعات الذهنية التي تجسد التناسب الذهني بين الصور الشعرية تحتل هي الأخرى مساحاتها العريضة. ولاشك أن الشعر الكردي يحتفظ بخصوصيات في هذا المضمار.. تقربه من الشعر الفارسي والفن الإيراني القديم، اكثر مما تقربه من الشعر العربي والثقافة العربية.

وتبقى هيمنة القافية الموحدة والانتظام الوزني في الشعر العربي، وخصوصاً في نموذج القصيدة، بمثابة العامل الرئيس الذي أدى الى انحسار الصورة الشعرية عند العرب.. وهذا مادفع أحد النقاد العرب بأن يقول: (إن الشعر العربي لم يتطور تطوراً فنياً موازياً لتطور المجتمع والحياة الإجتماعية. وان الشعر العربي في اقتصاره على القصيدة كنوع أدبي دون الأنواع الشعرية الأخرى (...) كان دون حاجة المجتمع والفرد، وربما بكثير)[77]. ويؤيد الناقد د. كمال أبوديب هذا الرأي بقوله: (يبدو في تاريخ الشعر العربي.. أن طغيان الإنتظام الوزني في الشعر، يرافقه انحسار للصورة الشعرية عنه، وكلما خفف طغيان الإنتظام الوزني ازداد بروز الصورة الشعرية في النصوص)[78]. لذلك كان شيوع التجربة الصوفية في الشعر العربي مرافقاً للدعوة الى استخدام اللغة كأداة لتصوير المجاهدات الروحية والتأملات الباطنية، لا كأداة لتزيين الألفاظ وتنظيم الأوزان والقوافي. وهذا مادفع العديد من العروضيين

والبلاغـيين أن يسـاندوا المـتكلمين والفقهـاء في معارضة هذه التجربة، التي مرت بهدوء في الأدبين الفارسي والكردي، حتى نفذت صميمهما.

الهوامش:

(1)ينظر: د. فهد محسن فرحان، (اللغة الشعرية الإنفتاح على اللون والتشكيل)، الموقف الثقافي، بغداد، العدد 20 آذار-نيسان، السنة الرابعة 1999، ص88.

(2) المرجع السابق، ص81.

(3)محمد عابد الجابري، بنيةالعقل العربي، ص77.

(4)لازالت المفاضلة بين اللفظ والمعنى بحثاً جارياً في الساحة الأدبية العربية. ينظر: ادونيس، زمن الشعر، ص15-16.

(5)شوبنهاور، عن: محمد رضا مبارك، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي. ص165.

(6)عبدالقاهر الجرجاني، عن: المرجع السابق، ص166.

(7)ينظر: د. عرفان عبدالحميد، (التصوف صفاء ومشاهدة)، مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد، العدد الخامس عشر 1971-1972، ص447-448.

(8)د. جابر عصفور، عن: محمد رضا مبارك، مرجع سبق ذكره، ص167-168.

(9) د.عرفان عبد الحميد،مرجع سبق ذكره،ص441.

(10) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص256.

(11) المرجع السابق، ص255-256.

(12) د.عرفان عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص442.

(13) د.علوي الهاشمي، ايقاع اللون. من إصدارات مهرجان المربد الشعري التاسع، ص7.

(14) د.محمد عابد الجابري، مرجع سبق ذكره، ص379.

(15) المرجع السابق، ص379.

(16) ينظر بهذا الشأن: سامي عبد الحميد وبدري حسون فريد، فن الإلقاء. ص53-55.

(17) د.ابراهيم السامرائي، فقه اللغة المقارن.ص 63.

(18) ادونيس، ديوان الشعر العربي.ج3.(سوريا:المدى،1996)،ج1، المقدمة ص15.

(19) المصدر السابق، ص15.

(20) المصدر ذاته، ص15.

(21) كان هذا التساؤل نابعاً من تساؤل آخر: هل القرآن معجز بألفاظه؟ أم بمعانيه؟ أم بهما معاً. ينظر: محمد عابد الجابري،بنية العقل العربي، ص75.

(22) ينظر: د.ناصر حلاوي، (مفهوم الصورة في الموروث العربي القديم)، الأقلام، العدد السابع-تموز 1990،ص 32.

(23) محمد جليل شلش،(الخيال الابداعي)، الأقلام، العدد الخامس،1998، ص30.

(24) محمد رضا مبارك، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، ص170.

(25) د.ناصر حلاوي، مرجع سبق ذكره، ص30.

(26) عن: ادونيس، سياسة الشعر، ص11.

(27) محمد رضا مبارك: مرجع سبق ذكره، ص170.

(28) ينظر: د.شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني- تاريخ الادب العربي(4). (ط6؛ القاهرة: دار المعارف، بلا)، ص106.

(29) أدونيس، الثابت والمتحول (3)صدمة الحداثة. ص264.

(30) د.عرفان عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص449.

(31) إن أهم ماقام به بدر شاكر السياب في حركة الحداثة العربية هو توظيف الأسطورة في قصائده. ينظر بهذا الشأن: عبد الجبار عباس، السياب.(بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، بلا)، ص93.

(32) حول الصوفية في الشعر العربي المعاصر ينظر: طراد الكبيسي، مقدمات في الشعر السومري، الأفريقي، الصوفي.(بغداد: مديرية الثقافة العامة، 1971)، ص217-228.

(33) حول خصوصية الهوية الإيرانية قبل الإسلام ينظر: شاهرخ مسكوب، هويت ايرانى و زبان فارسى.(ضـ1، ، تهران: انتشارات باغ آينه،1373)ص31.

(34) ينظر: دكتر ذبيح الله صفا، تاريخ ادبيات ايران، جلد اول، ص195.

(35) ينظر: احسان طبرى، مسائلي از فرهنك هنرو زبان، ص170-177.

(36) د.ابراهيم امين الشورابي، اغاني شيراز، ص47.

(37) المرجع السابق، ص47-48.

(38) كانت هذه المنظومات تقع غالباً في قالب المثنويات. ينظر: ادوارد جرانفيل براون، تاريخ الأدب في ايران، ص37.

(39) الموسوعة، ص92. ويذكر ان الصفويين هم اسرة ايرانية حكمت أواخر القرن 15. ينظر: المرجع السابق،ص1125.

(40) هذه اشارة الى تسمية الشاعر العارف حافظ الشيرازى بـ(لسان الغيب). ينظر بهذا الشأن: د.ابراهيم الشورابي، اغاني شيراز، ص8.

(41) ينظر: علي اللقماني، (نظرات نقدية في الأدبين الفارسي والعربي في ضوء المدارس الأدبية الأوروبية)، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثامن عشر 1974، ص357-358.

(42) عن:د.ابراهيم الشورابي، مرجع سبق ذكره، ص49.

(43) المرجع السابق، ص8-9.

(44) ينظر: المرجع ذاته، ص33-45.

(45) من القاموس الفلسفي، ت: مالك مسلماني، مجلة النهج، السنة (14)1998، العدد 51، دمشق،ص226.

(46) ينظر: اغاني شيراز، ص49-50. وكذلك: نماذجه الشعرية المتضمنة لهذه الكلمات. ويذكر أن هناك شعراء فرس سبقوا حافظ في استخدام هذه الكلمات والعبارات لكن الاستخدام الأمثل جاء على يده، بشكل أصبحت نماذجه الشعرية جزءاً من اللغة الفارسية. ينظر: رضا براهني، طلادرمس، جلد اول.(تهران: ميثاق، 1371)، ص71.

(47) د.عبد الحسين زرين كوب، از كوجة رندان،درباره زندكىو انديشه حافظ.(جـ6 ؛ تهران: مؤسسة انتشارات امير كبير، 1369)، ص73.

(48) المرجع السابق، ص72.

(49) يقول حافظ ماترجمته:(فاغتنم فرصة العيش والشباب فهي غنيمة، واستمع الى قولي فليس على الرسول الأ البلاغ). ينظر:اغاني شيراز، ص300.

(50) رضا براهني، طلا درمس، ص71.

(51) هذه اشارة الى رباعيته:

اگر دستم رسد بر چرخ گردون

از او پرسم كه اين چونستو ان چون

يكىرا داده صد گونه نعمت

يكىرا قرص جو الوده درخون)

(ترانه هاى باباطاهر، ص105)

ترجمته: (إذا وصلت يدي الى أفلاك الكون، اسألها عن السبب في هذا وذاك، لقد منحت البعض آلاف النعم، ومنحت البعض خبز الشعير الملوث بالدم).وحول نزعة التمرد العرفاني عند باباطاهر، ينظر: وحيد دستكردى، ترانه هاى باباطاهر، انتشارات جاويدان، ص5-8.

(52) رزوى ليسكو، (الادب الكردى)ترجمة من الفرنسية: د.كمال معروف، كولان العربي، العدد السابق، ص162.

(53) ينظر: علاءالدين سجادي، دةقةكانى ئةدةبى كوردى، ل68.

(54) ينظر: المرجع السابق، ص85.

(55) هذه اشارة الى بيته:

هەتا تۆم ئاشنا بووی ئاشنام بوون

ئەمێستا موو بەمووم ئەغیارە بێتۆ

(ديوانى نالى، ل383)

معناه:(طالما كنت انيستي كان الجميع أنيساً، ولكنني الآن أحس بالإغتراب حتى مع ذاتي).

(56) ينظر: علاءالدين سجادي، *دەقەكانى*...، ل96.

(57) يقول محوى:

بەنووری بادە کەشفی زوڵمەتی تەقوانەکەم چی بکەم؟

بەشەمعێکی وەها چاری شەوێکی وانەکەم چی بکە

(ديوانى *مەحوى*، ل230)

معناه:(ماذا أفعل إن لم أنر ظلمات التقوى بنور الخمر؟!.. ماذا أفعل إن لم أزح ستائر الدجى عن وجه الليل بشمعة كهذه؟!)

(58) ينظر: أغاني شيراز، ص47. وكذلك: معظم الدواوين الشعرية الكردية المتضمنة للغزليات الصوفية كدواوين نالى، محوى، سالم، كوردى...الخ.

(59) يقول د.عبد الرحمن بدوي: إن لحافظ من التأثير والشهرة في الغرب حظ لايدانيه فيه إلا الخيام من بين شعراء الشرق أجمعين. ينظر: مقدمة كتاب الديوان الشرقي للمؤلف الغربي- جيته. (ط2؛ بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980)ص37.

(60) حول مكانة الشعر العربي القديم في خارطة الشعر العالمي، ينظر: نظرية الأدب، تأليف: عدد من الباحثين السوفييت. ت: د.جميل نصيف التكريتي، ص456-463.

(61) ينظر: د.عبد الرحمن بدوي، الإنسان الكامل في الإسلام. (ط2؛ الكويت: وكالة المطبوعات، 1976)،ص73-74.

(62) ينظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص258. وكذلك: علاءالدين السجادي، دةقةكانى ئةدةبى كوردى، ل51، وكذلك:مەريوان وريا قانع، (رۆشنبيرى كورديو سيستمى عيرفانى)، گۆڤارى ئازادى، ژ(2)، 1992، ل11.

(63) ينظر: دكتر عبدالحسين زرين كوب، آشنايى بانقد ادبى. (جـ 3؛ تهران: انتشارات سخن، 1374)، ص333.

(64) د.ذبيح الله صفا، تاريخ ادبيات ايران، ج2، ص46-47.

(65) دكتر عبدالحسين زرين كوب، جستجو در تصوف ايران. (جـ 4 ؛ تهران: انتشارات امير كبير،1369)، ص187.

(66) ادونيس، الثابت والمتحول- صدمة الحداثة، ص264.

(67) محمد رمضان مبارك، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي، ص168.

(68) أدونيس، الثابت والمتحول- تأصيل الأصول، ص91.

(69) فخري صالح، (قصيدة النثر العربية بحثاً عن معيار للشعرية، الاديب المعاصر، العدد 41 كانون الثاني 1990، ص100.

(70) ينظر: عبد الرضا علي، العروض والقافية، ص10. وكذلك: جواهر البلاغة ص22،7.

(71) إبراهيم الشورابي، اغاني شيراز. ص49.

(72) د.ناصر حلاوي، مفهوم الصورة في الموروث العربي القديم..، الاقلام، العدد 7-1990، ص30.

(73) ينظر: طه‌حسين، من حديث الشعر والنثر.(ط10؛ القاهرة: دار المعارف، 1969)، ص15.

(74) ينظر: شاهرخ مسكوب،هويت ايرانى وزبان فارسى، ص35.

(75) ينظر: ريجارد. ن فراى، عصر زرين فرهنگ ايران.(ضـ 3 ، تهران: مجتمع فرهنگى سروش، 1375)،نماذج من الفن الايراني في الصفحات غير المرقمة بين ص28وص29. الشكل (7-8).

(76) المصدر السابق، الشكل (41).

(77) (لماذا لم يعرف العرب المسرح؟)، طراد الكبيسي، آفاق عربية، العدد الثاني عشر، 1976، ص36.

(78) كمال أبوديب، عن: فخري صالح، (قصيدة النثر بحثاً عن معيار للشعرية)- مجلة الأديب المعاصر، العدد 41، كانون الثاني 1990، ص101.

في العدد القادم

نماذج من الشعر النسوي الكردي المعاصر

الهيام الحسي لدى بابا طاهر الهمداني
او انتقال الحب من الارض الى السماء

محمد سالار شيخ علي

استأثرالتصوف باهتمام الباحثين قديماً و حديثاً و كثرت الابحاث و الدراسات التي تناولته تأريخاً و دراسة و نقداً, و تباينت الاراء في حقيقته و في اثره على الفرد و الجماعة. و لا اعتقد ان تراثاً مكتوباً, مهما كان نوعه اختلف فيه مثل ما اختلف في التراث الصوفي و ارى ان ما كتب عن التصوف ما كتب عن غيره من المعطيات العقل الانساني بحيث ما ان نتصفح الكتب و الابحاث و الدراسات سواء أكانت تأريخية او ادبية او فنية او سياسية او دينية او غير دينية حتى احياناً الكتب العلمية الا نواجه فيها الحديث عن التصوف و دوره و رجاله, ذلك لأن التصوف نزعة روحية توهجت في اعماق الانسان منذ القدم و قبس نوراني اتقد في حناياه, و ايقن ان ذلك القبس ومضة من ومضات الحقيقة المطلقة, التي اولع الانسان بالاهتداء اليها و الاتصال بها منذ فجر تفكيره في نفسه و في ما حوله من العوالم ليتعرف اسبابها و اسرارها و مبدأها و منتهاها. و لكن هذا الحب المتأصل و المتجذر في اعماق الانسان للاطلاع على الغيب و استكشاف المجهول قد تعوقه العوائق عن الوصول الى غايته فيضعف او يموت و لكنه ان مات في بعض النفوس فقد يظل قوياً و مضطرباً في نفوس اخرى مع اختلاف اصحابها اختلافاً واضحاً في طرق حبهم للحقيقة و في نظرتهم اليها لان منهم من يرى الحقيقة نحو ما رأى "دانتي" الشاعر الايطالي محبوبته "بياترس" شيئاً يمت الى هذا العالم بصلة, و لكنه يكشف لنا من عالم اخر قد يراها الشاعر في حلمه الشعري, و الزاهد في محرابه و الصوفي في قلبه و الفنان في جمال الكون و هكذا.. اذن تساوت في ذلك الشعور الانساني جمعاء, في الماضي و الحاضر في الشرق و الغرب بصرف النظر عن الأقوام و الاوطان و الازمنة و الامكنة. اختلفت الوسائل و تعددت العقائد, و

لكن المنطلق واحدا و الغاية واحدة, فالبوذي الذي يفنى عن نفسه في حالات النيرفانا في اعماق الهند السحيقة, هو نفسه المتعبد في هيكله يحرق البخور, و هو باباطاهر العريان الدرويش الغريب الاطوار الذي يصبح يجول في الكون وحده, و لما يمسي يتوسد حجراً و ها هو يقول:

انا الدرويش الذي يدعى قلندر

بلاجاه و لا حشم و مظهر

حينما اصبح اطوف الكون وحدي

و في الليل مضجعي ارض و وسادتي حجر

و صرخة الصوفي الالمان اكهارت الشهيرة: "ليس لأي مخلوق ان يلفظ كلمة (انا هو) الا الله وحده اذ على المخلوق ان يشهد على نفسه بانه ليس شيئاً" أليست هذه الصرخة هي صدى لما صرح به ابو نصر عبدالله بن علي السراج الملقب بطاووس الفقراء قائلاً: "لا يلفظ انا الا الله فهو الشخص الحقيقي" و الصوفي الانكليزي ادوار كاربنتر Edward Capenter (1844-1929) يصرح قائلاً: "هذا الادراك يبدو و كأن جميع المشاعر اتحدت في شعور واحد" و هذا القول هو كذلك صدى لقول ابن الفارض الملقب بسلطان العاشقين 576 هـ – 1182 م الذي سجله قبل سبعة قرون:

فعيني ناحت و اللسان مشاهد

و ينطق مني السمع واليد اصخت

و سمعي عين تجتلي كل مابدا

و عيني سمع ان شدا الناس تنصت

نحن لا نستوقف هذه النصوص لنتهم اصحابها بالانتحال او نقول اقتبس بعضهم من البعض, بل قصدنا من عرض هذه النصوص هو الاستدلال بها على ان اولئك الرجال كلهم جبلوا من طينة واحدة و صبوا من حيث روحانيتهم في قالب واحد و استمدوا تلك الاشراقات الروحية من نبع واحد بل كأن قبساً من نور غير نور هذا العالم يسري في كيانهم و ينير السبيل امامهم لنيل مطلبهم. و نرى التشابه بل التماثل بين مقولاتهم واضعاً بصورة لاغبار عليها.

و لذلك نرى ما كتب عن التصوف كثيراً جداً كما نوهنا اليه لانه اضافة الى ما كتب عنه من قبل علماء الاسلام و باحثيه كذلك ساهم المستشرقون مساهمة كبيرة في هذا المجال و ابرزهم: فرينولد نيكلسون, جلود تسهير, هنرى كوبان, اسين بلاثيوس, و على رأسهم الاستاذ لويس ما سينون الذي يعتبر اعظم باحث بين المستشرقين في مجال التصوف الاسلامي على الاطلاق[1] و غيرهم من المستشرقين الذين كتبوا عن بعض اعلام التصوف الاسلامي مثل: الحلاج, و المحاسبي, و الجنيد البغدادي, و ابن عربي, و ابن مسرة, و ابن سبعين, و الغزالي, و السهروردي, و جلال الدين الرومي و غيرهم من اساطين التصوف و مما لا مؤاربة فيه ان باباطاهر الهمداني كان من جهابزة الصوفية كما يبدو من رباعياته و بعض مقولاته و لكن كما قال العبقري الراحل العلامة الشيخ محمد الخال في مجلة المجمع العلمي الكردي العدد الخامس ما معناه: "ان

الذي كتب عن هذا الشاعر الفريد لم يعطيه جزءاً من حقه بل ان بعض ما كتب عنه قلل من شأنه" و يرجع هذا الى اسباب حدد بعضها الاستاذ الخال منها: "عدم تملقه للناس بحيث لم يمدح في حياته الملوك و لا جبابرة زمانه و المستبدين الطغاة"[2] لان نفسه الأبية لم ترض ان تخالط قصائده الحصنة دنس عباد المظاهر و أبالسة المطامع و الشهوات و لذلك لم تكتب رباعياته بماء الذهب و لم تعلق فوق عروش السلاطين ولارصعت بها تيجان الملوك و مع ذلك لاتزال رباعياته مشرقة في صفحات الادب كأشراقة الشمس في وسط النهار لانها نقشت على قلوب عشاق الحقيقة و المدقعين الذين تمتع الاغنياء المترفون بما يسد رمقهم, و اولئك العشاق حفيظون للامانة لانهم هم الذين اختارهم الهمداني و عاشرهم و اوضح لهم معالم الطريق توضيحاً بحيث لا يضلونها مهما كان الليل حالكاً و بذلك خلدت اقواله و وصلت الينا مطرة بطرة الحب و العز. ثانياً انه عاش ناسكاً منعزلاً عن الناس و بالذات الملوك و السلاطين ثالثاً انه كسائر كتاب الكرد لم تفلت اعماله من تعسف المارقين و الجائرين ولامن تلاعب ذوي العاهات و بائعي الاقلام المنحرفين الذين يعيشون لبطونهم و داهمتهم بهيميتهم بحيث لا يرون أي شيء سوى غرائزهم النتنة, و لكن العدالة كامنة في كل شيء في هذا الوجود و ان السحب مهما تراكمت فلن تستطيع ان تحجب الشمس و لا تستطيع ان تطمس ضوءها و انه اضافة الى ما كتب عنه من قبل كتابنا المتضلعين فقد كتب عنه بعض المستشرقين بصرف النظر عن منصفيهم و متعسفيهم فنحن نقدر جهودهم منهم مينورسكى في كتابه ما تيروكس الصادر في موسكو عام 1911 و وليم جاكسون في كتابه زيارة الى قبر باباطاهر الهمداني الصادر عام 1922 و المستشرق هارون الين و المستشرق الفرنسي جونيوميسو (كلمانت هوار) و ادواردهن و بروان كما ترجم بعض رباعيات بابا الى الفرنسية و الانكليزية و الجدير بالذكر ان رباعيات بابا نشرت مع ترجمة فرنسية في 1885م من قبل الباحث كليمان نورمار[3] و لكن مع كل ذلك لايزال ميدان الهمداني متسعاً لدراسات مكثفة خاصة رباعياته التي لا تنضب معانيها مهما امتشق الكتاب مراقمهم الجبارة لشرحها و كشف اسرارها لان فلسفة التصوف و حقيقته و عاله كلها كامنة في رباعياته ليس هذا فقط بل ان مراحله التي يمربها الزهاد كلها مسرودة فيها و من المعلوم ان التصوف عالم متوسع و متشعب بحيث يسع كل شيء كما صرح بذلك الهمداني: "التصوف يسع كل شيء و لا يسعه شيء"[4] و لفرسان التصوف صولات و جولات في هذا الميدان اللامتناهي بحيث ان اقطاب التصوف انفسهم متحيرون فيما بينهم بخصوص بعض الحالات التي تأخذ المجذوبين حيث يقول الهمداني: "انتهاء العقل الى التحير, و انتهاء التحير الى السكر"[5] لان الحقيقة تتجلى على قدر مقامات العارفين بحيث يمكن ان تتجلى حقيقة واحدة لمجموعة من فطاحل التصوف, و لكن يختلف تأثيرها

حسب مستوى تطورهم في هذا المجال وقوة استجاباتهم للتجليات و تبعاً لذلك يعبر كل واحد منهم مما يشاهد من ومضات الحقيقة على قدر نضجه النفسي و استعداده الروحي و لذلك نرى اقوالهم متباينة و هذه الاقوال المتباينة انعكاسات نشاهد فيها احوالهم كما قال الشيخ جنيد البغدادي: "لون الماء لون انائه".

ان الحياة الروحية تطورت لدى العريان حتى وصل الى ذروة التصوف و تجرد من الحواس كلها و لذلك ان رباعياته تقتضي الشرح و التعليق بل بعضها يجب تأويله لان بابا من الرجال الذين جبلوا على التمرد و عدم الانصياع للقوانين و التقاليد المتحجرة هذه هي شيمة ذوي العقول الجبارة كيف يكون العقل لوخلا من التمرد و الثورة و الاعتساف؟ ان اقوى الاغاني و الأناشيد هي انفاس الملتاعين الذين قارعوا فتن الوجود ان اعظم الرجال هم الذين نقحوا ارواحهم في بحار الشهوات.

ان اقوى العيون هي العيون التي رأت دقائق الخفايا في الوان الصباحة و الجمال.

ان اقوى القلوب هي القلوب التي واجهت سرائر الليل.

ان اعظم النفوس هي النفوس التي عاقرت كؤوس الغل و الحقد و الهيام.

ان اعظم العقول هي العقول التي اصطرعت في ميادين الشك و اليقين.

حدثوني عن رجل واحد بين العظماء شهد تأريخه بانه احترم العرف و القوانين و التقاليد. ان الرجل العظيم هو الحوت الذي يسير كما يشاء, و من سواه من الصغار هم صغار الاسماك التي تساير التيار لتقع في شباك الصيادين. و ها هو الروائي العالمي العظيم نجيب محفوظ يقول: تحياتي للمتشددين اينما كانوا, لانهم هم الذين يحولون مجرى التأريخ[6] اذن اقتحام الاهوال غاية ما يشتهي العارفون لانهم يحبون اختراق الحواجز الوهمية و لذلك نرى لما تتحرر ارواحهم من اوهاق الجسد و النواميس المادية يمخرون لجج بحار الفلسفة و الافكار العميقة حتى يصلوا الى قعرها و لكن ابت روحهم الصوالة التسليم سطوة الفكر و التفلسف نابذين الجمود و التقليد وراء ظهورهم غير لافتين نظراً لوعرة الطريق و مخاطرها بل يواجهون المصاعب جذلين بغية اطاحتهم بالافكار البالية و ايقاظ العقول الهاجعة التي لا ترى من هذا الوجود الا ما تفضل به عليها العيون المتجردة من التفكر و التأمل و بالتأكيد ان بابا طاهر كان من الرجال المتعطشين لاكتشاف المجهول الذين لهم نظرات حصيفة تثقب الحواجز المادية, و هناك يجدون ما يخلب الالباب و ما يروي ظمأهم و غليلهم و لذلك يستصغرون هذه الحياة الزائلة و يحلقون في فضاءات الروح منطلقين في عالم الحقيقة اللامتناهي, حيث النور و الصفاء, هناك فقط تستوى المتناقضات و تتوحد, و تحيا الأشاء جميعاً في انساق ازلي خالد, ان بابا طاهر يشير الى هذه الحالة:

انا الباز الاشهب الهمداني

اقضي حياتي في الفلاء و الصحاري

بأجنحتي اسمو نحو القمم و ذرى الجبال
و بمخالبي اصيد و اسبق كل الرجال

و بابا طاهر مع تربعه على مقامه الروحي السامي و وصوله الى القمة في التصوف كان له قدم في الحب الحسي و ما في ذلك عجب, لان كثيراً من اقطاب التصوف قبل تكوينهم الروحي كانوا من عشاق المظاهر الحسية بحيث قد شغف بعضهم بجمال المرأة, ليس هذا فقط بل من الصوفية من صرح بان عشق صور الحسان هو قنطرة الى عشق الاله. منهم صدر الدين الشيرازي, و هذا الرأي الذي صرح به الشيرازي كان من اسباب ثورة رجال الدين عليه[7] و هذا هو الشيخ الاكبر ابن عربي كان له صبوات في عالم الحس قبل ان تنقل صبواته الى عالم الروح و الدليل على ذلك هو ما سجله نفسه في "ترجمان الاشواق" و هو ديوان يتغزل فيه "بالنظام" ابنة الشيخ مكين الدين بن شجاع بن رستم الذي لقيه بمكة المكرمة حين نزل بها, و كانت بنت الشيخ خفيفة الظل عذبة الحديث ملكت عليه اقطار قلبه و سارت به في شغاف الهوى العذري و الف ابن عربي يصف تلك الفتاة بقلمه الرشيق: "كانت لهذا الشيخ رضي الله عنه بنت عذراء, طفيلة هيفاء, تقيد النظر, و تزين المحاضر, و تحير الناظر, تسمى بالنظام و تقلب بعين الشمس و البهاء من العابدات العالمات السابحات الزاهدات, شيخة الحرمين.." و ابن عربي يصرح قائلاً: "فكل اسم اذكره فعنها اكني و كل دار اندبها فدارها اعني" و لاشك عندنا في نبل هذا الهوى و طهارته, و لكن ذلك الحب العذري هو الدرجة الاولى بين هوى الارض و هوى السماء, و هو طليعة الايمان بان للحب غاية اسمى من نعيم الحواس و كذلك ان الحب الحسي كان اساس الحب الروحي عند ابن الفارض, (576 هـ – 632 هـ) لقد هدتنا التجارب الى ان المحبين في العوالم الروحية كانوا في البداية سجينا في الاودية الحسية, و الهيام بالجمال الالهي لا يقع الا بعد الهيام الحسي.

اذن ان الدكتور زكي مبارك على الحق لما قال في كتابه (التصوف الاسلامي): "ان ابن الفارض في هيامه بالجمال الالهي كان مديناً الى الصور الجميلة التي الهبت حواسه و هو يغدو و يروح في ميادين القاهرة, و اكاد ارى بعيني اشباحاً تختال في قصائده الصوفية.."[8] و كذلك الاستاذ هادي العلوي يقول: "انا اتردد في جعل حب ابن الفارض حباً صوفياً فأنا اجد فيه حب الشاعر للمرأة لنقرأ من فائيته العاتية:

نفسي تحدثني بانك متلفي
نفسي فداك عرفت ام لم تعرف
يا مانعي طيب المنام و مانحي
ثوب السقام به و وجدي المتلفي
ما لي سوى روحي و باذل روحه
في حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها لقد اسعفتني
يا خيبة المسعى اذا لم تسعف[8]

كل من في حماك يهواك لكن

انا وحدي بكل منافي حماكا

فقت اهل الجمال حسناً و حسنى

فبهم فاقة الى معناكا

يحشر العاشقون تحت لوائي

و جميع الملاحين تحت لوكا[9]

كما ان هناك دليلاً على ان الشيخ ابابكر الشبلي كان عاشقاً و لكن كتم اسم معشوقته كما صرح بذلك الكتمان في البيتين اللذين يدعي فيهما امارة الحب حيث قال:

باح مجنون عامر بهواه

و كتمت الهوى ففزت بوجدي

فاذا كان في القيامة نودي

اين اهل الهوى؟ تقدمت وحدي

و كذلك ان باباطاهر له صبوات حسية بحيث نستطيع ان نقول ان حبه الحسي هو سر في وقدة حبه الروحي و نحن لانرتاب في نبل هذا الهوى و طهارته و لكن هذا الحب هو الخطوة الاولى لاجتياز الحب الحسى الفاني و الاقبال على الحب الروحي الخالد الذي لا يفنى كما قال افلاطون: ان العقل الذي يسمو الى معرفة الحقائق الابدية لا يفنى.

و لاشك ان باباطاهر قد وجد في هذه الصورة الانسانية الحسناء مظهراً من مظاهر الجمال الالهي المطلق الذي تعشقه و قدسه و اسر قلبه لا من حيث هي امرأة يعشق جمالها الفاني, بل من حيث هي رمز لذلك الجمال الشامل المتجلى فيها في صورة كاملة, اذن لم تكن حبيبته الحسناء سوى واحدة من صور الجمال اللانهائي التي احبها باباطاهر لا من حيث ذاتها "بل من حيث هي رموز و مجال للذات الالهية المحبوبة على الاطلاق و المعبودة على الاطلاق. او نقول كما يقول الاستاذ هادي العلوي: المحبة جسر يمتد ما بين المرأة و السماء و فيها تتروحن المرأة فتفقد جسدها و تبقى منها الحروف و لذلك لا يتغزل الصوفي و انما يذكر الجمال المطلق و الاشتياق اليه بعين البصيرة لا حواسه الخمس[10] و ان رباعياته التي عبر بها عما في اعماقه من الحب الاهيم تجاه حبيبته صريحة جداً و انعكس فيها هيامه الحسي بصورة لاغبار عليها

قلبي من عشقك لا يعرف القرار

عيني مفعمة بدم كبدي المنهار

كل ذي حب طاهر عذري

يصير قلبه موقداً للنار

لي قلب يحترق من عشقك الاهيم

اقلب اجفاني و دموعي ممزوجة بالدم

و ما قلب العاشق الا مثل الحطب الاخضر

يدمع من جانب و من جانبه الاخر يضطرم

الليل حالك و الذئاب تمزق قطيع النعاج

اقبلي نحوي اعدي شعرك الداجي

و اعطيني قبلة من وجنتك

احسبيها ماء اعطيته للحاج

حينما يجن الليل علي

تحترق احشائي و ما لدي

من اجل ليلى و جمالها
اخشى ان يفلت الايمان لدي
زورني يوما لأرى عينيك
اجني العبق من ندى وجنتيك
كوني معي و لاتهجريني ابداً
اكون خادما لديك

من حبيبي سقمي و دوائي
من حبيبي سروري و بكائي
لو سلخني الجزار سلخاً
يبقى عشقك حياً يا رجائي

خصلات شعرك انحنت على الغد
تعانق السنبل و الورد
كيف تلعبين بضفائرك هكذا
كل شعرة منها علق بها قلب عاشق مرد

كم كان مشغوفاً بجمال معشوقته و كم كان متفرغاً لها و مدققاً في حركاتها و سكناتها نرى لوعته بها شبطته عن كل شيء سواها و هيامه بها جعله معتقداً ان كل شعرة من شعراتها قبلة لعاشق مثله كأن ضفائرها مغروسة في اعماق قلوب العشاق او ان قلوبهم مكبلة بشعراتها

ان النسمة التي تأتي من العقاص
اطيب عندي من اريج الصباح
احتضن طيفك ليلاً
لما اسحر اجد عبير الوردة يا صاح

أي كلمة ابسط من هذه الرباعية ذات المفردات الواضحة و مع ذلك تتفجر منها المعاني المتلفعة التي تأسر الالباب و تهز القلوب أي حب هذا الذي الهب قلبه و أي قلب هذا الذي اتسع لهذا الحب العارم اية مدرسة ادبية انجبت هذا الشاعر ذا الخيال المرهف الخلاق و تخرج منها هذا الصوفي العبقري؟ اهناك قلب لم يرهف و لم يشتعل حينما يسمع هذه الرباعية؟ ام جلد لم يقشعر؟ لا اظن بقلب معهما كان جدباً لا يهتز و لا يلتهب لهذا التعبير الساحر.

مجرد خيال في حبيبته يعطيه كل ما يتمنى الصب من اللقاء ما ارق هذا الخيال و ما اهنأ هذا الحلم و ما اطيب هذا الشذا و ما اعظم هذا الشاعر, ما اصدق قول انتيشتاين هذا: "ان اجمل انفعال يمكن ان تهتز له نفوسنا هو انفعال الصوفي فهو اصل كل فن و كل حق, فمن ينعدم فيه هذا الشعور لا تجد الدهشة سبيلاً الى نفسه.. هذا هو قول صاحب النظرية النسبية التي غيرت الصورة الموضوعية للعالم. كم كان صادقاً مع نفسه و كم كان مبدعاً و متفوقاً في مجاله العلمي الخاص من غير ان يتجاهل الاحساسات الانسانية و للذات الروحية التي يتحسس بها عالم فلكي وراء مرصده كما يتحسس بها زاهد في خلوته او راهب في صومعته او فلاح في حقله, اجل لقد صدق انيشتاين لما قال: من ينعدم فيه الحنان و الذوق الانساني الخاص و النشوة الروحية التي هي من اهم الخصائص الانسانية و الانسان المتجرد من الاحساسات الروحية هو ميت او مشرف على

الموت[11] و انيشتاين نفسه بعد ان اكتشف النسبية التي ادت الى تفتيت الذرة قال: ما اكثر الاسرار التي مازالت في الكون. و الكاتب المصري رجاء النقاش يقول: عندما نقرأ كتاب انيشتاين بعنوان "العالم كما اراه" نحس بأنامع احد الدراويش المتصوفين لامع احد العلماء الذين فتحوا اسرار الكون بمفتاح العقل. و ان هذا النوع من الحب العذري حينما يحتل الفؤاد يجعله بحاثاً عن عالم اوسع لانه يسمو نحو الخلود و لا يرضى بهذه الحياة و لا يلتفت الى ما فيها من الجمال الحسي و الملذات المادية لان هذه الاشياء كلها في نظره ليست الا ظلاً سيفنى و هذه النظرة الصوفية تشبه نظرة نبي الله ابراهيم (عليه السلام) الواردة في القران الكريم: "فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما افل قال لا احب الافلين" الانعام

نعم كذلك بابا من النشاوى الذين يكرهون الافول لحبهم لانه لثم من كأس العميا الحقيقي و ادرك بوعيه اللاقط ان الجمال الحسي لا يعمر بل هو كأزهار الربيع التي نراها ناضرة لأيام قليلة ثم تذبل بعد اسبوع او اقل كما صورها الهمداني نفسه:

روضة الربيع عمرها اسبوع

تأتي وراءها اشهر الدموع

حين يجول الصائح في القرى

لنقص العهود تسحب الاذرع

و حسب فهمي من هذه الرباعية ان بابا قد وصل الى ذروة الحب الحسي و في هذه الحالة لم تبق بين هذا الحب و الحب الحقيقي الخالد الا الخطوة التي خطاها الهمداني لينقذ بها حبه الطاهر من الشخص و التصدأ و ليطلقه في عالم فسيح يتجول فيه متحرراً من اوهاق الجسد و القيود المادية و فعلاً اجتاز العريان هذه المرحلة و امتطى صهوة جواده سباقاً كل اقرانه في عالم الخلود و هذا الازدراء للجمال الحسي الزائل نجده كثيراً في اقوال العارفين و ها هو جلال الدين الرومي يقول:

الى متى تعانق هذا المحبوب الميت

عانق الروح و ان كانت لا حدود لها

فالأزهار التي تتولد في الربيع تموت في الخريف

و بستان المحبة لا مدد له من الربيع

و لذلك يرى الامام الغزالي:

"ان المحبة هي الغاية القصوى من المقامات و الذروة العليا من الدرجات: فما بعد المحبة مقام الا و هو ثمرة من ثمارها, و تابع من توابعها كالشوق و الأنس و الرضا و اخواتها و لا قبل المحبة مقام الا و هو مقدمة من مقدماتها كالتوبة و الصبر و الزهد و غيرها"[13]

و ان محبة الله تعالى جعلت الصوفية احبوا كل شيء لأن الاشياء اثار المحبوب بل اعتبروا محبة الخلق قنطرة يعبر عليها الصوفي الى محبة الله, ليس هذا فقط بل اشترط بعضهم ان يكون للمريد سابقة عهد بحب انساني, لان من لا عهد له بحب انساني لا يستطيع ان يرقى درجة واحدة في سلم الحب الالهي, و هذه النزعة نجدلها صدى قوياً عند معتنقي وحدة الوجود.[14]

و يقول جلال الدين الرومي: "الحب دواء العجب و الرياء و طبيب جميع الادواء، و لا يكون الايثار صادقاً الا عند من مزق الحب توبة"[15]

بل يرى الصوفية ان الحب هو سر خلق الله تعالى للعالم لانه اراد ان يكتشف سر جماله الازلي ليظهر في صفحة الوجود كما في الحديث القدسي: "كنت كنزاً مخفياً فأحببت ان اعرف فخلقت الخلق فيه عرفوني" [16]

اذن لسنا مبالغين عندما نقول: ليست هناك فكرة او فلسفة او قصيدة انسانية خالدة الا نرى في طياتها نزعة من نزعات الصوفية و بالذات الافكار و المذاهب المتطورة التي تدافع عن الانسان و تدعو الى تطبيق العدالة و تجسيد الحرية بين بني الانسان و ايجاد الراحة لهم و هذا الشيخ عبد القادر الكيلاني يحدد وظيفة التصوف بانها: "ايجاد الراحة للخلق" و كما يقول (قدس الله روحه): "اود لو ان الدنيا في يدي لاطعمها الجياع"[17] و سمنون المحب يقول: "لا يعبر عن الشيء الا بما هو ارق منه و لا شيء ارق من المحبة فبماذا يعبر عنها"[18]

و هذا الجنيد البغدادي و شيخ الطائفتين يقول: "الصوفي كالارض يطؤها البر و الفاجر, و كالسحاب يظل كل شيء و كالمطر يسقي كل شيء"[19] اليس هذا هو مبدأ التسامح و الايثار في التصوف فالصوفي لا يفرق في معاملته الناس على اساس من الدين او العنصر او اللون. و ابو تراب النخشي يقول: "الصوفي لا يكدره شيء و يصفو به كل شيء"[20] و الصوفي الفيلسوف الصيني لاوتسه الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد: "دعا الى اشاعة الاموال و عدم اكتنازها و احتكارها لفئة قليلة من الاغنياء و ارباب الدولة و عارض الاسراف في التمدن على حساب جوهر الانسان.. و عارض الحرب و دعا الى تحويل السيوف الى المحاريث.[21]

و بابا طاهر العريان يصف التصوف: "بانه يسع كل شيء و لا يسعه شيء"

و لذلك نرى بعض الكتاب و المفكرين البارزين يدرسون اعمال الصوفية ليجدوا فيها نقاط التلاقي بينهم و بين الافكار و المذاهب العصرية الحديثة منهم الاستاذ حسين مروه, الاستاذ سامي خرطبيل, و الاستاذ هادي العلوي و الاستاذ عدنان حسين عوادي و في مقدمتهم المفكر المعاصر و الشاعر الكبير ادونيس الذي استطاع لاول مرة ان يجد نقاط الالتقاء بين الصوفية و السوريالية كما القى الضوء عليها منها قوله: "الاتجاه الى الصوفية املاه عجز العقل او الشريعة الدينية" عن الجواب عن كثير من الاسئلة العميقة عند الانسان و املاه كذلك عجز العلم. فالانسان يشعر ان ثمة مشكلات تؤرقه حتى عندما تحل جميع المشكلات العقلية, و الشرعية – الدينية, و العلمية, او عندما تحل جميع المشكلات بوساطة العقل و الشرع و العلم. هذا الذي لم يقل (لا يقال) هو ما يولد الاتجاه نحو الصوفية. و هو نفسه مما سوغ نشأة السوريالية. فدعوى السوريالية الاولى هي انها حركة لقول ما لم يقل, او ما لا يقال, و مدار الصوفية, كما افهمها هو اللا مقول, اللامرئي, اللامعروف"[22]

و في الختام نقول: ان كانت في العالم قصيدة انسانية خالدة فهي التصوف, و هو وحده الانشودة الباقية يوم تبيد الأناشيد, و لو فنيت الدنيا دفعة واحدة و بقي انسان يفتش عما حق فيها من الكلمات, لما وجد اصدق من كلمة الصوفية.

المصادر

1-تأريخ التصوف الاسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني- د. عبدالرحمن بدوي الطبعة الثالثة – 1978 م.

2-بابا تاهيرى همدانى – من مجلة المجمع العلمي الكردي - المجلد الخامس - الشيخ محمد الخال. بغداد 1977 ص 27.

3-بابا تاهيرى عوريان/ مجلة (روشنبيرى نوى) العدد (125) د. عزالدين مصطفى رسول.

4-بابا تاهيرى همدانى/ من مجلة المجمع العلمي الكردي - المجلد الخامس - الشيخ محمد الخال. ص 34.

5-المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

6-مجلة خاك.

7-الدكتور زكى مبارك/ التصوف الاسلامي في الادب و الاخلاق/ الجزء الثاني في هامش ص 189-.190

8-المصدر نفسه/ الجزء الاول ص .249

9-المصدر نفسه/ الجزء الثاني ص .255

10-هادي العلوي/ مدارات صوفية ص .162

11-النظرية النسبية, انيشتاين.

12-تأملات في الانسان/ رجاء النقاش ص .74

13-احياء علوم الدين الجزء الرابع ص .280

14-التصوف الثورة الروحية في الاسلام, الدكتور ابو العلا عفيفي ص 232, دار الشعب – بيروت.

15-المصدر نفسه.

16-التصوف الاسلامي/ الدكتور حسن عاصي الطبعة الاولى 1414 هـ 1994 م. ص .115

17-هادي العلوي/ مدارات صوفية ص .136

18-المصدر نفسه ص.48

19-التصوف الثورة الروحية في الاسلام, الدكتور ابو العلا عفيفي ص 46 دار الشعب – بيروت.

20-المصدر نفسه ص .41

21-هادي العلوى/ مدارات صوفية ص .113

22-ادونيس/ الصوفية و السوريالية ص 11 دار الساقي.

الشاعرة ماه شرف خان كردستاني (مستورة)

حميد كشكولي

شهد القرن التاسع عشر في اردلان (كردستان الإيرانية)، و امارة بابان (كردستان العراق)، ازدهاراً ثقافياً ملحوظاً، فنشأت في "سنندج"، عاصمة الأردلانيين، مدرسة خاصة، لكتابة و تدوين التاريخ و الأحداث، باشراف عدد من المؤلفين القديرين، الذين نشطوا في مجالات العلم و الأدب، انذاك. و قد برزت اسماء لامعة، مثل: (نالي، سالم، كوردي، مولوي، خاناي قوبادي)، و عشرات غيرهم، تركوا بصمات واضحة على الثقافة الكردية، كما برز صوت نسائي في النصف الأول من ذاك القرن: "ماه شرف خان كردستاني" (1805-1847)، و التي اشتهرت باسمها الأدبي "مستورة"، و كما يبدو لنا فإنها تعد المرأة الوحيدة، في تلك الفترة، في الشرق الأوسط، و ربما الشرق كله، التي كتبت في التاريخ، و اشتهرت على الأغلب كشاعرة، برعت في قصائد الغزل و المراثي، على شكل رباعيات، و مثنويات. كما كانت خطاطة بارعة.

يقول الكاتب "مرزا علي اكبر خان"، في كتابه "حديقهء ناصرية"، ان ديوان مستورة، يتضمن 20 الف بيت بالفارسي و الكردي، تم جمع و طبع و اصدار قصائدها بالفارسية عام 1926، من قبل مثقف كردي من عائلة ميسورة الحال، عرفت عنه رعاية العلم و العلماء في كردستان، هو "حاج شيخ يحيى معرفة"، تحت عنوان "ديوان ماه شرف خانم كردستاني - مستورة".

و بعد عشرين عاماً، أي في 1946، تم طبع كتاب "تاريخ اردلان"، من تأليفها ايضاً. و خلال الاطلاع على كتاب "تاريخ اردلان"، نتعرف على تفاصيل واسعة عن سيرة حياة مستورة و عائلتها. و قد ورد في "شرفنامه"، لـ "شرفخان البدليسي"، أن الأردنيين كانوا حكاماً في ديار بكر، و يرجع نسبهم،

الى جدهم الأكبر "بابا اردلان", الذي كان عاملاً على شهرزور, زمن "جنكيز خان" المغولي. و هذه السلالة ظلت تحكم لمدة 600 عام, سواء في كردستان ايران الحالية, او مناطق اخرى, و قد توفي اخر امرائهم "عباس خان سردار رشيد", قبل اعوام في طهران.

و لدت مستورة عام 1219هـ/1805 ميلادي, في مدينة سنندج, عاصمة الإمارة الأردلانية, في فترة حكم امان الله خان, والد خسرو خان. و قد تقلصت مناطق نفوذ بني اردلان في هذه الفترة كثيراً, بعد ان كانت تمتد الى جميع انحاء جنوب شرقي كردستان. و اقام امان الله خان حكومة مركزية قوية, عبر قمع الميول الانفصالية للعشائر الكردية, و اخضاعها لسلطته, و يتبين من الوثائق التاريخية في تلك الفترة, انه كان يتمتع الى حد كبير باستقلاليته في ممارسة سلطة الحكم, و قد لعبت هذه العائلة دورا كبيراً في بلورة الأحداث في العقد الأول من عمر شاعرتنا مستورة. تلقت مستورة علومها في "سنندج", اذ كانت حاضرة علمية في تلك الفترة, اجتمع فيها العلماء و الكتاب و الشعراء و الأطباء و الفنانون و لعبت مدرسة "دار الإحسان" القائمة الى يومنا هذا دورا عظيماً في تنوير المجتمع الكردي. و قد غدت سنندج مركز حكم الأردلانيين في فترة حكم سليمان خان الأردلاني, اذ كانت من قبل قلعة حصينة تدعى "سنددج". عمل سليمان خان على بناء تلك المدينة في الفترة قياسية, داعياً التجار و العيان و العلماء الى الإقامة فيها, و تأهيلها, فقاموا ببناء دور سكنية انيقة, و قصور جميلة, بحيث اصبحت مثلما هي عليه الآن معروفة بمدينة سنندج, او "سنه" بالكردية, فتظل عاصمة الأردلانيين لثلاثة قرون متتالية, كما تذكر مستورة ان عاصمة الأردلانيين تعرضت مئات المرات الى غزوات, و تحولت الى ميدان لمعارك طاحنة, تسببت في تدميرها تدميراً كاملاً, ليعيث الغزاة فيها نهباً و تخريباً و قتل علماء و تجار و شعراء, ثم يعاد بناؤها من قبل ابنائها في كل مرة يستتب فيها امن و استقرار. و بلغت سنندج اوج ازدهارها و توسيعها في فترة حكم امان الله خان الذي جعل منها صورة لأصفهان عاصمة القاجاريين, و كان لا يبخل في الإغداق على اهل العلم و الأدب.

تنحدر مستورة من عائلة ارستقراطية ثرية, ذات نفوذ قوي, تشكلت هذه من عائلتين متنفذتين, فمن جهة الأم وزراء توارثوا المنصب, اما الأب فكان "قادرياً", ساند اقرباؤها من طرف الأم, امراء بني اردلان بفعالية. و حسب ماورد في كتاب "تأريخ اردلان", فغن عائلة "قادري", ظلت وفية و موالية للحكام الأردلانيين, وتبوا افرادها مناصب مرموقة في البلاط. كان جد مستورة - من طرف والدها -, محمد اغا, احد وجهاء البلاد الكبار, و كانت حياته الطويلة مليئة بالأحداث, و ظل لمدة نصف قرن في فترة حكم اربعة امراء اردلانيين, "ناصر" كردستان, أي المسؤول عن النظام و الاستقرار في البلاد. و تشير مستورة, ان جدها كدس ثروة كبيرة من المال "الحرام", عبر المشاركة في المعارك التي

خاضها الحكم القاجاري ضد خانات الكرد في كرمنشاه, واسماعيل خان, و جعفر خان, و غيرهم. و قد اعمت الأطماع محمد اغا, بحيث قام, بحيك المؤمرات ضد الأمير امان الله خان, الذي كشفه, فعاقبه بتغريمه بدفع 5 الاف تومان (يقدر بمليون دولار), و عزله لأيام, لكنه لم يستطع التخلي عنه, فأعاده الى منصبه كناصر, لكن الأمير دبر حلا اخر للحد من اطماعه و مؤامراته, و ذلك بمصاهرته, فتوسعت سلطاته اكثر من السابق, و كلف بمهمات دبلوماسية و عسكرية خطيرة, اذ قام, مثلاً, بالسفر الى بلاط الشاه في طهران, و قام بقمع انتفاضة في "بانا". و استمر محمد خان في منصبه حتى اواخر ايام امان الله خان, و لسنة واحدة من ولاية خسرو خان, الذي سيتزوج مستورة. خلق محمد اغا قلاقل للحاكم الجديد ايضاً, فقام باعتقال جميع اعضاء عائلة قادري, و عاقبهم هذه المرة بثلاثين الف تومان.

لا تذكر "مستورة", في (تأريخها), ان جدها و بعض اولاده قد قضوا نحبهم تحت التعذيب في السجن, و يبدو ان ذلك, كان مؤلما لمشاعرها, و لم ترد الإساءة لذكرى زوجها الحبيب, اذ شرعت في كتابه "تأريخ اردلان", بينما خسرو خان كان قد انتقل الى جوار ربه منذ حوالي عشر سنوات. كان ابو الحسن بك, والد مستورة, يكرس اهتماماً بالغاً لتربية اولاده, و خاصة ابنته البكر "ماه شرف", و التي كانت موضع فخره و حبه البالغ, و كثيراً ما كانت ترافقه في زياراته للمناطق الأثرية و العشائر, و كانت تصغي مستورة لقصص و اساطير و سعت من افاق خيالها. و قد كان ابو الحسن بك, هذا, مربياً لنجل امان الله خان, حسين قلي خان, و الذي كان ايضاً ابن اخته, أي ابن خالة "مستورة". تروي مستورة عن ظروف زواجها من خسروخان (ناكام), بأنه اثناء الحرب الروسية الإيرانية, قام بعض الآغاوات بالتعاون مع الروس, و الاتفاق مع شقيق الأمير المعزول من حاكمية منطقة "اسفند آباد" بمحاولة لعزل خسر و خان -ناكام, و قد تم افشال المؤامرة, و القي القبض على المتأمرين, و من ضمنهم والد مستورة, الى ان تأكد خسرو خان من براءة ابي الحسن بك, فأطلق سراحه و اكرامه, و قد عمل خسرو خان, مثلما عمل والده مع جد مستورة, أي باستمالة ابي الحسن بك السياسي المحنك, صاحب النفوذ و الثروة اليه, بالزواج من ابنته ماه شرف عام 1246 هجري/ 1826 ميلادي, و عمرها 27 أو 28 عاماً, و قد اقيمت بمناسبة الزواج, حسبما جاء في كتاب "تأريخ اردلان", اعراس و احتفالات مهيبة. توفي الأمير خسرو خان في 2 ربيع الأول 9/1250 تموز 1835, و اثر تورم الكبد, فخلفه ابنه البكر رضا قلي خان البالغ من العمر 11 عاماً, لكن الحاكم الفعلي لسنوات سبع, كانت الوصية على العرش زوجة والدته القاجارية, ابنة فتح علي شاه الشاعرة "حسن جهان خانم", و التي تشرفت بلقب "والية خانم". و قد استمرت مستورة بالعيش في رعاية العائلة الحاكمة باحترام و تقدير, حتى عزل ابن زوجها عن الحكم و لا تذكرهم بسوء في اية قصيدة من قصائدها, او كتابها "تأريخ اردلان", لكنها تندب حالها و تشكو الزمان.

و بعد ان خيب رضا قلي خان, الشاه في طهران, بعدم ارسال مقاتلين لمساندته في اخماد حركة عصيان, قام بها حسن خان سالار, و قد رفض الوالي حتى تلبية طلب الشاه بارسال قوة رمزية, مؤلفة من خمسة كرد من فرسانه, لتلك المهمة, مما ادى الى ان يقرر الشاه التخلص من رضا خان, و دعم و مساندة "خسر و خان الجورجي", تسلم الولاية, بالزحف على القصر, و ازاحة العائلة الحاكمة. و تذكر مستورة ان الأخير من اصل ارمني, عرف بين الكرد بالجورجي, و يبدو انه كان قد اهتدى الى الاسلام او تظاهر بذلك. و قد اعتقل رضا قلي خان, من قبل الحاكم الجديد, و اودع السجن في طهران بأوامر من الشاه, و تم ابعاد افراد العائلة الأردلانية, و من بينهم مستورة, و قدروا بألفي شخص الى "مريوان", و من هناك عام 1263هـ, يلجؤون الى امارة بابان, و بذلك زالت امارة كردية بفقدانها التدريجي لعناصر استقلاليتها, اثر التناحر على السلطة و المال بين افراد العائلة الحاكمة. و تصف مستورة هذه الرحلة المؤلمة في قصيدة لها, بالقول: "لو حلق النسر فوقنا, و حدق فينا, لسقط كل ريش جسمه, و لو كان البدر ساطعاً في سمائنا, لهوى في اعماق الأرض".

و على ارض بابان, توزع اللاجئون في قرى شهرزور, و اقامت مستورة في بيت ابن خالتها حسين قلي خان, الذي كان قد وصل الى السليمانية من قبل, للتشاور مع ال بابان, لتدبير امور سكنهم و معيشتهم.

الشعر هو الماضي الذي يندلع فجأة من قلوبنا- ريلكه

ان ابتغينا السعي, الى تبيان بداية جغرافية للشعر الكردي, فهي لابد ان تكون هناك في "هورامان", الواقعة في المشرق الكردي, حيث تتوفر للقصيدة تربة تهبها اسباب نموها و ديمومتها الكامنة في الماء و الهواء و الضوء و التراب. فأقدم الشعر الكردي من منظومات شعبية, و اناشيد دينية وصلنا من هذه البقعة, و باللهجة الكورانية.

فلا يمكن للمرء, ان يماري في شعرية "هورامان", و تخصيبها الإبداعي للثقافة الكردية دوماً, و بالأخص قديمها, و يكفيها فضلاً, انها انجبت كبار شعرائنا من امثال "مولوي" و "بيساراني", و "خاناي قوبادي", و غيرهم, و لا تزال الأوزان الموسيقية للغناء الشعبي تهب بأنسامها على الكرد لتلهم الكثير من الشعراء, و ليدونوا قصائدهم من وحي انغامها, و في مقدمتهم شاعر الروح الكردية عبد الله كوران (1904-1962). فماء الشعر كان و لا يزال, يتدفق عذباً من هضابها و وديانها المتفجرة, و روح الإبداع تسكن رجالها و نساءها, على السواء, و اسئلة الموت و الحياة تؤرق حياتهم, و تبعث فيهم حمى القلق و البحث و الترحال الباطني و الوجودي. حقاً لقد كانت القصيدة المقروءة و المنشدة و المغناة غذاءهم اليومي على اختلاف اشكالها و نبراتها, فتعطي الحياة نكهتها, و الزمن ديمومته.

كانت "مستورة" - سليلة هذه البقعة الجغرافية, من انضج الأصوات النسائية, قبل قرنين من الزمن, و اكثرهن اكتنازاً بعطر الشعر الكردي الكلاسيكي المكثف, الذي يضوع من الشرق الكردي شمالاً و جنوباً. تمتاح شعرها من بئر الشجن, و افتقادها لحبيبها و شريك

حياتها "خسرو خان الأردلاني", والي "كردستان" الإيرانية, و الملقب بـ"ناكام", أي المأسوف على شبابه بالفارسيةو لوفاته المبكرة في الثلاثين من عمرهو اثر مرض تورم الكبد, و تستجلي مستورة في لفتات مدهشة تحولات الحياة في مداراتها الكثيرة, مازجة بين الحلم و الرؤيا, في متخيل رومانسي, مفعم بنفحات روحها الهائمة.

يمكننا, اعتبار ديوانها, شهادة نصر للأنثى في خضم مجتمع بطريكي, لا صوت يعلو فيه على صوت الرجل.

"مستورة" - منقطعة النظير في زمانها - انثوياً, نظماً و نثراً بالفارسية و الكردية, تعتمد في تجاربها على الرصيد الثقافي و الروحي السائد في عصرها من شعر كردي و فارسي و ثقافة عربية اسلامية, اذ تلقت علومها عن مشاهير علماء عصرها, كما يتبين من خلال سيرتها الواردة في كتاب "مجمع الفصحاء" لمؤلفه رضا قلي خان هدايت, و كتاب "حديقهء ناصرية", لابن عمها صادق الملك, و في كتابها "تأريخ اردلان", مما هيأ لها - اضافة الى نبوغها - اسباب الشهرة, و مهد لها الارتقاء الى منزلة رفيعةو نالت بها حظوة كبيرة لدى العلماء و الشعراء, فأخذوا يمدحونها, و يثنون على شعرها, و يصفون جليل قدرها و عظيم شأنها. فالشاعر الكبير "مولوي", يقول فيها في قصيدة: "شمس الحسن والدلال, جالسة على عرش ملكوت الطهر و العفة, تفيض دفئاً و نوراً على الجميع".

ولدت مستورة في عام 1220هـ/1805 - 1806م, في منطقة "سنندج", عاصمة امارة "اردلان". اذن, هي "سنندج" الزاهية, التربة الأولى التي احتضنت بذور تشكلها الشعري الأول.

ان موت حبيبها خسروخان -ناكام- عام 1240هـ/1834-1835م, جاء صدمة عنيفة للشاعرة, لقد شعرت بأنها فقدت بموته اعز و افضل صديق و معلم, اذ كان هو ايضاً مثقفاً, و ينظم الشعر بالفارسية, و كان هذا من اقوى اسباب العشق و الهيام بينهما, رغم انها كانت تكبره بحوالي عشرين سنة. تقلدت "مستورة" في عهد زوجها الأمير منصب وزيرة "الأندرون"و أي مسؤولية شؤون العائلة الحاكمة و البلاط و التشريفات, و كانت تحظى وحدها, دون نساء البلاط الأخريات بمرافقة زوجها في الزيارات, و تفقد القلاع و الآثار التاريخية و الرعية, و الاستماع الى حكاياتهم, و شؤون حياتهم, مما مكنها من جمع مادة غنية, ساعدتها على تأليف كتابها التاريخي "تأريخ اردلان", المصدر المهم لدراسة التاريخ الكردي, في تلك الحقبة. و ترد اسماء اماكن كثيرة في قصائد مستورة, اصبحت اليوم اطلالاً بعضها شاخص و بعضها اندثر. و جدير ذكره القول ان التغييرات المناخية الحالية ساهمت في اختلاف جغرافيا قصائد مستورة عن سنندج الحالية, فثمة مروج و انهار و عيون ماء, ذكرتها الشاعرة في قصائد لها, اختلفت اليوم نهائياً, و لفها الجفاف و الحر و النسيان.

ثمة مناخ اثيري يغلف قصائد "مستورة" برمتها. فسواء كان موضوعها الطبيعة, او الرثاء, او الهجاء, او الحب, او الموت, تبدو اللغة عندها شبيهة بما يرشح عن الزهرة من ندى. لغتها تبدو ذكورية

او بـالأحرى محايـدة او انسـانية تعـبر بصـدق عـن مشاعرنا ذكوراً كنا ام اناثاً.

انها تبني في قصائدها شفافية العلاقـة بالعـالم و اشيائه, و رهافة الاحساس بالموجودات الى الحد الـذي يقارب الانمحاء او التلاشي. يلمس القاريء انها تقلل الى اقصى مـا يمكن مـن التزويـق اللفظي و الحبكـة, لتسمح لينبـوع شعرها بالتـدفق عفـواً, و بانسـيابية متناغمة مع انسيابية الحياة نفسها. كمـا ان اشعارها لا تنقطـع عـن التـاريخ و الأسـاطير, و هـي تلجـأ الى قصص القـران و تسـتعين بشخصـيات الأسـاطير مثـل يوسف و يونس و قارون و غيرهـا في بنـاء قصائدها, حين تستدعي الحاجة الى السطورة و التاريخ اللـذين كانا من الركائز الساسية في اشعارها, لتصعيد خيالها و تلاشيها فيه.

قصـائدها اصـغاء متـأت مـن انـدلاع الحيـاة و خفوتهـا, او الى التقـاط مـا يمكـن التقاطـه مـن ذلـك المجرى الهادر للأعمار المتدفقة كالنهر, و هي لا تترك مـن منبعهـا الى المصـب, سـوى و مـيض متباعـد او لحظات سعادة محدودة.

في قصـائد الرثـاء لزوجهـا, نلمـح رغبـة الشـاعرة الملحة في التواري خلف جمال الكائنـات, او في التحـول الى هيولي, او حلم, او طبيعة صامتة.

و لعل قصائدها الغزلية, هي التعبير الأمثـل عـن مدى ما تختزن في داخلها من رقة انثوية و انسانية, و تـدفق في المشـاعر و الاحاسـيس. العبـارات نفسـها تتقطع كاللهاث, محدثة موجات متكررة من المناجـاة و التأمل و المونولوج الداخلي.

فشعرها لصيق بحياتها, التصاق العشبة بـالأرض, او التصاق الجسد العاشق بطعنة الغياب. لـذلك لـيس مستغرباً ان تخاطب شـريك حياتها الفقيـد بأبيـات كهذه: "وحدي و بعيون خسرو/ اتأمل الربيع/ اروي بـدموعي الزهـور/ و قـدمي المكسـورتين/ و وجنـات التهبـت اهـات/ يضـحك لهـا الشـامتون, و تتوجـع الأشـجار/ فحتـى العشـب في الصـباح يبكـي لكثـرة غيابك".

يـروى ان مسـتورة نظمـت حـوالي عشـرين الـف بيت شعر, ضاع اكثـره, و لم يبـق منـه سـوى ثلاثـة الاف بيــت, بالفارســية, و باللــهجتين الكــرديتين السورانية و الكورانية. و ان كانـت مستورة الشاعرة الوحيـدة الـتي دونـت قصـائدها, و ذلـك بالتأكيـد لموقعها الاجتماعي, فلا يعني ذاك انها كانت الشاعرة الوحيـدة في زمانهـا. اتلمـس الأثـر الأنثـوي في الكـثير من ابيات الـتراث الكـردي الشـفهية. و ان الإصـغاء الى نياحـة النسـاء في التعـازي, و ادراك طبيعــة الشـعر وفهم نفسية و رقة الأنثى, و يؤدي بنا الى التأكد من انه كانت هناك شاعرات اخرات.

عاشت الشاعرة ارملة ثلاثة عشر عامـاً. توفيـت اثـر وبـاء في ديسـمبر 1847, في السـليمانية عاصـمة البابـانيين و قتئـذ, و دفنـت في مقـبرة "كـردي سيوان".

من الشعر الكردي المعاصر

قرن من اللاسكينة

قصيدة: جمال غمبار

ترجمة: ازاد البرزنجي

"ان هذه القصيدة كتبها الشاعر سنة 1987 باللغة الكردية, معبراً عن بعض الحالات التي كان يعاني منها الانسان الكردي في ظل الويلات و المآسي التي احدثتها و فرضتها الدكتاتورية و السلطة الدموية في العراق عموماً و في كردستان خصوصاً و ذلك من خلال توظيف بعض الرموز و الأساطير برؤية اخرى تختلف عن التي جاءت في اصل الاسطورة أو الحكاية التراثية.. لذلك آثرت ترجمة القصيدة الى لغة الضاد.."

-المترجم-

ها قد اضرمت لهب اللاسكينة نارها

في وادي نفسي الظلماء..

شاعر يتوج

لليلة.. فيها

تجني امرأة ما.. ورود ما بعد الولادة..

انها ليلة.. يرحل فيها فؤاد

و آخر.. يوصد نافذته المتكسرة..

يا لها من ليلة؛

حال فيها الصمت ورقة بيضاء.. عليها

تدون اسماء الفتيات اللواتي

في عيونهن.. و قلوبهن الشعر..

عاصمة جديدة.. ل "امارة الغرباء"..!

يطفئن فيها نبراس السفر!

يا لها من ليلة! تضم فيها اذرع الخوف و القلق

احدى ذرى جبال ظهري,

و الدجى باب.. باب!

يُفتح قدام اسرار هذا الكون..!

يا لها من ليلة!

تعفن فيها عمر الأشجار

و تفوح من نفس الوريقات

رائحة الصدأ..!

الضنى في آفاقي غمامة

ترذ

و عمر ارخبيل لاسكينتي

يتراكم فيه غبار عام آخر.. بعد القرن..

قرن من الزمان

و أشعة الشمس تصل هذه الجزيرة

خلال مرآة مهشمة لاله آخر..

قرن.. ها قد غدا قرنا و عام..

البحر يبكي.. و لا تسيل دمعة

قرارة البحر, تشبه شقوق كفي والدي

قرن.. و جزيرة لاسكينتي

تحيطها اثار كداديس قمح,

غزاها الجراد..

قرن و روح الاله

تذرف دموع الجفاف على صدري

ها قد غدا قرناً و عام

يحلم "يوسف" بصقيع لاسكينة فردوس..

لكن أباه.. قد اطلق عواصف صداه

لليالي الحلم و الغربة..

لا يمهل "يوسف"

ان يحطم الصقيع لاخوته

قرن.. و حلم "يوسف"

نجوى دافئة للاسكينة شخص

لن يستطيع كل لسان

التفوه بها..

ها قد غدا قرناً و عام

اضاع "أوروك" ظل "كلكامش"..

يهمس "انكيدو" بلغة الأبصار لـ"كلكامش",

في احضان الموت؛

كنت ريح الجبروت

لم اسمح هذه المرة الخنجر

ان ينسف بيدر جسدي

هذي المرة.. احلت بنفسي,

جسدي غمداً

لسيف جبروتي

لأنني تيقنت يا كلكامش؛

في العام الأول بعد قرن لاسكينة فردوس

تيقنت؛ ان اهدتني نجمة, شمعة حلم "يوسف"

فهي اكثر ضياءً من شعاع

يدفىء شتاء عمري,

لكنه يطلق حشرات الدنيا

على قشور جراحي..

جراح.. مضى عليها اكثر من قرن..

و أضرمت ناراً في حقول سكينتي..!

ايا كلكامش..

قبيل ان تغادر شجرة سيمائك؛

ربيع "اوروك",

دونك؛ هذي البلاد كانت ديجوراً

"بالرغم من وجود الناس و الأجناس.. كانت البلاد,

دونك قفراً"[1]

و حينما شد خريف الأسفار قبضته على احضانك

استحال الناس و الاجناس غراباً,

الثعلب, لم يسرق قطعة الجبن منه فحسب,

بل سرق الحالبة الحسناء

و الأعشاب ايضاً..!

انت.. تركت لي عند سفح قصيدة, قلباً

لا تحده الجروح

يخرج حلم "يوسف" من صرصر فناء الكون..

تركت لي قلباً,

حين تصب "اوروك" امطار عيونها

في الوديان و الجداول و الأنهر,

بدورهن.. يعطينه دماء رؤوسهن المسفوحة

حتى لو كان في "قرن" آخر..

ايا "كلكامش"؛

ها قد غدا قرناً و عام..

اخوتي.. لا بأسرهم,

بل الذين يدركون حلم "يوسف",

يلثمون ارض "اوروك"

يقرؤون في دفترك و مذكرة اسفارك البيضاء,

دم "انكيدو" المسفوح

اخوتي, لا بأسرهم

بل منهم الذين, يحسبون اعوام فردوسي القاسية,

اخوتي, لا بأسرهم..

بل بعضهم, من بريق ابصارهم

يبعثون بالأدعية, ليوسف و أوروك..

لسفر كلكامش,

و القلوب الدافئة في سفوح جبال الشعر..

(1) بيت شعري للشاعر الكردي الخالد "نالي".

في القصيدة رموز و اسماء استوحاها الشاعر من ملحمة (كلكامش) و سورة "يوسف" من القرآن الكريم.

صخرة الليل: طاعنة في العراء

قصيدة: دلشاد عبدالله

ترجمة: كريم دشتي

مراجعة: محمود زامدار

في هذه القصيدة تعميق دائب عن الجمال, الجمال في هيئة المعاني السامية المتجسدة في اسم مجهول, جمال يكاد ان يكون طواويس الجنة تخطفها الريح من بين اسفار العظيم الاليجيرى و معراجه الحلم مع بياتريس, هذه الانبلاجة الابدية للشوق الشرقي, و اعراس توماس مان في بعثرته لقلادة الجمال في ازقة فينيسيا, في مقاربة اشنباخية مثقلة بالحزن من اجل خلق الحوار الجمالي, انه – أي الشاعر – بهذا المعنى يلتمس الجمال في كل سطوره بداءً بصخرة الليل و هي الأصم الغارقة في لامبالاتها و انتهاء بالاسم الذي يبحث عنه و هو الغارق في الجمال يستغيث من يبعثه و يستخرجه من بين اوحال تأريخ التأمل و طغيان القبح, و عندما يتعهد الشاعر بأن – الماء – كرمز للحكمة هو الوحيد الذي يستحق بجدارة تسليم مفاتيح الخطاب المطلق اليه, فانه فعلاً يذكرنا بهؤلاء الغرقى في فوضى الزوبعة داخل مملكة الأمواه لأليوت, هذه القصيدة لا تستمد شرعيتها الجمالية من انعام الرومانسية التي طالما اغرقت القصيدة الكردية بالاحتراقات و احترابات المغازلة في النوافذ العالية, انما تستمدها من نوع من الاغتراب الا و هو الاغتراب الجمالي و الوقوف امام مشنقة لامرئية للأحاسيس الانسانية قبالة هيئة – اورفيوس – حيث القيثارة مازالت تترنم و هي محطمة فوق امواج الأمواه, صوت ينبعث و انتظار لطائر سوف يأتي ليكسوا الكون بصفقة جناحيه.

داخل جرة تحفية اسرار الليل, مقفولة الفوهة بالشمع
حيث السنجاب الحنية تتسلق قامتها
و النسر يفتح بأجنحته الى اقصاها
و الطواويس تتجولن و امتلأت ابطهن بالعرق

و من خلف زجاج نافذة
هناك عين حيث هي نجمة الجدي
اطلقت فرعاً من نظرتها
و من خلف سحابة بنفسجية

تفتحت زهرة اسم
حيث يلتقطها طير و يلحمها بذاتها
اجلبتها اجنحتي.. قال الطير و اسحرتها هبة الريح الشمال
و ارطمتها بهامة مصيفة غاضبة
"عندما سميناك
اول الغيث قد هطل
ورقة في الباحة تبللت
و انا التمست الالهام من الورقة هذه"
و الاسم هذا كان يجمع الاسماك اللدنة في ضفة ماء
في الأعراق الزرق للنهر
حيث اكتظت الديدان و الذبان و الاحياء
و ترنمت لها العصافير ذات الاعناق الصفر
و صياد بطمي اللون كذاته بالضبط
اطلق بشبكته و اصطاد الاسم هذا ثانية
و في امسية مبكرة سلمه الى غيمة سامقة
لتجعله فراشة من فوق ظهر نثيث المطر
الى اين اذهب انا حيث المطر.. المطر
ليس بمجرد الاسم هذا
قبالة مرآة داخل الامواه
و لحاف لغلام اسمر ذو شعر مجعد
محـال ان يضـحى الاسـم هـذا قطينـاً و يـدخل
شرنقة الحمر للوحى
و نداء في الرمس الأقفر هذا تجعله مرتع زهر
حيث الى انبلاج الصبح تصلي له
و عندليب في هيئة الـغزل- يأتي ليظل متيماً
بهذا الحمر المائل الى الفيروزى
و انا اغني – الـ غزل – هذا و اغني و اعنيه

و الليل تسلل رغبة عشيقتي
حيث في كل وهلة و بحجة ما, يرنو الى شهبي العاري العارم
ليجعل له مكاناً في فناجين العقيق المترعة بالعصمة
انظر كل هذي الزخارف اللاتامة في قعر الفنجان
تتعلى حد الهامة كي تمسي لي قبلة سائغة
الزخارف تركها لي نسر
الى الغسق تلملم في تحليقه و لم يشبع
قالت العشيقة: الق باحلامك فيها
الزخارف تلك كانت ذكراً و انثى امتشجت في اللون
زفزقتها كانت للتزاوج حيث فتحن افواهن في ضفة الماء
و بقين ضامرات كالدعاء
كن يشبهن الاشياء الجميلة
اود ان استجمع كل هذي الجماليات اللدنة
اني اشتاق الى عبادتها
ها ان قنينة عطر الليل و هي على فمها منقلب
تنبعث منها رائحة القميص الدموي لذات يوسف
و ليلة الشهريار بعينها
لم يبق شئ من الامس
حيث وقعت اوصالها من بين شقوق الصخر
و الصخرة رحبة الصدر للحيتان و النمال
اسم يخطفه الشفق
و انا اناديكم بالاسم هذا..
ثم دخل سحر اسود في بطن الحروف
و لحمة اللسان متهيجة للتفوه بها
و لأن الجمال انبلج من هناك
فكل قواعد اللغة و الدستور وقعت في الزوبعة
و هي اضاعها قاموس ما

بهذا الشكل:
رغبة افلتها الى رغبة
و جملة اسلمتها الى تاليها من الجمل
و اسم امتد بأربها الى الازل
و امتلأ فمه بالنعناع
و هلا يكفي اسم؟
ايها الليل افتح طلاسم الروائح
و انثر ضفائرها فوق الاكتاف و الأعناق
حيث لون الجسد يتغلغل في فراغ الكون
و انثر ضفائر الروائح
حيث الاموات على اشد من الجمر للروائح هذه
منذ زمان
و اجعلني هالة اذان في الفيافي
و اجعلني ريشة كريشنا في جناح زغب الخيال
و خذني الى احضان نساء تاهيتى..
و اجعلني لوناً احمراً لتحية – كوكان- الصباحية..
امام بوابة الشفق
و حلم الحرية لطائر
لا يلتقط حبة الشعير لكي لا يصبح عبيد الحقول
و اجعلني لا معقولية –كامو – في ضفاف الجزائر
و اسلمني الى يد سيف في هاراكيرى
ايها الليل رحماك التفت
ها ان موعد مجيئي محمرة
و لقد تحمرت حلقي عناء مناداتك ايها الاسم!
سوف ابدأ بأسم
حيث كل حقوله تحلق من فوقها سرب من طيوري
الوقت متأخر للتحليق

و في المساء حيث غباباً او مالكاً حزيناً يتساءل
عن شجرة السرو في ضفاف الأمواه:
ارايتم شيئاً
بقدر الجوز
يزهر مساء
عين هي نجمة الجدي
في حجم حبة قهوة فوق جديلة العذاب
و في حجم هيجان فوق اسلاك النظرات
و وريقة نعناع تفضح رائحتها
و اسرار الليل هي تحت بركة ماء
و البركة هذه و في عين صفراء تميل الى القهوائي
سدت فوهة ريح الصرصر
و في البأبيء ثمة حمامة تحلق
و الفيضان في طريقه
انما انا منحت حق الخطاب المطلق الى الماء
و الان يأتي طير و ريح ليصفق بجناحيه
و بأسم هو قدر حبة قمح في منقار الحمامة
انادي الليل بان الجرة اثقلت بسحر اسم ما
اسم لا يصطاد بسهولة سمكة حروفه
و لا ينتهي من التحليق بسهولة شامة علوه و سفله
و ارياشه مترعة برغبة التعبير
من خلف غيمة الزعفران
و الحروف تهبط نتفا.. نتفاً من بين المعاني
اذاً ايهما
أ أسم ملئ بالليل
ام ليل مترع بالاسم؟

عن ديوان "محاولة لقتل الوقت".

انقلب التعريف

آزاد صبحي

(الى عطا و نسرين)

لا حلم في هذه الحركة
سأخفي ظلّي مهاجرا متأخرا
أترك المكان القديم
المليء بالندم.

أزرع شيئا في وحيد
منتظرا مصادفة
تنسيني الأختفاء .
أخرج من الفسحة الأولى
تلك التي بالقسوة
يتلوّن منظرها
منظر
داخل
قسوة.
حلم
خارج

حركة.
أنشر جذوري مختفيا
لأبدو أكثر قتامة عند سخريتي من أشياء
تنفصل عن مكامنها.

عندما حلمتَ خارج الفسحة
خرجتَ من القناع
قائلا : أنا لست سوى ورق مضطرب
أنت لست سوى شكل منسجم.
لي أقنعة تشبه أصدقائي
لي شيء أفسح من الصدق
لك وطن أضيق من أبتسامة رجل ضيّق

ليتني أحتفظت بحفنة تراب
منها أنبثق أسمي
أحاول تدمير أسمي عبر شكل جديد

فيه يختفي الانبثاق:
((**هناك مشكلة منها يعاني الشكل ..**
الناس يعتبرون الشكل فاصلا يهدّيء
المضمون .. لكن لاضمانة لأقوال الشكل
لأنه بكل بساطة يذوب وتأتي الكلمة..
هل للكلمة قناع ؟))

مكاني سكون يحتفل
بأصوات غائبة
منذ الخلوة الأولى
هؤلاء يتبجحون بصمتهم الصاخب.
سأترك هذا الحديث
عائدا لشيء قديم ..قدم اللغة
أترك المحذوف المزدحم
مبتدءا بتعريف
أنكسار البداية
(***البداية تعني حريّة الله فينا.***)

الوطن تعريف متبجّح
لشيء غامض لايعنيه
سوى الذين يمجّدون الأنبساط
لكنهم يحرّفون العشق
يترجمون الوضوح ضجرا .. أو هربا
سأبني لي جدارا أوضح من وطن غير واثق
أخلق لغة لاتنتمي لنشيد
أسير أسيرا
في شارع ينسيني الوصول

فلسفة الوصول .. حكمة النهاية
تلك كلمات مجانية
يرميها مسافرون
سخروا اللغة لانتهاك الطريق
نحن ننتهك الطريق.

أبدأ من النهاية المقطوفة
أرمي شجرتي
سائرا في مشطوب شاسع
أرمي شجرتي نحوي
عائدا من فضاء يحتمي أو يحتفي
ببؤس قابع , زاهيا في القديم.
أيها المشطوب
لا تمسح حريقي .. لا تغطي صوتي
سأخرج من هذا الهامشيَ الذي لا طيور له
هامشيَ
كالوطن
سماؤه له
مصائبه
هبوط.

مسروق أنا جذريا
مقطوع من أصل ينمو دوني
لست خارجيا
أنا كائن داخليَ
التعريف يقتل خيالي
يسجنني في حريتي.

أصولي تتدفق هنا منّي، ومن الصوت الذي يختلف
عن حيطاني الأليفة
عن لغة الفراغ سأختلف
عنّي.

صوتي متشعب
همسي منقسم
شاهدتك ممارسا الصمت
عرفتك
معترفا
يخجل من لونه
لون لا يجيد التعبير عن فشله
عرفتك
جدارا لجمال
يحمل الانقضاء
عرفتك
مكتوفا ينبعث.

* * *

أتركني
أيّها المحذوف الذي
لا يشعر بهجرة أوراقه.

أولادك
واقفون وسط الماء النادم على وضوحه
أرى ماضيك يبني بيتا يتباهى بخسارة تتحجّر

دعني
هناك جدار
هناك حديقة
((**أعترف بالوطن كشرط ميّت**))

أذكياء يقفون فوق خط يشبه الحياة
كي يمنعوا الكلمات من المرور
عظماء يجمعون الاوراق لزمان
لا وقت له
لا حاضر له
دعني .. أيّها اللاّمسمى
أحمل لغتك لأفرشها فوق لاشيئك.
لا باب لي في الموسوعة الجديدة
سوف أتبع عاطفتي
أبقى أحمقا حتى أهجر غبائي.

تعال .. أنظر
(***هذا كتاب***
هذا طريق)
لايعترف الكتاب
بنفسه, بكلماته, بلغته
الا عند أزالة البراءة
وايجاد دماء قاسية
تزيل الخجل عن الطريق.

ليس الطريق ممرا للتحويل
لكنّه مسار لاستقبال قسوة الكتاب

هناك من يعتقد أن الكتاب
يختلف عن الطريق
مؤكدا أن الاختلاف كامن
في طريق لن يكون طريًا
الآ عند أعلان الكتاب
نزاهة سيلان الدماء
و براءة القتل
للحفاظ على موازنة غير قابلة للتصديق
كي نسلك نحن
الكتاب ممرًا للتحقيق
والطريق وطنا لرداءة الحلم.

الكتاب جريمة
الطريق سير يشبه الوقوف عنادا
السبيل:
موقع فاضل لمرور كلمات الرَب
الصفحة:
فسحة مقدسة لأنفجار الناس:
هنا لا أقصد
تفجيرالبشر في شارع مزدحم بعبث ماجد
ولا أنفلاق دروب
عاجزة عن تقريب مسافاتها
ولا النار المبتهجة
بأشتعالها المتشرذم
ولا التفتيت
الأكثر حضورا من التبعثر.

قد ترى أنت صفحات كتب
تزلزل أصحابها
تورّق أمان المنتظرين
لكنّ عند أنبجاس لغة
تقدّس أملاكها مخلّدة مصادرها البعيدة
سينهار الكتاب
رغم أرق الكتاب
ليس الأرق ما يبديه النوم من خشونة
أزاء الاستيقاظ ,
هناك يقظة لا تستسيغها وقفة
عندما يتعب النص سوف
ينتحر الكاتب دون
ترك وصيّة

(*كتاب مؤلم*
نص مبتهج):

الابتهاج لا يعني الانفلات من
كآبة متأخرة
الانتهاج يرمينا في فراغ
يستدعي الاستقامة
لكن كيف المستقيم ينبسط
ضمن تعرّجات متفوّقة
على أنبهار
لا يليق الآ لتعب فقد مبرّراته
كيف الحصول على تعرج
في سبيل

لا ماء له.

عند انعطاف التعريف

يفقد الوصول مبتغاه

باحثا

عن نقطة لا توجد

الا خارج الدائرة

عن لغة فقدت زائريها

الناس في التعريف لا يتعذبون

لكن النطق يتعذب

الألم يتهرب من مراياه:

الناس معتادون على

قسط غير قليل

من الغياب معتبرين

الهامش المصير الآجمل

لأحلام لا أصحاب لها..

لفراغات لا مكان فيها

الا لحزن

تركته اللغات.

كن معي حتىَ تلملمنا اشلاؤنا في سبيل لا يعنيه

غير الذي غادر المكان

مهيبا قاتما تاركا خوفه الدقيق لحظة كانت

الأوقات أو الأيام

تستنجد بورق شجرة فيها جفَت روح النبتة

كانت اللحظات منتمية لالتواء ينسيها انكسارها

المجيد

كن معك انفراجا

كن معك انحراجا

أسألك عن الالتواء غدا حينما ينام قوسك

أكتفي بهذا القدر المكن من النعم

نعم.. نعم.. نعم

لا أعرف

هذا كسيح

أم كثير؟

كن مع الملتوي حين انفراج الخط

دون خوف من انتقام الذين

سبقتهم خطوط بدائية

كن في أوَل

دون تكاليف البداية

دون ابتذال الكذب النائم فيك

طرقات تنهمر على نصوص

لم تنجح في امتحان الصدق

سماءات تنبثق من جذور

لم تنج من انبهارها

سأعود لتعريف فاشل

أعود لبؤس ناجح.

احدهم سألني عن امكانية تعايش

البؤس والنجاح

دون ان يشير الى ظله البائس

قلت:

فوقي بلاغة ثرثارة
تحتي أصطدام فقير

هذا هو (المابين) الحرَ
الحرية تعني ترجمة الحركة
ناجية من آثارها
(**يا ربّ طهّرني من آثاري**)
أثر أثر أثر
تراكمات لغة
لا تستثني أحدا
من كلام مباح
من سيل لايحترم المصادفة
لا يختزن ما يعنيه من معان
تشبه الأسواق دون تنوَع .
هل هذا تجنيد الأكوان
أو تبسيط الألوان ؟
جنود لا يدافعون عن أسلحتهم
انا جندي تركت ملابسي
لذلك خلعت التعريف عن الوطن
كي استبدله بشيء يقتحم وضوحه
يخترق ثبوته.
هذا اثبات غامض
رغم توسله بساطع مشمس
ساطع يختبيء
في أنفاس الورَاق:
الورَاق يجدد الصفحة بقديمه
الزكي
برائحته
يغمرنا
الورَاق للتعرف على هوائه
ذاهبون نحن لشم رائحة
تنبعث
من
كتاب

2002.

مسافة الايادي

شعر: دلسوز حمه

ترجمة: رؤوف بيكرد

الحديقة مكتظة بأوراق ساقطة

وحضن الشتاء مليء بالثلج

ويداه مليئتان بي

آه.. مني، المبتلى بطيران الصقور

وصهيل حصان شجاع لفارس مثلك

وسهول الثلج والضباب

***

الزقاق مزدحم بالعزلة

وجيوب "الرياح" ملأى بالهمسات

اما صدري فمليء به

آه.. منه، الضائع في ادغال شعري

وسباحته في بحيرة عيوني

***

تمطر الزهور، زهور القطن، بيضاء، بيضاء .. بيضاء

كان الموسم موسم الانجماد، وتكتكة الساعة

اليدوية للبندقية

موسم المنيّة والفرار

في الخراب البعيد لليقين قال لي:

"القبلة النرجسية لشعرك المبلل

لا تسعف رجولتي

انا كتلة من الحروب والانهيارات والتمزق

ايتها الفتاة الطيبة

امنحيني عذريتك"

كانت بداية الحب وردة ذهبية

منتصفه زقاق اعمى

ونهايته إراقة الدماء

ايتها الفتاة الطيبة

كيف لنا ان ننجو من هدير النزيف هذا؟

***

كان الشروق مليء بالشموس

والغروب مليء بالغد

والمدينة بالثلوج المتكومة تحت نهد الجبل

والمرأة البائسة

واما يداي، فكانتا طافحتين برائحته،

تمطر الزهور .. الزهور الحمراء

1995

يد الله

رؤوف بيكه رد

ترجمة: دانا احمد

"يمكنك ان ترى طرق السماء, و ان لم تنظر اليها من نافذتك"

فيلسوف صيني

كانا مستلقيين على السرير, متدابرين, و فجر ذو سكون مطبق, اهدأ و اكثر اماناً من ان ينصب فيه كمين او ينجز عمل ما بسرية, و كان صوت الغراب لا يصل الى الاسماع في ذلك الصباح كما كان يسمع في كثير من الصباحات المبكرة الماضية, حاطاً على شجرة صنوبر قريبة من النافذة, ناعقاً مراراً, بصوت نصفه نعيق و نصفه وداع, ثم خافقاً جناحيه للرحيل.

في البداية كانا ينشغلان به و ينصتان له, و لا سيما الزوج الذي كان هذا الصوت يعيده الى احلامه و خيالاته الماضية, فبالرغم من انه قد تجرد من هذا الماضي البعيد كحيوان مسلوخ, الا ان هذا الصوت كان يداعب شعوره.

حينها كانت جدته تقول: لأن الغراب لم يعرف نفسه في وقته عاقبه الله بالعرج, و ما نعيقه الا تضرع ليصاب كل انسان بعلامة سيئة. لذا عندما كانت جدته تسمع هذا الصوت تقرأ عدة ايات غير صحيحة و تنفخ بهن عليه و على بقية الأطفال.

صار الهدوء الذي في الخارج بمثابة حرب تقتنص النوم في عيني الزوجة, ارادت ان توقظ زوجها, بيد انها سرعان ما ندمت, و رجعت مرة اخرى الى المشاهد و الزكريات الأخرى, التي كانت اكثر تهرئاً من الحجر القابع في الماء, و لا تلمس عندها اية لذة.

كانت حرارة الفراش اكثر سحراً من ان لا تحتمل الكسل, لتقوم و تنظر الى الخارج, او تضع كاسيت اغنية صباحية في الة التسجيل تدغدغ بها زوجها. انها و في هذا الوقت و السكون المطبق لم تكن مقتنعة

بنوم زوجها العميق, كانت تعرفه اكثر من ان لا تتميز بأنفاسه بين النوم و اليقضة, لذا تحركت ببطأ و سألته بصوت منخفض: أ أنت نائم؟

زوجها ليس فقط لم يحر جوابا, بل بدا اكثر صمتا من أي يوم اخر. كانت شكوكها اثر من ان تصدقه بهذه العجالة و تتركه بالمرة, و هي تدرك حقيقة ان الأزواج يكذب كلاهما على الاخر. و ان شعوراً ما يوصل اسرار كليهما للاخر. غير انهما في اغلب الأحيان مجبران ان يغضا الطرف عن بعضهما البعض, و يتحايلا على العلاقة الأخرى العظيمة التي تربطهما. قد يكون هذا الاحساس و هذا التسامح كبيراً عند المرأة و يقل عند الرجل.. لكن بالنتيجة على الطرفين التنازل و الاذعان, و هذا ايضاً جزء اخر من عبودية الانسان.

تحركت المرأة مرة اخرى و كورت نفسها, خطر ببالها ما يقال: "ان السكون ناقوس لحدوث كارثة كبيرة". و سرعان ما ضجرت من تلك المقولة ايضاً, و ادارت بنفسها لتستلقي على جانبها الأيسر بمواجهة زوجها, مرت يدها في شعره المجعد, و لكنه لا يحرك ساكنا, و لكنها (رغم عدم قناعتها بهذا النوم العميق ذلك, حيث لم تكن مقتنعة من نوم زوجها العميق) سألته بهدوء مرة اخرى: فرهاد, هل انت نائم؟

كان زوجها كحشرة متفترة من البرد وضعت قرب شعلة, لتنتشر حرارتها في جسمها, فتعود الى سجيتها تثاءب. و بعد هنيهة قال: لا

-اذن لم لا تتكلم؟

- الفراش بالصمت اجمل

- هل تدري, انه لايشبه صباحات اخر, الدنيا مفعمة بالسكينة و الخمود.

- الى حد الرهبة, رهبة تشبه الموسيقى تماماً.

- لم لا نسافر؟

- الى اين؟

- أي مكان, أي مكان يروقك؟

- لا تغير رغباتك حسب هواجسي.

- انقلب نحو زوجته, وضع يده اليسرى على خدها, حدق بعينيها و قال: يبدو انك ترغبين في الحديث:

- اما تقول ان النوم شقيق الموت؟

- حسناً, الى اين تودين ان تذهبي بي؟

- اختر انت

- يقول احد الفلاسفة: باستطاعتك معرفة كل الدنيا من دون ان تسافر.

- انا لست فيلسوفة, و لا احب الانعزال و الرهبنة.

- اروع سفر لي الان هو ان ابدأه هنا, من داخل احضانك الى اسرار الكون, من الأمواج الخضراء داخل عينيك الى اقصى البحار و الغابات.

- فرهاد, اترك هذه الحكايات, نخرني الضجر في الاونة الأخيرة, لأكثر من ساعة و انا اتقلب في الفراش مفكرة بالسفر.

- سفرنا مليء بقلق لاطائل منه, انني احبذ ان ارفرف كالطائر و احلق لدرجة ان تتألم جناحاي و اتعلب, حتى لا يخطر العش ببالي.

- هناك طيور لا تحب عشاً سوى قفصها, كما نحن الان, حتى انت ايضاً.

- اثناء هذا الصمت حشر فرهاد اصابعه بين شعرها, و اخذ يبعد خصلات شعرها من امام عينيها, وصفها بشكل جميل, و رويداً رويداً انسابت انامله على قفاها ثم خدها. فبدأت تخامر جسده حرارة و ارتعاشاً اصبحت اصابعه كالسكارى الذين فقدوا القدرة ليتمالكوا انفسهم و يستقرون في مكان ما, يقفون, يغنون و يتعثرون, يقعون ثم ينهضون, حتى يرتمون في زاوية و يخمدون, و هكذا نامت اصابع فرهاد في صدر شيرين.

- هيا اخبريني, أي مكان تحبذين؟

- كثيرة هي الأماكن الجميلة اريد و لو لفترة قصيرة ان انجو من هذا القفص و ارى وجوهاً اخرى, مدينة اخرى, بحراً ما, زقاقاً او شارعاً ما, معرضا او سوقاً, أي شيء كان.

- السفر عندنا يشبه وثبة ضفدع من عمق ماء الى جرفه, او بالعكس, فاي تغيير هذا؟

- من المحتمل ان تكون هذه الوثبة و بعض النقيق ذات شأن كبير لدى ذلك الضفدع و نحن جاهلون به. هل قليل تكون في صحراء قاحلة حارة و من ثم داخل سفينة مع امواج البحر!

- ان كان كذلك يعجبني انا ايضاً. سفر في الروح, حتى الى عالم مخيف, حيث لا يجرؤ أي شخص على تخطيه, لكي تصبح العاطفة المألوفة و الروح المتصدئة نقية و متجددة.

- المهم ان نقرر و نمضي, اختر مكاناً.

- اعترت فرهاد ابتسامة عجيبة (بدا كأنه غير مطمئن من اذعان شيرين) تلقفتها شيرين سريعا و لم تقل شيئاً. مرة اخرى وضع يده على جيدها و جلد صدرها الأبيض. و حدق بشفتيها المتلثتين, و كرة اخرى شبه عينيها بالبحر الذي لن يستطيع مقاومة امواجه في نهاية المطاف. كما انهما نفس العينين اللتين غيرتا. مشاريعه المستقبلية, فبدل من ان يصبح اعزب في بلد اخر, جعلت منه زوجاً و ابقته في وطنه, و ها هو الآن امامها, يبحث عن الأطياف الخضراء الرائعة, عاجزاً عن الامساك بأي تعبير, بل لم

يعد له خيار سوى التحديق و الاستمتاع بمنظرها. شيرين التي تعرف ماذا تفعل في أي مكان في أي مكان هو ماذا يفعل, اغمضت عينيها, فمد فرهاد يده قريباً من رموشها وقال:

- اصابعي اكثر ثمالة من ان لا تستطيع بجنونها فتح عينيك.

- انك دائم الانقياد وراء اهوائل و رغباتك, اقول انني ضجرة, يئست من حمل هذا الأمر بحيثياته, اريد ان اغير عالمي لفترة قصيرة, لا تكن رجلاً جد عادي!

- نذهب الى اين؟ و عالمنا اصبح ذلك السجن الذي تميز بيسر صوت صرير الباب و صوت الحارس.

- اذن فلأكن حارساً للموت بين المطبخ و هاتين الغرفتين الصغيرتين.

- و اين المكان الذي يزيل ضجرك؟ هذا البلد جميل, بيد ان قلة من القبحاء احالوه جحيماً, لا تعرف الى اين تتجه حينما لا ترى نوراً بوجه احد.

- و لكن عندما نسلم انفسنا ليد الاعصار, فمما لاشك فيه سيجعلنا طعما له.

- وضعت شيرين يدها على رقبة فرهاد, و مدت اصابعها نحو شعره, كانت تريد - رغم معرفتها ان فرهاد اكثر ذكاءً و نباهة من ان تناوره - ان تضعه على طريق لا يستطيع هو انجازه بسهولة, و بأطراف اصابعها دعكت فروة رأسه ثم تحولت نحو خده, و لكن فرهاد لم يبرح سفره وسط البحر, حيث وبان نصف يائس يتصارع مع امواجه, و لا يقهر بسهولة.

- قلت لك انك تستطيعين و انت داخل الفراش القيام بسفرة استثنائية, حيث لا يمكن لأحد القيام بها.

- الى اين؟

- كل مكان, نحو مدينة جميلة, جبال ذات قمم عالية, نحو تلك البحار و الجزر المليئة بالمآسي, و الأحجيات الفريدة الحلول.

- انك تتحدث دائماً بالخيال, حتى انك لا تأبه لكلامي احياناً, و في اثناء الحديث تتساءل: ماذا قلت؟

- حقاً, هل قرأت "المدن اللامرئية" لإيتالو كالفينو؟

- فرهاد, انا لا احبذ مدناً لا مرئية, لا تجعل من الأمور سوق لأوهامك!

- انك تعشقين الأشياء المجردة, اصنعي لنفسك مدينة من الخيال, لم يشهدها احد.

شيرين ابعدت يديها و استلقت على ظهرها.

- انك تستمتع بالجسد الميت, و تدب الحياة فيه, و يمكن تتقاسم العشق معه, و هذا لا يعنيني, و لا يمكن للشعر ان يدفئ احداً وسط الثلج, هذا خيال, حتى الشاعر نفسه يتجمد هناك.

- انا لا اتحدث عن خيال مجرد, بل عن خيال تجعلينه واقعاً, و تحققين به الأحلام.

- يبدو انك ستمسك النجوم بيديك, كما تقول انـت عليـك ان تكون عبـداً في هـذا البلـد, مـن ايـن للعبـد خيال او ابداع؟ خيال و انتاج؟

- شيرين انا اؤمن بنفسي و بك, من هذا المكان يبنى عالم حسب رغبتك, جميلة و منسقة.

- حسناً, انا اتمنى ان امتلك جناحين لأطير بهما, و احط عند اعلى قمة, و أوطأ سفينة في وسط البحر.

- منطق الرغبة في حدود تحقيقها و ليس محالاً

- لماذا السفر في هذه الأشياء المحال تحقيقها, او تخيلها محرم؟

- لا شيء منها محرم, لا تزيدي الأمر سوءاً, اعلمي ان الأعمال البسيطة و السهلة تنقلب فجأة الى عمل شق الجبل, و العكس صحيح, مارأيك؟

- انا اصغر من أن استطيع تفسير الحياة و الوجود, و مفرداتك, و بخاصة الآن, فعدا فكرة السفر لا اشعر حتى بالجوع.

- لا تظني حينما لا تحصلين على الشيء بسهولة, ستجعلين من قلبك بيتا لليأس.

- انت كأي رجل اخر, ابتعتني, و تحركني بين يديك كيفما شئت.

- ضحك فرهاد و امسك باصبعيه شفتيها الملوثتين.

- و ان كنت كذلك, فلن تكوني فقيرة لتسكن عني يوما بلا حيلة لتتغاضي عني.

عرفت شيرين ان كل الأحاديث رغم اختلافاتها هي متشابهة. هـذان الاثنـان يلتقيـان في نهايـة المطاف في نقطة واحدة و يتحدان, يتفقان, بقدر ماكان فرهاد صادقاً كان ضعيفاً امام الحب.

- أي شيء يجلب الحظ و السعادة لي, انت تنبرأ منه, لذلك انا مضطرة لأتخذ قراراتي دون استشارتك.

- أي قرار؟

- ان اقتل نفسي!

ضحك فرهاد...

- توصل المرأة قراراتها دائما الى مرحلة النهاية, عليك ان تعرفي انه اذا كـان هنـاك اعلـى و اسـفل فهنـاك الوسط ايضا.

- الرجل عندنا لا يقرأ قرارات المرأة, فرهاد, كلكم كاذبون, ثق انك تعرف هذا اكثر مني.

- حسناً, نذهب الى خـارج المدينـة, الى القريـة وسـط الجبـال, و نشـم اريـج الحقـول و الأعشـاب البريـة, و نستنشق انفاسنا عطر الورود.

- انجو من هذا القفص فحسب, و الا سأموت.

مرة اخرى ركز فرهاد بعمق في عيني شيرين.

- كما قلت, السفر من احضانك, اروع لدي من رحلة الى العالم, في هذا الفراش بالذات, توصلك يد الحب الى اقدس كائن و انقى مخلوق.

- قررت ان لا انغر بكلامك, انا زوجتك منذ ثلاث سنوات, و لم يمر يوماً دون ان تخدعني بما في الكتب.

- ان ثقتي بسفرك هذا لن تتزعزع, فبقدر ما يحب الزوج زوجته بقدر ذلك يهتم بالحياة و الجمال, هذا مفهوم بسيط ينبغي ان يعرفه كل احد.

- لهذا لا تصغ الى كلامي! السفر يجعل الحب اكبر و اجمل.

- انه يحيي الجسد الميت!

- نعم, و خصوصاً لإنسانة ميتة مثلي الآن.

- حسناً, كما قلت الى المناطق الجبلية الباردة, الاخاديد و السفوح, الى الثلوج التي تذيب الانزعاجات و ضجر النفس, اتعرفين؟

- انت أخاذ دائماً بالمناظر الجامدة من الطبيعة, الجبال الجرداء, ثلج يقضي على الحيوان و الانسان و الطيور, مواجهاً تلك الأصوات التي لا يمكن اسكاتها.

- تلك الأشياء ليست جامدة كما تقولين انت, انا احبها اكثر من المدينة و من المناظر المعدمة المصطنعة, اشعر بأن ارواح ابائي و اجدادي تسكن هذه الأشياء, و انها مصدر انفاسي و ديمومتي في هذه الحياة, و هي لا تمحي استغرابي فحسب, بل تحرك كل وجداني.

- انا اهيم وراء الراحة و الهدوء, و انت تأخذني الى مكان مليء بالخوف و الارتعاد.

- التعب و الخوف يجعلان الحياة اجمل و الذ في احايين كثيرة, في الاقل ان هاتين الصفتين تخلعان على الانسان قيمة اعظم, الحياة ليست كسلاً او ارهاق النفس داخل المدينة, كما يفعل ذلك البعض.

- ادخل في صلب الموضوع فرهاد, السفر.

- لو كان الأمر بيدي لبقينا نعيش في تلك الطبيعة التي لا تجرئين عليها, في هذه المدينة تخدعين نفسك كل يوم مراراً و تخدعين الناس.

- جعلت من الفراش قاعة من قاعات الجامعة التي يدرس فيها درس الفلسفة.

- كلا, تلك القاعات خاوية, بينما هنا مليء بحقيقة السمع و الرؤية.

- باختصار, ماذا نفعل؟

- نغادر, الم تقولي لي اختر بنفسك؟

- الى بؤرة التمرد, و المغامرة؟

- اذكري حتى قطاع الطرق

- الا تشعر بأنك مصاب بمرض حب الأماكن المقفرة, اكرام الميت, و العالم المليء بالأزمات و الخوف.

- الحياة الحقيقية تبدأ من الصبر الذي يقدم لك الصعوبة و المأساة حياة بلا الم تشبه ماءً يجري وسط بركة راكدة, تفرز الطحالب و الروائح الكريهة.

انكفأ فرهاد على وجهه, فجعل من كوعبه مرتكزاً لصدره و رأسه, انحنى على شيرين, و اخترقت عيناه عينيها و قبل شفتيها المتلئتين, و قال لها: اشعر الآن و كأني اتسلق من قمة جبل, اتعب اتصبب عرقاً, و هذا ما يجعل مني سعيداً و يريح جسدي و اعصابي.

- اهذه حكمة ام مزحة؟ علينا الذهاب الآن, انا ضجرة, اتعلم ما هو الضجر؟

لصق فرهاد جسمه بجسمها اكثر, شعر بلذة لم يشعر بها من قبل. و في ذلك الوقت لم يتمكن من البحث عن اسباب, و من المحتمل انه لو بحث ما كان ليجدها, اصبحت اصابعه اكثر نشوة و الصخب فيها اكثر سرياناً. غير ان شيرين تحركت بضجر, فخلخلت توازن فرهاد في الفراش, قالت:

- نهاية كل حكمك و فلسفاتك تدور في تكرار ابدي بارد, تكرار مزعج, لا تستطيع التخلي عنه, أي شيء غدا هذا؟

كأن تياراً كهربائياً مفاجئاً مس شعور فرهاد, و صدفة جعلت جسمه كله يهتز, التيار استحال الى دخان صار دخاناً يتجول في انفاسه, فأرغمه على الصمت, لا صوت البتة, فجأة استدار و سقط على ظهره, و جال بعينيه باتجاه آخر, و بعد حين من الزمن اصبحت الغرفة غابة موحشة, و لبرهة اصبحا هادئين الى درجة يخال لك انهما لا يتنفسان.

يحتمل انهما كانا يفكران في رتابة حياتهما اليومية, التي كانت مصدر ازعاج و مضايقة لهما, حتى افراحها. او ان يكون الاثنان بصدد فكرة سفر, و في منتصف الطريق يفترق كلاهما عن الآخر. احدهما نحو مدينة مزدحمة و عالم ضوضائي صاخب, و الاخر الى غابة, اخدود او الى ينبوع و مياه سهول قفر.

من الممكن ان يكون فرهاد قد اصابة الغجل حيال رغبته المفاجأة التي داهمته بغتة و عدم قدرته السيطرة عليها, و كذلك شيرين بدلا من حضنها فتحت باب غرفتها البارد و المتجمد و تصرفت بلا اكتراث, من يدري؟

في لحظة ما كانت الصور و المشاهد تنهمر على ذهن فرهاد, التي فيما مضى شحيحة الخطى اليها, و حينما تخطو اليها كان الوقوف عليها يستغرقه طويلاً, و يحتمل انه كان استمتاعه بها اكثر, ان كل هذه الصور كانت لها علاقة باسم زوجته, حيث تتوارد الى ذهنه بهيئة البرق, و هو ايضاً و دون شعور منه - كان معنى من معاني الحب لزوجته شيرين, مثل (موجة بحر, لفحة نسيم, مزمار راعي غنم, طيف ازرق خلف هالة الفجر, شعاع في ليل حالك الظلمة, زهرة شبوي هادئة)[1].

و كذلك شيرين لم تستطع من خلال مشاهد متداخلة عدة رؤية اشياء ملموسة سوى الاشباح, و لكنها لم تشأ ان تتأخر عن رفيقها الذي بجانبها, حتى لا تبدو كفراشة محروقة او شمعة مطفأة, فهي تعرف كم كان زوجها خياليا, و يفسر الأمور على غير عواهنها, لذلك اسرت مع نفسها قائلة: (اذا لم تصنع الى فرهاد سأضطر ان اروي شكواي الى وردة داخل سندانة, او الى شوكة ما, و اذا لم اعتز عليها, سأستنجد بتلك الشمعة التي اوقدها دائماً في مكان مظلم من ليلة الجمعة على روح امي).

- انت تأخذ الأشياء على محمل الهزل, أنا اعرف نفسي, فأنا مثل لهب الشمعة تنطفئ بهمسة النسيم, لا تدعني اقول انك ذلك الهواء الطفيف.

كان فرهاد مثل حجر في قمر بحر, و ضعت شيرين يدها على صدره, و قالت:

- انك في بعض الأحيان تتحدث بلغة الفلسفة, و في احيان اخرى كثيرة تكون طفلاً مجنوناً و لحوحاً, لم قلبك بهذه الرقة؟

- اعذريني المتك, فالذي لا يستطيع خلق الحب داخل الآخرين, هو في سجن, و يبدو ان ذاك الشخص هو انا.

- عندما ينتهي الحب, يدب اليأس في الروح, بيد انك لست كذلك.

نزل فرهاد من على السرير و اتجه نحو النافذة, اراح ستارها, نظر الى الخارج و حدق لبرهة. الدنيا الجديد مثل نهر حليب يتلألأ, لم يستطع الالتفات الى كل الاتجاهات. و في لحظة أغمض عينيه ولاذ بالصمت. لكن بريق روحه نازع صمته, فانفتحت اساريره, هذا الابتهاج هزم اللحظات الماضية, و لم يترك لها اثراً في مخيلته, فنادى شيرين.

كانت شيرين في تلك اللحظة ناعسة, او من المحتمل انها لم ترغب في اجابته, كانت تخطط لسفرنا. و لكن فرهاد اربك كل شيء عليها, وقف على رأسها و امسك بيدها. لم تعرف شيرين كيف اقتنعه بهذه السرعة و لم تقل شيئا. نزلت بصمت و وقفت معه امام النافذة, تتطلعت الى وسط الباحة و أعلى السطح, ساحة اللعب النائية, و الزقاق و حبل الملابس, و اسلاك الكهرباء, و هوائي التلفاز, تنقلت بعينيها بين اشجار الرمان من شجرة الى اخرى, و اشجار الصنوبر العالية, و اشجار التوت, في لحظة خالجتها رغبة عجيبة لم تشعر بها من قبل, شرارة سرت من عينيها نحو روحها القارصة البرودة و الضجرة, كأنها شعاع يتمدد داخل الظلام. نظرت باتجاه الطيور التي لولا بعض الحركات التي تؤديها لما شعرت بأنها على قيد الحياة. و الحركات هذه لا تصدر الا لاكتشاف الاراضي او السعي وراء الطعام. و في الأفق ضباب ناصع البياض, يغطي قمة جبل من ناحيته الأخرى بشكل متوازن, غير مهتز و لا مطل برأسه على سفح الجبل, رمح كافوري, نحيف و طويل, يشق الأفق نصفين. بحيث لم يدع فسحة رؤية لعيني شيرين.

جعلت شيرين الشباك مواربا, فاستنشقت قدر استطاعتها الهواء الطازج الآتي من الخارج, لأول مرة شعرت بذلك العبق العجيب الذي ما انفك فرهاد يخبرها عنها, و هي تلومه على ذلك, اسرت الى نفسها قائلة: "هذا النسيم البارد هو الذي يملؤك بالدفئ".

عندما ادارت شيرين وجهها نحو الأريكة, تسلل فرهاد داخل الفراش الدافئ, ارادت ان تجبره على الكلام, لكن كيف و بأية طريقة, انتظرت قليلاً ثم صاحت به:

- فرهاد, الجو في الخارج يشبه راحة يد الله, ما رأيك؟

- بلا شك, هذا الصباح يتقطر الحليب من يد الله (فرهاد, الى الآن متحير من جوابه المفاجئ هذا و حالته انذاك).

عادت شيرين لا شعورياً الى داخل الفراش, بانسياب دخلت حضن زوجها, و لصقت وجنتها الباردة الى وجهه و همست في اذنه:

- فرهاد, اتعلم بإنك على حق, انها مرهم للروح المنزعجة و الضجرة. بالنظر وحده تمتلئ بالدفئ و النور.

نظر فرهاد اليها, فرأى بريقاً جديداً في عينيها, مثل بريق وردة نجمية في ليلة ظلماء, قال لها:

- ليس بالنظر فحسب, بل عليك أن تتجولي داخلها و تلعبي معها, و حين تتعبين ستشعرين بطعمها الحقيقي عندئذ, و حينما لا تستطيعين تجربة كل اسرارها, ستعطيك لذة ضعفك عند ذاك قوة جديدة.

كانت شيرين اكثر تلهفاً لتعبر عما يجول في داخلها بالكلام. الصقت جسمها بجسم فرهاد, و اخفت وجهها تحت شعرها الكثيف الطويل, كانت تعرف انها احدى رغبات فرهاد الفريدة و المحببة, حيث كان في كل مناسبة يقول لها: ورثت هذا عن امي, و كان النوم لا يغالبني حتى اشم رائحة شعرها و صدرها.

بأنفاسها الحارة و وجهها المحمر قالت شيرين:

- انت على حق فرهاد, يمكننا أن نرى العالم جميلاً و ان كان من خلال نافذة غرفتنا فقط.

- بلا شك, و يمكنك ان تقومي بأروع رحلة ايضاً, ولاسيما الى الله كذلك.

- على يده البيضاء نفسها التي تغطي وجه السماء و الأرض.

- بلا شك, و لكن لا تنسي ان هذا السفر ليس بالهين, و يحتاج الى كبير عناء و مشقة.

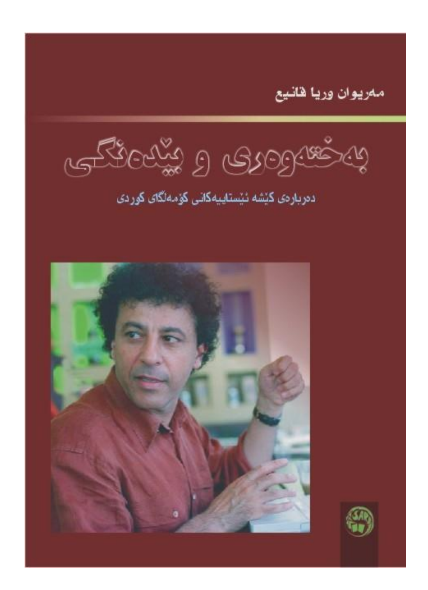
- انها بحث في داخل الجليد و الرعد و البرق, اليس كذلك؟

- بحث داخل طريق متشعب, و ليال موحشة, تتمثل حلاوتها في تصبب العرق الذي يحني الجسم المتعب و أوردة جسمك المهمة مع دمائها تعتاد الام اللذة.

- انك في اثناء المصائب و الضيق, يصبح صوت غنائك شجياً.
- دون ان اشعر به او انتبه له.
- سأعتبر نفسي من الآن انني حصلت على السعادة عنوة, داخل ذلك الجدال الذي تتحدث عنه.
- انك الان في حضن دافئ شيرين, و انك ان لم تكتو بالنار فلن تعرفي معنى الاحتراق.
- حسنا, الا تريد ان اكون معك, حتى و ان كان في شق جبل.
- بلا شك في هذا الوقت تشعرين بالحرية تماماً, و يفتح الباب على احلامك و رغباتك المسجونة.
- كيف؟
- اود ان اقول ان المعادلة تصبح هكذا: الالم - النصر - الحرية.
- انا من الان, اشعر بتلك الاشياء من خلالك و من خلال طبيعة هذا الصباح.

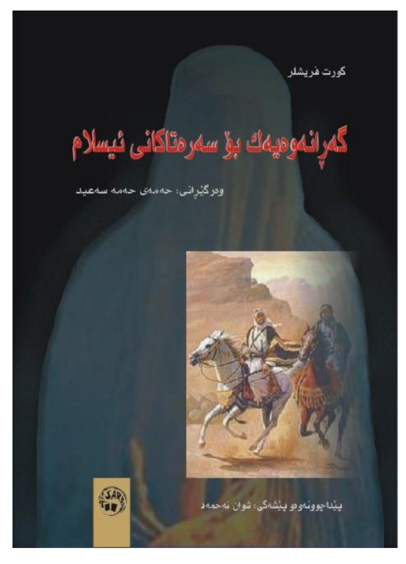
ضحك فرهاد, و سرعان ما صمت الاثنان, صمت عاشقين في منتهى الثمالة و التعب, حيث بعد بضع ثوان يرتقون على يد الله رويداً رويداً. سفر صعب, بيد انهم سيتذوقونه كثيراً.

من اصدارات دار سردم للطباعة والنشر



السعادة والصمت

حوارات مع مريوان وريا قانع



عودة الى بدايات الاسلام

ترجمة: حمه ى حمه سعيد

ستون قصة قصيرة جداً في الحب

جليل القيسي

الى احبتي: شيرزاد حسن, ازاد برزنجي, نوزاد احمد اسود, الذين دخلوا ادغال قلبي و روحي بحب, اهدي هذه القصص القصيرة)

1-المسرات الحسية

قال: اعرف من اين تأتيك هذه المسرات الحسية اللذيذة. آه, انت هذا اليوم سعيدة جداً.. و هذا طبعاً شئ نادر.

-ماذا؟ تعرف؟ مستحيل.! و تبالغ اذا حاولت ان تدخلها في المنطق..

-يا عزيزتي مثلما يعرف الطير في السماء هبوب العاصفة, اعرف انا ايضاً انك مشرقة المزاج.

-كيف؟

-من هزلك اللطيف, و غنجك الجرئ, بسمتك التي ترافق حديثك بحرارة شجية.

-و الله انت على صواب.

2-احبك انت؟

قالت: ابهذه البساطة تريد مني ان انساه بعد حب عقد من الزمن و احبك انت؟

-لم لا طالما سافر بعيدا و لن يرجع.

-لكنه زرع في فضاء ذاكرتي اروع الذكريات لن تنضب بسهولة.. اه, لو تعرف بحيرة مشاعري, و بذلك الدخان الدافئ الذي يرتفع منها.. يا الهي, ما اسهل الكلمات.. انساه؟ كيف بحق السماء تريدني ان اتخلص من

عبء الحنين الاسيدي الحارق الذي اكنه له؟ حنين يلسعني في كل دقيقة مثل افعى مثلثة الرأس. اذا كنت تتصور انك تريد ان تعيد لي الحياة مثل بيجما ليون, فأنت حتما حالم. ارجوك.. اتركني.

3-صراحتي

قالت: قلت لي ذات مرة انك تقدس في صراحتي الصادقة.

-اقسم على ذلك.

-الا تغضب اذا قلت لك ان لديك عيباً واحدا و كبيراً

-اطلاقاً

-هو بصراحة لا عيب فيك اطلاقاً.

-غلط.. انا.. انسان..

4-بعد غياب طويل

عندما دفع الباب برفق, توقف. كان الضوء في الغرفة بلون البلاتين. سار بخطوات الذئب عدة خطوات قصيرة. شعر و هو منتش يستطيع ان يلمسها مثل قطعة الحرير بعد غياب طويل. كانت نائمة بعمق. تأملها و هو في حالة نفسية مضيئة. مس ذراعها بهدوء. انتفضت. رأى في عينيها بريقا حارا مشبعا بالشهوة كمن يفز فجأة من حلم شهوي. عندما رأته قالت بصوت جميل و حزين: اه. انت اخيراً.. يا الهي, الاعزاء جداً يأتون بلا دعوة.

5-بلاغة

قال: الاحظ و لمرات عديدة انك تضيقين من حديثي؟

اجابته بسخرية ناعمه: لاشك لديك بلاغة جيدة في الحديث.. و لكن..!

-لكن ماذا؟..

انا بصراحة اكره بلاغة الحديث.. انني احب لغة القلب و انت مع الاسف لا تجيدها.

6-سكر عاطفي

غلبها سكر عاطفي حار, و اطلقت ضحكة حلوة.. قال في نفسه: يا لضحكتها اللؤلؤية التي تضرب القلب مثل قصيدة متوهجه.. قالت: الان يا عزيزي اخبرني بصدق هل اثرت عليك ككاتب منذ ان عرفنا البعض؟؟

-حتماً يا عزيزتي.

-كيف مثلاً؟

-اولاً ان روحي اصبحت خصبة جداً. و مثل تحفة فنية رائعة اضيفت الانسجام على حياتي الروحية و النفسية. و عمقتي لدي روح مجرى الوعي؛ و شذبتي نزواتي العارضة. انني الآن كتلة افكار, و احلام مشتعلة.. اه, لماذا تبكين؟

-من شدة فرحي يا حبيبي.

7-**لا تعرف الحب**

قال: صدقني يا عزيزي ان صديقتك هذه لا تعرف الحب. الحب الحقيقي يهز حتى الانسان البارد, بل يحرج حتى رجل الدين الصارم. تذكر قصة حب القديس ابيلا.. صديقتك, يا الهي, قسمات وجهها باردة, و اشك ان ثمة حرارة في داخلها. انها بصراحة فتاة صقيعية في كل شئ.

8-**احتقرها**

قال: يا صديقي اقسم لك بشرفي انها تحبك بجنون.

-اما انا كما قلت لك فأحتقرها..

-لماذا؟... لماذا؟

-اسمع, لا تصدع رأسي بالمبالغات التي لا طائل من ورائها. قلها بصراحة, و بلا مداراة, او مراعاة, او كذب, هل انت قوادها ام عشيقها؟ ام ماذا؟

-حسن.. انا.. قوادها..

9-**حبك الرائع**

قالت: اتعرف يا عزيزي ماذا فعلت بي بحبك الرائع؟

-ماذا؟.

-لقد حررتني من الخوف, و الضياع, بل من العالم كله. يا الهي, لكم كنت اعاني قبل ان اعرفك من كسوف الروح.

10-ابكي

قال: ابكي يا عزيزتي حتى الثمل. هذا فقط يريحك. قلت لك اكثر من مرة ان ليس العقل وحده يخدع, فالقلب يخدع النفس ايضاً.. لكنك مثل بعض الأزهار التي بدلاً من ان تتفتح تنغلق و لا تفيد معها الشمس.. كوني شجاعة و قولي وداعاً لحب نزق..

11-دنيا من الأريج

كان الربيع ساحراً, و انتشر حيث كنا نجلس دنيا من الأريج و العبير.. نهضت و وقفت قبالتي. كان خصرها واهياً منتعشاً.. كانت سعيدة و تمتلك حيوية واثقة و عنيدة. قالت و في صوتها عذوبة بريئة ناعمة: انت و هذه الطبيعة حشوتما قلبي بحنان بهيج.. الهبتما مشاعري, و عواطفي, بظمأ كالحمى.. الان فهمت يا عزيزي الفنان ماذا كنت تقصد بالبصيرة الروحية.. اقسم احبك الان و الى الأبد بقوة الف امرأة.. و راحت تخب في حقول الحنطة الزمردية مثل مهرة متهيجة.

12-متاهة

قالت بصوت متهدج: امتأكد انك لا تسير بي في متاهة؟؟ أمتأكد يا عزيزي انك تعرف الطريق وسط هذا الظلام؟؟

-لماذا تتصرفين بطريقة خرقاء؟ باضطراب و كأنك تعانين من امراض الطفولة, او كآبة المراهقة و اساها..

-لماذا انت واثق..

-يا حبيبتي ان ابرة بوصلتي في اعماقي تضيئ لي الطريق. ان الفنانين الاصلاء تظهر لهم الحقائق على شكل لمحات.. هيا.. وسعي من خطواتك.

13-يلهو بأعصابي

قالت لصديقتها: ماذا؟.. هل حقاً قررت هجره الى لأبد؟ لماذا.. ماذا حدث؟

-السافل, راح يلهو بأعصابي لهوا مسعوراً.. قرفت من عامية عواطفه, و ظنونه المقززة.. صدقيني لا يمتلك سوى الحقارة في القلب, و في الروح, و الفكر, و يحتكر ذهنه مجموعة من افكار بالية يدور بها بهذيان..

14-**راقص ماهر**

اقتربت مني فتاة جميلة و رائعة التكوين, عيناها السوداوان تلمعان, و تفيضان بالرقة و الصراحة, قالت بأعجاب شديد:

-صدقني ذهلت برقصك.. انك بصراحة راقص ماهر جداً

-اشكرك.

-بماذا تشعر و انت ترقص بتلك الحرارة؟

-اه.. اشعر بغليان من اللذات, مثل الأفريقي الذي يرى في الرقص روحا يحيل الجسم الى صلب سائل, يجعله يهتز كالقيثارة.

-صدقني كنت اراقبك و كأن روحاً تنبعث من جسدك.

-انستي الرقص سحر قوي.. هو طيران بغير اجنحة, هو الحياة.. بعد صمت قصير قالت بصوت شادي مثير: هل تسمح لي بقبلة.

15-**يا صديقي**

قالت بصراحة: يا صديقي انني استلطفك و لكنني لا و لن استطيع ان احبك.

-لماذا؟.

-لأنك بصراحة انسان غريب الاطوار

-ثقي انستي توجد في الانسان الغريب الأطوار قيم روحية رائعة اكثر مما توجد في الانسان الاعتيادي

-لا اعرف.. انا لست فنانة..

16-**الحرية الجميلة**

قالت: انك تقول لي باستمرار انني لا امتلك الحرية الجميلة, لذا لا استطيع ان احب.

-هذا صحيح.

-ماذا تقصد بالحرية الجميلة؟

-الحرية الحقيقية..

-انت فعلاً على صواب.

17-**لن تفهمني**

قالت: عندما تعرفنا على بعض قلت لك انك لن تفهمني

-فعلاً.. و بعد سنة فشلت كما فشلت انت.

-بالضبط.

-حقاً من يفهم من!..

-لا احد يا صديقي.. كل كائن نبع لا ينضب.

18-**بالصدفة**

التقيا بالصدفة المحضة بعد غياب اقل من عقدين. تبادلا نظرات طويلة بصمت. قال هو في نفسه و قد هيجه شكلها الطفولي الرائع, و اشتمله فجأة لا ارادياً حنان مؤثر, و هتف مع نفسه: هذه التي احببتها بجنون مازالت ملاكا حقيقيا.. بينما رددت هي مع نفسها: اهذا هو ذاك الشاب الوسيم الذي احببته بقوة؟ ماذا حدث لوجهه؟ يا الهي ما هذا الخراب؟ لقد نسجه الزمن و الألم و المعاناة بالغضون و التجاعيد, و الوان رمادية.. غادر كل منهما بصمت بأتجاه معاكس.

19-**عفويتها الساحرة**

قال لصديقه: تأملها جيدا يا عزيزي, و هي بين صديقاتها. ما الذي لفت نظرك اضافة الى جمالها؟

-عفويتها.. الساحرة..

-يالقوة نظرك.. لكن, هذه العفوية تغري المقابل ان يلغي الكلفة معها.

-و هل الغيت.. قاطعه قائلاً. حاولت, لكنني اكتشفت ان تلك العفوية رغم سحرها يجب ان تؤخذ محمل الجد.. اجل انها عفوية حقيقية مثيرة لكنها من النوع اليقظ المشروط اللامجاني..

20-**يهملني**

قالت لصديقتها: رغم حبي الشديد له, انه احياناً يهملني ببرود لأيام..

-ثم ماذا يا عزيزتي.. اتعرفين ماذا تفعلين؟

-ماذا؟

-عندما يأتي, اجلس بهدوء و كأنك امام رسام كبير و خذي هيئة فتاة تسيح بأفكارها و كأنها تناغي احلامها التي هربت الى لأبد, و اطلقي بين حين و اخر انات موجعة مثل ثعلب جريح.. اه, عندئذ ستجدينه يمحضك المزيد من الحب.. هيا هيا, اذهبي و جربي.. الفنانون تحركهم رعشة الأبداع.

21-جوهر الحب

قالت بصوت متهدج, مضطرب: لقد وضعت كل ما لدي من الذهب, و مئات مئات الاف الدنانير امامك و انت ترفض ان تأخذها.. حسناً, ماذا تريد؟ لماذا اقتحمت على الغرفة شاهراً مديتك.. قل ارجوك.. تكلم..

-لالالالا.. لا اريد ذهبك, و لا نقودك.. اريد قبلة واحدة فقط. من سنوات و انا احبك بصمت, و احلم بقبلة واحدة تكون زوادتي في الحياة الى الأبد.

-ماذا؟ قبلة..

-نعم. لقد كان الشاعر الألماني غوته على صواب عندما قال (القبلة هي جوهر الحب, و الشئ المهم فيه..)

-يا الهي, اقسم انك انبل عاشق رأيت.. لك مني الف قبلة, يا من تعرف الشاعر غوته..

-لا لا. قبلة واحدة تكفي.. .. قبلها بحرارة, و غاب الى الأبد.

22-أهذه انا؟

قالت بعد ان دققت بصرها بإمعان في صورتها التي رسمها خلال شهر واحد: أهذه انا؟...

-نعم أنت.

-لكنني هنا اجمل بكثير..

-اتعرفين يا عزيزتي ماذا فعل الفنان سيزان مع الفواكه التي رسمها؟؟

-ماذا؟.

-جردها من بعض الخصائص التي اعطتها الطبيعة.

-لماذا؟؟

-ليثقلها بالحياة التي وهبها الفن اياها

-هل افهم انني في خيالك الفني اجمل مما اسبغت على الطبيعة؟.

-بكثير..

-كم سعيدة انا..

23-الوجه الجميل

قالت: تقول انني لا أؤثر في الرجال بجمالي الرائع فقط.

-فعلاً.

-هل لدي طرق اخرى لا اعرفها انا؟

-الوجه الجميل يا صديقتي لا يكفي للاغواء.. انت مثلاً لديك طرق حامية, و شيطانية غامضة تطلقينها مثل الشرارة السريعة للإغواء.

24-جسد فارة

قال لصديقه بحرارة: انظر بدقة يا عزيزي.. أي جسد فارة. اية شيطنة في تحريكه اثناء المشي بغنج جامح..

هل حقاً لا يوقظ مثل هذا الجمال المخيف حواسك.

-لا ابداً..

الى متى تبقى حواسك ناعسة, نائمة, بل بصراحة ميتة؟

25-لن يفيدك

قال لصديقه محذراً: صدقني لن يفيدك لا شبابك, و لا وسامتك, و لا مكانتك في التأثير على هذه الفتاة؟

-لماذا؟ هل لأنها فتاة قوية؟.

-ربما.. انها شديدة السيطرة على نزواتها, و شهواتها.. لا تستطيع قوة ان تضلها.. يا عزيزي ان المرأة التي تأتيها لذتها الحقيقية من تفكيرها تكون مخيفة, و يصعب قهرها..

-سأحاول.

-لكن عبثاً.

26-كالطاووس

قالت لصديقتها: لاشك انك جميلة كالطاووس, و كالطاووس ايضاً تستعرضين نفسك, و تفيضين بلواعج الحب الى درجة الجنون, و ترتكبين الحماقات..

-يا الهي, هذا صحيح.. لماذا ارتكب الحماقات؟.

-لأنك ببساطة تفكرين بقلبك.

27-**روح الحياة**

-قال: يا عزيزتي لا يمكن ان تعرفي روح الحياة طالما ترين الثواني, و الدقائق و الساعات و هي تحبو بليدة.

-بل اراها واقفة. و انت كيف تراها؟

-اراها تهرول, و اهرول معها.

-لماذا؟

-لأوقفها و ارتوي منها.

-ترتوي من ماذا؟ من بلادتها؟

-لا.. من الجمال الذي فيها.. من توهجها بالحياة الهاربة, من الحب.. في قلب و روح الزمن نحب فقط.

28-**ممثل مسرحي**

قالت: اعرف انك ممثل مسرحي موهوب جداً.. لكن ما يحيرني, هو, انك تقول ان كل حركة من حركاتي تحتمل التأويل.. كيف مثلاً؟

-بالتأكيد يا عزيزتي.. و لكي اكون اكثر وضوحاً, حتى ابتسامتك هذه التي تنبض على شفتيك تحتمل التأويل.

-وهل للابتسامة لغة؟

-لغة واضحة و عميقة.. انت من حيث لا تدرين ان جسدك كله مناورات لغوية واضحة و عميقة افهمها بوضوح.

29-**لأنني ضعيفة**

قالت: تقول انك تحبني بقوة لأنني فتاة ضعيفة, لماذا؟

-يا حبيبتي ان الضعفاء من الناس رجالاً و نساءً وحدهم الذين يستحقون المحبة و العطف, لأن اعماقهم تفصح عن شاعرية دفينة, و براءة اسرة..

30-**بصبر جميل**

قالت: لكم بصبر جميل جدا تتحمل عبثي, نزواتي, نزقي. لماذا؟

-انني يا عزيزتي احب امازيحك الرقيقة, و هزلك الرشيق, و بداواتك الطائشة الحلوة.. اه, في كل ما تفعلين تنطلقين من براءة حلوة, لذيذة.. صدقيني انك تضجين بنسغ الحب و الحياة..

فجأة تدلت على اهدابها دمعتان كبيرتان تشبهان البلورة و هي تردد: يالذوقك المرهف, و حسك الرقيق..

31-**جميلة جدا**

قال: انظر اليها ملياً, بصفتك تشكيلياً موهوباً, اليست جميلة؟

-يا الهي, بل جميلة جداً.

-من غير مجاملة.

-أي مجاملة يا صديقي, انها بحق زبر جد صاف.. اه, انها تستدمع ماء العين من الفرح.

32-**نيتشه**

قالت: أتعرف من الذي افسدك, و شجعك على هجر حبي؟؟.

-من؟

-ذاك الفيلسوف المهووس نيتشه الذي انكببت على قراءته بعمق.

-ما دخل نيتشه؟

-علمك على الايظل الانسان متعلقاً بشخص مهما كان عزيزاً عنده.. و اكد لك ان كل شخص سجن.. اجل يا عزيزي, لقد اصبحت انا الوفية جداً سجناً لك.. هنيئا لك هذا الاغواء النيتشوي.. وداعاً.

33-**ملاح تائه**

قالت: كلما التقيتك, ارى فرحاً دبقاً, و سعادة عميقة تنبض على محياك.. و عيناك, يا الهي تتفرسانني في بتركيز كما لو انك تراني لأول مرة..

-يا عزيزتي, لقد كنت مثل ملاح تائه اكتشف ميناءً بعد ابحار صعب.. يا مينائي الحبيب..

34-**اعراض الحب**

سألتها صديقتها بحرارة عن اهم اعراض الحب الحقيقي؟

اجابتها بصوت دامع: اه, يا عزيزتي, و قاك الله منه.. الحب الحقيقي, اولاً يعلو محياك رغماً عنك الحزن, و تعاف نفسك الأكل, و يصفر وجهك, و تخف بعينيك هالتان زرقاوان, و يخاصم النوم جفونك, و تعانين من الشرود..

-اه, يا الهي, هذه مصيبة!

35-**في الستين**

اتعرف يا حبيبي و انا الآن في الستين من عمري بماذا افكر؟

-بماذا؟

-افكر كيف عندما كنت تراني تخفي نفسك وراء شجرة التوت الكبيرة و كأنك طفل يتوقع توبيخاً.

-اه.. اجل, كنت في التاسع عشر من عمري, و كنت اراك و ابتسامة خجولة على شفتيك.

-كنت تشتري كمية من الفستق, و كنا نأكل و نتبادل النظرات, و نضحك كالمجانين.

-اه, عشر سنوات من الحب البرئ لم تدنسه شهوة جسد.

-و لا عرفت انا وخز الرغبة.

-و انا, كنت عفيفاً مثل راهب حقيقي.

-كنا نكتفي بمتعة النظر, و الكلام, و الضحك.

-و حتى في شيخوختنا نضحك احياناً مثل المجانين.

36-**دميم**

قالت لصديقتها بتقزز: ماذا؟ اهذا هو صديقك الجديد؟ انه دميم و بوهيمي المظهر..

-لكنه يا عزيزتي فنان مبدع, و ذكاء متوهج, و محدث ساحر.

-ثم ماذا؟

-صدقيني ان روحه سامية اروع بكثير من روحينا, بل من الاف الأرواح.. انه قلب شفاف كالبلور..

-لكنه.. م م م م... دميم

37-**لا يعجبني فيك**

قالت: اتعرف ما الذي لا يعجبني فيك اطلاقاً؟.

-ماذا؟.

-تطرفك.. و لأن التطرف انفعال, و الانفعال ضد العقل.

-اذاً, انا انسان بلا عقل؟. الان قررت ان اهجرك.

-ثم ماذا!؟ كنت وحيدة منذ ان عرفت نفسي.

38-**العواطف**

قال. العواطف يا حبيبتي لا تقبل بأطر ثابتة .

-ماذا تريد ان تقول؟

-اقول انها نزقة مثل الفراشة التي تطير بكل الاتجاهات بحرية منفلتة..

-هل تريد ان تفهمني انك فرحان بعواطفك النزقة؟

-جدا جدا..

-واضح. انه فرح ردئ. انت اخر من يعرف الفرح.

39-**المسائل الصغيرة**

قال: اراك يا عزيزتي كلما التقينا تحاولين دراسة المسائل الصغيرة في حياتي.. لماذا؟.

-فعلاً.. المسائل الصغيرة يا عزيزي لها دلالاتها الكاشفة عن الشخصية و الخلق.

-يا لفهمك الواضح.

40-**امرأة واعية**

قالت: ثق يا عزيزي لا اعتقد البته ان هناك امرأة واعية لا تعشق رجلاً يمتلك اروع و انبل الصفات

-صفات؟ مثل ماذا؟.

-اه.. انا مثلا احب فيك نظراتك الصافية, البشوش المرحة للحياة.. و اقدر عالياً بسالتك العملية, و اقرارك بالموت كحقيقة, و حزنك على المهزوم, و صبرك.. انت بحق انسان جدير بالحب و الحياة.

41-**مثل الاطفال**

قالت لصديقتها: لا لا لا يا عزيزتي, لا تقولي ان زوجك من النوع الذي لا يطاق.. صدقيني انا اتكلم عن تجربة. ان الرجال في البيت لو فقط عرفت دواخلهم ستجدينهم مثل الاطفال.. نعم.. يتلذذون باشياء تافهة,

انهم يحبـون ان تعـتني النسـاء بهـم, و بملـذاتهم, و ملابسـهم, اوه, صـدقيني انهـم بالعنايـة الجيـدة يصـبحون اطفالاً.. جربي.

42-غرفة باردة

قالت: اتعجب يا عزيزي لماذا تحمر, و تعرق, و تضطرب عندما تراني..

-لا اعرف.. اشعر و كـأنني خرجـت لتـوي مـن غرفـة شـديدة الـبرودة مظلمـة الى شمـس الظهـيرة.. هـل لا تنتابك نفس الحالة عندما ترينني؟

-لا.. لكنني اصيب بحالة اخرى.. ربما اكثر تعقيداً..

-ما هي؟

-اشعر بنوع غريب من التهيج, و سرعة في النبض, تعرق, و ذهول, و تشظ في الرؤية.

43-وجهك الجميل

قال: ها انذا القاك و نفس تلك الكآبة تعلو وجهك الجميل.. لماذا؟

-يا حبيبي انا فنانة, و انت دائماً تريد حياة انعم من الحرير, تريد حياة الاثرياء البليدة.. هـل فكـرت و لو مرة ان الكآبة تكون احياناً عذبة كأنها عمل فني؟..

-اشك.

-انت انسان بدائي.

44-المرتقى الصعب

قال: يا صديقي العزيز ثق و تأكد سوف تتعب مع هذه اللبوءة كثيراً.

-اعرف.. انت تعرف انا لا احب الا المرتقى الصعب.. ثم تريث ريثما تبـدأ ميكانيكيـا الحـب معهـا, عنـدئـذ كل شيئ يلتهب..

45-انك جد جميلة

قال بحرارة ولهان: اقسم انك جد جميلة.. ساحرة.

-حسناً, كشاعر بماذا تشبهني؟

-اه, قد تغضبين اذا شبهتك بقطرب الليل.

-قطرب؟ الليل؟.. ما هذا؟.

-انها حشرة طائرة تضيئ كأنها شعلة من النور..

46-غروري

قالت بكبرياء: اسمع لماذا تتملق استعلائي, غروري, تطاووسي؟.

-لأنني اشعر بأقصى انواع السعادة.

-هل انت مريض؟.

-ربما.

47-خيبت ظني

قالت بحدة: اواه.. لقد خيبت ظني على نحو موجع.. اهكذا مثل غرير تنكص لدي اول صدمة.؟ يا الهي, ما كان ينقصك سوى البكاء.. لا بل شحوبك الليموني و هم يهزؤون بي كان اوجع وقعاً من البكاء.. كنت اتصورك شجعاً. الان عرفت انك مجدول بالثرثرة فقط..

48-احبك بجنون

قالت من خلال تنهيدة حارة: اه.. احبك بجنون..

-لماذا؟

-انت فنان في جعل القلوب تنبض بالجذل, سيما في اوقات المحنة الشديدة.

-احقاً انا كذلك؟

-لا اجاملك.. و لا اتملقك.. انت حباك الحظ بأمتيازات رائعة. حتى في الصحراء تصبح غنياً.. صدقني بسبب حظك العظيم تبقى اعظم شأوا من الجميع..

-يا الهي تتكلمين بلغة العرافات..

49-خطيئتك

قالت بغضب: انني بمنتهى الصراحة امقت, و احتقر خطيئتك لا شخصك.

-خطيئتي؟؟..

-اجل. انت مثل طائر العقعق الشديد اللغط, و الثرثرة, تسيطر بثرثرتك على ممتلكات الاخرين و تدعي انها ملكك.

-انا؟ طائر؟.. العقعق؟.. انا

-اجل انت.

50-طائر الصغنج

قال: ترى ما انا بالنسبة لك؟.

-صدقني انت بالنسبة لي في هذه الحياة طائري الصغنج

-ما معنى الكلمة.؟

-الصغنج يا حبيبي طائر مغرد و رائع الجمال..

51-بالقاء جميل

قرأت بالقاء جميل (كانت اوراق الاشجار الزمردية تختلج بين حين و اخر بلمعان سريع, و تنساب ظلالها هنا و هناك في رقصات ساحرة متشابكة, و صدور الفخائي الحريرية تلمع في حضن الشمس العسلية) تنهدت بعمق و هي تردد: يا الهي, انه حبيبي يكتب مثلما يتكلم. لكم رقيقة روحه, و ساحرة كلماته ككاتب.

52-عيب

بعد ان بكت قرابة نصف ساعة بحرارة قالت من خلال دموعها: اعرف انك لن تظهر ولو ذرات من العواطف.. لأنك لا تريد ان تشبه امرأة. العاطفة عندك عار.. عيب.

-اليست هي كذلك

-لا طبعاً.. العاطفة تعني الانسان.. و انت لست انساناً.

53-التشوش

قالت بصوت حزين: اسمع يا عزيزي, اعرف انك فنان رائع جداً, دعني اكون صريحاً معك قليلاً. الاحظ كأختصاصية طب نفسي, هذه الايام انك تعاني من التشوش, و الاضطراب في منظومتك الحسية, و من اخيلة غير طبيعية.. ماذا تقول؟

-أ بسبب ذكري و لمرات عديدة للسلالم الثلاثية.

-نعم.. و اشياء اخرى..

-يا حبيبتي لو كان لديك نفس خيالي, او خيال النبي يعقوب التي راها بوضوح كما اراها انا, السلالم التي يتألف كل واحد منها من مئة درجة, و الملائكة تصعد عليها الى السماء و تنزل.. انظري انني سأطير, سأصعد الى السماء.

-لقد كان توقعي صحيحاً.

54-اغرب انسان

قالت: أتعرف انك اغرب انسان عرفته في حياتي؟

-حقاً؟

-انت انسان مغو بطريقة ساحرة, مرح, خفيف الظل, و جرئ ايضاً.. و لكنك, و هنا المأساة لديك صفات رديئة جداً.

-مثلاً؟

-لا ضمير لك, قاس جداً مع التي تحبك بجنون, و لا تعير ذرة اهتمام للذين يحبونك, و اناني, و اخيراً انت رجل خطير.. وداعاً.

55-احبك

قالت: اه, يا حبيبي لقد جعلتني احبك الى درجة بحيث لا اجد اية وسيلة دفاعية امام نفسي, ولا استطيع ان اتراجع ابداً.. هل تسمعني يا عزيزي..؟ هل انت معي؟ اجابها بصوت مسطح بارد, خال من أي جرس كما لو يتكلم في نوم عميق: عن أي شئ كنت تتكلمين؟

56-بسيط جداً

قالت بصوت دافئ: انت انسان بسيط جداً و خال من الطمع و الانانية, و الحسد, خلوا كلياً.. انني اخاف حماستك اللاهبة.. مررت يدها فوق خدي, و على جبيني.. أطلقت أهة حارة و وضعت لأول مرة رأسها فوق صدري و اضافت بصوت اقرب الى الهمس و هي تلف ذراعها حول خصري: تريث.. لا تستعجل الأمور, و دع مشاعري الباردة جدا تنمو برفق.. لا تطلب الكثير بسرعة.. تقبل ودي و حبي الباردين. قد تتصور اني انثى صلبة و عنيدة.. لا لا.. انا ضعيفة و سريعة العطب مثل ثمار الموز.. هل تفهمني؟ ارجوك تحملني..

57-خذي هدية عيد ميلادك

قالت بدهشة: ماهذا؟

-هدية عيد ميلادك.

-اه. خنفس؟.

-نعم خنفس من اليشب الصيني.

-انه جميل, بل رائع. يا للمسه الرقيق المثير, انه مثل اليشب الصيني.

-اتعرفين ان المصريين القدماء كانوا يقدمون للاله ايزريس خنافس صغيره.

-و هل انا..

-اجل.. اجل.

58-المخلص

قالت لصديقتها: يا عزيزتي, هل حقاً ستبقين تنتظرينه و الى متى؟..

-الى الأبد.. لقد ادمنت الانتظار. اصبحت مجرد انتظار. نعم انتظره مثلما ينتظر المسيحي المؤمن مجئ المخلص..

59-عنيد جداً

قالت: ماذا؟ يلين؟ يستسلم؟.. اشك ان يلين هذا العنيد.. لا لا.. انت تحلم..

-لم لا يا عزيزتي

-لا مع هذا الهرقل..

-اه.. بذكر هرقل المخيف العملاق كان يجبن بين ذراعي حبيبته – اوفعال -

60-الشهرة

قالت: يا عزيزي انك شديد الايمان بالاحلام.. تحلم بالشهرة, و المجد.. الا تعتقد انك بتحليلك لنفسك تعقد نفسك؟

-يا حبيبتي, قال اسخيلوس ان الاله ديونيسيوس تجلى له في صباه بينما كان نائما في مزرعة عنب يملكها والده, و انه امره ان يكتب التراجيديا.

شهادة حجر

قصة و ترجمة: احمد محمد اسماعيل

رغم مرور كل تلك السنين, تتراءى لي في احلامي حادثة تلك الامسية المغبرة الكالحة للمدينة, كل مرة بشكل و سيناريو جديد يختلف عن سابقه, مع انكشاف سر جديد في كل مرة, الا انه يتكئ جروحي و لا يدع ان يلتئم.

كنا انا و شيرو نسلك نفس الطريق الواقع بجانب القلعة, و قد جعلنا من حجر على سفح القلعة نقطة انطلاقنا و لقاءاتنا المتكررة.. حجراً عادياً ملقى على سفح القلعة, لا يجلب انتباهنا, و لم يخطر ببالنا من الذي وضعه هناك, او منذ متى قد استقر هناك واضعاً رأسه على صدر القلعة.. كنا نحمل هموم المدينة, ما شأننا بحجر ملقى هناك, و كان هذا الحمل يزداد ثقلاً مع كل خطوة نخطوها في شوارعها و رؤية ماسيها.

منذ تلك المساء المغبرة الكالحة التي وقعت فيها الحادثة رأيت احلاماً كثيرة و ماتزال, ليس بوسعي عدها او سرد كل ما رايت في تلك الاحلام, و في كل مرة يبدأ كسابقته, انه حلم واحد يتكرر باسلوب و سيناريو جديدين.. هكذا تبدأ احلامي.. كما تعرض فلم بطيء و على شكل بانتوميم صامت.. ارى الشبحان – كما رايتهما في تلك المساء الكالحة المغبرة – ينزلان من القلعة يقفان وسط الطريق المار تحت القلعة.. احدهم يلوي يد (شيرو) يسحبه الاخر من شعره, يذهبان به الى جانب الحجر الكبير الذي كنا جعلناه نقطة الالتقاء و نفترق عنده.. اه.. لا اعرف لماذا تأخرت قليلاً عن (شيرو) في تلك المساء.. كان يمشي امامي, اتذكر كان يدمدم باغنية حزينة.. حاولت ان اخفي نفسي كيلا يرياني, فرحت عندما استطعت ان اخفي نفسي عن انظارهما – حتى في احلامي انقذ نفسي كما فعلته في تلك الامسية و كلما استفيق بعد رؤية احلامي اتصبب عرق الخوف و الاحراج, الا في حلمي هذا الليل فقد اختلف الامر.. "كما في كل مرة و كلازمة لاحلامي.. الفيلم يبدأ ببطء و كمشهد بانتوميمي صامت, الا اني لا احاول ان اخفي نفسي عن انظارهم كما كنت افعل.. اضع احدى يدي على سفح القلعة, ارفع رأسي, اصرخ بكل ما لدي من قوة, اتعجب كيف استطيع ان اصرخ بوجههم هكذا.. جبناء ماذا تريدون من صديقي شيرو دعوه و شأنه.." كل شيء

هادئ و صامت كصمت تلك الامسية المغبرة الكالحة, لا تسمع همسة في المدينـة, في حلمي هـذا "لا اتـرك المكان, اصعد الى سفح القلعة.. ارى الحجر الكبير و قد انزاح قليلاً من مكانـه.. الشبحان غـير موجـودين هنـاك. ارى حفـرة كفوهـة بئـر عميقـة بجانـب الحجـر.. "مـاذا لـماذا انـت منـدهش؟" يعتريـني خـوف شـديد في حلمـي, ظننـت انـه صـوت احـد الشبحين.. ثم اسمع صوت اخر عذب تقطر منه الشفقة و الحنان.. تبين لـي ان الصـوت يـأتي مـن الحجـر..!!, اقـول في نفسي: كيف يتكلم الحجر؟. اسألها, و يعتريني الشك "ماذا فعلوا به؟ ايـن هـو؟" اجـابني و كأنـه ات مـن عمـق التـأريخ, صوت جريء و لا يشوبه التردد.. "الا ترى.. اني باب احد الانفاق السرية في هذه القلعـة[1] منـذ ان بنيـت هـذه القلعـة تهاجمها الجيوش و العساكر و كل جيش عند قدومه يسفك دماء المدينـة في هـذين النفقين, ان تلك الـدماء المسفوكة اصبحت الان جداراً يابساً من الدم و اصبحت جزءاً من هذه القلعة, كان هذا مـن قبـل و الان يـذبحونكم فـرداً فـرداً. و قد امتلأ النفقان و لا يتسعان دماء اخرى.. اظن قد يسلكون طرقـاً اخـرى لابـادتكم" اسـتيقظت و انـا اكـاد اجـن مـن الخوف, الهث من الرعب و قد ترشح العرق من جسمي, عرق الخوف و الجرح.. من فوق سـطح بيتنـا نظـرت لا اراديـاً الى القلعة, النار الازلية خارج المدينة جعلت القلعة حمراء, مع كل انخفاض و صعود لالسنتها يخال ان الـدماء تنـزل مـن القلعة كشلال هادر. كنا انا و شيرو, لم نبال بالحجر الكبير الملقى هناك على سفح القلعـة, فقـط جعلنـاه كلعبـة تعودنـا عليه, نقطة لقاءاتنا و عنده كنـا نفـترق عنـد رجوعنـا مـن قلـب المدينـة.. أي طريـق تسـلك , و مـن أي جسـر اتيـت, عليك ان تأتي الى القلعة و عليك ان تمر امام هذا الحجر الكبير. مـن الـذي كـان يعـرف انـه شـاهد حـي و يحفـظ بكـل ماتحدث في المدينة؟.. حجر ابيض كبير.. كان شيرو يقول: اظن ان احد عشاق المدينة او احـد السـلاطين المحـتلين كـان يظن انه قد امتلك القلعة الى الابد فقلد القلعة بهذه الخرزة الجميلة.. و قد فعلت الأيام و السنين فعلتها فيـه و تركـت بصماتها عليه.. فقد نقش و حفر فيه نتوءات و شقوقاً, تعرجـات و نتـوءات, تعكـس ماسـي و الام المدينـة خـلال تلـك الاعوام الطويلة.. عندما تنظر اليه بدقـة, و تـدقق فيـه, و تعتريـك الدهشـة و الحـيرة.. هـل تعـرف تـرى؟! تـرى بكـل وضوح, تقاسيم وجه انسان.. الشقوق و التعاريج الدقيقة و الخطوط الشعرية تظهر لك عينان مفتوحتـان, تقـرأ فيهـا الحيرة و الالم و الغضب معاً. انف معقوف كمنقار الصقر, يستدل منه الصمود و الاصرار, و تـرى بوضـوح تـام شـفتين ممتلأتين, مرة تظن انه يبتسم و قد يخيل اليك ان غضبه بات ان ينفجر, و تستشف منـه ايضـاً الامـل, و قـد يـذهب بك الخيال, انه يريد ان يقول شيئاً و قد كتمه كل تلك السـنين.. اتـذكر جيـداً تلـك الامسـية المغـبرة الكالحـة, و كانـت احد اكثر مساءات المدينة اكتئاباً. كنا نسير و نتحدث عن هجرة الفراشات و خلو المدينة مـنهم, نتحـدث عـن الخـوف و اطفاء قناديل بيوتات الطين من قبل الاشباح.. كنا نقـول همسـاً: نحـن بارجلنـا اتينـا امـام جـزار و بيـده سـكين و قـد هيأه لذبحنا.. لا اعرف لماذا تأخرت في ذلك الوقـت مـن شـيرو, كـان يسـير امـامي, فجـأة رأيـت مـن بعيـد شـبحين هـذه الاشباح عندما يحل المساء يلتصقون كالقراد امام ازقة المدينة لكن لا يتكلم الناس مع البعض.. و منـذ ان حلـوا في هـذه المدينة و قد عكروا علينا ليالينا المقمرة,. لذا منذ ذلك الحين لم يجمع احد تحت شجرة التوت المعمرة امام بيت

"ئه سيرى"[2] ليغنوا في الليالي "الله ويسى"[3].. و لم نسمح في تكايا المدينة اقوال "الشيخ ره زا"[4] انهم اعداء النور هؤلاء الاشباح, لكي لا نرى حوالينا.. و قد قطعوا الماء عن الريحان و الزنابق التي كانت موجودة على سفح القلعة و اقلعوا الورود كلها لكي لا نشم رائحة المدينة.. و املؤوا قواميسنا بتعاريف غريبة حتى يمنعونا من التحليق على جناح كلماتنا و لكي لا نحلم.. ان الاشباح يريدون ان لا تسكنها غير الاشباح, حتى الحجر الكبير نقل في احد احلامي ما سمعه من ملك الاشباح, كانوا يقولون: "حتى هذه المياه التي تجري في وسط المدينة مادام قد تأتي من الجبال, فقد غيرنا مجراها و لن ندع ان تمر في وسط المدينة, و اذا لم نسفك كل ليلة دم احدهم لا نستطيع النوم.."

عندما رايت الشبحين توجست شراً, فقد رايت شيرو و قد وصل الى امام الحجر الكبير.. رايتهم, دفع احدهم (شيرو) من الخلف, و الاخر كان يجره من شعره, الى ان اوصلوه الى الحجر الكبير و قد حاولت ان لا يرياني. كنت ارى حركاتهم لم يطل بهم الوقت و قد سمعت صوت ارتطام شيء ثم صوت كسر وحشرجة.."

عندما رأيت الحادثة في تلك الليلة في حلمي, الحجر كان ملطخاً بالدماء, عيناه كانتا حمراوين تشبهان قطرتين من الدم على اطراف شفتيه المتلئين.. نظر الي و قال بصوت حزين "عندما هشموا رأسه لم ينطق بشيء الا اني احسست انه قد طبع قبلة حارة على خدي"

هدوء مخيف كان يلف المكان, و كان جسمي يهتز كالسعفة, رفعت رأسي و الخوف يكاد يشل جسمي, نظرت باتجاه الحجر الكبير.. لم ار الاشباح.. سفح القلعة حولتها النار الازلية الى لون الدم, عندما كانت تتأرجح او تتمايل احياناً, كان تبدو و كان شلالاً من الدم تنزل من القلعة, و قد هربت و ابتعدت.. اني احس – بخزي و احراج هذا الهروب حتى في احلامي – ابتعدت و هربت و لكن الى اين اهرب.. منذ ذلك المساء, مع كل خطوة اخطوها, اسمع صوت ارتطام و تكسر عظام, و ارى منظر شلال الدم ينحدر من القلعة.

الهوامش:

1-لقلعة كركوك نفقان سريان, يبدءان من القلعة و ينتهيان في اماكن مختلفة.

2-شاعر كردي من كركوك.

3-نوع من المقامات المنتشرة في منطقة كرميان.

4-شاعر كردي ولد في كركوك, اشتهر بقصائده الهجائية.

***القصة حائزة على الجائزة الاولى مناصفة مع القاص الشاب (صمد احمد) في مهرجان كلاويز السابع في السليمانية في نوفمبر عام** 2003.

البيت

قصة و ترجمة: شيرين.ك

هذا البيت كلما مررت أمامه، التفت اليه بشكل لا إرادي، فتلك الثواني التي أمر فيها أمامه، أحياناً تكون بطيئة وأحياناً تكون سريعة، أدقق النظر في تفاصيله، والى الحد الذي حفظت فيه وعن ظهر قلب كل تفاصيل واجهته، ذلك إني أمر كل صباح أمامه ومنذ سنين طويلة ولألاف المرات أثناء ذهابي وإيابي، دائماً أشاهد إحدى درفتي الباب الخارجى مفتوحة، ذلك الباب الاسود اللون و الذي لم يتغير لونه بفعل الزمن، ولم أرَ ولا لمرة واحدة انهم قاموا بإعادة دهنه، والدرج الحجري للبيت والذي لاأعرف عدده يقع أمام الباب، فهو نظيف دائماً وكأنه قد غسل وكنس للتو ولم أشاهد عليه أية قطعة ورق أو زبل حتى في الايام التى تشتد فيها الرياح أو العواصف، كلما أذهب وأعود أمام ذلك البيت أرى رجلاً أمام الباب، رجل نحيف وطويل وقد أنحنى ظهره قليلاً و ارتدى زياً كاكياً وفي كل الفصول ولاأعرف هل هو عجوز أم شاب لأنه يعطي ظهره للشارع ومشغول دائماً بإشعال سيجارته، لا أتصور أنه يقف هناك بالصدفة، فربما يعمل حارساً لذلك البيت.

سياج البيت مبني من الطابوق الملون ويغلب عليه اللون الاصفر الفاقع ثمة اشجار دائمة الخضرة باسقة الطول تقف خلف السياج وترفع أغصانها نحو السماء، والنباتات المتسلقة التي تدلت على السياج تزهر في الخريف ورود بنفسجية.

ومن درفة الباب المفتوحة أرى آثيل الحديقة حيث يكون أخضر دائماً، وقد أحاط بالقسمين اللذين أراهما من درفتي الباب زهوراً تظل متفتحة في كل الفصول حتى إنني ارى ألوانها المختلفة وقت سقوط الثلج.. إيوان البيت ينتصب فوق عدة درجات لكني لاأعرف مساحته لاني لا أرى الا قسماً منه، وفي جدار الايوان نصب باب و نافذة، تلك النافذة تظل ستارتها مفتوحة دائماً ولونها إما احمر قرميدى أو بني، لاأعرف، ولكني من خلال تلك النافذة لا أرى اية قطعة اثاث، باب الايوان لونه بني ايضاً.

في عمق الجانب الايمن من البيت توجد نافذة كبيرة ذات ستارة من التول الابيض تبقى مغلقة باستمرار أما في الجانب الايسر فتوجد نافذه كبيرة ولكنها مرتفعة وبلا ستارة، كلما أمر من هناك أرى من خلالها المصابيح مضاءة كأنها ثريا، وأرى ايضاً أرائك وكراسي ومعرض التحفيات واشياء أخرى، لادري كم مضى من الوقت حتى حفظت منظر ذلك البيت بكل أشيائه ولكني أتذكر جيداً المرة الاولى التي شاهدت فيها ذلك الرجل ، كان مساء شتائي و قد سقط الثلج على الارض بسماكة واضحة، رأيته واقفاً في ذلك الايوان، أول ما لاحظته عليه، إنه رجل ممتلئ الجسم، وفي صباح اليوم التالي رأيته في نفس المكان، يقف ذات الوقفة كأنه لم يتحرك من مكانه منذ مساء أمس، لكنه كان يرتدي سترة شتائية جلدية سميكة ويضع على رأسه قبعة من الجلد، بعد ذلك لم أره في المساء ولا في صباح اليوم التالي ولاأعرف كم يوماً وكم شهراً مضى لم أشاهد ذلك الرجل حتى كدت أنساه، فجأة وبدون أن أتوقع ظهوره شاهدته ذات مساء صيفي منعش يقف في نفس المكان، كان يرتدي قميصاً أبيض وبنطلوناً ذا لون فاتح، ومنذ ذلك اليوم وكلما عدت مساءً من هذا الطريق أجده يقف في نفس المكان، فتوضحت لي ملامحه شيئاً فشيئاً، وفي ظهيرة صيفية ساخنة كان سائق السيارة التي أنا جالسة فيها يقودها بالصدفة ببطء، ذلك ان السيارات تمر عبر هذه المنطقة بسرعة، فتحت زجاج النافذة ومددت رأسي الى خارجها فرأيته واقفاً هناك، وكانت هذه أول مرة أراه يقف هناك وقت الظهيرة، ولأول مرة التقت عيوننا و تبسم لي ولوح بيده، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم، لاأعرف كم سنة مضت وأنا أراه يقف فقط في المساء و في نفس المكان، يبستم و يلّوح بيده، احياناً وفي بعض الصباحات الصيفية أوالربيعية، أشاهده وهو يتنزه في حديقة البيت دون أن يرفع رأسه وينظر الي، كأنه رجل آخر، احياناً كنت أشك بأنه شخص آخر.

اليوم وبعد أن مررت بهذا الشارع آلاف المرات بالسيارة ، أمر فيه مشياً ولاول مرة فيما الوقت لاهو بالصباح ولامساء بل أول العصر، والفصل ليس شتاءً ولا ربيعاً ولا صيفاً بل خريف جاف وبارد وهناك غيوم رمادية مائلة للصفرة تغطي الشمس.. اليوم قررت أن أرى هذا البيت وهذا الرجل عن قرب.

ولما أقتربت، اكتشفت أن ذلك الرجل الواقف بالباب ليس إلا رجل عجوز، رأيته يقف على احدى الدرجات ووجهه الى الشارع وكان يطفئ عقب سيجارته بكعب حذائه، وقد تناثر على الدرجات عقب سجائر وبقايا علب سجائر فارغةو أكياس نايلون سوداء، وجدار السياج كحتت ألوانه وبدى مغبراً.. فقبل أن أفتح فمي لكي أسأله بادرني بالقول (هذا البيت كبير وجيد ولو.. هل تريدنه للايجار أم ترغبين بشرائه؟).

ولم ينتظر إجابتى فأكمل؛ تفضلي.. تفضلي.. لتتفرجي على البيت، كان باب البيت الخارجى مغلقاً حاولت أن أفتحه دون جدوى كان لونه الاسود قد تكشط وأصابه الصدأ جاء العجوز وبكتفه دفعه فاصدر صريراً و أنفتح بعدها دلفت الى الداخل، فوجدت الحديقة واسعة ولكن آثيلها قد أصفر مع اننا في بداية الخريف، ولم تكن هناك أية زهور تحيط به وإنما فقط بقايا مناديل ورقية واغلفة علكة و اوراق ممزقة وقد التفت هذه الاشياء حول بقايا الاشواك و الاغصان الجافة و التي ربما كانت في يوم من الايام زهوراً، والاشجار كانت عارية من الاوراق وقد تكسرت فروعها

ونخر الدود فيها، أربع درجات أوصلتني للايوان، ومن الباب دخلت الى مدخل صغير فوجدت فيه بابين من خشب الصاج لونهما باهت، فتحت الباب الايسر ودخلت الغرفة التى كنت أشاهدها من خلال نافذتها العارية من الستارة والتى كنت أرى أثاثها والثريا متدلية من سقفها تلمع في تلك المساءات، الا اننى لم أجد غير بعض الكراسي القديمة والطاولات وخزانة بابها الزجاجي مشروخ، والسقف لم تعلق به أية ثريا إنما تدلت من السقف والجدران أوراق زينة لعيد ميلاد مضى عليه زمن طويل لان الوانها قد بهتت وغطتها الغبار وخيوط العنكبوت, ولم تكن هناك اية ثريا بل مجرد مصباحين او اكثر من نوع قديم مطفأة واعتقد انها معطوبة, خرجت من الباب الداخلي للغرفة الى ممر واسع ومن هناك أتجهت الى الغرفة اليمنى التي كنت أشاهد نافذتها مغطاة بستارة من التول الابيض, أدرت مقبض الباب فلم تنفتح فعدت ادراجي ودخلت باباً اخر الى الغرفة التي تطل على الايوان وجدت فيها مجموعة من العلب الكارتونية الكبيرة بعضها ممزق من جوانبه, كانت كلها مغلقة ومليئة بالكتب وقد تراكمت عليها طبقات من الغبار وعلى الجدار المقابل للنافذة علقت مجموعة من الصور الفتوغرافية المؤطرة ومغلفة بالزجاج. مصابيح الغرفة كانت مطفأة ولاتعمل وحين دققت النظر في جميع الصور وجدتها تجسد ذلك الرجل ولكن بثياب ووضعيات مختلفة, ففي احدى الصور كان يرتدي عمامة و جبة وفي صورة اخرى يرتدي سدارة وفي الثالثة يرتدي ملابس عسكرية وعلى كتفيه الرتب العسكرية والرابعة بالزي الكردي وذات لون كاكي وهو يحمل بندقية واخيرا بطقم سموكن وبيده سيجارة من نوع (جرود).

أنتبهت على اثر صوت خطوات, فكان الرجل العجوز الذي يقف في الخارج وقبل أن أساله بادرني بالقول:

-ولم لاتبقى هذه الصور معلقة على الجدار؟

كل من يحاول استئجار البيت أو شراءه يطلب رفع هذه الصور.

لأول مرة فتحت فمي وقلت:

أين هذا الرجل؟

وأشرت بيدي الى الصور

أجابني بتعجب: أيهم؟

فقلت: لماذا؟ أليسوا هم رجل واحد؟

أجاب وهو يشير الى الصور: هذا ابن هذا وذاك ابو هذا وهذا جد ذلك.. فقاطعته:

-ولكن أين هو الرجل الذي كان يقف دائما في الايوان؟

-انت ايضا تصدقين بوجود الاشباح؟

عندما وصلت الى الشارع وعبرت الى الجانب الاخر وقبل ان أصعد الى سيارة الاجرة نظرت مرة اخرى الى البيت كان يبدو قديما وحزينا وقد شوه منظر البيوت الجديدة التي بجانبه.

ايامي في المسرح الكردي

هادي المهدي

1. **تنوع بحيرة**

عرفت المسرح الكردي شمالي العراق وعن كثب من خلال علاقاتي الوطيدة بالعديد من فنانيه، وكنت قد أجريت متابعات صحافية عام 1989 عن أشكالياته ومشروع التأسيس والهوية الخاصة والتي اثيرت في وقتها، لذلك تسنى لي الاطلاع على الكثير من مشاكله وأزماته ومنها:

يعاني المسرحيون الكرد من حالات التشرذم التي فرضتها التكتلات الحزبية – حسب انتماءاتهم لأحزاب الجبل – إذ شكل المشكل الأيديولوجي المعضلة الأساسية أمام أي فريق عمل أو فنان، فالبعض كان يجد في المسرح منبراً سياسياً خالصاً للتعبير عن أفكاره السياسية (ولا سيما اليسارية) بحيث حولوا الصالة المسرحية إلى قاعة درس، في الوقت الذي كان يجد فيه الآخرون فرصة لاثبات هوية الشعب الكردي بمواجهة مشاريع الإرهاب والتعريب التي كان يمارسها النظام بحيث حولوا العروض المسرحية إلى متحف فلكلوري محض لا ينتمي إلى العصر بأي شيء لا على الصعيد الجمالي ولا على الصعيد المعرفي، بينما انصرف البعض إلى التفتيش عن همومه الشخصية وبنرجسية عالية من خلال عروض ذاتية ابتعدت تماماً عن الواقع والأزمة الكردية، متأثرين بتجارب العروض الشكلانية التي اكتسحت المسرح العراقي بشكل عام في عقد الثمانينيات. وبذلك كانت الفرق المسرحية تعزف على أوتار الخلاف المعرفي ولا سيما الأيديولوجي وبشكل غير متناسق، الأمر الذي أدى بها إلى إنتاج عروض لم تكن بحجم مبدعيها ولا بحجم النشاط والاختلاف مع الآخر.

يعاني المسرح الكردي ومع تعدد الفرق المسرحية (فرقة السليمانية للتمثيل، وفرقة سالار، وفرقة مسرح الطليعة، وفرقة المسرح التجريبي والفرقة القومية في أربيل وبقية الفرق الأخرى في دهوك) من وطأة الضغط الاقتصادي بسبب مساومة السلطة

لهذه الفرق على إعلان ولائها للنظام الحاكم أو اهمالها وبالتالي عجزها عن سد متطلبات الإنتاج المسرحي، ليس هذا فحسب بل تجد أن معظم المسرحيين الكرد وطوال عقد الثمانينيات كانوا يعملون بأسماء مستعارة ولأسباب عديدة، إما لكونهم معارضين مطلوبين من قبل السلطة أو هاربين من الخدمة العسكرية أو ممن لم يلتحقوا بالجيش الشعبي أو فصائل الفرسان (الجحوش) . ونستطيع القول إن مجمل العروض التي كانت تقدم كان يقف وراءها الأثرياء الكرد أو جمهور المسرح، وتحت شعار الكفاف استطاع المسرح الكردي أن يقف على قدميه طوال عقود الإرهاب تلك، ولاسيما أن السلطات اعتقلت العديد من المسرحيين وأعدمت البعض منهم ونخص بالذكر هنا الفنان الجماهيري الشهيد دلشاد مريواني.

أسهم بعض الطفيليين من الفنانين الكرد، وعبر علاقاتهم السيئة الصيت مع السلطة في عرقلة الحركة المسرحية من خلال السيطرة على المؤسسات الفنية والصالات التابعة لها ولمدة طويلة بحيث تصدروا الواجهة في الوقت الذي كان فيه الفنان الملتزم يتقهقر إلى الوراء هرباً من الأضواء المشبوهة.

غياب الرؤية المنهجية والعلمية في العمل المسرحي اضافة الى ما اسهم به معهد الفنون الجميلة وفي تلك الفترة (أي عقد الثمانينيات) في إرباك الساحة المسرحية بمخرجين غير أكفياء، إلا أن خريجي الاكاديمية ومعهد الفنون الجميلة استطاعوا أن ينقذوا وجه المسرح الكردي إذ شنوا حملة صحوة بارزة في تاريخ المسرح الكردي (ولا سيما أعمال فرقة المسرح التجريبي الكردي وعروض الفنان كامران رؤوف وإبراهيم جيوار) بحيث أعادوا للمسرح الكردي حيويته التي أسسها الرواد في فرقة السليمانية وفرقة الطليعة في السبعينيات من هذا القرن.

يعاني المسرح الكردي من فقر في عدد الصالات المسرحية المجهزة فنياً إضافة إلى غياب الكوادر الفنية والتقنية المختصة إذ يغلب الفقر على جميع العروض.

لا أستطيع القول إنني قد لخصت مشكلة المسرح الكردي في تلك المرحلة عبر هذه المعالجة السريعة ذلك أن هنالك إشكاليات أخرى ومن نوع آخر مثل غياب المؤلف الكردي، ولا يمكن لي الإحاطة بها غير أنني حاولت أن أركز على ممارسات السلطة في قمع الثقافة والمسرح الكرديين ودفعهما إلى التشرذم الذي لا ينتج إلا مسرحاً معطوباً وفنانين ما أن تتكامل أدواتهم حتى يزجون في السجون أو يفضلون الهرب واختيار المنفى على البقاء في المعتقل.

ضمن هذا الفهم قدر لي الدخول إلى المسرح الكردي مؤلفاً لنص (ده ريا/ البحيرة) والذي ترجمه إلى الكردية القاص الكبير رؤوف بيكرد وأخرجته ومثلته الفنانة ميديا رؤوف، حيث أنتجت العرض فرقة المسرح التجريبي، وقد استطعت من خلال هذا النص لفت أنظار الجمهور والفنانين الكرد إلي بوصفي فناناً عراقياً عربي الأصل تمكن ومن خلال متابعته الكثيفة كبقية المثقفين العراقيين أن

يتفهم القضية الكردية ويتفاعل معها إلى حد كتابة نص يفضح واقع الزيف وعمليات المسخ التي تقوم بها السلطة ضد المواطن والفنان الكردي إذ كان النص يحمل في خاتمته دعوة ليوم آخر، مسرح آخر، ومدينة أخرى تقوى على خراب الأيام والمسارح والمدن القديمة.

مسرحية (ده ريا/ البحيرة) كانت صرخة جريئة ومن جرائها استدعت سلطات الأمن في مدينة السليمانية المخرجة والمؤلف مرات عديدة بعد العرض واتهمتهما بالتحريض لأنهما أنهيا المسرحية بتظاهرة جماعية تخرج من الصالة إلى الشارع وبمشاركة جمهور المسرحية.

كانت تلك الظاهرة عربون الصداقة والمودة بيني وبين الجمهور والمسرح الكرديين وأساساً للثقة التي طوقوني بها على صعيد المستقبل. في الليلة الأولى للعرض ساورني الخوف ولطخ فرحي غير أن الخبر الذي بثته إذاعة الاتحاد الوطني الكردستاني من الجبل بصدد المسرحية توجني بفرح كبير فقد تأكد لي أن المليشيات الكردية قد سمعت بعرضنا المسرحي الجريء هذا والذي بشر بقدومهم في آذار 1991. جاء الفرح الكبير نتيجة من إحساسٍ فحواه أنني قاتلت ولم أصمت، ذلك أن العدو هو... هو... في الديوانية أو بغداد أو السليمانية، والأصدقاء هنا بين الجبال مثلما هم في الناصرية أو الحلة وذلك وحده ما يؤكد وحدتنا شعباً، إذ أن جذورنا الثقافية والجمالية والمأساوية واحدة على الرغم من اختلاف اللسان ورطانته. لقد جعلني الحضور والتعاطف الشعبيين مع العرض أصرخ عالياً: هذا ما كنت أبحث عنه.

2. في انتظار غودو

(وإلا فمن ذا الذي يقبل صاغراً لسياط الزمان ومهانته وصلافة أولي المناصب... والجلد والضرب الذي يلقاه ذو الجدارة من كل من لا خير فيه ... لو كان بمقدوره تحقيق راحته بخنجر مسلول).

هملت/ شكسبير

لا الخنجر المسلول ... ذلك أن كل إنسحاب نحو الصمت أو الهرب ما هو إلا نصر آخر – لأولي المناصب – لا لكل انتحار فها هو وطني إبداع يمتد أمامي وها هي السليمانية الأميرة الآرية حفيدة البابانيين النائمة بين أحضان جبلي أزمر وبيره مكرون تستقبلني عبر نفق بازيان مساء ومن ذلك المرتفع المطل على المدينة تبدو مصابيح بيوت السليمانية أشبه بتظاهرة مليون إنسان من حملة المشاعل... أو أن ارتجاجة الضوء القلقة تلك، كانت هي الوعود الربيعية المؤجلة التي طالما وعدتني بها السليمانية حتى غفوت فيها ملء جفوني، أرتجاجة قلق لفجر سيندلع قريباً.

قبل أن أجد المسكن بحثت عن المسرح... القاعة... الفرقة... المجموعة التي ستحمل أعباء أحلامي... لم يقف حاجز جهلي باللغة الكردية حائلاً دون مباشرتي العمل مع فرقة المسرح التجريبي وبمسرحية تكاد تكون أكثر المسرحيات العالمية إثارة للإشكاليات والغموض (في انتظار

غودو) لماذا؟ كنت ومنذ لحظة مغادرتي لبغداد أحمل حنيناً وحاجة خاصة إلى (مخلص) ما، وكنت أرجو من خلال ذلك العرض أن أعجل بقدومه لأعود ثانية إلى أصدقاء الوزيرية ومسرح الرشيد... إلى حدائق كلية الفنون والحوارات التي لا تنتهي عن السياسة والشعر والأساطير... حنين إلى علاوي الحلة وسيارات الديوانية... إلى الفرات يعبق بكربلاء دائماً وأبداً، كربلاء جذورنا المسرحية الأولى... في السليمانية عرفت ومن خلال الأصدقاء في المسرح الكردي ولا سيما أعضاء فرقة المسرح التجريبي (شمال عمر، دانا رؤوف، كريم عثمان، نيكار حسيب، ميديا رؤوف وبمشاركة فريق عمل المسرحية وهم من طلبة معهد وكلية الفنون الجميلة، دلشاد مصطفى، هيوا فائق)، عرفت أن تاريخاً من الثقافة العراقية الذي أحمله لن يعجز عن صنع جسر من التواصل الجمالي بيني وبين هذا الشعب الذي لا أجيد لغته ولا يجيد لغتي... كانت أساطير سومر و بابل... أغاني الجنوب... دماء الطف... اللغة الجمالية والمعرفية التي زودني بها آباء المسرح العراقي كلها حاضرة معي، لذلك لم أكن وحدي هناك بل كان الجميع من حولي... وبقليل من الصبر والعناء حدث التلاحم المدهش واللذيذ بيني وبين جمهور المسرح الكردي.

وإذن فأنا أمام نص (في انتظار غودو، والذي ترجمه لي خصيصاً الكاتب الكردي المعروف رؤوف بيكرد) أقف في قبو بناية نقابة الفنانين وأمام تفسير جديد ومغاير للنص. كان الابحار أشبه بمعضلة، (ملخص تأويل النص عبر العرض، ليس ثمة غودو سيأتي من وراء الغيب لينقذ هذا العالم من خساراته المتكررة... ذلك أن كل واحد منا يحمل غودو في داخله بشرط الصحوة) وهنا ابتدأ الرهان بين من كرهوا وجودي ولأسباب فنية تخص روح التنافس المعهودة بين المسرحيين وبين من احتضنوني وبشروا بي... عالم جديد من الجيران والأصدقاء والأعداء ينفتح أمامي... والأهم من ذلك كنت أنصرف ولساعات طويلة إلى تعلم اللغة الكردية والحفر في تاريخ الشعب الكردي وتراثه وتفحص مشاكله الاجتماعية والسياسية لأكون على تماس حقيقي معه... وكانت رحلتي من نالي ومحوي إلى كوران وحضارة بابان الخارقة للعادة وأساطير التحفة المضطربة الساحرة، وإلى جانب هذا كان يقف المشهد السياسي المتأزم منتظراً مني إجابة واضحة وصريحة لتوضيح وجودي هنا، هل أرسلت من قبل النظام؟ سؤال طالما حاول البعض اتهامي به من دون جدوى ذلك أن عروضي المسرحية كانت تجيب، وكان تعاطف الجمهور الكردي معي حصني المنيع... والسليمانية وعلى حد اعتراف أهلها "مدينة الإشاعات القاتلة" ذلك أنها تعيش على الجدل والحركة... فتن يومية يقتات عليها شيوخ السياسة المتقاعدون الذين خلفتهم الأحزاب الكردية وراءها وفرت إلى الجبال... تنظيمات سرية سريعة الاتصال بالشارع الكردي تحركه وتوجهه... تهديدات ومنشورات يومية... إذاعة معارضة تبدأ بثها مساء كل يوم فتطرب المدينة بأخبار المعارك وتزيد إصرار

الكردي... إن مشاهدة الاغتيالات السياسية اليومية في شوارع السليمانية وحاراتها و أسواقها كانت وحدها كفيلة بإثارة دهشة واحد مثلي لم يعرف السلطة إلا بوصفها جلاداً لا يقهر، ولم يشاهد رجالها إلا وهم يقتلون الشعب في الجنوب... صرت انتظر يومياً صوت الرصاص الليلي (عمليات البيشمركة) وصرت أميز الكردي الأصيل عن (الجاش/ وهو الاسم الذي يطلقه الكرد على فرسان النظام الحاكم في وقتها ولسوء الحظ فقد كان عدوي الأول هم هؤلاء/ الجاش/ الذين خلعوا الزي المسرحي وتطوعوا لخدمة السلطة من خلال تدمير القنوات المسرحية) فها نحن قد أنجزنا العرض إلا أنهم تدخلوا في اللحظات الأخيرة وحاولوا اغتياله، فقد رفض عادل رؤوف، وهو بعثي كبير وعضو في برلمان جعفر برزنجي ومسؤول الاتحاد الوطني لطلبة وشباب العراق، فرع السليمانية، أن يمنحنا قاعة مسرح الفارابي إلا أننا تمكنا من أخذ القاعة عنوة وعرضنا فيها رغم أنفه بعد أن أجرناها مقابل مبلغ مالي كبير. فشلت ولحسن الحظ كل المحاولات التي سعى بها الآخرون ضد العرض وفرقة المسرح التجريبي. ضجت القاعة بالجمهور وتمكنا من تغطية الإنتاج مع قليل من الأرباح... و أذكر – هنا – شهادة امرأة كردية مثقفة إذ قالت لي: "شاهدت هذا النص سابقاً ومن قبل مخرج كردي ألا أنني لم أفهمه بالشكل الذي قدمته" والفنان الكبير أحمد سالار دعاني بعدها وبشكل مباشر للعمل مع فرقته وقد التقينا في مسرحية كاليغولا ولكن بعد عام من هذا التاريخ... لم يكن ذلك النجاح إلا صفعة لـ(جاش المسرح الكردي) ذلك أن الجمهور هو الذي انتصر للمسرحية، والإنتفاضة التي جاءت في آذار ثأرت من أعداء المسرح الكردي وصفعتهم الواحد تلو الآخر وأولهم (عادل رؤوف) وكل أتباعه، جاءت الإنتفاضة بعد أن استيقظ غودو المخلص في روح الشعب ومنذ ذلك الحين لم نعد ننتظر أحداً، ذلك أننا صرنا نعرف كيف نصنع أيامنا بأيدينا.

3· احتفال النار

أستطيع القول بأني عاصرت المسرح الكردي في أهم مرحلتين في تاريخه المعاصر، حيث لجأت إليه في الوقت الذي كان يعاني فيه من وطأة السلطة حيث لم أفت أية فرصة في تلك الفترة للإطلاع على ثقافة الشعب الكردي وكذلك زيارة القرى والأقضية والمجمعات السكنية القسرية! وسماع قصص الأنفال السيئة الصيت من أفواه أبطالها الحقيقيين والاطلاع على المأساة الكردية وملامستها بشكل حقيقي ومتابعة الحياة الاجتماعية والثقافية المعارضة للنظام ومحاولات الكردي للهرب من قبضة الإذعان للنظام. وقد عاصرت كذلك المسرح الكردي في انتفاضته، حيث عايشت انتفاضة آذار 1991 بكل تفاصيلها، شاهدتها وهي تلقي بوشاح الآلام والقمع وراء الشعب الكردي لتدك معاقل القهر والاستعباد وتصفي حساب الشعب الذي طال أجله مع نظام عبث بأرواح الكرد ومقدراتهم بما فيه الكفاية.

ومع مضي الأسبوع الأول على الانتفاضة وتمكن الميليشيات الكردية من السيطرة على مرافق الحياة في المدن بدأت الأحاديث تدور حول مشاركة الفنان والمثقف في هذا الحدث الشعبي التاريخي. وللحقيقة أذكر أن اتحاد الفنانين الكرد الذي تم تشكيله سراً من قبل الاتحاد الوطني وبعد الإعلان عنه قد انصرف بكوادره إلى ملاقاة السلطة في كركوك وبالسلاح، هذا في الوقت الذي فضل فيه الآخرون من الفنانين الصمت والإنسحاب خوفاً من عودة النظام إلى المدينة مجدداً.

وأمام المهرجان الشعري الهائل الذي نهض به اتحاد الادباء الكرد لم نجد أمامنا نحن المجموعة من المسرحيين الشباب إلا السعي إلى تقديم عرض مسرحي سريع يستطيع مواكبة الحدث الجماهيري الواسع وقد ركزنا بحثنا الخاطف على النقاط الاتية:

الاحتفال بالانتفاضة و مباركة الشهداء ومواساة ذويهم، وفضح النظام، و تعبئة الجماهير لمعركة كركوك القادمة، و إشاعة روح التآخي الوطنية بين العرب والكراد من خلال التذكير بانتفاضة الجنوب. ولأننا لم نجد النص المسرحي المناسب لهكذا تجربة تحمل من الواقع حرارته، اتجهنا إلى كتابة النص ومن خلال البروفة بحيث اعتمدنا على الوقائع اليومية للانتفاضة وحكايات الشهداء مع مزيج من القصائد السياسية المعروفة في الأدب الكردي والعربي العراقي وارتجال مشاهد كوميدية عن الدكتاتورية وعصابتها الحاكمة في بغداد للترويج عن المشاهد، واجتزاء مقاطع من التاريخ الكردي ومسرحتها وتجسيد بعض المشاهد المتخيلة عن انتفاضة الجنوب وحسب ما تنقله الإذاعات العراقية المعارضة، والتركيز على جريمة حلبجة، هذا بالإضافة إلى الغناء والرقص والحوارات المباشرة مع الجمهور. هكذا تم بناء العرض الذي أطلقنا عليه اسم (احتفال النار), حيث ينطلق العرض من نقطة انتصار الانتفاضة والانتقال من خلالها إلى الماضي والحاضر والمستقبل و بإسلوب (المسرح الشامل) المعروف. من المواقف التي لا أستطيع نسيانها مشهد ضرب مدينة حلبجة بالغاز الكيمياوي إذ فر معظم الأطفال و الناس في أثناء العرض خوفاً من الدخان الذي استعملناه، وبكيت لحظتها لأنني علمت أي خوف صنعه الدكتاتور في نفوس هؤلاء الأبرياء من جراء تلك الجريمة.

كان فريق العمل يتكون من مجموعة من الهواة وعدد من الدارسين المختصين – لأن الأكاديميين كانوا يتخوفون من خوض هذه التجربة الجماهيرية التي تنتمي إلى الإحتفال الشعبي أكثر من انتمائها إلى المسرح، وهو المفهوم الذي أسس له ميرهولد في محاولاته المسرحية إبان انتصار ثورة أكتوبر. كان من بين المثلين والممثلات المقاتل الحزبي والممرضة وأخت الشهيد، جميعاً كانوا يتحدثون بلسان حالهم من دون وسيط وبتكاتف هؤلاء المخلصين لأنفسهم ولقضيتهم استطعنا وبسرعة خاطفة وفي غضون عشرة أيام إنجاز العرض وبشكل نهائي من خلال البروفات الطويلة في ساحة ملعب كرة السلة في بناية الرعاية العلمية. وقد تم الإعلان عن العرض بشكل

بسيط عن طريق البوسترات والدعوات الشفاهية. ومع اقتراب ساعة العرض كان الخوف من الفشل، لإنشغال الناس بالمعارك، يجعل قلوبنا تدق إلى حد الإعياء، إلا أن الملعب ولثلاثة أيام عج بالجمهور الغفير الذي قدم للعرض تبرعات مالية كبيرة تم توزيعها ومن قبل المثلين على العوائل المنكوبة من أهل خانقين وكركوك. وبعد ذلك قمنا بجولة في الحارات الشعبية وفي مصيف سرجنار وفي المدارس حيث احتشد الناس وصفقوا طويلاً للعرض. ومثلما كان العرض يبتدئ بالدبكة الكردية كان ينتهي بها أيضاً حيث يدعو المثلون الجمهور إلى المشاركة وغالباً ما كانت الدبكة تستمر ساعات طويلة، رقص يعبر عن تلك الأيام الأولى لنهاية الدكتاتورية في كردستان، أيام من الثورة النقية! لقد فعلها الهواة حقاً وبجمال طالما افتقدناه في العروض المصممة هندسياً.

امتد (احتفال النار) ليغطي سماء أيام الانتفاضة ولم يتوقف إلا بدخول الدبابات الحكومية إلى المدينة في آخر صباح حين غادر المدينة سكانها وفروا عبر الجبال معلنين رفضهم التعايش مجدداً مع هذا النظام... ومع بداية الاحتلال كان شباب (احتفال النار) ينسحبون أيضاً... وأنا بدوري كنت أركض في سهول شهرزور وعلى كتفي بندقية لا أجيد استعمالها!! أطفأت السلطة ثانية نار احتفالاتنا... إلا أننا عدنا بعد فشل المفاوضات –المبتذلة– ولم نصمت؟

4. **كاليغولا ... مازلت حياً!**

يصرخ الطاغية في نهاية العرض وبرغم إصابته بمليون رصاصة (مازلت حياً) فيدخل مدير المسرح إلى المنصة ليقول: كانت أمسية رائعة للتفكير! هكذا انهيت عرض كاليغولا في السليمانية والذي قدم ضمن نتاجات فرقة أحمد سالار وبمشاركة أكثر من عشرين ممثلاً وممثلة.

مسرحية (كاليغولا) كانت أطروحة تخرجي في أكاديمية الفنون الجميلة ببغداد بعنوان (الأمير) إلا أنني اعتقدت بخطأ الرؤيا الصورية في صياغة عرض التخرج لذلك فإن اللوم يقع علي. ففكرت بإعادة تقديمه، إلا أن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد، ذلك أن حرارة الانتفاضة انعكست على مشاعري وتفكيري وأنا أدعي أنني رجل أتعامل مع معطيات الواقع بشكل حيوي وساخن ولكن بشرط عدم السقوط في المجانية وفي التعاطي مع حدث الشارع ومنعكسات عالم السياسة على حياتنا الاجتماعية. إنني أجد الفن المسرحي أداة فاعلة لتحليل وتفكيك القوانين المحركة للواقع الاجتماعي والسياسي لذلك لا أتوقف عند السطح بل أحاول ومن خلال الشاهد أو المثال أن أسبر العمق لأكشف عن الخلل الذي يكتنف القانون الأساسي للحركة الخارجية! منذ انتفاضة آذار فُتح ملف الدكتاتورية على مصراعيه في أدبيات المعارضة وفي الحركة اليومية للمجتمع العراقي ولا سيما في كردستان (المطبوعات، والقنوات التلفزيونية، و الندوات) لذا كان لا بد لي من مناقشة هذه القضية في عرض مسرحي، لأنني أجد

المخرج المسرحي كائناً ومواطناً عضوياً في المجتمع عليه ألا يقف حيادياً أزاء القضايا الرئيسي التي تشغل شارعه. هذا بالإضافة إلى قضية أخرى فحواها أني لا أجيد لغة أخرى في توصيل أفكاري باستثناء اللغة المسرحية. وقد كانت لي وجهة نظر في صناعة الدكتاتورية (ناقشتها في كاليغولا وفيما بعد في مسرحية هملت لشكسبير، الدكتاتورية السلطوية و الدكتاتورية الفردية ممثلة بأحلام المثقف البرجوازي) .

كنت ومازلت مؤمناً أن الدكتاتور ما هو إلا نتاج أعلى لحركة المجتمع وبالتالي فهو إنعكاس حقيقي لعيوب حقب زمنية تلازمها ظروف معينة تنجب الدكتاتور وتغذيه وترفعه وتقدمه وتسلط عليه الضوء، ومن ثم تضفي عليه هالات المديح التاريخي.

واعتقد أننا في الشرق نملك إرثاً خاصاً وعميقاً في الدكتاتورية يمتد من عصر كلكامش الذي تقول عنه الإسطورة "هو الذي رأى فغنى بذكره يا بلادي، كلكامش الذي لم يترك عذراء لحبيبها" مروراً بنبوخذ نصر إلى عصر الخليفة (ومذابح الزنج والقرامطة والمعتزلة ومأساة الطف... الخ)، انتقالاً إلى عصر الجمهورية حيث سلطة الحزب الواحد والقائد الواحد الأوحد. إن مجتمعاتنا لم تفرز الديمقراطية ولم تقبل يوماً بتعايش الأفكار وتصاهر الألوان، وأذكر هنا محاضرة سمعتها للمفكر الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره) يحلل فيها المجتمع الفرعوني (الدكتاتوري) أفادتني وإلى حد بعيد في صياغة رؤيتي الجمالية والمعرفية في تقديم هذا العرض. كذلك فقد وجدت علاقة وطيدة بين مشاهد المسرحية وكتاب (الأمير) لميكافيللي الأمر الذي جعلني أدخل شخصية ميكافيللي في العرض بوصفه معلماً ومرافقاً (ملقناً) لكاليغولا فاقتطفت نصوصاً من كتابه تزامنت مع المشهد المسرحي بشكل مدهش وغريب. وأخيراً جاءت الصورة مسرحاً خالياً تماماً ذا جدران أو أرضية سوداء عليها عشرة كراس تمثل كل مفردات هذا العالم، السلطة، البيت، الشارع، الحلم، السرير، إنه عالم كراس، فالنواب الجبناء يتمسكون بالكراسي طوال العرض يجلسون عليها ويلتصقون بها ويحتمون وراءها وكاليغولا يقتل ويغتصب ويصدر الأوامر من خلال هذه الكراسي أيضاً. وعندما يركع له النواب كانت الكراسي تركع أيضاً وعند اغتياله في النهاية كان الجميع – وهم يطلقون الرصاص – يتساقطون قتلى والكراسي معهم أيضاً فحسب اعتقادي ليس من الضرورة اغتيال الدكتاتور وحده بل اغتيال عصره بأكمله لإعلان بداية عصر جديد.

ومن النقاط المثيرة في هذا العرض، أن الشخصيات برغم أسمائها وانتمائها التاريخيتين قدمت في مكان مجرد وبأزياء معاصرة كمحاولة لتقريب العرض من الزمن والعصر. قدم العرض في الوقت الذي كانت فيه قوات النظام موزعة في السليمانية برفقة قوات المليشيات الكردية. وأذكر أن عدداً ممن شاهدوا العرض الذي امتد لأكثر من عشرين يوماً برغم ظروف قاعة معهد الفنون الجميلة السيئة حيث الحر وعدم قدرة المكيفات على

تبريد القاعة في لهيب تموز نقول عددهم بلغ أكثر من عشرة آلاف متفرج من بينهم المعارضة الإيرانية، وخصوصاً مثقفيها، وأبناء شعبنا الكردي في السليمانية وأربيل وكركوك والمئات من أبناء الجيش العراقي الذين كانوا متواجدين في المدينة ... وبعد ذلك كانت البداية لانتفاضة جديدة ضد النظام انتهت بطرد الجيش واستعداد الأحزاب الكردية لإجراء الانتخابات البرلمانية وفي وقتها كان لي حديث آخر.

5· ليس لدى الكولونيل من يكاتبه!

هذا هوعنوان رواية غابرييل ماركيز (ليس لدى الكولونيل من يكاتبه)، ليس العنوان ماشدني إلى مسرحة هذه الرواية وحسب بل المضمون القهري الذي ينطوي عليه. إنها حكاية رجل قاتل في صفوف المليشيات ضد نظام بلاده التابع للمستعمر، قاتل بشبابه وعنفوانه إلى أن حصل الاستقلال وتم خلاص الشعب. جاء الخلاص بعد أن بلغ الكولونيل سن الشيخوخة، فعاد إلى بيته يحمل ذكرياته وشظايا الحرب الأهلية في قلبه. جلس ينتظر التكريم وراتبه التقاعدي الذي وعد به، بقي ينتظر خمسة وعشرين عاماً، كل يوم، كل أسبوع، وكل شهر، يعد اللحظات انتظاراً للراتب التقاعدي. قتل ولده في حلبة مصارعة الديكة ولم يخلف له شيئاً سوى ديك مصارع، راح الكولونيل يطعمه من كبده على أمل أن ينزله إلى حلبة المصارعة فيربح ليعيش من ثمن المراهنات عليه. ليس لدى الكولونيل أحد سوى زوجته المريضة التي تحيك كفنها وأصدقاء ينظرون إليه باحترام كبير، الاحترام الذي يليق بمحارب وبطل مما يزيد باعتداده بنفسه الأمر الذي يدفعه إلى الصمود رغم عدم قدرته على توفير الخبز والشاي لنفسه وزوجته. يتذكر الكولونيل أن حزبه –الذي أصبح في القيادة العليا للدولة الآن– قد تخلى عنه وعن خدماته وهو لا يتذكر إلا أيام الانتخابات التي يعده فيها رفاقه بـ "عصافير ملونة " كل دورة انتخابية ولكنهم سريعاً ما ينسونه بعد الفوز. الكولونيل يستبدل المحامي تلو الآخر على أمل أن يعثر على محام ينقذه من هذا الموت البطيء ويحصل له على حقوقه. الأحداث تجري بشكل أفقي راكد فلا أحد يجيء ولا شيء يحدث ... ليس هنالك من جديد سوى الزوجة المحتضرة تسأله في النهاية (ماذا سنأكل الآن؟ فيجيبها ببرود وقسوة نأكل خراء)!

ثمة عوامل عديدة جعلتني انتقي هذه الحكاية الملغومة في الوقت الذي هدأت فيه نيران الانتفاضة وفشلت فيه المفاوضات الكردية مع نظام بغداد وبدأ الحزبان الرئيسيان في كردستان في الاستعداد لإجراء الانتخابات البرلمانية الخاصة بالإقليم. ثمة أخبار يومية عديدة كنت أتفاعل معها: (بيشمركه/ الفدائي كما يسمى بالكردي) قديم وبطل معارك سابقة ينتحر بشكل مجاني من جراء صراخ أمه بوجهه ماذا نأكل، بطولاتك؟ الجوع الذي أطبق على كردستان والذي كان ثمن التحرر من قبضة الدكتاتورية أصبح لغة عامية يجيدها الجميع

وأستطيع القول إن الناس والمثقفين والمقاتلين أصبحوا صورة للكولونيل منعكسة في مرايا عديدة!.

هنالك من اطلع على إعداد النص واعترض على بنيته السكونية الأفقية, حيث لا يحدث أي شيء مما يعني غياب الدراما بمعناها المعروف وكنت أجيب عن هذه الأسئلة بصياغة صورة حية ومتحركة لهذه الفاجعة على خشبة المسرح. اخترت مسرحاً واسعاً لم أعرض فيه سابقاً. مسرح نقابة الفنانين - خلعت كواليسه وفتحته إلى العمق, كنت أريد أن ألقي بالكولونيل وزوجته داخل فضاء فارغ وواسع لأكرس الشعور لدى الجمهور بخسارته العميقة. ثمة مفهوم رسخه المخرج السينمائي المعروف - كير أساوا - في الصورة فهو يلجأ دائماً عند موت أبطاله، وهم غالباً من الساموراي، إلى نقل المشهد وبشكل فنتازي إلى مساحة ثلجية واسعة ليؤكد مدى الخسارة بموت هذا البطل.

كولونيلنا تم رميه أيضاً في مساحة فارغة إلا من قطع قماش، قصاصات ملونة هي عبارة عن فضلات الخياطة، تغطي أرضية المسرح وثمة خزانة قديمة منحرفة في عمق اليمين وسرير على عجلات في الوسط ترقد وتهذي عليه الزوجة وكرسي هزاز في مقدمة يسار المسرح وديك محنط. لماذا تم تحنيط الديك وهو الأمل الوحيد المتبقي للكولونيل؟ إنه وثن آخر مثل الحزب يراهن الكولونيل على فوزه ولكنه لا يتوقع ولا يحسب حساب خسارته. إنه رمز للأحلام المؤجلة و المتعلقة بآخرين لا نستطيع أن نثق بعواقب تحركاتهم! الكولونيل في العرض كان يبتدئ في دخوله إلى الصالة بين المتفرجين بتوجيه التورج إليهم ويسألهم هل حصلوا على الرسائل، هل حصلوا على رواتبهم، وهل لديهم طعام وسكر في البيت؟ وكان الجمهور - ومن حسن الحظ - يجيب فأحدهم صرخ مرة بوجه الممثل - لقد طردت اليوم من الشغل - وآخر قال وبصراحة - ليس لدينا طحين في البيت منذ أشهر، ليأكل المسؤولون ويشبعوا!.

أما نهاية العرض فكانت بتعري الكولونيل قطعة، قطعة، ليعلن فضيحة عصر وانهيار قيم... ينزل عارياً إلى الصالة إلا من ملابسه الداخلية ليصرخ بوجه المتفرج - سنأكل (...) ... (...) و يركض إلى خارج الصالة. (مريوان وريا قانع) أحد كبار النقاد الكرد قال إن الكولونيل خدعنا بتعريه. وأما (بختيار علي) فقد قال هو الآخر في الندوة التي أقامها اتحاد الكتاب الكرد في السليمانية عن العرض - أنه خرج ليعلن انتفاضة جديدة، وأما الناقد والشاعر الكردي الشاب (هوشنك الوزيري) فقد كتب في مجلة (المدى) يقول: سقوط الكولونيل أو تصحر العالم، كان العرض ينتهي ليبتدئ. ثمة تصفيق ساخن ومرير كان يقاطع العرض يومياً، مشاهدون ادمنوا حضور العرض رغم تساقط الثلج و انقطاع التيار الكهربائي أثناء العرض. صعد عرض الكولونيل على حياتي، أما في مسرحية (هملت) والتي ودعت بها كردستان فقد أطاحت ببطولة الفرد، و الفكر الأحادي، والحزب الواحد، من خلال إدانة هملت وهي حلقة مكملة لمأساة الكولونيل، فالكولونيل ضحية لهذه الأحادية القاسية التي تسود عالم الشرق المبتلى بالدكتاتورية والمبتعد عن عالم الديمقراطية.

* فصل من كتاب يصدر قريبا بعنوان (كتابة السيرة على الماء).

القطط

كوميديا قائمة من فصلين

محيي الدين زنكنه

الشخصيات:

-شفيق: تلميذ دون الثامنة عشرة.

-شفيقة: خالته و زوجة عمه.

-سلمان: جده على اعتاب السبعين.

-الرجل 1: مساعد طبيب من معارف الجد.

-الرجل 2: ممرض من معارف الجد.

-المعلم: في حدود الاربعين.

-المفتش: في الخمسين.

-المجاميع: مجاميع من التلاميذ و التلميذات في اعمار متباينة.

الفصل الأول:

{صالة داخلية في بيت من البيوت الشرقية المألوفة. يرتقع سلم من أحد الجانبين. يغيب في الطابق العلوي. يقع تحته: الحمام. المطبخ. المغاسل الخ...

في الجانب الآخر: نافذة واسعة, مفتوحة الستائر, يواجه الجمهور بابان احدهما لغرفة نوم و الآخر بضلفتين, يفضي الى الخارج.

الوقت, قبيل الظهيرة, اشعة الشمس تملأ البيت.

الأثاث متواضع, ينم عن حال متوسطة, او دونها. ثلاجة كهربائية, مائدة بقوائم متداعية. حولها بضعة كراس ليست افضل منها. جهاز هاتف, فوق محمل خشبي.. حاجات اخرى, هنا.. و هناك..

سكون عام يشمل كل شيء ثم نسمع صوت من استيقظ لتوه. صادرة عن غرفة النوم. بعد ثوان يخرج شفيق. مرتديا قميصا مقلما نصف ردن, و سروالا قصيراً من القماش نفسه, اشعث الشعر, متعكر المزاج. تتسم تصرفاته بنزق الأطفال و عنادهم. بينما توحي هيئته العامة بأنه اكبر من ممارسة هذا النمط من السلوك..}

شفيق: (يفرك عينيه. نصف نائم, يردد بشكل الي) بحثت القطة عـ... عـ... عن... اللحم (يتوقف) و بعد؟ و بعد؟ (يحاول ان يتذكر, يرن جرس الهاتف, يهجم عليه) هذا الرنين السخيف هو السبب في هذا التشتت الذي

اصاب ذاكرتي. (يقطع احد سلكيه, بعناية) و الان اخرس. اخرس الى الأبد رَن. رن. رن. أهذا بيت راحة. ام دائرة استعلامات؟ (يرفع السماعة الى اذنه) صمت مطبق... (يتأمل السلك) دقة متناهية. و من موضع غير مرئي, يعجز الشيطان عن اكتشافه (يرجع الى الثلاجة) بحثت القطة عن اللحم (يتوقف) هيا.. يا شفيق. هيا تذكر. تذكر يا شاطر. ماذا دهاك؟ (يضرب على راسه) اها تذكرت. لم تعثر القطة على اللحم. (يتوقف عاجزاً) ثم؟ ماذا حدث؟ ماذا فعلت القطة الجائعة البائسة؟ اه... دائماً انسى ذلك (يسرع الى الغرفة, يخرج بورقة. يقرأ) هجمت القطة على الفأر (يكررها, مغمض العينين, غادياً رائحا. يصطدم بالثلاجة) اخ (يفرك جبينه متوجعا. تسقط منه الورقة) الف مرة قلت لها لا تضعي عراقيل في طريقي. و لكنها امرأة مصنوعة من الحجر. لا تسمع كلاماً و لا تنفذ امراً. (صارخا) تعالي يا شفيقة. تعالي انظري. ماذا فعلت بابن اختك الوحيد (لا صوت. يصعد بانفعال, يتعثر. يسقط.. ينهض, يطوي درجات السلم يغيب.. هنيهة قصيرة في الطابق العلوي. يعود خائبا) يا ترى اين ولت؟ (يفتح الثلاجة) و الثلاجة فارغة. اه.. ماذا اكل؟ ماذا اشرب؟ اه... كيف ادخل الامتحان ببطن خاو و ريق ناشف؟ (يتوجه الى الحمام) بحثت القطة عن اللحم (يتوقف. فجأة) اه الورقة (يعود يخطفها. يعلو صوته من داخل الحمام) بحثت القطة عن اللحم. لم تعثر القطة على اللحم. هجمت القطة على الفأر.. اويلاخ على الفأر... اويلاخ على الفأر!! (يكررها بضع مرات. يخرج متوجها نحو الثلاجة. يفرغ محتوياتها على المائدة و هو لا يكف عن ترديد محفوظته. و اذ لا يعثر على ما يبحث عنه يركل الثلاجة بغضب و يعود الى غرفته. تاركاً الاشياء على المائدة. في طريقه الى الغرفة يتوقف فجأة يتطلع نحو النافذة, كأنه يراها للمرة الأولى) و النافذة.. ما تزال كما هي. و ستائرها مفتوحة! اه (يغلق الستائر. بعصبية يدلف الى الغرفة. يعلو صوته مردداً محفوظته مصحوبة هذه المرة بأصوات لطم على الخد و ضرب على الصدر.. كثاكل في مناحة).

بحثت القطة عن اللحم.

لم تعثر القطة على اللحم.

هجمت القطة على الفأر.

اويلاخ على الفأر

اويلاخ على الفأر.

}يفتح الباب الخارجي, تدخل شفيقة. تعيد المفتاح الى حقيبتها. تسحب الى المطبخ سلة كبيرة مليئة بالطماطم. تسير على رؤوس اصابعها حريصة.. ان لا تؤثر على شفيق. تتجه نحو النافذة و اذ تهم بفتح الستائر, ترتد كمن تتجنب اقتراف ذنب. تعيد محتويات الثلاجة الى مكانها بامتعاض مكبوت تذهب الى شفيق. تهم بطرق الباب. تتردد.. تتوقف ريثما ينقطع الصوت. يطول انتظارها. تتغلب على ترددها. تطرق الباب برقة..{

شـفيقة: شـفيق.. ولـدي.. افـتح البـاب (بصـوت اعلى) شـفيق.. شـفيق (لا جـواب. شـفيق مستمر في القراءة) الا تسمعني.. (تهم بفتح الباب. تجده مغلقا من الداخل, طرق اقوى. و بصوت اعلى) افتح البـاب يا شفيق..

شفيق: (من الداخل) هجمت القطة على الفأر. ماذا تريدين يا شفيقة؟ اويـلاخ على الفأر.. اويـلاخ على الفار.. تكلمي يا شفيقة.

شـفيقة: (لنفسـها) شـفيقة؟ بـلا خالـة و لا.. (تطرق الباب بشيء من الحدة).

شـفيق: بحثـت عـن القطة عـن الفـأر. كفـي عـن ازعاجي من الصباح الباكر..

شفيقة: أي صباح؟ لقد انتصف النهار.

شفيق: لينتصف الليل ايضا اذ شاء. انا ادرس. انا اقرأ. لم تعثر القطة على اللحم..

شفيقة: المسألة مهمة.. يا ولدي.

شـفيق: اغربـي عـني.. لا وقـت لـدي.. هجمـت القطة على الفأر...

شفيقة: بضع ثوان.. بضع ثوان حسب.

شـفيق: اويـلاخ علـى الفـأر, امشـي.. امشـي.. انـا زعلان.

شفيقة: ممن يا ولدي؟ مني؟ من خالتك الحنـون شفيقة.؟

شفيق: انت لست شفيقة.. انت صخرة.

شفيقة: انا.

شفيق: انت قطعة من حجر الصوان.

شفيقة: ولد.. ولدي!!

شفيق: انت بلا شفقة و لا احساس و لا حنان.

شفيقة: شفيق.. حذار. انت تتمادى كثيراً

شـفيق: بـل.. بـل.. انـت عـدوة.. بـلا عهـد و لا امان.

شفيقة: تدبر كلماتك يا هذا. و لا تطلقها جزافاً علـى هـذا النحـو الظـالم. انـا.. لا اسـتحق كـل هـذه المسبات و الشتائم.

شــفيق: بــل تســتحقين. تســتحقين اضــعاف اضـعافها. و لكـني مازلـت يافعـاً.. و .. و قاموسـي اللغـوي طفـل رضـيع. لم يكتمـل نمـوه بعـد و لا يسعفني باكثر في الوقت الحاضر, بيـد انـي اذ اكبر و يصـبح الطفـل الرضـيع رجـلاً ذا اسـنان و انابيـب يفترسك.. او.. او..

شفيقة: و يحي.. يا ويحي.

شفيق: او.. او يغرقك في بحر مـن الكلمـات. بحـر كثيف ثخين مثل.. مثل النفط الاسود.. او.. او مثـل القار.. اجل.. اجل.. القار المغلي.. احسن..

شفيقة: و لكن لماذا؟ مـاذا فعلـت..؟ الا تقـول لـي ماذا فعلت..

شفيق: انت تخططين لدفني حياً

شفيقة: اتق الله يا ولدي.. أأنا اخطط لـ.. لـ..

شفيق:و بذكاء و على درجة عالية من الخبث. و بخبث على درجة عالية من الذكاء

شفيقة: لا. لا شك انك قد جننـت.. جننـك هـذا الدرس المقيت الذي تردده منذ.. حللت عندنا..

شفيق: و لكي تبرئي ساحتك و تغسلي يديك من اثـار جريمتـك. تتركـين الجـوع ينـوب عنـك. يسـكن

معدتي. يأكل احشائي و اموت قبل الامتحان.. و لهذا السبب خرجت و لم تجهزي لي افطاري.

شفيقة: وي.. وي.. كل شيء جاهز.. اعددته قبلما اخرج عصير الطماطم في الاناء الأصفر و العصافير نصف النيئة. نصف المسلوقة في الاناء الاخضر و..

شفيق: بحثت في كل مكان و لم اعثر عليه هاتيه.. هيا اسرعي. بحثت القطة عن اللحم.. هيا.. هيا.. تحركي.. أنا اراك من شق الباب.

شفيقة: شفيق هناك ما ينبغي ان تعرفه و نتفاهم بصدده..

شفيق: بطني فارغ. و حين يكون بطني فارغاً. لا استطيع التفاهم مع احد لا استطيع التفاهم حتى مع نفسي.. لم تعثر القطة على اللحم.. هجمت..

شفيقة: الامر يتعلق بجدك.. يا..

شفيق: مات؟ وا فرحتاه. و لكن اسمعي (يفتح الباب يطل برأسه) ثمة شرط. لا اريد في البيت ضجيجاً و لا عويلا. و مجلس الفاتحة, ان كان لابد منه, يقام في الجامع, او على قارعة الطريق. فانا مقبل على الامتحان.

شفيقة: الامتحان؟ اليوم؟ اليوم هو الجمعة و ليس من المعتاد ان..

شفيق: و ما شأني انا بالمعتاد. من قال لك اني اسير وفق المعتاد. ان مهمتي.. ان الغي المعتاد. و القي به في مزبلة التاريخ..

شفيقة: افعل به ما تشاء. و الق به.. حيثما تريد.. فقط دعنا نتفاهم حول..

شفيق: لا تفاهم. الفاتحة في الخارج. او تلغى و البيت لا يخل بهدوئه من احد.. و ها انا اصدر امري بذلك (يعلق على الباب ورقة. يكتب عليها بخط رديء و اخطاء واضحة) – السيد شفيق يخوض امتحان مهم (الأخطاء مقصودة) الضوضاء ممنوع.. الظجيج ممنوع –هذا- أمري. و من يخالف امري انهي امره (كذا)

شفيقة: (تضرب كفا بكف) طفل غرير ركبه شيطان العناد (يهم بالدخول.. تمسك به) شفيق ليس الأمر كما تتصور. اسمعني يا ولدي ارجوك.

شفيق: اسمعك؟ اسمع من؟ اسمعك انت ام اسمع صراخ بطني و نباح جوعي؟ اسمعك انت ام اسمع نداء واجبي و تقريع معلمي الذي دست على اوامره.

شفيقة: انا؟.. انا دست على..

شفيق: ودست علي ايضاً. انظري.. انظري النافذة شاهدة على ما اقول. اه. يا الهي.. ماذا اقول له اذ يأتي و يراها على حالها. اسرعي. اسرعي.. هاتي قطعة خشب.. صفيحة حديد.. أي شيء.. أي شيء.

شفيقة: بسعة النافذة؟ من اين يا شفيق.. من اين؟

شفيق: من باطن الارض. من علياء السماء. ام تريدينه يسقطني في الامتحان و يقضي على مستقبلي. (يقلب المائدة و يشرع بقلع قوائمها, هائجا)

شفيقة: (تحاول منعه) اه.. انها المائدة الوحيدة في البيت.. المائد.. ة.. الو.. حيد.. ة..

شفيق: (يدفعها يواصل قلع المسامير باسنانه. المسامير طويلة و يعاني صعوبة بالغة. يتوجع يصرخ) اخ.. اسناني.. اخ (يسيل الدم على شفتيه) هاتي المقلاع. الا ترين اسناني تتكسر.. الا ترين شفاهي تتمزق.. اخ.. اخ...

شفيقة: جنون.. ما تفعله بنفسك و بي جنون مطبق. صبرا.. صبرا (تأتي له من المطبخ بالمقلاع و المطرقة. بسرعة) خذ.. خذ.. اه.. ما كل هذه الدماء دعني امسح شفتيك.. دعني اعقم جروحك..

شفيق: (يلطع شفتيه) احملي معي.. ساعديني.. ناوليني المطرقة (يدق لوح الخشب على النافذة. يسدها تماما. يتأكد من قوته و سلامته) هكذا. لا عين فضولي و لا انفاس متطفل و لا حتى شعاع متسلل. الجو المثالي للدرس و المذاكرة و تحقيق افضل النتائج. في الامتحان. و الان بقيت الستارة. اين الستارة.. هاتي الستارة..

شفيقة: و هل تركت, في النافذة, منفذا للنور؟ لقد اقمت في البيت ليلا اشد سوادا من الليل. فما حاجتك الى الستارة.؟

شفيق: الستارة تعلق هنا (يقفز الى عمق المسرح) و تمتد الى هنا (يرتد الى مقدمة المسرح) ستارة طويلة عريضة تعزلنا عن البيت تماماً. هيا هيا تحركي.. و لا تنسي الوسائد و الافرشة و السجاجيد و مستلزمات الشاي. و كل ما يليق بمقام معلمي الجليل. و يلين قبله علي.. (شفيقة لا تتحرك) مالك واجمه؟ ماذا بك؟ حزينة؟ حزينة على العجوز الذي رحل مع سعاله و شتائمه..

شفيقة: جدك.. يا شفيق.. لم يرحل.

شفيق: (مصعوقا) ها.. ما الذي تقولين.؟

شفيقة: ذلك ما اريد اخبارك به. منذ عدت من عنده و انت لا تترك لي فرصة.

شفيق: و لكن.. كيف؟ كيف..

شفيقة: لقد رأف المولى الكريم بحاله و..

شفيق: و ماذا؟ ما المطلوب مني ان افعل بهذه المناسبة السارة جداً. مناسبة خروج جدي المبجل من الكفن..

شفيقة: عليك ان تركن الى الهدوء. و تقلع عن كل ما يسيء اليه او يقلق راحته اذ يعود الى البيت.

شفيق: البيت؟ هنا؟ معي تحت سقف واحد؟ مستحيل. ما تطلبينه مني هو المستحيل بعينه قولي انك تمزحين. قولي انك لا تعنين ما تقولين. قولي انك تكذبين.

شفيقة: اكذب؟ انا في مقام امك و تقول لي بكل وقاحة اني اكذب..

شفيق: لعنة الله على امي و عليك و علي و على الدنيا كلها. اذهبوا به الى مكان اخر, أي مكان غير هذا البيت.

شفيقة: هذا البيت بيته هو. و ليس للانسان غير بيته يأويه و يحن عليه.

شفيق: (يلطم وجهه) مرة اخرى اخيب الأمل المعقود علي. اسقط في الامتحان و اخرج منه مسود الوجه كالغراب (بحدة) اتركوه حيث هو راقد..

شفيقة: لقد مضت عليه ثلاثة اشهر و هو..

شـفيق: مـاذا يعـني؟ انـت ممرضـة سـابقة, اسـتخدمي نفـوذك اطلـبي مـنهم ان يعطـوه بضـعة اشبار من الأرض يلفظ فوقها انفاسه..

شفيقة: لا تكن متوحشاً الى هذا الحد. انه جدك يا هذا.. جدك.

شـفيق: حتـى ولـو كـان ابـي. فانـا لا اطيقـه. لا اطيق وجوده. لا اطيق سعاله.

شفيقة: (بنبرة غريبة) لا.. لا.. اني اكتشف فيك امرا غريبا.. لا افهمه و لا اطمئن اليه (كمن تحدث نفسها) لا.. لا يمكن ان يوجد في الكون كله مخلوق تسكنه الكراهية الى هذا الحد المريع..

شفيق: ها انت ذي ترين..

شفيقة: لا يمكن.. لا اصدق. دائما للكراهية حـدود تتوقـف عنـدها و تتراجـع.. اه. اسـتغفر ربك يـا ولـدي. و طهر روحـك. فقـد بـت اخـاف عليك. ان كراهية من هذا النوع. تدمر صاحبها قبل غيره.

شفيق: (بنزق) انا هكذا..ربي خلقني هكذا..

شفيقة: حاشاه.. الرب ارحم مـن ان يحشو احـدا بهذا القدر الشنيع من الكراهية. و انت. انت نفسك. لم تكـن هكـذا. فمـاذا جرى لـك؟ مـا الـذي غـيرك و جعـل قلبـك اسـود الى هـذا الحـد الفظيـع.. ازاء امـك اولا.. ثم.. ازاء ابيك.. الان ازاء جدك.. حتى جدك.. هذا الملاك الطيب المسالم الذي لم يسيء الى مخلوق.. بات يكتوي بنار كراهيتك.

شفيق: لانه يكرهني. كلهم يكرهونني. و انا مـن يكرهني قدر شعره, اكرهه ملء السماء و الارض..

شـفيقة: لا احـد يكرهـك. صـدقني انها اوهامـك الـتي تمتلـئ بهـا نفسـك, تصـور لـك الامـر علـى هـذا النحو المقلوب. و الا هل سمعت بأم تكره فلذة كبـدها او اب لا يفنى في حب ابنه الوحيد البكر.

شفيق: لا تزال كلمات ابي, التي كانت تنزل على رأسي مطارق, صباح مساء. تـرن في اذنـي. يـرتج لها كياني. يا ولد يا شاذ.. يـا ولـد يـا وغـد.. انـت اكلـت رأس امـك. و اذ نبـذني و رحـل دون ان ادري الى اين.. راح جـدي هـذه المـرة, يكـرر النغمـة نفسها... هذا الولد يأكل رأسي.. هذا الولد...

شـفيقة: ولـدي. ولـدي. لا تـدع روحـك الغضـة الطفلة.. تمتليء بما يقال في لحظات انفعال اقوى من طاقـة الانسـان علـى التحمـل.. لا تدعـه يترسـب في نفسك حتى يستحيل حقداً متورماً. يسوقك الى مـا تندم عليه طيلة حياتك.

شفيق: الى جهنم.. كلهم الى جهنـم.. انـا لا احـب ايا منهم..

شـفيقة: ايـاك يـا ولـدي.. ايـاك. ان تسـيء الى أي منهم.. اذا اردت ان احبك.

شفيق: انت الأخرى تكـرهينني.. انـت الأخـرى.. لا تحبينني..

شفيقة: انا؟ انا لو كان لي ولد من لحمي و دمـي لما احببته اكثر منك. و لكنك ولـد غـر لا تعـرف مـا هو الحب و لا تدرك معناه.

شـفيق: اذا كنـت تحبيـنني حقـا.. فـلا تعيـدي العجـوز الى البيـت.. لا تنحـري في سـبيله مسـتقبلي.. انا لا اطيقه.. يا خالتي...

شفيقة: انتقل الى غرفتي في الطابق العلوي. انها معزولة.. و..

شفيق: مجنونة؟ قطعا انت مجنونة..

شفيقة: مجنونة؟ انا مجنونة..

شفيق: لابد ان تكوني كذلك. و الا لما جرؤت ان تطلبي مني ترك غرفتي لغيري.

شفيقة: الغرفة غرفته, مثلما البيت كله بيته. بناه بيده حجرا حجرا. قبلما يكون لك وجود. و ان مكوثك فيها فترة رقاده, في المستشفى, لا يعني انها صارت... غرفتك.

شفيق: لقد اعددتها اعدادا خاصا بي و لي. امضيت شهرين في تجهيزها باحدث متطلبات الدرس و التهيؤ للامتحان.

شفيقة: في بحر دقائق احملها و انقلها لك.. بنفسي.

شفيق: احمليه و انقليه هو. بنفسك او بالاستعانة بالابالسة. اما انا فلن اترك الغرفة.

شفيقة: مرة واحدة. كن معقولا مع نفسك. انى لرجل مريض. مقعد.. ان.. يصعد و ينزل هذا السلم.

شفيق: ليصعد و لا ينزل. يدفن هناك. او ينزل في تابوت, محمولا على الاكتاف. و انت! اما انت اخ.. لو لم يكن موعد امتحاني.. اليوم. (يندفع الى الغرفة)

شفيقة: (تتعلق به) شفيق ولدي..

شفيق: (يدفعها) كفاك.. كفاك قتلا لوقتي. المعلم في طريقه الى. لا تحمليني على كراهيتك.. انت تعرفين جيدا. كيف اعامل من اكره (يتوقف قبلما يدخل) و اسمعي جيدا. اذا ما حاول احد انتهاك حرمة غرفتي اقتله. بندقية الصيد في الداخل.. محشوة و لا اقول اكثر (يدخل. يعلو صوته. مرددا) بحثت القطة عن اللحم.. لم تعثر القطة على اللحم..

شفيقة: (تتهالك على نفسها في حالة شديدة من الاعياء و العجز و قلة الحيلة) و العمل؟ ما العمل يا الهي؟ ماذا افعل الان؟ انه ولد متهور. لا يتورع عن ارتكاب أي شيء؟ اه. و الجد.. الانسان الوحيد الذي بقى لي في هذه الدنيا القاسية.. اين اذهب به..؟ اين؟.. اين؟

شفيق: (يقطع قراءته. يطل برأسه) اما ان لك ان تقدمي لي طعامي.. اتنوين قتلي من الجوع؟

شفيقة: (تنهض. تتوجه نحو المطبخ. تتوقف عند السلم. تتأمل الفسحة الكائنة تحته.. تتريث عندها. تقيسها بعينيها) هنا؟ هل يمكن؟ (عاجزة عن اتخاذ قرار) اه.. ربي عونك. (تدلف الى المطبخ. يعود شفيق الى ترديد درسه. تخرج شفيقة بالطعام. تتوقف ثانية عند المكان) لا حيلة لي. و ليغفر لي الله..

شفيق: (يفتح الباب. يخطف عصفورة. يلتهما) انصرفي الى تهيئة مكان الدرس.

شفيقة: (تدخل الغرفة. يحاول منعها. تدفعه): اخذ السرير.. سرير جدك.

شفيق: خذيه. كلما وقع عليه نظري, تخيلته راقدا فوقه. تعالي خذيه. انا.. لا المسه (ينسحب)

شفيقة: (تفتح الباب الى اخره. الغرفة معتمة لا ينيرها سوى ضوء اصفر شاحب. تسحب السرير و هو عار. بعتلات صغيرة. يسرع شفيق باغلاق الباب.. و يعلو صوته مجدداً بين المضغ و القراءة. شفيقة تدفع السرير تحت السلم تكنس الارض. ترشها ببعض السوائل المطهرة. تأتي بالافرشة من الطابق العلوي. ترتبها. تطمئن الى عملها. ترنو اليه بحزن و اسى الشخص العاجز عن تحقيق ما هو افضل) بصورة مؤقتة حسب.. اليوم فقط.. لن ادعه راقداً هنا.. اكثر من اليوم. سأسترد له غرفته مهما حدث..

شفيق: (يفتح الباب. يناولها صينية الطعام) و المكان. هل نسيت مكان الدرس؟

شفيقة: لا.. لا. الان (تأخذ اواني الطعام الى المطبخ.. ثم تصعد الى الطابق العلوي بينما ينصرف شفيق الى ترديد محفوظته. بعد فترة وجيزة تنزل شفيقة.. بالافرشة و السجاجيد و الوسائد.. تفرشها, ترتبها تصعد و تنزل بضع مرات حتى تتشكل هيئة و مستلزمات غرفة مصغرة, غريبة – لا تمت الى زمن المسرحية بصلة – يترك تصورها و تجسيدها للمخرج و مصمم الديكور – تتأمل المكان, لنفسها) ترى ما سر الولع بهذه الاشياء الغريبة؟ (تهز كتفها غير حافلة صوت توقف سيارة. تسرع نحو الباب الخارجي تفتحه).

شفيق: (يطل برأسه) سيدي المعلم.؟

شفيقة: لا انها سيارة المستشفى (شفيق يختفي غالقاً الباب باستياء).

(يدخل رجلان, بملابس المستشفى, يسندان الجد الذي يتنفس بارتياح اول ما يدخل. ثم يظهر انقباض شديد على وجهه مشوبا بالدهشة و الامتعاض. اذ يدير نظراته في ارجاء البيت. تسرع شفيقة, تكشف الغطاء عن السرير).

الاول: البيت خانق جداً.. اما من نافذة فتحه..؟

شفيقة: (متهربة من سؤاله) على مهلكما.. على مهلكما.. هنا.

الرجلان: (معاً في ان واحد) تحت السلم؟

(يتوقفان باستنكار شديد)

شفيقة: (باحساس كبير بالحرج و انعدام الحيلة) لكي يكون قريباً قريباً من المغاسل و.. و (الرجلان لا يتحركان) ارجوكما.. لا تدعاه يتعب من الوقوف على قدميه.

الاول: سيدتي, ليس من حقي التدخل, و لكن هل ترين هذا المكان لائقاً بمقام الرجل.. (صوت شفيق يتوقف من داخل الغرفة)

الثاني: واي رجل. رجل بمعنى الكلمة. من اعظم بنائي البلد و امهرهم. افنى عمره يبني البيوت للناس. و في النهاية لا يجد لنفسه غير هذا المكان.. (شفيق يستمع من شق الباب).

شفيقة: بصورة مؤقتة حسب. غرفته شغلها حفيده و هو مقبل على امتحان خاص يتوقف عليه مصيره, كما يقول, و الغرفة الاخرى في الطابق العلوي و ليست ثمة مغاسل و لا حمام..

الاول: كان ينبغي اخلاء غرفته. و اسكان الولد هناك.

شفيقة: حاولت. يشهد الله اني بذلت المستحيل (بصوت خافت) و لكن الولد في عناد البغل و تهور الشيطان (ثم بشفقة).. انه يتيم. توفيت امه قبل بضع سنوات. و ابوه سافر الى الخارج. و لم يعد له احد يأويه و يعتني به. ارجوكما.. ساعداني.. تعال يا عمي.. تعال يا ابي.. و لا تغضب علي ارجوك.. لا تحرمني من رضاك.. (الجد.. تنفتح اساريره بعض الشيء.. يمددونه برفق على السرير. شفيقة تسحب الغطاء الى منتصفه)

الثاني: (باستياء واضح) اما كان المستشفى اكرم لك؟ امن اجل هذا المكان اصررت كالطفل, على العودة الى البيت.

الاول: يبقى البيت, مهما كانت ظروفه, بالنسبة للانسان مثل ثدي الام للطفل الرضيع لا يأنس و لا يجد راحته الا به و فيه.. (شفيقة تشهق مختنقة بالدموع) عفوا سيدتي.. لم اقصد ايذاءك.. فالعم سلمان بمثابة الأب الحقيقي لي, عملت معه, في معظم المباني التي اقامها, و كان نعم الأب الموجه. و يعز علي ان اراه.. ملقى.. هكذا.. تحت السلم.

شفيقة: (تكفكف دموعها) و من لا يعز عليه, حتى احجار البيت يعز عليها ان ترى سيدها.. ملقى هنا. الا ذلك الحجر الذي احتل غرفته اه.. فقئت عيناك يا شفيقة (تقبل نحوه) فقئت عيناك يا شفيقة. كيف حاله الان؟ احسن؟ اهو.. احسن؟

الثاني: كان الله في عونه. ان خمسين عاما من الكد و الشقاء تهد الجبل. و مع هذا فقد تحسنت حاله بعض الشيء, بفضل رعاية الدكتور (يشير الى صاحبه) و عنايته. نبضه انتظم الى حد ما و لكنه مازال يعاني من الأرق.

الأول: بسبب اوجاع مفاصله (يعطيها قنينة دواء صغيرة) وقت الحاجة الماسة, يمكن اعطاؤه بضع قطرات منه.. تسلمه الى نوم مريح.. (شفيقة تخفي القنينة تحت وسادته) و لتكن وجبات طعامه خفيفة. حساء و بعض السوائل, عصير البرتقال ان امكن. و اذا استعصت عليه افرازاته و هو امر متوقع, في حاله, استعملي الحقنة. لا تدعي بطنه ينتفخ.. و لا حرارته ترتفع.

الثاني: و في حالة حدوث اية مضاعفات. لا سمح الله. اتصلي بنا في المستشفى فاليوم نوبة خفارتنا و نحن في الخدمة.. و قيد الطلب..

الأول: (يتحسس حرارة الجد) هو الان نائم.. لقد سقيته بضع قطرات.. تجنبا لصعوبات الطريق.. لا بأس عليه دعيه حتى يصحو من تلقاء نفسه.

شفيقة: وفقكماالله, كليكما.. بارك الله فيكما (يخرجان) في امان الله.. رافقتكما السلامة.. اخوي الكريمين.. (تسد الباب خلفهما. تعود الى الجد تسحب عليه الغطاء) نوم العافية.. يا جدي الحبيب..

شفيق: (مندفعا من الغرفة) بماذا كان الرجلان يهذيان..؟

شفيقة: هش.. هش.. جدك نائم.

شفيق: نائم؟ هل اسقيته الدواء..؟

شفيقة: أي دواء؟

شفيق: سمعت احدهما يتحدث عن دواء منوم.. شيء سحري يغرقه في النوم.

شفيقة:و ما شأنك انت؟ ليس هذا من شأنك..

شفيق: اسقيه منه, يا خالتي, كلما صحا.. اسقيه المزيد منه.

شفيقة: شفيق لا تتدخل فيما لا يعنيك. رح الى دروسك و امتحانك.

شفيق: و لكن يجب ان يظل نائماً و من غير الدواء يصحو. و اذ يصحو.. يسعل و يشتمني.

شفيقة: و هل عرف لسانه العفيف السب او الشتم يوما؟ لماذا تفتري على الرجل (كمن تخاطب نفسها) ليته يصحو.. و ليسعل و يشتم ايضاً ما شاء. في الأقل يشعرني بأنه حي. و لكن.. وا.. اسفاه.. لقد اثقل المرض لسانه.. و لم يعد قادراً على تحريكه.. اه (ترفع يديها الى السماء) ربي ارحمه.. اشفه يا ربي. اشفه.

شفيق: بل خذه يا ربي خذه. الى جوارك..لا تستجب لدعائها و استجب لدعائي انا.. فانا الذي احترق في نيران شتائمه و سعاله..

شفيقة: (تسحبه بعيدا عن الجد) تعال.. تعال. الق نظرة على المكان المتحفي الذي طلبته.. ها؟.. هل يعجبك؟

شفيق: و الجدار؟ اين الجدار؟.

شفيقة: أي جدار؟.

شفيق: الجدار الفاصل.

شفيقة: لا اعرف عن أي شيء تتكلم. فانت..

شفيق: الستارة. الستارة التي تعزلنا عن البيت. مثل الجدار الفاصل. هل نسيت؟

شفيقة: شفيق. ليست في البيت ستارة بهذا الطول.

شفيق: شفيقة. اهذا بالوقت المناسب للمزاح.؟

شفيقة: انا لا امزح ليس في البيت حتى قطعة قماش تصلح لأن تكون..

شفيق: اشتري من السوق. اشحذي من الجيران. مزقي ملابسك.. و اصنعي منها الستارة المطلوبة.. هيا.. هيا.. لاتدعيني افقد اعصابي.

شفيقة: لا تصرخ.. لا تصرخ (تشير بقلق الى الجد) سأذهب الى السوق و اشتري.. امري لله (تتجه نحو الباب. تتوقف. تلقي نظرة على الجد.. تخاطب نفسها..) لا.. لا ينبغي ان افارقه. فقد يصحو.. و يطلبني في امر ما..

شفيق: هيا؟ ماذا هناك؟ هل عدلت عن عزمك؟

شفيقة: (تشير الى الطابق العلوي) سأنزع ستائر النوافذ هناك.. و اخيطها لك..

شفيق: اسرعي فقط اسرعي. قبلما يصل سيدي المعلم (يدفعها نحو السلم) عساك تنزعين جلدك و تخيطينه (يعود الى الغرفة. يصدر من الجد صوت اشبه بالحشرجة. يتوقف بنزق) مثلما توقعت ها هو قد صحا و اخذ يشتمني. يسعل و يشتمني. هو وووو (يخرج له لسانه. يدلف الغرفة. يعلو صوته بمحفوظته المعهودة. مصحوبا باللطم و الضرب.

يتوقف فجأة اذ يعلو صوت ماكنة الخياطة من الطابق العلوي. يخرج بسرعة و بعصبية شديدة)
شفيقة.. شفيقة.. هل تهدمين الدار فوق رأسي.؟ (يركل السلم) ما كل هذا الضجيج؟ ما كل هذا الصخب لماذا لا تدعينني ادرس. لماذا لماذا..؟

شفيقة: حسناً.. حسناً (يختف الصوت) ادخل الغرفة.. جدك نائم.. لا تصرخ.

شفيق: جدي.. جدي. لا يهمك من الدنيا كلها غير جدي (يعود الى الغرفة) ليت جدي يموت.. يموت ان شاء الله (يوجه حركة قبيحة الى الجد و هو يدلف الغرفة يعلو صوته من جديد) بحثت القطة عن اللحم. بحث القط عن اللحمة؟ ها؟ ماذا قلت؟ بحث القط عن اللحمة؟ (يتوقف) لم لا؟ انه تغيير. انه تجديد.. انه تطوير للدرس. اذا كانت القطة تبحث عن اللحم فمن حق القط ان يبحث عن اللحمة. الله؟ الله؟ و على اساس ذلك و في ضوئه يمكن تغيير الدرس كله, تجديده و تطويره. على هذا النحو. بحثت القطة عن اللحم.. بحث القط عن اللحمة لم تعثر القطة على اللحم.. لم يعثر القط على اللحمة هجمت القطة على الفأر.. هجم القط على الفأرة. الله الله! رائع. رائع! (يخرج بفرح طائح) خالتي شفيقة.. خالتى شفيقة..

شفيقة: ماذا هناك؟ لماذا لا تدع جدك يرتاح بعض الوقت؟

شفيق: تعالي هنئيني. تعالي قبليني.. (شفيقة تنزل و بيدها الستارة) لقد طورت الدرس يا خالتي.. لقد اضفت عليه اضافات مذهلة. من عندي.. وحدي..

شفيقة: (تحاول اسكاته) جيد.. جيد.. فقط لا تصرخ..

شفيق: لقد حولت القطة الى القط.. و اللحم الى اللحمة. و الفأر. يا خالة حتى الفأر.. حولته الى فأرة. ما رأيك لهذا الابداع العظيم.؟

شفيقة: (تنظر اليه باشفاق) حسن.. حسن.. لو.. لو ترتاح يا ولدي..

شفيق: لا. لا. لن ارتاح.. ولن يستقر لي بال.. حتى اعرف رأي سيدي المعلم بهذه الاضافة الرائعة (يقترب منها) ترى كيف سيكون رد فعله.؟

شفيقة: (و هي منصرفة الى تعليق الستارة) مشجعا.. كل معلكم يشجع تلاميذه..

شفيق: (منتكسا) اخشى ان لا يكون كذلك.. فانا لم استأذنه.

شفيقة: (بدهشة) و هل انت بحاجة الى اذن لكي..

شفيق: و الى امر ايضا. لابد ان يأمرني هو اولاً..

شفيقة: عجيب!! ما اغرب ما اسمع..

شفيق: ثم هو جديد. لا اعرف مزاجه.. و لا ادري اهو من النوع الذي يشجع.. المبادرات الشخصية ام يكبتها و يمنعها..

شفيقة: و معلمك السابق, ذلك الرجل القميء الذي كان تلميذا معك و صار معلما لك.. ماذا جرى له؟ لماذا استبدلوه..؟

شفيق: لقد صار مفتشا.. (بحزن شديد) كلهم يصعدون على اكتافي. و انا وحدي باق حيث انا.. (يحبس دموعه و يفر الى الغرفة)

شفيقة: لا تبك.. يا ولدي.. لا تبك. (تسرع خلفه مواسية)

شفيق: (يغلق الباب بحدة) اغربي عني.. لا اريد احدا يشفق علي.. لا اريد احدا يطلع على ضعفي (يستعيد حماسه بسرعة.. و يردد محفوظته بصوت عال. مصحوبا بالضرب و اللطم.. على نحو اقوى و اشد).

شفيقة: (تجمد دهشة لفترة وجيزة) ما اغرب اطواره! (ثم) ولد غريب الاطوار حقاً.. (تعود الى عملها. تعلق الستارة على جسر يسهل تحريكها. تكومها في عمق المسرح. تتجه نحو الجد. تقف على رأسه هنيهة..) نائم؟ اما زلت نائماً؟ اما زلت نائماً. (تجلس على حافة السرير) اما ان لك ان تنهض؟ تأكل شيئاً.. تشرب شيئاً (صمت) لو.. لو تفتح عينيك.. الا.. تسمعني.. عمي.. هل انت بخير.. طمئني يا عمي.. (يفتح الجد عينيه بتثاقل) اه.. و اخيراً حمدا لله.. حمداً لله.. (تقبله) لقد اعدت لي روحي التي كادت تقضي عليها مخاوفي و هواجسي. اما جعت؟ هل اعد لك شيئاً تأكله.. (الجد بصعوبة بالغة يومئ ايجابا, بحنكة.. تشهق بفرح غامر) الان.. الان.. اسخن لك الحساء انه جاهز.. لحظة يا جدي.. لحظة واحدة (تسرع باخراج قدر من الثلاجة. تدخل المطبخ.. تعود بعد هنيهة بالحساء في اناء عميق) لا.. لا.. تقلق.. لا تكلف نفسك ادنى مشقة.. انا.. انا ابنتك اطعمك (تجلس على مقربة منه تطعمه بحماس و نشوة) كل.. كل. مشافى. ان شاء الله.. مشافى.. (تحضر منشفة. تمسح اطراف شفتيه) شبعت؟ كما تشاء يا ابي الحنون.. كما تشاء.. (الجد يشير اشارة خاصة) عطشت ماء؟ اتريد ماء؟ من عيوني.. اسقيك ماء عيوني.. (تسقيه) لا. لا تشرب كثيراً.. لا تملأ معدتك بالماء.. ساتيك بالعصير.. عصير برتقال طازج.. لقد اوصى الطبيب لك بعصير البرتقال. ها.. (تعامله كما لو كان طفلا) البرتقال. حلو. لذيذ.. طيب (الجد يحاول ان يبتسم.. تبتسم له هي الأخرى. تهرع الى المطبخ.. الجد يتبعها بنظراته. تخرج حائرة. تفتح الثلاجة.. تبحث فيها) يا الهي.. اين وضعت كيس البرتقال لقد اشتريته صباح اليوم. انا متاكدة. اه.. لقد تركته عند البقال. لم استطع حمله مع سلة الطماطم الكبيرة.. الان.. الان (الجد يحاول ان يقول لها.. ان لا حاجة) لا.. لا.. المحل قريب.. بضع دقائق حسب.. اعود اليك طائرة. (تعدل له الوسادة. تسحب الغطاء الى منتصفه..) و لكن لا تنم.. يا ابي.. ارجوك.. انتظرني و لا تنم.. لن أتأخر عليك (تقبله من جبينه. تسرع بالخروج. يرنو خلفها بعيون ملؤها الحنان).

شفيق: (يواصل قراءته و ممارسة طقوسه)اويلاخ على الفأر.. اويلاخ على الفأرة (يصرخ) لا. الفأرة لا. يجب ان التزم بحدود الدرس و لا اخترقها قبلما انال موافقته. (يهدأ) من جديد.. يا شفيق هيا.. من جديد. بحثت القطة عن اللحم.. بحث القط عن اللحمة.. اه.. لا.. لا.. أي شيطان خبيث. يقحم هذا الكلام السخيف, السافل المنحط. على مفردات درسي المتسلسلة المتزنة المنسجمة مثل

حبات العقد.. فيخل باتزانها و انسجامها..؟ ايكون كل ذلك بسبب ذلك التعب؟ لا.. لا.. التعب لا يملك كل هذا الخبث و لا هذه القدرة الخارقة في التسلل الى فقرات الدرس.. ثم. ثم شفيق لا يتعب.. شفيق لا يضعف.. شفيق لا يتعرف بالتعب و لا يقر بالضعف. هيا.. هيا يا شفيق اعد الكرة..

الجد: (يسعل بضعف.. يقاوم سعاله باذلا اقصى درجات الجهد. يمد يده نحو كأس الماء. تعجز انامله عن الامساك بها. تسقط.. على الارض)

شفيق: (يقطع قراءته يقفز خارجا, يصرخ) شفيقة.. شفيقة..

الجد: (يشير بصعوبة بالغة الى انها خرجت)

شفيق: خرجت؟ اذن فأنت الذي تحدث كل هذه الضوضاء

الجد: (اشارات خرساء. يبذل المزيد من الجهد لكبت سعاله)

شفيق: لقد اخذت تسعل. لا تكذب. لقد سمعتك تسعل و تشتمني. انا اعرف انك تكرهني و منذ زمن طويل.. منذ ماتت امي.ضاعفت كراهيتك و بغضاؤك لي بعدما رحل ابي..

الجد: (يحدق فيه.. كاتما سعاله, الذي يحاصره و الذي يفلت منه بالرغم من الجهد الكبير الذي يبذله)

شفيق: أرأيت؟ هل سمعت سعالك؟ ان سعالك هو الشيطان الخبيث.. الذي تطلقه.. ليفسد علي دروسي.. و يربك ذاكرتي..

الجد: (يشير اشارات خرساء الى الكأس الساقطة.. المهشمة)

شفيق: ماء؟ هل تريد الماء؟ على العين و الرأس؟ يا جدي العزيز.. سأسقيك روح الحياة.. اكسير الحياة (يخطف قنينة الدواء من تحت الوسادة.. الجد يدفعه عنه بوهن شديد شفيق يحاول فتح فمه عنوة. الجد يقاوم) حصان. خذ اشرب. هيا اشرب.. اشرب و نم نومك الابدي.. هيا اشرب.. اشرب و نم (يفرغ القنينة في حلقه) و الان.. حاول ان تسعل.. اسعل و اشتمني ما شئت. ان استطعت. قسما برب الكائنات اسحق القنينة نفسها.. و املا حلقك بالشظايا.. (يسحب عليه الغطاء)

(يعود الى الغرفة تاركا الجد, يتلوى بعض الوقت, و يتعذب ثم يخمد في مكانه بلا حراك.. عدا صدره الذي يعلو و يهبط.. بضعف شديد. بينما يعلو صوت شفيق, و يغدو صراخا مشروخا. و عويلا مفتتا. مصحوبا كالعادة باللطم و الضرب مثيرا المزيد من الضجر و الملل بحكم الرتابة و انعدام التنوع و التلوين.. حتى يفقد الجمهور حياديته ازاءه. و يغادر الصالة مع هبوط الظلام, على المسرح, ببطء).

الفصل الثاني

(مشهد الفصل الاول نفسه. بعد بضع ساعات من وقوع احداثه. كل شيء على حاله. الجد ممد في مكانه, مغطى. الوقت قبيل الغروب. الظلام قد زحف نوعا ما. مع ان الشمس في الخارج لم تغب تماما.. اذ ما تزال خطوط من اشعتها تتسلل عبر الشقوق. شفيق. قد خفت صوته بعض الشيء, و ان

لم ينقطع.. و استحال لهاثا ممطوطا جراء التعب و الانهاك. شفيقة تنزل من الطابق العلوي. و هي بهيئة من قضت قيلولة, غير مريحة. تتوجه نحو الجد بقلق اذ يختض بشكل غير طبيعي..)

شفيقة: يا الهي (تكشف عن وجهه. تصعق) ما هذا؟ ما كل هذا العرق الذي تسبح فيه (تمسح عرقه. تجس نبضه. تتسمع الى دقات قلبه باضطراب) لا. لا. ان امرا غريبا يجري له. ايكون بسبب بضع ملاعق الحساء الذي.. لا.. لا. الحساء لا يوصله الى هذه الحالة الغريبة.. أه.. و العمل (تغدو في حركة دائبة. تضع كمادات ماء بارد. تحركه. تدلكه. تهجم على التلفون) اه.. لا الان. انا في امس الحاجة اليك.. تخرس كقطعة صخر (تلقى السماعة يائسة) اللهم انجدني ربي ارشدني ماذا افعل (تطرق الباب على شفيق) شفيق تعال انظر ماذا حدث لجدك (يخرج شفيق) حين تركته كان في احسن حال. و اذ عدت ووجدته قد سحب الغطاء على وجهه.. قلت لنفسي.. لقد نام.. لأدعه يرتاح.. فرحت و استلقيت فوق سريري.. و الان انظر.. انظر..

شفيق: انه في اتم الصحة و العافية. دعيه.. دعيه على حاله..

شفيقة: ادعه على حاله؟ ما الذي تقوله أأدعه يغرق في عرقه الذي يسيح من كل انحاء جسمه أأدعه يحترق في حرارته التي غدت كحرارة تنور مشتعل؟. انه لم يعد يقوى حتى على التنفس.. و يلتاه.. ويلتاه.. اسرع يا شفيق. اسرع.. هات له طبيبا..

شفيق: (جامدا. ينظر اليها بدهشة) اراك في غاية القلق و الخوف عليه. اتحبينه الى هذا الحد..؟ كنت احسبك تشفقين عليه و حسب.

شفيقة: (باكية) احبه.. احبه و حسب.؟ انا افديه بروحي و مهجتي و كل ما املك.. انه ابو زوجي و في مقام ابي و امي كذلك.. و باني هذا البيت الأمين. الذي يقيني اهوال التشرد و الفساد.. كيف لا احبه.. كيف لا افنى نفسي في سبيله.. شفيق اسرع.. ارجوك.. اسرع.. ان حالته تبدو خطيرة.

شفيق: سأسرع.. سأسرع فعلا.. و لكن الى غرفتي و دروسي.. و اياك ان تقلقي راحتي

شفيقة: (تعترض طريقه. تمسك به) لا يمكن يا شفيق.. لا يمكن.. ايه راحة تلك التي تتحدث عنها.؟ لن تكون في البيت كله راحة.. اذا ما حدث له مكروه..

شفيق: انا لن تتحقق راحتي الا اذا حدث له مكروه.. فدعيني و لا تحميلني على خنقك و خنقه بيدي هاتين..

شفيقة: و يحك يا شفيق.. يا تعس.. انت لا تدرك معنى ما تقول. لا تدركه و لا تعيه.

شفيق: بل ادرك واعي جيدا.. و اعني كل حرف قلته.. و اذا لم يحقق لي القدر ما اطمح اليه.. فسأحققه بنفسي, ذات يوم (يدلف الى الغرفة و يغلق الباب)

شفيقة: وحش. ان في داخل هذا الغلام وحشا.. وحشا حقيقيا (تنتفض) اه.. و الجد.. لابد من احد يساعدني. ماذا بوسعي ان افعل وحدي؟ و لكن الى

من اتوجه.. الى من..؟ (تفتح الباب الخارجي. تهم بالخروج و لكنها تعود بسرعة) لن اطمئن على تركه ثانية وحده على هذه الحال (تقبل نحوه تتحسس انحاء مختلفة من جسمه) كأن جسمه يتخشب. اه و بطنه.. بطنه انتفخ. غدا مثل الطبل.. لماذا ايها العزيز..؟ ماذا جرى لك ايها الحبيب (تكشف بين ساقيه) يابس. ملابسه يابسة. المنام يابس.. لم تخرج منه قطرة واحدة. ايكون ذلك هو السبب. فيما يعاني؟ (ساهمة) ربما ربما (تنتفض كمن اهتدت الى الحقيقة) بل بالتأكيد. بكل تأكيد. (تهرع الى المطبخ, تعود بالحقنة تجهزها) استدر يا عمي.. استدر.. لقد عرفت السبب.. و سهل العلاج.. (تقلبه الى الجانب) لا.. لا تتشنج.. ارتخ.. ارتخ. روحي فداك.. ثواني.. ثواني حسب.. و سيكون كل شيء على ما يرام.. ثوان فقط.. ها قد انتهى.. انتهى كل شيء و ستغدو على احسن حال.. مثلما كنت.. بل و احسن مما كنت (تضع اناء بين ساقيه. تشرع بتدليك بطنه برقة و مهارة.. تواصل تدليكه لفترة) هيا يا عمي.. هيا يا ابي.. لا تستح.. انا ابنتك.. هيا.. افرغ ما في جوفك.. هيا يا عزيزي.. هيا.. يا جدي (تمر فترة مناسبة يظلم خلالها المسرح ثم يضاء و هي لا تزال تواصل تدليك بطنه و التوسل اليه.. ثم يتهلل وجهها و تصرخ بفرح) اه.. لقد اخذ يشخب.. الجد يشخب.. لك الحمد يا ربي.. (الجد يمسد على شعرها بضعف و امتنان بالغ. شفيقة تلثم انامله) عيناك الحنونان. عادتا تومضان بالحياة.. تبثان في الامل و الرجاء.. (تحتضنه. تقبله) ليس لي سواك.. يا جدي الحنون. لا.. تتركني وحدي.. انت كل من بقي لي في هذه الحياة الظالمة, في هذه الدنيا القاسية. (تعانقه. ترفع الاناء من بين ساقيه) و الان ساتيك بالعصير.. عصير برتقال طازج اعددته لك (تسقيه كأس عصير) اشرب بالشفاء العاجل. ان شاء الله (يشرب الجد) كنت اموت لو حدث لك شيء.. و لكن لا.. لا.. لن يحدث لك شيء.. ما دمت معك. و سأبقى معك.. اخدمك و احميك.. حتى تعود ذلك الرجل الذي كنت. ذلك البناء العظيم.. الاسطة الحاذق.. الذي كنت.. تبني للناس بيوت السعادة و الامان (تمسح له شفتيه. الجد يشير الى النافذة) ها.. النافذة؟ سأفتح الباب. الجو خانق فعلا.. سأفتح الباب على مصراعيه.. ليدخل الهواء.. نظيفا.. نقيا (تفتح الباب. الجد يتنفس بارتياح) حاول ان تنام يا جدي.. نوم العافية.. النوم يريحك (تسحب الغطاء على منتصفه. تقف قربه هنيهة) ما اسرع ما تنام كالطفل البريء كاكثر الاطفال براءة (تقبله من جبينه. تنصرف الى لم الحاجات بحذر و هدوء.. تغسل الاواني و الصحون. موسيقى مناسبة, صوت شفيق قد خمد تماما..)

(بعد فترة وجيزة, يدخل رجل. يرتدي (بجامة) مقلمة. على رأسه قلنسوة من القماش نفسه يخفي عينيه تحت نظارات سوداء. يحمل بيده حقيبة كبيرة سوداء يدخل بسرعة. يتوقف فجأة انه تعبان, متوتر. منفعل لادنى سبب)

المعلم: انا المعلم. حضرة المعلم الجديد (يتلفت حواليه و اذ لا يجد احدا. تأخذه الدهشة) ما هذا؟

هل اخطأت في البيت؟ ايمكن ان يحدث امر كهذا لي؟ حتى لي انا معلم الاجيال. الذي ربى و علم و مازال يربي و يعلم الاجيال تلو الاجيال؟

شفيقة: (خارجة من المطبخ, تمسح يديها) آ.. آ.. المعلم؟ حضرة المعلم.. الجديد؟

المعلم: حسن انك عرفتني.. يا سيدة شفيقة.

شفيقة: (تلقي بالمنشفة على احد المقاعد. و تقف حاجزة بينه و بين سرير الجد) و.. و تعرف. اسمي؟

المعلم: انا لا تخفى علي خافية.. اعرف كل شيء (ثم بحدة) ما الذي يجري هنا؟

شفيقة: (تدفع بظهرها السرير, تحت السلم) لا شيء لا شيء غير طبيعي..

المعلم: و هذا الذي تراه عيناي؟ ام حسبتني اعمى لانني اضع نظارات سوداء؟

شفيقة: و.. ما الذي تراه عيناك يا حضرة المعلم؟

المعلم: ما يدفعني الى الشك في قواي العقلية ما يحملني على الاعتقاد باني انا الاخر يمكن ان اسقط في الغلط, شأني شأن الناس جميعا.

شفيقة: (بقلق متزايد تدفع السرير بظهرها ابعد) لماذا؟ ماذا هناك.

المعلم: الشمس. هذه الشمس الساطعة التي اشعلتها في البيت (يشير الى المصباح) لماذا؟ الكي تعمي بها العيون؟ عيوني انا اولا..

شفيقة: معاذ الله.. لقد اشتد الظلام.. و..

المعلم: (يغلق مفتاح الضوء) و الباب؟ ما هذا الباب الفاغر فاه كشدقي غول.

شفيقة: بسبب الهواء. الهواء المسجون هنا.. قد بات خانقا.. ثقيلا..

المعلم: اغلقيه يا امرأة. اغلقيه قبلما تنهار اعصابي و افقد توازني و اتزاني, تحركي.. تحركي.. ام يتوجب علي ان افعل كل شيء بنفسي (يسد الباب بقوة)

شفيقة: (يشتد الظلام. تتخبط) لا ارى شيئا.. لو.. عود ثقاب.. لو بصيص نور..

المعلم: معي علبة كبريت (يتوهج عود ثقاب. يفتح الحقيبة) في الحقيبة شموع. تعالي خذي واحدة (تقترب منه.. و فجأة يدفعها) لا. لا. لابد اني فقدت عقلي و ان النور الوهاج افقدني رشدي. اذ ادع مخلوقة غريبة.. تطلع على الحقيبة (يخرج شمعة يشعلها. شفيقة تأتي بفانوس مشتعل, المعلم يطفئ الشمعة. و يظل ماسكا بها. حائرا لا يعرف اين يضعها..)

شفيقة: لم نعد بحاجة اليها. الا تعيدها الى.. الحقيبة..

المعلم: (ملسوعا) الحقيبة؟ الحقيبة ثانية؟ الا تقولين لي ما سر تعلقك الغريب هذا بالحقيبة؟ انها حقيبة عادية. لا تحوي غير لوازم الدرس و مستلزمات المعلم. هل اخبرك احد انها تحوي قنبلة نووية. او جثة متقطعة؟.. (يندفع نحوها بانفعال) من؟ ا؟ من الذي اخبرك؟ قولي.. تكلمي!

شفيقة: (تتراجع دافعة السرير الى المزيد من العمق) لا. لا.. وي.. وي..

المعلم: و حتى في حالة حصوله فهو من قبيل الاخبار الكاذب. لا تصدقيه. و مع هذا فانا على اتم الاستعداد ان افتح لك بطني من الظهر الى الظهر.. و اريك كل احشائي الداخلية. و لكني لن ادعك تلقين نظرة واحدة الى داخل الحقيبة.. (يرمي الشمعة, يغلق الحقيبة بقوة) خذي الشمعة لك. و انسي الحقيبة.

شفيقة: (تشير الى راسها علامة اختلال عقله, لنفسها) مجنون.. قطعا هذا المعلم مجنون.

المعلم: بماذا تهمهمين؟ بماذا تهمسين. انا يجب ان اعرف كل شيء. كل شيء..

شفيقة: انت منهك حضرة المعلم.. تبدو منهكا.

المعلم: طبعا انا منهك.. منهك و متعب ايضا. بل في غاية الانهاك و التعب. حتى الحديد ينهك و يتعب. و اذا كان الحديد نفسه ينهك.. فلماذا لا انهك انا.. و انا.. انسان مخلوق من لحم و دم و لست مصنوعا من حديد.. اه.. اه.. (يتهالك على احد المقاعد) هاتي كأس حديد.. اعني.. اعني كأس عصير.. عصير الطماطم (تصب له كأسا, يفرغها في جوفه) اعيدي الكرة. (يشرب) قدحا ثالثا (يشرب) لذيذ. مصنوع بحذق و مهارة (تقدم له كأسا اخرى. يدفعها) تصرفي في حدود الامر الصادر اليك. (يلتفت هنا و هناك).

شفيقة: (تعلق. تحاول اشغاله) تفضل الى مكان الدراسة الذي اعددته. و سأتيك بالعصافير.. عصافير نصف مسلوقة.. نصف نية مقلية.. نصف حية.. نصف ميتة.. نصف..

المعلم: (يقاطعها) ستأتين بها حين امرك. التزمي بحدود الامر حسب. و اعلمي ان الزائد كالناقص. بل الزائد في معنى من معاني العلم الحديث هو الناقص بعينه. (يعود الى البحث بعينه. هنا و هناك. و يتسمم)

شفيقة: (تحول بينه و بين السرير) و الناقص يا سيادة المعلم؟ الناقص؟

المعلم: (ساهيا, لا يزال يتشمم) ها؟ ما باله؟ ما بال الناقص.. يا سيدة؟

شفيقة: هل يمكن ان يصبح في معنى من معاني العلم الحديث. او العلم القديم, زائدا؟ اعني.. اعني.. مثل الزائد, بعينه. صنواً له. حاله كحاله تماما. لا يختلف و لا يتميز عنه بشيء. أي شيء؟

المعلم: ها؟ (تنتابه حيرة حقيقية, فجأة, كما لو كان ازاء معضلة فكرية في غاية التعقيد) لم لا؟ جائز. الامر يبدو جائزا. او.. لا.. لا. لا يجوز. لا يمكن (ثم) الحق اقول. ذلك سؤال لم اطرحه على نفسي قط.

شفيقة: (متصنعة الاهتمام الشديد) اطرحه. يا سيد المعلم. اطرحه الان ارجوك..

المعلم: (كمن يهرب من شيء مخيف) لا. لا. لا اجرؤ البتة السؤال اكبر مني. اكبر بكثير.. لابد ان اقر.. لابد ان اعترف..

شفيقة: اه.. واخيبتاه! اسأل من اذن.؟ من الذي يجيبني؟. من يحل لي هذا اللغز المحير؟

المعلم: سيدي المفتش. لا تقلقي و لا تحزني. هو رجل عالم يعرف كل شيء يحيط به مجموعة كبيرة

من المكاتب التوجيهية.. تضم كافة الاختصاصات و سائر العلوم و المعارف النظرية و التطبيقية (يكتب) سأرفع السؤال الى مقامه العالي كتابة. و في غضون شهور قليلة تكون الاجابة الشافية.. جاهزة (ثم فجأة يتوقف) و لكن قولي لي.. مالك انت و هذا السؤال الكبير, المقلق للدماغ.. الذي لم يرد على ذهني.. حتى انا.؟

شفيقة: اريد ان اعرف. اريد ان اتعلم.. اريد ان..

المعلم: بل تريدين اشغالي عن القضية الأساسية التي كنت بصدد طرحها و دفنها في سؤال معجز. لو اجتمعت الأمة كلها و قضت بقية حياتها في البحث عن جواب له.. لما عثرت عليه (يمزق الورقة التي فيها السؤال).

شفيقة: القضية؟ اية قضية؟

المعلم: الرائحة التي غزتني بشراسة اول ما دخلت.. و التي انساني اياها الضوء الساطع الذي..

شفيقة: (تقاطعه) ليست في البيت اية رائحة.. يا حضرة المعلم!!

المعلم: اوتجرؤين على تكذيبي؟ هل يمكن لمثلي ان يكذب؟

شفيقة: لا.. لا.. و لكن.

المعلم: اذن فأنت التي تكذبين.

شفيقة: انا؟

المعلم: لم لا؟ و ما العجب؟ كل انسان يكذب ام تراك لا تنتمين الى جنس الانسان؟ انا وحدي الذي لا اكذب ابدا. و انا قلت ثمة رائحة في البيت. و انت قلت لا رائحة في البيت هل حدث الأمر على هذا النحو ام لا.؟ قولي حدث.. (يسرع في الاجابة) لقد حدث. اذن. المقالان متوازيان, اعني مقالك و مقالي – اقصد – ما قلته انا و ما قلته انت, و لا يلتقيان ابدا و لماذا لا يلتقيان لان بينهما تناقضا ابديا. و خلافا خالدا لا يمكن تجاوزهما و لا التصالح بينهما اطلاقا. هل هذا واضح؟ قولي واضح.

شفيقة: (بسرعة) واضح.. واضح..

المعلم: و لماذا هذا الاختلاف الشنيع. و ذلك التناقض الفظيع بين المقالين؟ ها؟ لا تعرفين اليس كذلك. انا اخبرك لأن احدهما صادق مائة في المائة و الاخر كاذب مائة في المائة.. مفهوم؟ هل الموضوع حتى الان.. مفهوم؟

شفيقة: مفهوم.

المعلم: و مؤلف المقال الصادق, اعني و قائله, وحده الصادق. صح؟

شفيقة: صح

المعلم: و صاحب المقال كاذب اعني قائله و مؤلفه وحده الكاذب. صح؟

شفيقة: صح

المعلم: و لماذا صح. سيدة شفيقة. لماذا صح (حائرة لا تعرف بماذا تجيب) هيا. هيا. اجيبي بلا خوف. هيا.. هيا.. انا اساعدك. قولي لان صاحب المقال الصادق لا يمكن الا ان يكون صادقا. و لان صاحب المقال الكاذب لا يمكن.. الا ان يكون كاذبا. و لا يمكن لاي منهما ان يكون صادقا و كاذبا في الوقت نفسه. اليس كذلك.؟

شفيقة: (و هي تكاد تختنق).. كذ.. كذلك.

المعلم: و من منا صاحب المقال الصادق؟ هيا.. هيا.. اعترفي. الاعتراف بالخطأ فضيلة من ها؟ (اشارات خفيفة الى نفسه) آ.. أنـ.. انـ..

شفيقة: انت.. انت.

المعلم: و صاحب المقال الكاذب انت. اذن كأستنتاج منطقي سليم. اكون انا.. الصادق. و تكونين انت الكاذبة (يتهالك لاهثا) اه. ما اشق تعليم الجهلة و الاميين. (يصب لنفسه قدحا من العصير. يفرغه في جوفه).

شفيقة: (كمن تزيح عن روحها كابوسا ثقيلا) كان الله في عون التلاميذ.

المعلم: و هكذا توصلنا الى الحقيقة. الحقيقة الواضحة وضوح نظارتي هذه (يشير الى نظارته السوداء) على عيني. الا وهي ان في البيت رائحة.

شفيقة: (مقلدة طريقته في الكلام) ما دمت قد قلت ذلك فلابد ان يكون ذلك كذلك. اما لماذا لابد ان يكون ذلك كذلك. فلانه لا يمكن ان يكون ذلك كذلك و ان يكون ذلك. في الوقت نفسه غير كذلك. و كأستنتاج منطقي بسيط يجب ان يكون ذلك كذلك. و ان لم يكن ذلك كذلك فالواجب يقتضي ان تجعل ذلك يكون كذلك. (المعلم يبتسم متهلل الوجه) اليس كذلك

المعلم: هائل.. مذهل: انت ترتقين سلم المعرفة الوعر الخشن. بسهولة و ليونة. الله: الله: و تأسيسا على ما تقدم و تقديرا لقدرتك الخارقة في الاستجابة.. للمطلوب. سأتجاوز موضوعة الرائحة و اعتبرها غير قائمة من اساسها (يشرب) اظنني بحاجة الى المزيد.. من هذا الشراب الساحر (شفيقة تظل واقفة) هاتي لي المزيد.. هاتي المزيد (يفتح الحقيبة. يستمع الى مذياع صغير بانتباه شديد) تمام كل شيء تمام (يعيده الى الحقيبة. يغلقها, تعطيه قدحا كبيرا) و السيد؟ اين السيد؟

شفيقة: آ.. آ.. السيد؟

المعلم: ما لي لا اراه؟ لماذا لم يخرج لا ستقبالي! اين هو؟

شفيقة: شفيق؟ انت تسأل عن شفيق..؟ موجود.. في انتظارك.

المعلم: السيد شفيق يا هذه.. السيد شفيق. ماذا يفعل.؟

شفيقة: نائم اظنه قد نام.. لقد نال منه التعب و الانهاك, سأناديه.

المعلم: هل حفظ درسه بصورة جيدة.

شفيقة: كالببغاء. لو كانت لهذه الجدران اذان و ألسنة.. لرددته معه. هل اناديه؟

المعلم: (يومىء ايجابا. يصدر عن الجد صوت) ما هذا الصوت (يقفز نحوه) من هذا الرجل الغريب؟ ماذا يفعل هنا..

شفيقة: انه الاسطة سلمان و ليس هو الغريب (تطرق الباب) انه جده.. جد شفيق

المعلم: جده؟ لماذا يحتفظ بجد منخور و هو الذي لم يطق ابويه (يكتب) لا. لا. انها قضية ليست في صالحه.. ليست في صالحه البتة

شفيق: سيدي المعلم انا جاهز. (يقبل نحوه على راسه قلنسوة و على كتفه جهاز تسجيل. متأبط مجموعة من الدفاتر و الاقلام في حالة شديدة من

الطاعة و الوجل يسير محني الرأس يتعثر في مشيته يخطف يد المعلم يلثمهما بخشوع. يتراجع يقف على مبعدة منه دون ان يجرؤ على رفع عينيه نحوه)

المعلم: ما شاء الله.. ما شاء الله!! كما وصفوك لي. ادب و طاعة و اخلاق (شفيقة تبحلق فيهما و قد صعقتها الدهشة) ما لك تبحلقين فينا على هذا النحو الغريب؟ هل ترين امرا منكرا (تحاول ان تتكلم. يسكتها) هيا هيا انقلعي انت و عجوزك المنخور لا اريد ان اشم رائحته و لا اسمع صوته.

شفيقة: (بغضب) انه هنا في بيته و على من يتضايق من وجوده ان..

شفيق: (يقفز نحوها) اسكتي ارجوك.. و اسرعي بتنفيذ الامر ارجوك.

شفيقة: كيف و انت تعرف انه ليس في البيت غرفة تصلح له عدا الغرفة التي تشغلها. هل توافق ان..

المعلم: يوافق؟ و من هو حتى يوافق او لا يوافق؟

شفيق: (بنبرة ذات مغزى) انه السيد.. الم تقل انه السيد.

المعلم: هو السيد و الامر و الناهي في غيابي انما في وجودي فهو زير و صفر لا شيء و انا السيد الامر و الناهي. اليس كذلك؟

شفيق: بلى. سيدي المعلم بلى هيا هيا نفذي امر سيدي المعلم (يدفعها باصرار اقرب الى التوسل. شفيقة تسرع بادخال الجد الى الغرفة غير مصدقة).

المعلم: (صارخا) و اغلقي الباب جيدا و لا تدعيني اسمع صوته او اشم رائحته لحينما اقرر له مصيره (يسحب الستارة الوسطية) هذه الامرأة تحيرني.. قبل حين بدت لي صالحة اذا ما تولاها احد بالرعاية و التوجيه و الان تبدو لي غير صالحة البتة.

شفيق: (مرعوبا) غير صالحة؟ خالتي شفيقة غير صالحة؟

المعلم: مثل امك التي.. (يهم بالكتابة) التي..

شفيق: سيدي المعلم.. سيدي المعلم (يندفع نحوه يقبل يديه يتهالك عليه) باجلال جم و خضوع اتم.. اتقدم الى مقامك السامي بالتماس (يتوقف المعلم عن الكتابة) اتوسل اليك ان تصفح عنها و تغفر لها زلاتها ليس لي سواها تخدمني فلا تحرمني منها ارجوك.. ارجوك.

المعلم: اتحبها؟ (يومىء بعد تردد قصير ايجابا) اكثر من واجباتك؟

شفيق: (بسرعة) لا. لا.

المعلم: اكثر مما تحب معلمك؟

شفيق: (كمن يدفع عن نفسه تهمة) لا والف لا. بكل تأكيد لا

المعلم: حسن.. هذا حسن (ثم) مستجاب التماسك مستجاب.

شفيق: (ينهال عليه تقبلا ولثما) اه.. سيدي الكريم.. انا.. انا منذ اللحظة عبدك..

المعلم: (يبعده عنه برقة) و الان لنبدأ الدرس, فثمة مجاميع اخرى في انتظاري يجب ان التقيهم. قبلما يحل الليل.

شفيق: (رد فعل عنيف) الدرس؟ سيدي أأ. اتعني ما تقول؟ تعنيه حقا..

المعلم: طبعا. طبعا. و لنجلس (يجلس يستمع الى الراديو ثانية)

شفيق: (يكاد ينفجر) و نجلس؟ ووو.. نجلس ايضا سيدي المعلم؟ نجلس؟

المعلم: و هل ندرس وقوفا (يضحك) اعرف ان ثمة اناسا يموتون وقوفا. و قد شاهدت بعضا منهم بنفسي. و لكني لم اسمع و لم ار اناسا يدرسون وقوفا. هل كان المعلم السابق.. يدرسك وقوفا.

شفيق: لا جلوسا.

المعلم: اذن ماذا هناك؟ هل توجعك ساقاك و لا تستطيع طيهما مثلي؟ اجلس و مددهما. لا بأس.. انا اسمح لك بذلك.

شفيق: سيدي ما من الم و لا وجع في الكون كله. يمكن ان يمنعني من تلقي الدرس و بالهيئة التي تقضي طقوسه و تقاليده المقدسة.

المعلم: ما الامر اذن. قل تكلم و لا تجنني.

شفيق: سيدي. انا لا اجنن معلمي.. انا افديه بروحي.

المعلم: بل انت تجنني فعلا. اما لماذا فلا ادري. ربما لاني عنفت و قرعت.. خالتك العزيزة التي تحبها.

شفيق: ما فعلته مع خالتي. سيدي المعلم هو عين الصواب. تصرف تربوي سليم و لا غبار عليه. و لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه بل و لسرت ابعد منك و لم اكن لاغفر لها.. ابدا.

المعلم: (بدهشة) و.. وتزعم انك لا تجنني.. يا هذا..

شفيق: انا يا سيدي المعلم. احاول ان الفت نظرك الى..

المعلم: تلفت نظري؟ (ينهض و يصفعه بقوة) هل نسيت من انا و من انت يا وقح.

شفيق: (يترنح و لا يسقط) انت سيدي المعلم. و انا خادمك التلميذ. (يقف بذله)

المعلم: و مع هذا تطلق لسانك علي بكلمات اكبر من حجمك الكبير هذا (يخضه).

شفيق: انا استند الى واجبي كتلميذ مخلص و ليس الى حجمي..

المعلم: و هل يقتضي واجبك هذا.. ان تهين سيدك؟

شفيق: استغفر الله. فقط اريد ان انبه سيدي الى بديهة. لا يستقيم الدرس بدونها.

المعلم: بديهية؟ بديهية و لا اعرفها؟ هل يعقل.. تعرفها انت و انا لا اعرفها.. ما هي. قلها.. قلها..

شفيق: (مستهولا) الا.. الا تعرفها حقا؟ اتذجهلها.. فعلا؟ لا. لا. انت تمزح..

المعلم: (يضبط اعصابه بصعوبة) اجل. لا اعرفها. اجل اتجهلها.. و انا.. انا جاهل.. انا غبي.. قلها.. قلها بسرعة. و لا تتلذذ بتعذيبي.

شفيق: على العكس. يا سيدي. انا يصيبني السرطان. اذا اصاب معلمي الزكام.

المعلم: بل انت تضطهدني. انت تذبحني. انت تخنقني. انت.. (يهجم عليه, يقبض على خناقه) قلها. قلها قبلما اكتم انفاسك و ارسل روحك الى الجحيم. تذكر اني مازلت المعلم و دمك مباح لي. تكلم.. تكلم. انا امرك.

شفيق: (بصوت مخنوق) الرياضة.. سيدي.. الرياضة الرياضة.

المعلم: اه.. علي لعنات الارض و السماء (يضرب راسه يحتضن شفيق يقبله) دعني اقبلك.. دعني احب راسك (يقدم له رأسه) و الان ستنسى لي هذه الهفوة الصغيرة.

شفيق: (و هو يلهث) انها. انها ليست هفوة يا سيدي ناهيك عن كونها صغيرة.

المعلم: ا.. ا.. صحيح انها غلطة شنيعة. غلطة بشعة. غلطة فظيعة. اعرف.

شفيق: لا. لا. سيدي المعلم لا.

المعلم: انه اثم كبير (شفيق يهز راسه نافيا) اذن فهو ذنب. ذنب كبير.

شفيق: لا. لا. ينبغي ان نكون دقيقين في اطلاق التسميات و كل ما ذكرت حتى الان بعيد.. بعيد جدا عن الاسم الحقيقي.

المعلم: (مرعوبا بصوت مرتجف) ا.. ا.. اعتبرها جـ.. ج.. جريمة.

شفيق: بدأت تقترب من الاسم الحقيقي. لكنك لم تبلغه بعد.

المعلم: و ماذا بعد الجريمة. هل ثمة فعلة اكبر من الجريمة؟

شفيق: هناك سيدي المعلم (صمت متوتر) الخيانة!

المعلم: الخيانة (يكاد ينهار) مرة واحدة؟

شفيق: (بثبات) سيدي المعلم بالضبط الخيانة..

شفيقة: (خارجة تاخذ اناء كبيرا و ابريق ماء و قطعة صابون و منشفة و تعود)

المعلم: (يرتعد) و يحي!! هل المسجل يعمل؟ اعني اعني يسجل؟

شفيق: في منتهى الدقة و النظافة يا سيدي

المعلم. هل اعيد الشريط لنتأكد؟

المعلم: اه وامصيبتاه!! (بسرعة) شفيق تخلص منه. تخلص من المسجل.

شفيق: من.. من المسجل؟ ما الموجب؟ (يحتضنه بحرص شديد)

المعلم: (متراجعا) لا لا موجب يبدو ان لساني قد فلت مني. خرج عن طوعي

شفيق: المسجل يا سيدي المعلم، هو الشاهد الوحيد علينا حين نختلي للدرس، شاهد لا يدحض و لا يناقش. و لهذا ينبغي ان لا يفارقنا قط

المعلم: و لكنك لن تدع احدا يستمع الى الشريط؟

شفيق: بالتاكيد اذا لم يسالني احد فلن ابادر انه خاص و شخصي جدا

المعلم: و اذا سألك احد؟

شفيق: ذلك يتوقف على من يكون ذلك الاحد. ان كان تلميذا مثلي فلست ملزما

المعلم: و.. و اذا كان معلما مثلي؟

شفيق: ما دمت تحت امرتك فلا سلطان لاي معلم اخر علي. انا تابع لك

المعلم: صحيح كل ما تقوله صحيح (بحقد دفين و حسد خفي) الا يخطىء هذا الصبي ابدا؟ ام انا الذي رحت اتخبط و لا اعي ما اقول و كلما تكلمت فضحت نفسي و كشفت المزيد من عوراتي المستورة (له) ترى كيف يكون موقفك امام السيد الكبير؟

شفيق: معالي المفتش؟ ايجابيا بكل تاكيد. اخبره بكل ما جرى و اسلمه الشريط ايضا.

المعلم: و لكن ذلك كفيل بقلب الدنيا راسا على عقب. و اعادتي الى الصفر الذي كنت

شفيق: سيدي المعلم لم كل هذا الخوف و القلق؟ قد لا يسأل معاليه عن الشريط

المعلم: بل يسأل. انا اعرفه جيدا (ثم) شفيق اغفرها لي ارجوك اغفرها لي هذه المرة حسب واعدك ان لا اعود اليها ما حييت (يقبل يديه)

شفيق: (مترفعا) معاليه هو الذي يغفر اذا شاء

المعلم: معاليه لا يعرف شيئا. نعطيه شريطا.. اخر. معي مجموعة من الاشرطة و كلها في صالحي (يفتح الحقيبة يقدم له مجموعة من اشرطة الكاسيت) اختر منها ما تشاء

شفيق: (يمد يده بتردد يتوقف) لا. سيدي لن اخون ضميري

المعلم: ضميرك؟

شفيق: ضميري الذي صاغته تلك الجهود الكبيرة التي بذلها سادتي المعلمون الذين تناوبوا على تربيتي و تعليمي.. طيلة السنوات السابقة.

المعلم: و لكن ما تمارسه شيء فظ.. فعل قاس.. عمل متوحش.

شفيق: (يغمض عينه. و يردد بشكل الي) في ممارستنا لا فعالنا التي نراها صحيحة ينبغي ان لا نحفل بالصفات التي تتصف بها و لا بمدى الضرر الذي تلحقه بالاخرين (له) ذلك هو القانون الذي زرعه في اعماقي كل من تولى تدريسي

المعلم: و النتيجة يا شفيق. يا ابني النتيجة؟ اما من سبيل؟ اما من وسيلة؟ (يهز رأسه موكدا) و اذا قلت لك باني سوف امنحك موقعاً افضل مما..

شفيق: (يقاطعه) المباديء فوق المساومات سيدي المعلم. ذلك بعض ما تعلمته منكم..

المعلم: (بحدة) و من ذكر المساومة او المتاجرة بالمباديء و ما شابه, كل ما هنالك اني افكر و منذ زمن بتوسيع نطاق عملك بحيث يشمل مراقبة الصف..

شفيق: كثيرا ما العب هذا الدور في غياب سادتي المعلمين. و احيانا حتى في حضورهم. اذ ينال منهم التعب او ينشغلون بتناول الطعام او الاستسلام الى النوم

المعلم: من حقي اسناد المهمة الى تلميذ اخر..

شفيق: ليس من حقك. سيدي المعلم. فانا و باعتراف الجميع اكافأ الجميع.

المعلم: الكفاءة تقديرية. حالة متغيرة.. ليست ثابتة و لا ابدية.

شفيق: تبقى التقارير الايجابية التي..

المعلم: هي الاخرى ليست خالدة. ما اسهل الغاءها او تغييرها بجرة قلم. اضافة حرف هنا و شطب حرف هناك. يحب دروسه و يطيع معلميه مثلا. يصبح لا يحب و لا يطيع و لا يخالف و لا يعارض القوانين التربوية يصبح يخالف و يعارض و هكذا دواليك حتى يتغير تاريخك كله..

شفيق: اذ ذاك لا املك الا ان اكشف الحقيقة. الحقيقة كلها و عندي الدليل الذي لا يدحض و لا

يناقش (يلوح بالشريط. المعلم يتعذب) سيدي اننا نهدر الوقت و الجهد جزافا لنشرع بالرياضة الروحانية فهي ستفضي بنا لا شعوريا الى الدرس الذي تذوب فيه ذواتنا و تتبخر هومونا الشخصية عبره..

المعلم: لا استطيع. لقد تعكر مزاجي بل اضطربت روحي و انهارت معنوياتي.

شفيق: ما الذي اسمع يا سيدي المعلم؟ مزاج؟ معنويات؟ انهيارات.. لا.. لا انا اربأ بك ان تصدر منك كلمات من هذا النوع الغريب.

المعلم: قل عني ما تشاء. تخيلني بالصورة التي تريد. فان شيئا في داخلي قد تهشم. فارحمني يا سيدي اشفق علي يا شفيق يا ولدي و لن انسى لك هذا الجميل و هذا الفضل ما حييت و اجازيك باضعاف الاضعاف.

شفيق: سيدي ارجوك لا تزد الطين بلة. يجب ان تخرج من هذه الاوحال التي تتخبط فيها. و تتخلص من مشاعر الضعف التي تنخر في كيانك

المعلم: كيف يا شفيق؟ كيف ساعدني.. اعني اه علمني علمني..

شفيق: ثمة طريقة واحدة فقط (يتعلق كل كيان المعلم بشفتيه. بلهفة و ترقب) و هي.. الاقتحام الفوري للتجربة. و الاحتراق الاني في نار الرياضة الروحانية. ثم الولوج الى الدرس. و بعدها ستجد نفسك نظيفا. خاليا من الشوائب مثل الفولاذ. صافيا من الادران مثل الطلقة. نفاذا كالسهم. قاطعا كالشفرة (بحماس) هيا, سيدي المعلم, هيا. لا تضيع ثانية واحدة و الا ندمت العمر كله (يستعدان. يقف احدهما في مواجهة الاخر لثوان يطبق عليهما صمت تام. لا يتنفسان و لا يحركان ساكنا.. ثم. اذ يحرك احدهما حاجبيه او شفتيه او رأسه يفعل الاخر مثله و رويدا رويدا.. تتغير حركاتهما و تتخذ افعالهما طابع.. العنف المتزايد. كل ضد نفسه اولا. ثم ضد الاخر. ضربات.. صفعات. لكمات. ركلات. يترنحان يتوازنان بصعوبة. يتهالكان لا يقويان على الكلام).

المعلم: شفيق, اظنني شفيت من كل امراضي لو.. لو.. كأ.. س.. عصير.. (ينهض بصعوبة) و.. و العصا.. فير.. لا.. لا.. تنس.. العصا.. فير.

شفيق: أ.. ا.. مرك.. سيدي.. امر.. ك. (يخرج مترنحا. يعود بالمطلوب. يأكلان و يشربان, بنهم) لقد اجتزنا الخطوة الاولى بنجاح..

المعلم: و أي نجاح.. و كل ذلك بفضلك..

شفيق: عفوا استاذي الجليل.. ما انا الا تلميذ صغير.. من تلامذتك..

شفيقة: (خارجة باناء الماء و شدة ملابس, تخاطب الجد) ساتيك بملابسك النظيفة. حالا. (تلقي بها في المطبخ. و تسرع على رؤوس اصابعها الى الطابق العلوي.. بحذر)

المعلم: (يغص باللقمة التي في حلقه. ينتصب واقفا) ماهذا؟ اه.. ما هذا؟

شفيق: (في مثل حاله) ماذا. سيدي المعلم.. ماذا هناك؟

المعلم: لمحت شبحا يتلصص علينا و.. و.. مرق الى الطابق الثاني. اثمة ثقوب؟ فتحات؟ في الطابق الثاني؟ اقصد اقصد.. في السقف (يتفحصه).

شفيق: (يتفحص مثله) لا احد في البيت. عدا العجوز.. و خالتي. و هي لا تقترف فعلة شنعاء كهذه.. و الباب الخارجي موصد و ما من احد دخل.. او.. او

المعلم: اذن.. فهو العجوز!

شفيق: العجوز مقعد. مشلول. اصم. اخرس. في غيبوبة دائمة.

المعلم: و ما ادراك ان مرضه بكل تشعباته ليس الا ستاراً لخداعنا؟

شفيق: (مستهولا) هل يمكن (ثم بخوف) تلك حقيقة.. غابت عني.

المعلم: اذن؟ ما رأيك (بسرعة) انا ارى ضرورة التخلص منه و باسرع وقت. قبل وصول معالي المفتش (لا يحير جوابا) ها؟.. لم لا.. تبدي.. رايك؟..

شفيق: و هل بقي لي رأي..؟ لقد طعنني جدي من الخلف.. سيدي. الرأي رأيك و الامر امرك.

المعلم: (يفتح الحقيبة و يرسل اشارات خاصة. و يكتب) و الان الى الدرس (يغلق الحقيبة) هيا.. ردد معي.. او.. او.. اسمعني انت اولا الدرس. هيا.. هيا.. ماذا بك..

شفيق: (بانكسار) الـ.. بحثت.. القـ.. القـ (ثم) لا اقوى يا سيدي. لا استطيع.. اشعر ان معنوياتي قد انهارت.. و ذاكرتي تفتتت.. و.. و..

المعلم: لا الوهك. فليس هينا على المرء ان يكتشف انه يأوى في داره خائنا. و مع هذا حاول (شفيق منهارا تماما. يعجز) انصحك بالرياضة الروحانية.. فانها تطهرك ولو مؤقتا لحين ما تنهي امتحانك.. و تمنحك القوة.. اه.. ها هو نزل ثانية (شفيقة تنزل حاملة ملابس نظيفة.. تدلف غرفة الجد) اه.. انها خالتك. خالتك يا شفيق انها متواطئة معه.. و خائنة مثله.. (ينظر من فتحة الستارة).

شفيق: خالتي؟ حتى خالتي. انا.. انا.. لا. لا. اه. لا.. لا..

المعلم: بالامس امك و اليوم جدك و خالتك.. حتى خالتك التي تحبها و التي لم يعد لك عداها احد.. اية اسرة موبوءة بداء التلصص و..

شفيق: سيدي انا بريء منهم جميعا. سيدي انا ابغضهم جميعا. العنهم جميعا.

المعلم: (يكتب و يرسل اشاراته) الارض الخبيثة لا تنبت غير النبتة الخبيثة..

شفيق: اه.. حتى انا.. ايمكن انه يبلغ بك الشك.. في حتى انا؟ اه. لا. لا.. الموت ارحم. ارحم لي.. (يلطم وجهه)

المعلم: لا تصرخ لا تولول. تعال وقع شهادتك ضدهما و ضد نفسك.

شفيق: حاضر سيدي المعلم (يوقع يقف بذله شكرا. سيدي.. المعلم.

المعلم: شكرا؟ تقول شكرا؟ اتعلم ان هذه الورقة التي وقعتها تقضي على مستقبلك.

شفيق: اعلم. سيدي.. اعلم.. و انا استحق ذلك.

المعلم: (على الرغم منه) اه.. يا شفيق. يا رائع. انت تلميذ نادر المثال. و لكم يحز في نفسي ان افرط بك. و لكن الواجب واجب. و لا تلم غير نفسك.

شفيق: انه قدري. قدري الذي انبتني في عائلة من الوحل. (بصوت باك) الحكم لك.

المعلم: بل له. لمعاليه. انا اضع امامه الحقائق و الادلة. و هو من يصدر الحكم. (بحسرة) و اليوم موعد زيارته و انا اعرف كم هو شديد و صارم. و لا يتساهل و لا يتسامح. اه. اه. سيشهد اليوم خاتمة انبغ تلميذ التقيته.. و خاتمتي ايضا.

شفيق: اما من طريقة.. اما من وسيلة؟ (المعلم يهز رأسه نفيا) لابد ان ثمة طريقة. ثمة وسيلة.. او.. او لابد من.. ايجاد طريقة.. خلق وسيلة (يفكر. ثم فجاة) سيدي المعلم! سيدي المعلم..

المعلم: لا يا شفيق. لا. لا تحاول التأثير علي. فانا الاخر لست اقل صرامة و تمسكا بالحق من معاليه (شفيق ينخذل) و لكن.. لا بأس.. لا بأس.. قل.. تكلم..

شفيق: برقت في ذهني فكرة. يمكن ان تنقذنا كلينا مما اوقعنا فيه انفسنا.. او.. او.. اوقعنا فيه القدر (يتعلق بشفتيه. متلهفا) لقد وجدت, بعدما امعنت الفكر و اشغلت العقل. ان التضحية بمعلم عظيم القدر غزير العلم, مثلك.. خسارة كبرى, لا تعوض..

المعلم: كأني اشم رائحة مساومة.. و.

شفيق: (مستعيدا نبرات المعلم) من ذكر المساومة او المتاجرة.. بالمبادئ.. خذ (يقدم له الشريط. المعلم يصعق. يهم بخطفه شفيق يماطله) يا ترى.. هل ثمة ضرورة للاحتفاظ بالأوراق التي..

المعلم: لا. لا بالتأكيد (يعطيه الاوراق و يخطف الشريط يعطيه شريطا اخر) خذ.. خذ هذا الشريط.. انه سليم لا غبار عليه. اه.. اه لا اكاد اصدق ان الله قد رأف بحالنا و كتب لنا حياة جديدة (يتبادلان القبل و التهاني. من الحقيبة تصدر اصوات غريبة) هش.. هش.. (يهرع اليها. يضطرب كثيرا) اه.. اه.. اوه.. لا..

شفيق: ماذا هناك سيدي المعلم؟

المعلم: التلاميذ يا شفيق.. مجاميع التلاميذ. تاخرت عليهم و هم غاضبون. هائجون (يلطم وجهه) اه.. اه.. ماذا افعل.. انا منهك.. لا اقوى على جر رجلي..

شفيق: امرهم ياتوا هنا.. انا احمل عنك العبء

المعلم: انت؟ انهم بالعشرات.. بالمئات..

شفيق: ليكونوا بالالاف. ارجوك سيدي ارجوك..

المعلم: و معاليه؟ اتراه يرضى.. ان..

شفيق: بل يمتلىء فخرا و اعتزازا. بك.. انت اولا. فقد علمت و احسنت التعليم. و ربيت و اجدت التربية. و هيأت من تلامذتك الصغار. تلميذا لهذه المهمة الكبيرة.. هيا.. هيا.. يا سيدي..

المعلم: (في غاية الارتباك و الحيرة).. يبدو.. كأنه الحل الوحيد. (مندفعا) لم لا..؟.. (يرسل اشاراته و يتكلم بلغة غريبة) انهم قادمون يا شفيق.. لا تخذلني. لا تخيب املي فيك.. هيا.. هيا.. استعد.

شفيق: (في حالة غريبة) اه.. اه (يتلوى)

المعلم: ماذا دهاك..؟ انت ترتعد.

شفيق: بل ارقص فرحا. فاضت بي النشوة و اخشى ان تقضي علي قبلما التقي بهم

المعلم: تماسك يا شفيق. تماسك و توازن. انه يومك المنشود عدل هندامك (يعدل هندامه) هكذا.. هكذا.. جميل.. رائع.. هيا.. هيا.. ردد الدرس..

شفيق: (يساعده المعلم حتى يطغي عليه) بحثت القطة عن اللحم. لم تعثر القطة على اللحم. هجمت القطة على الفأر.. اويلاخ على الفار.. (يكررانه مرات عديدة. مصحوبة بطقوس اللطم و الضرب.. حتى يغلبهما الوجد.. و تصبح حركاتهما اشبه بحركات الدراويش في حلقات الذكر. اصوات من الخارج. ضاجة, تردد الدرس نفسه. تقترب) وصلوا. تلامذتي الصغار الاحبة وصلوا.. (يتراجع خائفا الى الوراء)

المعلم: انت تتراجع يا شفيق. تقدم. افتح لهم الباب. كن جديرا بالمهمة الملقاة على عاتقك.. برر الثقة التي منحتك اياها.. هيا.. (يدفعه الى الباب)

شفيق: (يفتح الباب, تتدافع و تتدفق الجموع. باعداد غفيرة, ذكور و اناث. مرتدين سراويل قصيرة مخططة و قمصانا و قلنسوات من القماش نفسه. شفيق يصعق للاعداد الهائلة. يرتبك.. يتلعثم) انا.. انا شفيق.. شفيق معلمكم الجديد (لا احد يحفل به. يتوجهون نحو المعلم, الذي يستقبلهم بالترحاب و الابتسام و هم.. يقدمون له فروض الطاعة. دون ان يتوقفوا عن ترديد الدرس. يدفع الزخم البشري الذي لا ينقطع, شفيق الى الوراء)

صوت: (من الخارج. بعيد) معالي المفتش.. قادم

المعلم: اه.. معاليه قادم.. رددوا يا تلاميذ.. رددوا.. بقوة. بحثت القطة عن اللحم.. (تزداد الاصوات صخبا و عنفا.. ترتج.. اركان البيت. تخرج شفيقة فزعة)

شفيقة: ما هذا؟ زلزال؟ هل حدث زلزال (تصعقها المفاجأة. ترتد الى الداخل) اه يا الهي. ما هذه المخلوقات الغريبة.

صوت: معاليه وصل. افسحوا الطريق. لا تلمسوه. ابتعدوا عن طريقه.

المفتش: (وهو رجل قميء مبتور الذراعين و الساقين. فوق عربة معوقين. يدفعها بعضهم. يخف المعلم لاستقباله. صوته اشبه بالزعيق) ما شاء الله.. ما شاء الله اكل هؤلاء.. تلامذتك. يا سيد رؤوف؟

المعلم: كلهم يا سيدي.. كلهم. و ثمة اخرون عديدون.. مقبلون.. يا استاذ حنون

شفيق: (صوته من بين الجموع) انهم تلاميذي انا.. سيدي المفتش.. انهم..

شفيقة: (تدفع السرير. خارج الغرفة تشق طريقها بصعوبة بالغة. من بين الجموع التي ما تزال تتدفق على البيت. تمتليء الصالة و الغرفة. و المطبخ. و الطابق الثاني.. يضيق بهم المكان.. يتساقط بعضهم على بعض) دعوني اخرج.. اه.. (تدفع السرير بقوة.. تصطدم بهم. توقعهم ارضا.. تنجح في الخروج) نجونا.. هل انت بخير. يا عمي؟

المفتش: ما شاء الله.. ما شاء الله.. اللهم زد و بارك.. اللهم زد و بارك...

شفيقة: (صوتها من الخارج) هيا.. عمي.. هيا (تغلق الباب من الخارج)

المعلم: رددوا.. رددوا.. بكل قوتكم.. باعلى اصواتكم. بحثت القطة عن اللحم..

شفيق: اه.. دعوني ار معاليه.. اخبره بما جرى.. اه.. اه (يتلاشى صوته)

المفتش: (يتنفس بصعوبة) هواء.. هواء.. افتحوا الباب.. افتحوا..

احدهم: (يحاول فتح الباب يعجز) الباب مغلق من الخارج..

المعلم: انها هي. الخائنة.. خالته.. اكسروا الباب.. الحقوا.. بهما.. هي و العجوز.. الباب الحقوا بهما.. هي و العجوز.. جده.. جد شفيق و خالته

شفيق: لا. انا لا. انا منهما بريء.. انه.. هو.. الذي..

المعلم: بل.. انت. انت من هيأت لنا هذا القبر الجماعي اقضوا عليه. لا تدعوه يتكلم.. لا تدعوه يتنفس (يهجمون على شفيق ينهالون عليه ضربا)

المفتش: هـ.. هـ.. هو.. ا.. ء هواء. انا اختنق. افعلوا.. شيئا. من اجلي. انا.. انا.. اختنق.

المعلم: معاليه.. يختنق.. افعلوا شيئا (يحمله من فوق العربة. يضعه فوق الثلاجة..) سيدي أأنت بخير.. هل.. آ.

المفتش: (يختض من مكانه) آه.. آه.. انا.. انا.. اموت.. يا اولاد.. انا.. (يتحرك حركة عنيفة. يسقط على الارض..) اه.. آ.. آ.. (ينقطع صوته تماما)

المعلم: (يصرخ) اه.. مات. معالي المفتش مات.. اكسروا الباب هدموا الحيطان. قبلما نموت.. كلنا.. هنا.. اه.. قبلما.. نمو..ت.

(يتدافعون نحو الباب. كل يبغي انقاذ نفسه. فيتكومون على الباب.. بعضهم يسحق بعضا.. بعضهم يتساقط على البعض.. يلهثون.. متقطعي الانفاس. تغدو اصواتهم مثل مواء قطط.. توشك ان.. تموت. اصوات متفرقة من هنا.. و هناك.. ما تزال تردد بوهن وخور.. شديدين.. و بشكل متقطع..)

بحثت.. القطة.. عن اللحم..

لم تعثر القـ.. طة.. على الـ..

هجمـ..ت.. القـ..طه.. عا.. على..

فأ..ر, اويلاخ.. على.. الـ.. فـ.. أر.. او.. يلا.. خ..

ا.. و.. يلا.. خ.. على.. الـ.. فأ.. ر..

اويلاخ.. على..

(يظلم المسرح.. و المواء يستمر.. لفترة.. ثم يخمد..).

في العدد القادم:

المسرح الكردي في مدينة كركوك

موت سوشاب

علي كريم
ترجمة: نوزاد احمد

المكان: غرفة نوم في الطابق العلوي من مبنى على ضاحية المدينة, نافذة كبيرة في الجدار الخلفي تطل بعيداً على الخارج. سوشاب جالسة على الكرسي بشكل عكسي امام النافذة يظهرها بقعة ضوء خافت. الرجل متكيء بظهره على الباب الذي في يمين الغرفة. ثمة مذياع و الة كمان فوق المنضدة. كراس متراكمة فوق البعض. سريران موضوعان فوق البعض تغطيهما قطعة قماش و قطعة حبل غليظ.

الرجل: سوشاب.. سوشاب

المرأة: (لا تجيب)

الرجل: سوشاب.. سيدتي..

المرأة: هيا.. ماذا تريد ان تقول (في هذه الاثناء تضرب بيدها زجاج النافذة بقوة و تخرج جسدها من الزجاج المكسور مسرعة. ضوء قوي يدخل الغرفة. سوشاب تهاجم مجهولاً في الخارج كأفعى أسود و تبدأ بالصراخ)

المرأة: يا الهي.. ماذا ارى..

الرجل: ماذا ترين؟

المرأة: كومة من النجوم..

الرجل: ماذا بعد؟

المرأة: القمر.. لا لا.. ضوء قمر منكسر.

الرجل: و بعد؟

المرأة: قطعة غيم برتقالي اللون و اجساد مدمرة.

الرجل: اجساد من؟

المرأة: اجساد من هم يتبعون الرئيس المخلوع الهارب.

الرجل: و ماذا عن الرئيس؟

المرأة: يتقدمهم.. انه لا يشبههم.. قامته اطول من ذي قبل, و يهرول, ها هم يحدثونه و لكنه لا ينطق.. ها.. ها.. و قد شرع بالبكاء.. ارى دموعه تتساقط, يهرول تاركاً دموعه ليجمعها الاطفال الرضع.

الرجل: لا.. كيف.. الاطفال الهاربون.. الذين يتبعون الرئيس المخلوع.. الرئيس الهارب و.. ماذا عن زوجته؟

المرأة: ممتطية فوق ظهره.

الرجل: ماذا تفعل؟

المرأة: تستهزيء به و احياناً تهمس في اذنيه.. تسرد له ذكريات الايام الماضية.

الرجل: تهمس في اذنيه؟

المرأة: نعم.. لديه اذنان منتصبان.. عينان مقعرتان.. لونه يشبه لون رمال الصحراء تحت الشمس.. ذو قامة طويلة.. لا ادري هل بدأ يصغر ام انا اراه هكذا..؟

الرجل: (يحمل الة الكمان) يكاد يصغر.. هل صغر فعلاً؟

المرأة: لم اعد اراه.. اختفى من بين الظلام و حول لون الغيمة البرتقالية الى لون اسود.. لا ارى شيئاً.. لا ارى.. (تصرخ) لا ارى شيئاً..

الرجل: الا ترين أي شيء؟

المرأة: لا النجوم و لا ضوء القمر المكسور (تصرخ ثانية) انها سراب.. سراب..

الرجل: سوشاب.. سوشاب

المرأة: (لا تجيب)

الرجل: سوشاب.. سيدتي

المرأة: ماذا تريد؟

الرجل: متى تعودين الي.. عودي لأغني لك اغاني الايام الخلوية..

المرأة: (اخرجت خاصرتها من زجاج النافذة المكسور, تقف على الكرسي و تربط رأس الحبل بسقف الغرفة و تلف رأسه الاخر حول عنقها ساعية ابعاد الكرسي برجليها دون جدوى)

الرجل: (يعزف الة الكمان) كان اول مرة..

المرأة: (تحاول اسقاط الكرسي) في الكافتيريا..

الرجل: كان اول مرة..

المرأة: على ضفاف النهر..

الرجل: في الحديقة.. تعارفنا (يضحك)

المرأة: اصبحنا صديقين (تبكي)

الرجل: (بلهفة) اصبحنا صديقين.. حاولنا ان نحب بعضنا البعض و ان نكره البعض في ان واحد.. لم يأخذنا زمن السعادة معه.. كنا محظوظين غير سعيدين. تارة نضحك و نيئس تارة اخرى.

المرأة: حاولت ان احبك (تصمت)

الرجل: (يحاول اصدار لحن من الة الكمان)

المرأة: كنا كحمامتين نازحتين من غير عش.. لم نعثر على اعشاش قلبينا..

الرجل: (يصدر لحناً نشازاً) عندما جلسنا..

المرأة: قلت له اسكنك في عيني و اشدك الى قلبي

الرجل: (مازال يصدر لحناً نشازاً) عندما جلسنا..

المرأة: قلت: بعد امطار الخريف و تحت ضوء القمر ارقص لك..

الرجل: لقد تركنا الحديقة..

المرأة: قلت على امل اللقاء.

الرجل: تركت قبلة طرية على شفتي (طوال هذا الحوار تحاول المرأة ابعاد الكرسي من تحت قدميها و لكن عبثاً و دون جدوى)

الرجل: (توقف عن العزف) اين وصلت حادثة الرئيس؟

المـرأة: (مازالـت تسـعى لابعـاد الكرسـي تحـت رجليها)

الرجـل: (يبـدأ بـالعزف و يصـدر لحنـاً يعـبر عـن العالم الخارجي)

المـرأة: (تصـرخ بشـدة لأنهـا لا تقـدر ان تسـقط الكرسي)

الرجل: ترى ماذا حصل للرئيس المخلوع؟

المرأة: انه مخجل و نادم.

الرجل: هل ترينه؟

المرأة: كلا.

الرجل: كيف تقولين ذلك اذن؟

المرأة: فهو امام عيني.

الرجل: هل تغير شكله؟

المرأة: و لم لا تفتح المذياع؟

الرجل: (يتجه نحو المنضدة و يفـتح المـذياع, في هذه الاثناء كلاهما يتوقفان عن الحركة).

صوت المذياع: الـرئيس الهارب و الـذين يتبعونـه مسـتمرون علـى الهـروب. الـرئيس يبكـي و زوجتـه تستهزيء به, يتعثر الـرئيس بالاحجار بـين حـين و اخـر.. و تؤكـد الانبـاء ان الـرئيس مصـاب بالاسـهال منذ فترة و هو واقف في الوقت الحاضـر امـام جـدول بحيرة يريـد عبـور الجـدول يخشـى السـقوط فيـه, في الحقيقة كان يريد اسعادهم.. لكنهم اوقعوه في الفخ.

الرجل: (يغلق المذياع) هذا و انتظروا مزيداً مـن الاخبار بعد قليل (موسيقى)

المرأة: شيء مخجل..

الرجل: شيء مخجل..

المرأة: ضعوه في الوحل..

الرجل: ضعوه في الوحل..

المرأة: من الافضل ان يسبح في المياه الاسنة.

الرجل: من الافضل ان يسبح في المياه الاسنة.

المرأة: (تحاول اسقاط الكرسي دون جدوى)

الرجل: (يبدأ بالعزف)

المـرأة: (تبـدأ بالصـراخ و مـع صـرخاتها ترفـع رجليهـا الى الاعلـى بقـوة, و تنزلهـا جاهـدة ابعـاد او اسقاط الكرسي و لكن دون جدوى)

الرجل: (يتوقف عن العزف) لم تنجح هذه المـرة ايضاً..

المرأة: و لكن لدي اوقات كثيرة..

الرجل: هل تحتاجين لمساعدتي؟

المـرأة: اطلاقـاً.. هـذه مسـألة تخصـني انـا.. علـي انجازها.

الرجل: منذ مدة طويلة و انت تحاولين انجازها

المرأة: لا اندم.. و لو ليست لدي قدرة كافية..

الرجل: كفى.. اتركيها..

المرأة: (تنظر اليه بحقد.. تمسك الحبل بشـدة و ترفع رجليها مرة اخرى لابعاد الكرسي.. اما الرجل فيرفـع الـة الكمـان, و بـذلك تقـع رجـلا المـرأة علـى الكمـان و تكسـرها, و بـدوره يسـقط الرجـل علـى الارض قريبـاً مـن النافـذة, و حينمـا يـنهض يطـل برأسه على الخارج من خلال الزجاج المكسور الـذي كسرته زوجته)

المرأة: ما هي اخبار الخارج؟

الرجل: انا لا ارى شيئاً.

المرأة: كيف؟

الرجل: قلت لك لا ارى شيئاً.

المرأة: انظر نحو اليسار, قرب الساقية, عند سفح الجبل.

الرجل: نعم نعم.. بدأت ارى شيئاً ما.. انني ارى ازدحاماً عجيباً.

المرأة: حاول ان تجد الرئيس بينهم.

الرجل: ارى نسوة تضربن على صدورهن.

المرأة: من جراء ابنائهن المقتولة.

الرجل: الاطفال الرضع سقطوا.. و وقعت افواههم في الوحل.

المرأة: و ماذا عن امهاتهم؟

الرجل: تعروا انفسهن و يواسين لحظات آلام الرئيس.

المرأة: انهن عاريات؟

الرجل: كما خلقهن الله.

المرأة: و ماذا عن الرئيس؟

الرجل: لقد سقط على الارض و اصبحت زوجته تحته.

المرأة: الا يبدو انه يصدر القرار؟

الرجل: كلا..

المرأة: (تحاول ابعاد الكرسي)

الرجل: (يصرخ) لا تتعجلي..

المرأة: لماذا؟

الرجل: (يخرج جسمه من الزجاج المكسور و يتوجه نحو زوجته, يمسك رجليها بقوة, و هي تهز رجليها الى ان تجعل زوجها يسقط) اوقع عدداً كبيراً من الناس في الهاوية.

المرأة: وخدعتك انا..

الرجل: لكنني اسامحك.

المرأة: انا لا اسامح نفسي.

الرجل: انت مجنونة.

المرأة: (تصرخ بشدة)

الرجل: (من شدة اله يسقط على الارض ماسكاً رأسه)

المرأة: (و هي تبكي) عابثة هذه المحاولة (تطلق اهة حارة)

الرجل: رأسي المصعوق ثكنة احلام شيطانية, و حاضري بيدر حزن ابدي, ينتهي كل شيء لحظة موت سوشاب.. أي قدر احمق جعلنا نتوحد و اثار غرائزنا.. هنا بدأ اول خطوات اثمنا و بدأت التفاحات تتساقط.. لقد تعلمنا الاثم و لا يجدي الندم.. لن ادع الكهولة تهاجمني بل انهيها في لحظة هيجاني.. (صمت) (يصرخ فجأة).. ان لم اكن احملك في عيني لكنت مهاجراً اجول في المدن بل اجول كأمرأة غانية في ازقة الشوارع النائية.. جسد بارد يملأ احشائي بالشهوة كل ليلة.. ابصق على نفسي.. تلاحقني لعناتك.. علي ان اختار الموت بين البلوغ و الكهولة.. (في هذه الاثناء يحاول الوقوف على قدميه و بصعوبة يقف و يمسك رجلي زوجته.. و هي تحرك رجليها و تطلقها بقوة نحو الفضاء و عند رجوعها تصطدم برأس زوجه, اذاك يصطدم الزوج بالكرسي و يبعده من تحت قدميها بسرعة بالغة.. في نهاية المشهد يبقى الرجل واقفاً فوق الكرسي, و تبقى زوجته معلقة..).

(تطفأ الانارة شيئاً فشيئاً)

*علي كريم, موت سوشاب – مسرحيات قصيرة, وزارة الثقافة لحكومة اقليم كردستان – السليمانية 1999.

الدكتور إسماعيل قمندار

و اللهجات الكردية الجنوبية

أجرى الحوار د. جواد بشارة – باريس

صدر مؤخراً مؤلف ضخم عن اللهجات الكردية الجنوبية بما فيها الكردية الفيلية ، للكاتب و الباحث اللغوي د. إسماعيل قمندار المقيم في باريس منذ عام 1971.

وقد قامت دار النشر البلجيكية الشهيرة و المتخصصة " بيترس " بطبع الكتاب باللغة الفرنسية الذي يصل عدد صفحاته إلى أكثر من 940 صفحة ، بطباعة فاخرة وفي غاية المتانة و الأناقة.

وتمثل هذه الدراسة الرائدة ثمرة ربع قرن من الأبحاث العلمية و الميدانية الصرفة للمدن و المناطق الكردية الجنوبية . وتمتد هذه المناطق المترابطة و الموزعة بين إيران و العراق على طول 400 إلى 500 كم ، يقع القسم الأعظم منها في إيران بين منطقة كامياران (100 كم شمالي مدينة كرمنشاه) إلى مدينة عبادان الواقعة شمالي دزفول ، هذا فيما عدا محافظة بيجار الشمالية التي أدرج الكاتب غالبيتها ضمن هذه المجموعة اللهجية أيضاً . أما في القسم العراقي فتبتدئ من خانقين مروراً بمندلي و زرباطية و شيخ سعد و علي الغربي إلى مشارف البصرة على امتداد الشريط الحدودي المحاذي لإيران . ويمكن تقدير عدد نفوس متكلمي مجمل هذه اللهجات الكردية الجنوبية في العراق و إيران بين ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة أغلبهم من الشيعة الإمامية ، فضلاً عن أقلية باطنية من أصول شيعية تسمى بـ " أهل الحق ".

قام الكاتب بدراسة منتظمة للقواعد اللغوية و اللهجية لعشرات المدن و المناطق الكردية الجنوبية وفقاً لأساليب علمية و بصورة معمقة . وتكمن أهمية هذا البحث الواسع في كشفه المفصل للأنظمة الصوتية و الصرفية و النحوية لمجموعة لهجات كبيرة غير مدروسة مقارنة ببقية اللهجات الكردية

الأخرى كالكرمانجية و السورانية و الگورانيه : الهورامية و الزازائية . ويتضمن الكتاب أيضاً مقدمة طويلة يستعرض فيها الكاتب تفاصيل لغوية عن الأماكن المدروسة كافة مع خارطة لغوية أولاها ، إلى جانب فصل مهم عن " أخطاء المستشرقين و الشرقيين" ، أهمية كبيرة.

وينوي المؤلف ترجمة الكتاب إلى العربية في غضون السنتين القادمتين ليسد بذلك فراغاً كبيراً في الدراسات اللغوية الكردية . ولهذه المناسبة أجرينا مع المؤلف هذه المقابلة:

س : بداية أود أن تقدم تعريفاً أولياً للكتاب قبل الدخول في تفاصيله.

ج : يعتبر هذا العمل أحد أضخم الأعمال في ميدان الدراسات الكردية اللغوية ، ويتعلق تحديداً بدراسة اللهجات الكردية الجنوبية ، إذ توجد دراسات أخرى عن بقية اللهجات الكردية وبشكل أساسي الكرمانجية و السورانية ، لكن الأمر مختلف بالنسبة للهجات الكردية الجنوبية التي لم تدرس من قبل . وتحتل هذه اللهجات منطقة جغرافية – لغوية كبيرة جداً يصل طولها حوالي 500 كم يقع قسمها الأكبر بين كاميaران شمالاً إلى مدينة عبادان شمال مدينة دزفول ، فضلاً عن أكثرية محافظة بيجار الشمالية التي تقع في القسم الأوسط من كردستان . ويمكن القول إن الجانب العراقي لهذه المناطق يبدأ من شمال مدينة خانقين و أطرافها باتجاه الشيخ سعد و علي الغربي وعلي الشرقي، حيث توجد مجاميع كبيرة من الكرد الفيليين الذين تمتد مناطقهم إلى العمارة و حتى أطراف البصرة و دائماً على الشريط الحدودي الفاصل بين العراق وإيران . وقد تعرض الكثير من هذه المناطق إلى عملية تطهير عرقي أو تبديل عرقي من قبل النظام العراقي في أطراف خانقين و أجزاء كبيرة من مندلي و أجزاء أخرى من زرباطية وعلي الغربي والشيخ سعد، حيث تعرضت كلها لما سمي بسياسة التعريب ، حيث تم تهجير أكثرهم إلى إيران و ارغموا على ترك أراضيهم و الهجرة داخل العراق . هذا إلى جانب تعرض مناطق أخرى كردية غير جنوبية إلى هذه السياسة العنصرية مثل سنجار و كركوك . وقد حصل هذا الأمر عملياً منذ وصول حزب البعث العراقي " الحاكم " إلى السلطة ، أي منذ عام 1986 وفي فترات زمنية محددة زادت حدة هذه السياسة العنصرية (التعريب) وتسارع عمل السلطات في نقل و تهجير السكان الكرد من مناطق إقامتهم إلى مناطق نائية داخل العراق أو إلى إيران و إحلال سكان عرب مكانهم.

وذلك منذ معاهدة آذار سنة 1970 بالذات حيث تسارعت وتيرة عملية التعريب بشكل هائل في مناطق الموصل و أكثر منها في كركوك، حيث انها مناطق كردية بشكل أساسي مع وجود جزء تركماني مهم فيها لكن النظام في العراق جعل منها إحدى الإشكاليات العويصة وأصر على تعريبها بأي ثمن . وكذلك طبقت سياسة التعريب على قرى خانقين حيث أجبر القرويون الكرد على الرحيل وتوطين قرويين عرب في أماكنهم . إن مسألة

التعريب العنصرية التي تعرض لها ما يقارب المليون كردي وتركماني عراقي تشكل إحدى المآسي الكبرى التي طالت الشعب الكردي والتركمان في ظل نظام صدام حسين ، هذا مع اعتذاري عن هذا الاستطراد.

س : ما هي دوافع هذا البحث اللغوي وما الذي وضعته نصب عينيك لمدة ربع قرن في تحقيق هذا الإنجاز العلمي الهام ؟

ج : في الحقيقة كانت البداية عبارة عن بحث لنيل شهادة الماجستير ثم الدكتوراه بعد أن حصلت على شهادة البكالوريوس في الأدب الفرنسي بالأساس من جامعة نانت الفرنسية . وبعد أسابيع من التفكير توجهت إلى موضوع لغوي باعتباري كرديًا و أتكلم اللهجة الجنوبية _ الفيلية التي لم تدرس من قبل من الناحية الأكاديمية.

س : ما هي خصوصية هذه اللهجات الجنوبية ؟ وهل اللهجة الفيلية جزء منها ؟

ج : نعم هذه اللهجة هي جزء من المجموعة اللهجة التي بحثتها والتي لم تدرس من قبل ولا بأي شكل من الأشكال . من هنا بدأ بحثي و فضولي في كشف القواعد اللغوية لهذه اللهجات الجنوبية . كنت أستخدم هذه اللهجة بصورة شفوية من دون أية معرفة لغوية نظرية أو قواعدية أو بنيانية بالرغم من تمكني منها كما هو حال أي شخص يتحدث لهجته بصورة تلقائية و صحيحة و لكن من دون أن يعرف قواعدها من الناحية النظرية . من هنا بدأت شيئاً فشيئاً أحلل هذه اللهجة على الورق و أفرزها و أكشفها بالتفصيل و بدقة متناهية من جميع جوانبها مع الصعوبات المرتبطة بمثل هذا العمل كافة وما يترتب عليه من أخطاء تقع أثناء عقلنة الكلام العفوي.

و بعد حصولي على شهادة الماجستير وسعت دائرة هذه الأبحاث فحصلت على دكتوراة دولة عام 1988 من جامعة باريس 7 ، ولم أتوقف عن توسيع نطاق أبحاثي التي ضاعفتها عبر إضافتي لأكثر من عشرين مدينة ومنطقة أخرى على أبحاثي السابقة مع فصول كثيرة جديدة.

س : ما هو عدد المتحدثين بهذه اللهجات الجنوبية ؟

ج : عددهم كبير و يتراوح بين 3 إلى 4 ملايين نسمة في العراق و إيران ويتمركز القسم الأكبر منهم في إيران لكن هذه الأرقام تظل تقريبية.

س : لكن هذا العدد لا يستهان به وهم جزء كبير ومهم من الشعب الكردي

ج : بالطبع إنه جزء مهم من الشعب الكردي و يمثل ما بين 10 و15 بالمئة من المجموع الكلي للشعب الكردي وهذه المنطقة معقدة من الناحية اللهجية ومتشابكة و لا يعرفها الآخرون جيدا بما في ذلك الكرد الذين يتحدثون لهجات كردية أخرى.

س :كيف يمكن توضيح الفوارق اللهجية الموجودة في اللغة الكردية و ما هو حجم هذه الفوارق اللهجية ؟

ج :توجد بعض الفوارق اللهجية بين مجموعة لهجات لهجية كردية حسب المناطق يمكن مقارنة تلك الفوارق بما هو موجود في اللغة العربية .

فالفوارق كبيرة بين اللهجة العراقية والمغربية مثلاً لكنها أقل وإن كانت مهمة بالطبع بين اللهجة العراقية والمصرية ، نفس الشيء بالنسبة للهجات الكردية ، فالفوارق أكبر بين اللهجات الكردية الجنوبية و اللهجة الكرمانجية الشمالية ، وبينما هي أقل مع اللهجة السورانية الوسطى.

س : هل من شأن هذا البحث أن يساعد الكرد المتكلمين بهذه اللهجات الجنوبية و ان هذه اللهجات قابلة للتعليم والكتابة كأية لغة لها قواعدها ونحوها ومعاييرها ، ولا سيما إن هذا الكتاب يمكن اعتباره رائداً ومرجعاً لكل الأبحاث اللغوية اللاحقة؟

ج : ينبغي أن أوضح أولاً ان هذا الكتاب ليس كتاباً مدرسياً و ليس منهاجاً تعليمياً ، فالكتاب المدرسي قائم على تدريس ما يعتبر صحيحاً ومقنناً ، أما كتابي فهو بحث لغوي دقيق يعالج مختلف الجوانب القواعدية لهذه المجموعة اللهجية دون أحكام عليها ، ويحتاج إلى مستوى معين لاستيعابه لأنه على درجة عالية من التخصص وغير قابل للتبسيط . و قد أوضحت ذلك في مقدمة كتابي التي تبلغ 74 صفحة وهي جزء مهم وأساسي منه ، ركزت فيها على أخطاء المستشرقين في أبحاثهم ودراساتهم حول بعض المجموعات السكانية الكردية و سعيت لدحض التعميمات السريعة التي لا تستند إلى تروٍ في البحث جعلت هؤلاء الباحثين يتعجلون بتقديم وجهات نظر خاطئة حاولت تصحيحها ، خاصة فيما يتعلق بهذه المنطقة التي هي موضوع بحثي الميداني هذا.

س : ما هو منشأ هذه الفوارق اللهجية؟

ج : الفوارق اللهجية أمر شائع و عام ، و كما تعرف فإن كل لغة حية يعني أنها في تطور ، فاللغة التي لا تشهد تطوراً مع الزمن تعتبر لغة ميتة . و الآن ماذا يعني التطور في اللغة ؟ التطور بمفهومي يعني الانفتاح.

س : أو القابلية على إحداث التحولات والتغييرات ومواكبة الجديد؟

ج : الانفتاح مهم . ولكن الانفتاح على ماذا ؟ على العالم المحيط وفقاً لجغرافية هذا العالم و تطور العلوم فيه . أي أن اللغة في عيشها وحياتها في حال متبدل مستمر ، والتوافق مع المحيط القريب أولاً ، ومن ثم المحيط الأبعد . وتتعرض الجماعة السكانية التي تتحدث لغة معينة إلى احداث تقلب بعض المعطيات اللغوية ، فمثلاً ، عندما دخل الإسلام لمناطق شاسعة ، أثر الإسلام عبر القرآن في لغات ولهجات عشرات من الشعوب التي دخلت الإسلام . كالإيرانيين والهنود والصينيين و الأتراك والألبان و البوشناق وسكان آسيا الوسطى والعديد من شعوب أفريقيا الخ ..فهذا مثلاً حدث جوهري أدخل مفاهيم وكلمات جديدة للغات المحلية . ويمكن ذكر أحداث أخرى كالحروب والاستعمار و الثورات العلمية ، التي تحدث هزات كبيرة في التطور اللغوي , أعود للفوارق بين اللهجات ضمن الجماعة السكانية الواحدة التي تتعرض إلى معطيات مختلفة . مثلا لنأخذ مواطناً عراقياً ولنركز على القسم العربي من العراق ، ويسكن هذا المواطن مدينة البصرة ،

سيكون عرضة لبعض التأثيرات من اللهجات المحيطة كالسعودية والكويتية ، واللهجات السائدة في خوزستان أو عربستان في إيران ، و ما يتخللها من تأثيرات فارسية ، و بوجود خليج بحري وموانئ و تجارة، يمكن ملاحظة وجود بعض الكلمات والمفردات الهندية في اللهجة البصراوية تأتيها عبر التجارة و التبادلات التجارية ، و لا يمكن مقارنة حجم هذه التأثيرات في البصرة مع تلك الموجودة في مدينة أقل انفتاحاً كالرمادي مثلاً ، من ناحية دخول مفردات أجنبية إلى اللهجة المستخدمة في كل مدينة . وهناك بعض المدن العربية القريبة من المناطق الكردية مثل الكوت، حيث توجد مفردات كردية عديدة داخل كلام سكان هذه المدينة من العرب . وكذلك يمكن ملاحظة الفوارق اللهجية في لهجات البلدان العربية ومدى التأثيرات الخارجية المختلفة على هذه اللهجة أو تلك ، فترى اللهجة العراقية مثلا ًمتأثرة بدرجة أكبر باللغة الفارسية، حيث توجد مئات المفردات الفارسية داخل اللهجة العراقية ككل بسبب العامل الجغرافي ، بينما تجد أنها قليلة نسبياً في اللهجة السورية مقابل مفردات تركية أكثر فيها رغم وجود مفردات تركية كثيرة في اللهجة العراقية أيضاً ، و ذلك لعوامل جغرافية بسبب سيطرة الدولة العثمانية في الماضي على البلدين .. فاللهجات تتنوع حسب التوزيع الجغرافي ، وتتأثر بمعطيات مختلفة تخلق أوضاعاً لهجية جديدة.

س : هل من قبيل المصادفة أن تختلف لهجة الكرد الفيليين عن لهجات سوران وكرمانج إذ أن الفيليين شيعة بينما الآخرون سنة في أغلبهم ، فهل لذلك التوزيع المذهبي تأثير في التنوع اللهجي؟

ج : هذا سؤال معقد و يدخلنا في متاهات طويلة لا مجال للخوض فيها الآن . و لكن يمكن القول إن جماعات ترتبط مذهبياً قد تتجه أحياناً مع الزمن إلى تبني أو استخدام لهجة مميزة عن الآخرين كأنما تتطلب الهوية المذهبية بعض العلامات الفارقة من هذا النوع أو من أمور أخرى قد تتعلق بمظهر الوجه

(إطلاق الشنب والحية مثلاً) أو بأزياء مميزة بها أو بطقوس و عمارة خاصة ، ويكون هذا التمايز واضحاً أو كتوماً حسب الظروف لكنه تمايز تدريجي لا يحصل دفعة واحدة و بتعمد أو بقرار فوقي . لا أريد هنا الولوج في التفصيلات ، و قد أخصص دراسة خاصة لذلك فيما بعد . او أخذنا المسيحيين في الشرق نجدهم يستخدمون مجموعة من المفردات العربية الخاصة بالديانة المسيحية تختلف عن مفردات المسلمين ، و حتى أحياناً في طرق أو وتائر استعمالها فمثلاً كلمة "الرب" يستعملها المسلمون أقل من كلمة الله بينما يستعملها المسيحيون أكثر من العرب المسلمين . أما بخصوص لهجات كرد الجنوب فإن التخصص اللهجي يكون على مدى زمني طويل و لم يكن دائماً بمعزل عن الانتماء المذهبي العامل الوحيد في هذا التميّ.

س : قد لا يكون تعمقت كثيراً في جذور هذا التميّز اللهجي – المذهبي؟

ج : كلا لقد تأملت كثيراً في هذا الموضوع لكن المجال الآن لا يسمح بالغوص في الأعماق . إذ يتعين

عليّ أن أشرح خلفيات طويلة ومعقدة ومتشابكة و حساسة جداً . وهي وحدها تحتاج إلى مقابلة طويلة . و أكتفي هنا بما ذكرت بهذا الصدد.

س :لنعد لموضوعنا الرئيس، ما هي المرحلة القادمة لهذا البحث ، أي ماذا سيترتب على نشر هذا البحث القيم والشاق ؟ فأنت قمت ببحث معمق للموضوع ليس فقط من الناحية المورفولوجية بل من جميع النواحي القواعدية الأخرى؟

ج : صحيح لقد كان البحث ميدانياً مضنياً بالنسبة لحجم المناطق التي درستها وتتراوح بين 35 إلى 40 مدينة ومنطقة عالجتها لغوياً في نفس الوقت و بشكل مفصل : فمثلاً قمت بتحليل النظام الصوتي " الفونولوجي " كما يقال بالمصطلح العلمي الغربي ، وخصصت له فصلاً طويلاً للنظام الصوتي في كافة المناطق المدروسة إلى جانب معالجتي للكثير من الظاهرات الصوتية . وبعد ذلك قمت بدراسة النظام " المورفولوجي " أي النظام الصرفي أيضاً في كل مكان درسته و في نفس الوقت من مختلف الجوانب و الأقسام القواعدية المرتبطة بالنظام الصرفي . ثم درست النظام النحوي "سنتاكس"، و هو قسم كبير أيضاً و مهم في هذه الدراسة اللغوية.

س : هل أنت أول من درست الجوانب النحوية و القواعدية في اللهجات الكردية الجنوبية؟

ج : هناك بعض المحاولات غير المتخصصة لا تتجاوز العشرة أو العشرين صفحة هنا أو هناك و التي تتطرق إلى بعض الجوانب القواعدية لمنطقة معينة صغيرة " عينة " فيما تمثل هذه الدراسة معالجة لمناطق واسعة و مفصّلة و علمية شديدة التخصص فضلاً عن كونها ميدانية صرفة.

س : كما ذكرت لي فقد قمت بزيارات ميدانية استغرقت بضعة اشهر لأكثر المناطق المدروسة طيلة هذه السنوات للتوصل إلى النتائج البحثية الحالية؟

ج : بكل تأكيد البحث يرتكز أساساً على العمل الميداني و المقابلات المباشرة مع سكان الأماكن التي درستها أما بالنسبة للقسم العراقي من دراستي . و لعدم استطاعتي زيارة العراق فقد قابلت العشرات من العراقيين من الكرد الجنوبيين الذين يعيشون في بلدان أوروبية مثل فرنسا و بريطانيا و هولندا و ألمانيا و السويد من المنفيين أو المهجرين أو المهاجرين . أما في إيران فقد ذهبت إلى هناك ثماني مرات في زيارات ميدانية بحثية لأشهر عديدة، حيث درست مناطق الكرد الفيليين و الكرد الجنوبيين عموماً ، و لم أستند إلى أية مراجع لغوية مكتوبة سابقة لأنها شحيحة أو غير موجودة أصلاً . و يشكل الجزء الإيراني القسم الأكبر من العينات المدروسة لهذه المناطق التي تبدأ من الشمال بمنطقة قروة ، ثم باتجاه الجنوب نحو مدينة قصر شيرين ، ثم مدينة كرمنشاه التي يبلغ عدد نفوسها أقل من مليون نسمة بقليل و هي أكبر المدن الجنوبية و عاصمة كرد إيران في القرون الماضية ، وهي جزء من المنطقة اللهجية التي درستها . ثم المناطق الممتدة إلى الجنوب من كرمنشاه و قصر شيرين وصولاً إلى شاه آباد (إسلام آباد) ثم إيلام و إلى دزفول تقريباً ، كلها مناطق قمت فيها بمسح لغوي مفصّل و تبلغ أكثر من 500

كم في الجبال و هي مناطق وعرة جداً تخلق التنوع اللهجي ، و كما تعرف ان المناطق الجبلية تتباين في لهجاتها فكل وادٍ يتحدث أحياناً بصورة تختلف عن الوادي الآخر في إطار نفس اللغة . لذلك نرى التعدد اللهجي في المناطق الجبلية أكثر بكثير منه في المناطق السهلية لأن السهول جامعة لهجياً عكس الجبال العازلة لهجياً ، شأنها شأن الأنهار أحياناً أو البحار ، فهي عوازل طبيعية تخلق بدورها فوارق لهجية.

س : على ضوء ما تفضلتم به هل هناك لغة كردية مكتوبة تتفرع منها لهجات و تكون هي اللغة الأم على غرار العربية بقواعدها وأصولها و تفرعها إلى لهجات حسب المناطق و المدن و البلدان و هل كل اللهجات الكردية قابلة للكتابة ؟ فالمعروف إن اللهجات تستخدم للمخاطبة و التواصل لكنها لا تكتب إلا تجاوزاً (في الشعر الشعبي مثلاً).

ج : كل لهجة قابلة للكتابة لكن تطور اللهجات يختلف من مكان إلى آخر فاللغة العربية توحدت وقننت قواعدياً و فرضت نفسها عبر القرآن الذي يمثل ضمير اللغة العربية و قلبها ، فهو منار لقواعد و علوم اللغة . و القرآن و لغته وعلومه كان أساساً و محوراً مركزياً لنشوء حضارة إسلامية مزدهرة . و يمثل توحد اللغة العربية و تقنين قواعدها و انتشار كتابتها جانباً مضيئاً منها . و لم تتوقف هذه اللغة عن التطور و هي إحدى اللغات الحية إلى يومنا هذا . أما بالنسبة للغة الكردية فهي لغة قائمة بذاتها ، لها قواعدها ولهجاتها و هي واحدة من اللغات الإيرانية الكبيرة . و يختلف مسار تطورها عن العربية فلكل لغة تطور تاريخي خاص بها ، فالعربية قبل الإسلام كانت أيضاً عبارة عن لهجات متنوعة و توحدت بلغة القرآن و عبره، حيث تشكلت لغة مرجعية لكل العرب.

أما اللغة الكردية المقسمة إلى لهجات فلم تحظ بالظرف السياسي لظهور لغة موحدة مرجعية على غرار العربية . بالمقابل فقد برز في التاريخ أدباء و كتاب كرد كتبوا باللغة الكردية بهذه اللهجة الرئيسة أو تلك . و ذلك منذ العصور الوسطى و باللهجات الكرمانجية و الگورانيه ، ثم استمرت النتاجات الأدبية بلهجات أخرى كالسورانية فيما ظلت الگورانيه تستعمل كلغة شعرية عند أغلب الشعراء الكرد في إيران و أقسام من العراق حتى القرن التاسع عشر . هذا إلى جانب وجود كتاب و مؤرخين و شعراء و علماء كرد ساهموا بالحضارة الإسلامية و كتبوا بلغات أخرى ، باللغة العربية والفارسية و التركية ، مثل ابن خالكان صاحب وفيات الأعيان ، ابن الأثير الذي يعتبر من المراجع التاريخية الإسلامية للحروب الصليبية ، و أبي الفدا ، و كذلك أمير الشعراء في مصر أحمد شوقي و عباس محمود العقاد ، و في العراق شعراء مشاهير مثل الزهاوي و هو كردي . و عالم اللغة العربية مصطفى جواد و هو أيضاً كردي من كرد الجنوب الفيليين ، و يشار كمال من أكبر و أشهر الروائيين في تركيا فهو كردي لكنه يكتب باللغة التركية و الأمثلة كثيرة.

س : لكن ما ذكرته من أسماء لم يكتب باللغة الكردية إلا نادراً.

ج : هناك شعراء كرد مهمون كتبوا باللغة الكردية مثل علي حريري و الملا الجزيري ، علي ترموكي ، وأحمد خاني ، و يمكن إضافة بابا طاهر العريان . و هناك شعراء في العصر الحديث من القرن التاسع عشر والقرن العشرين كالشاعر نالي و هو شاعر كبير كتب باللهجة السورانية ،كذلك الشاعر حاجي قادر الكويي ، و الشيخ رضا الطالباني الذي كتب بالعربية و الكردية و الفارسية و التركية ، كما ظهر في القرن العشرين في كردستان العراق كبار الكتاب و الباحثين و الشعراء يكتبون باللغة الكردية و بخاصة باللهجة السورانية التي هي أكثر ديناميكية في كردستان العراق.

س : و هي إذن اللهجة اليي تكتب بها الصحف الكردية الصادرة في كردستان العراق؟

ج : نعم إن اللهجة المهيمنة هي الكردية الوسطى أي السورانية بشكل أساسي ، و في تركيا هناك كتابات بالكرمانجية بالرغم من الصعوبات السياسية هناك . في إيران و العراق يوجد شعراء يكتبون أو كتبوا باللهجة الجنوبية مثل شامي كرماشاني ، و روشني ، وخان منصور شاكه ، و الملا نموشاد و غيرهم.

س : كتابك مكتوب باللغة الفرنسية و الآن أنت بصدد ترجمته إلى اللغة العربية . هل هناك فرصة لظهور ترجمة كردية له، أو بإحدى اللهجات الكردية لتعم الفائدة ، ولا سيما ان عدد الكرد في العالم يقدر بين 30 و 40 مليون نسمة.

ج :يمكن أن تظهر له ترجمة كردية بعد ظهور الترجمة العربية للكتاب على يد مترجمين كرد يتقنون اللغتين العربية و الكردية الوسطى و الشمالية و الگورانيه و الزازائية . هناك كتاب مكنزي عن قواعد اللغة الكردية الذي درس بعض الفروع في اللهجتين السورانية و الكرمانجية ، وهو كتاب مهم للباحثين الكرد لكنه بقي بلغته الاصلية الانجليزية ولم يترجم إلى اللغة الكردية على حد علمي . فترجمة هذا الكتاب من النوع تحتاج إلى جهد كبير . وقد أخذت على عاتقي أن أقوم بنفسي بترجمة كتابي لوقت طويل وخلال سنة أو أكثر بقليل سأنتهي من ترجمته ان شاء الله وبعد الانتهاء من الترجمة العربية أعتقد إن من الممكن و السهل حين ذاك أن تظهر ترجمة كردية جيدة ، وحينئذ سأراجعها بنفسي ، خاصة فيما يخص تفهم المترجم لبعض المفاهيم و المصطلحات الدقيقة . وربما ستظهر له ترجمة للإنكليزية ، وهي ستكون مفيدة و مهمة أيضاً لأن الكثير من أبناء الجالية الكردية في الغرب يحتاجون إلى الكتاب بنصه الانجليزي.

س : قلت في معرض تقديمك للكتاب انه يعالج بعض المشاكل الأساسية في مجال اللهجات الكردية فما هي هذه المشاكل ؟ وما هو نوع التفكير و التأمل الذي قمت به بشأن تلك المشاكل أو بالأحرى الإشكاليات؟

ج : الإشكاليات التي أقصدها تتعلق بالتقسيم اللهجي . ما هي اللهجات المكونة للغة الكردية فيما عدا اللهجتين الكبيرتين السورانية و الكرمانجية ، فإن الإشكال كان معرفة اللهجات الجنوبية التي تضم

مجموعة كبيرة من المتكلمين بها و المستخدمين لها لا تزال مجهولة لكثير من إخصائيين فضلاً عن الآخرين . ولم تعرف أهميتها الحقيقية لحد الآن حتى من قبل الكرد أنفسهم فما بالك بالمستشرقين ، الذين أخطأوا كثيراً في التعامل معها وشاعت الأخطاء بهذا الصدد .و قد حاولت في بحثي أن أصحح هذه الأخطاء و أبين ماهي اللهجات الجنوبية بعد دراستي لها ميدانياً . وما كان بالإمكان تبديد الأخطاء بدون عمل من هذا النوع . وقد ذكرت كل ذلك في المقدمة.

س : هي بمثابة لب الكتاب؟

ج : هي جزء مهم من الكتاب و الكتاب كله لب و ليس فيه قشور أو حشو ، فالمقدمة أساسية لفهم المشاكل اللهجية التي عالجتها في دراستي بعد تشخيصها ، وهناك جداول عديدة و إحصائيات و شرح تفصيلي لكل الأبواب الرئيسي في القواعد مع خريطة لغوية اقتضى إعدادها مني ستة أشهر ، وقد و ضعتها في بداية الكتاب و تشمل المنطقة الجنوبية كلها ، علماً بأن تنفيذ هذا العمل في مناطق تبلغ مساحتها 500 كم مربع كلها جبلية تقريباً في غاية الصعوبة.

س: المقدمة يمكن أن تكون وحدها كتاباً مستقلاً بعنوان آراء و نقاشات حول اللهجات الكردية.

ج: نعم لكني فضلت أن تكون المقدمة ضمن الكتاب فبدونها لا يمكن استيعاب بعض الجوانب من منطق الكتاب ، فهي بمثابة تمهيد لموضوع الكتاب.

س :في الختام كيف تقوِّم أنت عملك الأكاديمي هذا؟

ج : المشكلة انني إزاء قارئ غير متخصص على الأغلب و هذا يشكل صعوبة أمامي في تقديم و تلخيص أهمية الكتاب وفحواه ، وبالتالي بلورتي لأفكار مفيدة بهذا الصدد . ومع ذلك ، أرجو أن تكون هذه المقابلة مفيدة للقارئ من الناحية الثقافية العامة وتحثه على البحث بنفسه عما يريد معرفته . وباعتباري أحد الشرقيين الذين تهمهم الثقافة الشرقية و تقدم بلداننا من الناحية الثقافية و الفكرية ، حاولت من خلال دراستي هذه أن أخدم شعبي و هو عمل علمي ملتزم استغرق ربع قرن من الدراسة و البحث الدؤوب لخدمة هذا الشعب . وباعتباري أنتسب إلى منطقة هي أكبر من حدود الشعب الكردي يهمني أن تترسخ العلاقات الثقافية بين مختلف شعوب الشرق الأوسط من عرب و كرد و إيرانيين و أتراك و أرمن وغيرهم ، وأن يتعرفوا ثقافات و فنون و آداب بعضهم البعض البعض متجاوزين بعض الانقطاعات التي حدثت في فترات زمنية معينة بين هذه الثقافات ولا سيما منذ القرن الماضي . يلاحظ في العصر الحيث حصول توجه للثقافة الغربية على حساب ثقافتنا المحلية . و بالرغم من مساهمة الغرب في الثقافة و العلوم و الآداب الكونية مساهمة مهمة ، بغض النظر عن الأمور و التوجهات السياسية ، لكن ذلك لا يعني أن يهمل المثقف الشرقي معرفته بالجوانب المضيئة في ثقافاته الأصلية . فأنا كشرقي و ككردي ، يهمني معرفة ثقافات الشعوب القريبة من تاريخياً و أن أطلع على الثقافة التركية و الإيرانية و العربية ،

والهندية و الأوزبكية و الأفريقية و بوجه عام، التعرف على مجمل ثقافات الشعوب الإسلامية التي نحن جزء منها ، وهذا أساس للتفتح و التواصل الحضاريين . والتعرف على الثقافة الغربية لا يفترض إهمال الثقافات المجاورة ، فالثقافة الحقيقية هي إجمال اكثر منها انتقائية.

س: أبي لا نترك مثلاً المجال للغربيين وحدهم لدراستنا و نتخلى لهم عن هذه المهام بل نقوم نحن بدراسة تاريخنا وتراثنا و حضارتنا.

ج : نحن قادرون على دراسة حضارتنا و حضارتهم أيضاً ، ولا ننكر أن الغربيين قاموا بدراسات علمية مهمة و دقيقة جداً لحضارتنا . علينا أن نبحث في كنوز حضارتنا وحضارة القريبين منا في القارة الافريقية و الآسيوية إلى جانب معرفتنا و تعمقنا في الحضارة الغربية . ولا يجب أن يكون ذلك على حساب معرفتنا بحضارتنا أساساً التي تشكل خصوصيتنا و هويتنا.

س : سؤال مهم يتعلق بالأبجدية الكردية هناك حروف عربية و حروف لاتينية لكتابة اللغة الكردية فهل لك أن توضح لنا ذلك؟

ج: كتابة اللغة الكردية في مناطق كردستان العراق و إيران تتم بالحروف العربية المعدلة، وقد حصل إجراء التعديل على الأحرف العربية المستخدمة في الكردية منذ سنة 1929 وأضيفت إليها أساليب و حروف خاصة باللغة الردية ككتابة الحركات أو الصوائت.

وفي إيران تكتب اللغة الكردية بشكل عام أيضاً بالأحرف العربية المعدلة ولكن في تركيا تكتب اللغة الكردية الكرمانجية بالحروف اللاتينية ، لأن أغلب الكرد الكرمانجيين موجودون ضمن الدولة التركية و يتعاملون باللغة التركية التي تكتب بالحروف اللاتينية بعد قرار اتاترك الشهير سنة 1928 بتبني " لتننة " الكتابة التركية . وبعد فقد الكرد المارسة بالحروف العربية اعتادوا على الحروف اللاتينية . وهناك القسم الكردي الموجود في الاتحاد السوفيتي سابقاً ، فقد تبنى منذ أكثر من 70 سنة الكتابة الكردية بالحروف السيريلية . وأنا أشجع الكرد عموماً عدم التخلي عن الكتابة بالحروف العربية المعدلة.

س : لكنك لم تستخدم الحروف العربية في كتابة الكلمات و العبارات و النصوص الكردية في كتابك.

ج : لاسباب تقنية بحتة و لأن الكتاب مكتوب باللغة الفرنسية اضطررت إلى كتابة الكردية بحروف لاتينية لضرورات البحث لكن يوجد لها مقابل بالعربية سأضعه في ترجمتي العربية للكتاب.

س : سيتعمق الوعي بالتأكيد بطبيعة و اهمية اللهجات الكردية الجنوبية اليي درستها بعد صدور هذا الكتاب.

ج : بالطبع فالكتاب سيفيد الباحثين و المثقفين و كل الذين سيكتبون مستقبلاً عن اللغة الكردية و لا بد لأي باحث في اللغة الكردية ، ولكل من يجب الاطلاع على هذه اللهجات ، الرجوع إلى هذا الكتاب لفهم عوالم هذه المجموعة اللهجية الواسعة..

وثائق

كوردستان في (قاموس الاعلام) التركي العثماني

ترجمة: فرهاد

كثر الحديث قديما عن بلاد كردستان, حدودها, سكانها, تاريخها, مصادرها الاقتصادية و علاقاتها القبلية و الدينية.

و هناك اراء جدية معاصرة حول هذه البلاد سواء من خلال اسفار المستشرقين او المؤرخين الذين زاروا هذه المنطقة بهدف التحقيق الجغرافي او التاريخي او السياسي, او الأهداف اخرى استعمارية. و لاننسى بأن الوثائق و المعاهدات التاريخية الموجودة عن الأيرانيين و كذلك السالنامات العثمانية تعتبر مصادر مهمة في توضيح هذه الحقائق و الحصول على معلومات قيمة بصدد المحاولات المستمرة لدى الأعداء و لا سيما من قبل الدول التي كانت كردستان ترزح تحت احتلالها, و تحاول طمس معالمها القومية. و من اهم هذه المصادر (قاموس الأعلام) المنشور ايام الأمبراطورية العثمانية عندما كانت كردستان تحت احتلال هذه الامبراطورية الشاسعة الأطراف. هذا القاموس من تأليف (ش. سامي) طبع بمدينة (اسطنبول) سنة 1896 في مطبعة (مهران) ورد اسم كردستان في صفحتي 40 و 43 و كذلك اسم مدينة كركوك في صفحة 246. لقد ترجم الأستاذ (شيرزاد عبدالكريم محمود) هذه الوثيقة من اللغة التركية الى الكردية, و نظراً لأهميتها التأريخية ترجمناها الى اللغة العربية مع تحفظاتنا عن بعض المعلومات الواردة فيها. اكتفينا فقط بالقسم الخاص بكردستان دون ترجمة القسم الخاص بمدينة كركوك, لأنها ترجمت بشكل منفرد في العدد الثاني من هذه المجلة.

تقع كردستان في غرب قارة اسيا, و هي بلاد شاسعة, قسم منها تابع للدولة العثمانية و الاخر تابع لايران, و الاكثرية الساحقة من سكانها تسمى بالكرد, و أن هذا الشعب قد حرم من التقسيمات

المدنية و السياسية, و يسمى القسم الموجود عندنا باسم ولاية كردستان و كذلك عند الأيرانيين, و بالنظر لأنتشارهم الواسع في جميع انحاء العالم و اختلاطهم بالشعوب المختلفة, فان تعيين حدود كردستان بصورة دقيقة و قطعية ليس هينا و لا يخلو من الصعوبة. و لكن بمقدورنا و بشكل قريب جدا من الحقيقة القول ان كردستان تمتد من سواحل بحيرة (اورومية) و (وان) الى مصادر نهر (كرخه) و (ديالى) و (مجرى دجلة) تمتد حدودها الى الشمال الغربي موازيا مجرى نهر دجلة الى مجرى (قره صو) و هو رافد مهم لنهر الفرات, و من هناك الى الشمال و حوض (اراس) الى ان يصل المفترق الفاصل بين حوض الفرات و دجلة, كذلك القسم الشمالي من ولاية الموصل العائدة للدولة العثمانية. كالمناطق التي تقع غربي نهر دجلة مع ولاية (وان بتليس) و ولايات (دياربكر و معمورة العزيز و مدينة درسيم) التي يشكل كلها جزءاً من كردستان, كذلك المنطقة التي تسمى كردستان في ايران مع نصف ولاية (اذربايجان) الواقعة في الجنوب الغربي لكوردستان.

تحيط بكوردستان من الشمال الغربي (ازربايجان) و من الشرق عجم العراق و من الجنوب لورستان و عرب العراق و من الجنوب الغربي (جزيرة) و من الشمال الغربي تاخمت حدود (انادول), في هذه الحدود (104) درجات مع خط العرض و (39) درجة مع خط الشمال و (37) درجة مع (46) درجة خط طول الشرقي, و بهذا يكون مثلثا كبيرا حيث تنحدر الزاوية الحادة باتجاه الشمال الغربي لتشكل هرما من اقصى نقطة الشمال الغربي عند ملتقى (قره صو) مع (فرات) التي تمتد (900 كم) طولا و (100-200 كم) عرضا بشكل تقريبي.

لقد سكن قسم من القبائل و الطوائف الكردية في شمال الجزيرة و الشام و حلب و مناطق الأنادول و ولايات قفقاس و في روسيا و مناطق شتى من ايران و حتى في خوراسان و افغانستان و بلوجستان.

و من جانب اخر يعيش في كردستان (العرب, الايرانيون, و الترك) مع سكان اخرين ينتمون الى شعوب و قوميات اخرى مختلفة. و الاكثرية الساحقة من المواطنين هي التي تعين هذا الحدود. مع هذا فان (اللر او لور) الساكنين في ولاية لورستان الأيرانية لهم علاقات طيبة مع الكرد و ينتمون الى اصل واحد, مع هذا لا يعتبرون انفسهم كرداً بسبب اختلاف اللغة, و حتى الكرد ايضاً لا يحبذون ان يكون (اللور) من اصلهم.

يبلغ عدد الكرد (2.500) مليون تقريبا, (1.5) مليونا في الدولة العثمانية و (750.000) في ايران و (13.000) في الولايات القريبة من افغانستان روسيا و الباقي في افغانستان و بلوجستان و مناطق مختلفة اخرى.

تتكون كوردستان من الجبال و المرتفعات, توجد السهول فقط قريب من الأنهار, تقع المناطق السهلية و المنخفضة في الجنوب الشرقي منها, أي ولايات شهرزور و السليمانية و جبال كردستان ايران

منخفضة و اكثر انفتاحاً على السهول الواسعة المزدهرة بالينابيع. ان اعلى المرتفعات تقع في اقصى الشمال بين بحر الخزر و خليج البصرة من الجنوب, و توزع هذه الجبال المياه الى مناطق مختلفة, لذا كثرت فيها الغابات و المراعي الجميلة, و ان الأراضي الزراعية الخصبة تقع في السفوح و الوديان.

السلاسل الجبلية التي تفصل حدود الدولة العثمانية و الأيرانية تقع في الشمال الغربي و تمتد الى الجنوب الشرقي. و هي جبال مرتفعة و وعرة و لا تصلح للعيش, و فيها (رافد موراد) و هو اهم رافد لنهر الفرات, و كذلك نهر دجلة التي تنبع من نفس هذه الجبال, و مياه (بكمان) و هي تبدأ من الشمال و تنصب في نهر دجلة, و كذلك جداول بتليس و سعود و نهر خابور و الزاب الأعلى و الزاب الأسفل و الأدهم و ديالى التي تنحدر الى جنوب الغرب, و تنصب في نفس البحيرة المياه و الجداول التي تنبع من جبال المنطقة و تجتمع هناك. اما القسم الواقع في ايران فهو نهر (قتور) الواقع في الشمال عن طريق (كور) يلتقي بنهر (اراس) و ينصب في (خزر) و بعض الأنهار الأخرى تنصب في بحيرة (اورمية) و بعض الأخر في بحيرة (وان). ان هذا القسم ذو اهمية كبيرة لولا و عورة المنطقة و مناخها القارص. شتاؤها صعب و طويل, جبالها تتكلل بالثلوج لأشهر عديدة. اما السهول المحيطة بنهر دجلة فأن شتاءها معتدل و صيفها حار جدا. اما المراعي الخلابة فتقع في المرتفعات تحيطها غابات من الاسبندار, و المناطق المفتوحة تنتشر فيها اشجار البلوط و المن, و تزرع في جنوبها الحنطة و الشعير و الكتان و الذرة و التبغ و العنب و اثمار اخرى مختلفة. و من المناطق الأكثر انخفاضا تزرع القطن و الرز, من بينها شجرة المن التي تنعقد على اوراقها رحيقا حلواً يستعملونها كسكر.

ان القبائل و العشائر الكردية مهتمة بتربية المواشي في الجبال. يصيدون الدب و الخنزير و الأيل و الثعلب و الواوي و حيوانات جبلية اخرى. في الجبال الشمالية يوجد الحديد و النحاس و الرصاص و معادن اخرى لم تستغل لحد الأن. و اكتشف النفط في المنطقة الجنوبية. و يستعمل الكرد النباتات التي تستخرج منها الزيوت كالفستق و العصف.

ان اكثرية الكرد تعيش بشكل قبائل متنقلة تبحث عن المراعي لحفظ مواشيها, يتوجهون في الصيف الى السهول مع خيامهم و لا يهتمون بالحقول الزراعية, و تنحصر صناعتهم في صنع السجاد و الفرش و اللباد و اشياء اخرى تعتمد صناعتها على الاعمال اليدوية كما تنحصر تجارتهم في المبيعات و المشتريات المحلية كالغذاء و الحيوانات. و يستعملون العبارة التي تكلفهم كثيرا للعبور من الأنهار و لاسيما في دجلة, و تتوقف في فصل الشتاء بصورة كلية.

على الرغم من ان اصل الكرد و ظهورهم عندما سكنوا في هذه المنطقة غير معلوم من الوجهة التاريخية الا ان القسم الجنوبي لهذه المنطقة قد عرف باسم (الاشورية) و الشمال الشرقي منها باسم (الميدية), و على الرغم من ان اصل الميديين القدماء ليس معلوما, و يمكن ان يكونوا من اصل توراني, أي

من الجنس التركي و الاشوريين من العرق السامي, و ان قرابتهم مع الكلدانيين واضحة و في تلك الحالة يعتبر الكرد من الجنس الـ(اري) من حيث اللغة و العادات و التقاليد, و ليسوا من الميديين و لا من الاشوريين. و مما لاشك فيه انهم من الشعوب الشرقية, انحدروا من خوراسان (هرات) و استقروا في هذه المنطقة, و لكن متى استقروا فلسنا على علم به.

ان (كزنفون) و هو القائد اليوناني المشهور الذي قام بجملة عسكرية على المنطقة في (401 ق.م) أي قبل الفين و ثلاثمئة سنة تقريبا و اندحر فيها و خسر ماديا و معنويا, و تسمى المنطقة بـ(ديار بكر) و معمور العزيز و اماكن اخرى. يقول كزنفون عن هذه الرحلة: يسمى سكان هذه البلاد بـ(قردوخ), يمكن ان يكون الـ(قردوخ) في اللغة اليونانية هو (كورد) و طرأت على الكلمة تغييرات طفيفة. على أي حال فأن الكرد عاشوا في بلادهم منذ الفين و ثلاثمائة سنة تقريباً. و في تلك الحالة نستطيع القول مما لاشك فيه ان الاشوريين الذين قدموا من بابل و الـ(ميديين) القادمين من (اذربايجان) قد حكموا نينوى و دجلة مرة اخرى و هم قادمون من منطقة عجم العراق (جيحون و سيحون).

ان العشائر الكردية كانت تتنقل في المناطق الجبلية بحرية تامة. كما يتنقل العرب في الموصل و دياربكر اليوم, و الايرانيين في تبريز و همدان. و يعيش الكرد ايضا في الأقسام الداخلية لهذه المنطقة, و هذا دليل على ان الكرد من العرق الـ(اري) و لا ينتمون الى الأشوريين و لا الى الميديين, و ان لغتهم قد تطعمت بكلمات اشورية و كلدانية كثيرة. فعندما كان الاشوريون و الكلدانيون يحكمون المنطقة كانت هذه الكلمات قد تسربت الى البهلوية و كانت مقبولة لديهم بسبب تأثير حضارتهم, كاللغة الفارسية التي تأثرت باللغة العربية عند الفتح الأسلامي. و ان اللغة الكردية في الاصل قريبة من اللغة الفارسية, و ان وجود هذه الكلمات في لغتهم لا يعني انهم من الأشوريين. بل السبب هو انهم عاشوا مع الاشوريين في نفس المنطقة, اللغة الكردية قريبة من البهلوية القديمة اكثر من اللغة الفارسية, و لكنها ليست كالفارسية في نعومتها و جمالها, لأن اللغة الكردية تنبع من الحنجرة و هي لغة اهل الجبال المتسمة بالشدةو الصلابة و تشبه الى حدما لغة القبائل التي ترحل من مكان الى اخر طلباً للكلأ.

ان العلماء الكرد بدلاً من اهتمامهم بلغتهم اهتموا كثيرا باللغة العربية و الفارسية. و رب من قائل بأن الكرد ليس لديهم ادبهم الخاص بهم. نقول لهم بأنه منذ قديم الزمان قد نظم الكرد قصائد كثيرة بلغتهم الأصلية, و لأنهم يكتبون بحروف عربية كما هي حال الفرس, فقد الغوا دواوين شعرية و كتبا ادبية اخرى كما ان الأوربيين قد كتبوا حول اللغة الكردية و قواعدها و ترجموا ما استطاعوا منها من الكتب, و لكن لحد الان لم يكتب المسلمون حول لغتهم و ادابهم شيئا يذكر.

الكرد و بصورة عامة يتحلون بالجرأة و الشجاعة و الفروسية و العمل الدؤوب. لهم قابلية تامة في تلقي العلم و التربية و المدنية. ان اسم الكرد في اللغة الفارسية يأتي بمعنى الشجاع و البطل و الجريء. و قد ورد بهذا المعنى في ملحمة شاهنامه الفارسية لذا فأن هذه التسميات وردت بسبب شجاعتهم الطبيعية و يمكن ان تكون بسبب شغفهم بالعلم لاحقا.

ان اكثرية الكرد مسلمون سنيون و من المذهب الشافعي, و من بينهم (الأيزديون) البالغ عددهم (50.000) نسمة, و فيهم قزلباشيون. و اذا كان في المنطقة اناس ينتمون الى النسطوريين او الكلدانيين فإن اصلهم من الكلدانيين او السريانيين القدماء و ليسوا كرداً, يسكنون في مدن كبيرة مثل (ديار بكر, الموصل, بغداد, همدان, تبريز) و بعضهم في انحاء كردستان و المناطق الداخلية منها و مدن رئيسة مثل (السليمانية, كركوك, رواندوز, اربيل, بتليس, وان, اورومية, كرماشان و مدن اخرى) و يعيشون جنبا الى جنب مع الكرد, و بقدر ما يرويه التاريخ فان (نينوى) كانت تحت سيادة الأشوريين, و في نهاية حكم الاشوريين ظلت تحت سيطرة الميديين. و بعدها وقعت تحت سيادة كيخسرو. و كما يروون فأن كيخسرو في غزوه لماليك اخرى قد حاربهم بمساعدة من جنوده, و عند سقوط الدولة (الكيانية) رزح تحت حكم (اسكندر) ثم تحت سيطرة (مكدون) ثم (الاشكانيين) و اخيراً تحت سيادة (الساسانية) و بعد انتصار (القادسية) اصبحوا تحت سلطة الخلافة الاسلامية و قبلوا هذا الدين. و عندما ضعفت الخلافة الاسلامية ظهر في ارجاء معمورة من الدولة هذه امراء و ملوك, و كان لرؤساء الكرد في الموصل و دياربكر و الجزيرة حصتهم في امتلاك مدينة او قلعة, و قد شكلوا الكثير من الحكومات الصغيرة, و لكنهم لم يبذلوا جهدا في توحيد هذه المناطق تحت سلطة او حكومة قومية. و لكن صلاح الدين الأيوبي المنتمي الى هذه القومية قام بتأسيس دولة في مصر, و حكم هو و ابناؤه و اقرباؤه الشام و الحلب و الحجاز و اليمن و اسسوا حكومات قوية فيها. و بعد غزو (جنكيزخان) فقدوا السلطة و بعدها رزحت الدولة الاسلامية تحت نير و ظلم (المغول). و بعد مجيء الأتراك الى هذه المناطق و التجائهم الى معاقل متينة و حدوث الأضطرابات التي جلبها (قره قوينلو) و (اق قوينلو), و بعدما هجر (تيمور) المنطقة خضعت البلاد لسلطة (شا اسماعيل الصفوي) ثم هجم (ياوز سلطان سليم خان) الملك الصفوي هذا, ايد الكرد و بسبب مذهبهم السني السلطان العثماني, و بمحاولة من الشهير (ادريس بدليسى) رجع الكرد بكامل اختيارهم الى الدولة العثمانية. و بقي القسم الأكبر من الدولة المشار اليها تحت حكم العثمانيين. اما القسم الشرقي منها و الواقع في الجانب الأخر من الخط المذكور, و لأختلافهم المذهبي فقد بقيت تحت سيطرة السلطة الأيرانية.



شخصيات كردية

العلامة المرحوم
علاءالدين السجادي

اسمه (علاء الدين نجم الدين عصام الدين السجادي) ولد عام 1907 في عائلة دينية معروفة. في عام 1927 سافر الى السليمانية و قد درس في جامع الشيخ جلال. في عام 1939 دخل ميدان الصحافة و اصبح مدير تحرير مجلة (كلاويز) لحين اغلاقها عام 1949. و في عام 1948 اصدر مجلة (نزار) باللغتين الكردية و العربية فكانت لبنة اساسية لبناء صرح الاخوة العربية الكردية رغم عمرها القصير. بعد ثورة 14 تموز 1958 و لغاية عام 1974 عين استاذاً للادب الكردي في كلية الاداب بجامعة بغداد. بعد ذلك اصبح اميناً عاماً للأوقاف لمدة ثلاث سنوات. وافاه الاجل بتأريخ 1984/12/13 و دفن في مقبرة الشيخ عبدالقادر الكيلاني.

يعد الاستاذ السجادي احد مؤسسي المجمع العلمي الكردي, فقد اختير نائباً ثانياً لرئيسه منذ بدء تأسيسه عام 1970 لحين دمجه مع المجمع العلمي العراقي. و كان متفانياً طيلة حياته في خدمة العلم و الادب الكرديين فأحيا التراث و ارخ الادب و الف في القواعد و دون في البلاغة و جمع نصوصا كردية. اما اثره الخالد (تأريخ الادب الكردي) فكان و سيظل نبعاً كبيراً للباحثين الكرد في دراسة تاريخ ادب شعبهم حيث طبع الكتاب عام 1952 و اعاد طبعه عدة مرات بتعليقات و اضافات كثيرة. و مساهماته الاخرى في النقد و النثر و الادب و التراث الكردي نتج عنها اعداد كبيرة من المؤلفات, و يعد مؤلفه (رشته ى مرواری - عقد اللؤلؤ) الذي صدر منه ثمانية اجزاء من الاسفار الادبية الغنية بالحكايات و الطرائف المتداولة في قرى و مدن كردستان. من مؤلفاته الاخرى: رحلة في كردستان 1956, الثورات الكردية لغاية 1958 صدر عام 1959, التقاليد الكردية 1974, البلاغة 1978, نصوص الادب الكردي 1978.

محطات ثقافية

المثقف الكردي و مقاومة الذات اولاً

خالد سليمان

تكثر في الاونة الاخيرة مقالات و كتابات عدة حول دور المثقف الكردي في سياق تجربة كردستان العراق في الحكم و الحرب و المصالحة, و التي اثبتت انها جديرة بالاهتمام و البحث عن الافاق السياسية فيها و (الحزن الذي تركته) في تخوم ثقافة الاختلاف بين الوان المجتمع الكردي.

تأتي هذه الكتابات من قبل صحفيين عرب و اجانب و صحفيين كرد ايضا, و تطرح فيها اراء مختلفة حول موقف المثقف الكردي من ابعاد التجربة و زواياها المتعددة و ابوابها المراقبة من قبل حراس حدود دول الجوار ايضا.

تستدعي هذه الكتابات قراءة متأنية و جادة و بشكل خاص تلك التي تأتي من الكتاب العرب و الاجانب, لانها تعبر بالدرجة الاولى عن الاهتمام و الموقف في ان واحد بغض النظر عن سلبية ذلك الموقف او ايجابيته. اما الكتابات الكردية فهي تنحصر في اتجاهات محدودة و هي:

اولا الكتابات الدفاعية, و هي كتابات تدخل ضمن اطار الدفاع عن الذات الكردية المطروحة في الصحافة العربية سباً و نقداً و مدحاً. ثانيا الكتابات (الضدية) و التي تقف غالبا خارج منطق (الضدية) كمنهج نقدي في السياسة و الثقافة و المجالات الحياتية الأخرى.

نتوقف عند هذه الثانية و نتناول بعضا من جوانبها الحية من داخل الصحافة و الثقافة الكرديتين, و منها ما يتعلق بحرية الرأي و الاختلاف و الانفتاح على الاخر في السياسة الكردية, و نبدأ بقصة معروفة لدى الانتلجنسيا الكردية جسدت في حينها تمرداً واضحاً ضد التنكيل بالذات, و هي قصة (نباح الكلاب) للكاتب الكردي "محمد موكري".

كتب "موكري" نباح الكلاب في زمن كانت الاحزاب الكردية تقاتل بعضها في الجبال اواسط الثمانينات من القرن الماضي و يمكن اعتبارها نسقاً من انساق ادب مقاومة الذات التي كانت متجهة نحو الهاوية من خلال حرب عبثية بين الأخوة, لأنها وصفت الذوات المتقاتلة او اقتتال الأخوة و اصواتهم المتعالية بنباح الكلاب, و كان الكاتب بالتالي صوتا (ضديا) ضد عبثية الحركة الكردية في تلك الفترة.

هذا النقد الصارخ الذي ظهر عند المثقف الكردي في الثمانينيات و في ضفة المقاومة المسلحة في الجبال, يمكن اعتباره تمثلاً واضحاً من "خطاب الغضب" ضد اللامعقول داخل الحركة الكردية و جغرافيا فكرها المحدود و المرتبط بالجبال و الحركة المسلحة التي قاتلت ذاتها اكثر من العدو. و في الفترة نفسها ظهر صوت اخر للمثقف الكردي الذي كان يقف على الضفة الثانية للمشهد و هي ضفة المدينة و تمثلاتها التي استلبتها الكاريزما و اشباه دولة المراهقة السياسية او الفنتازيا الصدامية بالأحرى. انهمك هذا النموذج الثاني من المثقف بتأسيس مركزية القول المعرفي من جانب و النضال ضد التدجين السياسي و الثقافي من جانب اخر. و الضفتان كانتا في موقع واحد ضد شمولية سلطة الحزب "البعث".

ادت انتفاضة اذار (1991) الى توزيع جديد للأدوار بين فئات المجتمع الثقافية و السياسية, و ظهرت اشكال اخرى للمطالبة بحرية الرأي و الفكر بعيدا عن تلك الأشكال السائدة (قبل ذلك التاريخ) التي تجسدت في التطلع الى حرية الجميع. اما الأشكال الجديدة لاشتغال المثقف و تمثلاته في المجتمع الكردي فتتجسد في قراءة جديدة لمستويات الوعي الكردي (الوعي السياسي منها) و تقريب الياته الانتاجية من حدود النقد و التحليل. و ظهر بالتالي رأي اخر حول نظرة الكرد للذات و العالم غير الرأي الرسمي المتمثل بالمواقف الحزبية و السلطوية. و استطاع الدخول الى المفاصل العضوية للمجتمع الكردي و اختراق الفضاءات المقدسة التي فرضت على الحياة الثقافية و السياسية, و استطاع الرأي نفسه كشف جانب مهم في لاوعي السياسة الكردية و هو توجيه الانظار نحو الرموز التي تكيل بالذات, و كانت الأحزاب الكردية تحتل مساحة واسعة من بين تلك الرموز و حاولت باستمرار انتاج نموذج كردي لتقديس ممارساتها اليومية من خلال تغييب الوعي النقدي و تكريس خطاب البقاء ضمن المكن و ارادة الواقع الجيوبوليتيكي الذي يعاني منه الوجود الكردي.

اليوم و في كردستان هناك اراء تتجاوز الرأي السياسي الكردي المتعلق بمستقبل كردستان, فاذا قرأنا تلك المقالات و الدراسات التي تنشر في الصحافة الصادرة في كردستان, نلاحظ ان هذا الرأي لم (يستنقع) كما يقول بعض من الصحفيين الكرد الذين لا يستطيعون الاطلاع على الثقافة

الكردية باللغة الأم, بل تشكل في رحـم الأحـداث و التطـور الى مستوى الاستشهاد بـه و اعتباره مقولة من مقولات تحليل العقل الكردي, لأنه رأي يتشكل اساساً في مشهد موزاييكي كـردي يتميـز بـالاختلاف و المغـايرة, و هـو بالتـالي شكل مـن اشكال مقاربة الـذات مـن المسـاحات الـتي تقـع خارج (المألوفية) للبحث فيها عن مصائر الانسان الكردي.

فهنـاك مجـلات و دوريـات كردية الان في كردستان او المغتربة منها تعبر عن اتجاهات فكرية و ايديولوجية مختلفة و موزعة بين السلفية و القومية و التقدمية و الحداثية و الحزبية ايضاً, منها يقدس الأشياء و منها يفك رموز التقـديس و يقـترب مـن حـدود المجتمع الكردي المحرمة. و موقف المثقف هنا و الذي يـتمخض عـن ولوجـه المفاصل "القدسـي" هـو الموقـف مـن الـذات اولاً طالما انـه يشـكل جـزءاً مـن البيئـة الاجتماعية و الدينية و السياسية المتخلفة التي يحللها و ينقدها. و وصلت الجـدالات الفكريـة حـول هذه الاشكالية الى مستوى الصدام و التهديـد بـين المثقـف الناقـد و الحركـات السـلفية مـن جانـب, و بينـه و بـين السـلطة المتمثلـة بالأحزاب القومية من جانب اخر. و في وقت حاولت هـذه الأخـيرة - الأحــزاب القوميــة - اسـتقطاب الأقلام الحرة الى جانبها و اسكاتها مـن خـلال المـال و الموقـع, تقـدمت الاولى - الحركـــات الســـلفية - لاغتيالها و استئصالها من المجتمع.

رغم كل هذا لم يختف نموذج المثقـف الـذي يقـدم نموذجـا انفتاحيـا للـذات و الاخـر حـول اليات اعادة انتـاج نمـوذج السلطة المقدس في المجتمع الكردي و اليـة نقـده في الوقـت عينـه. فمـن المجحف ان نقلل مـن شأن حريـة الرأي و الفكر لدى المثقف الكردي دون الاطلاع على انتاجـه الثقـافي و مجمل الحركة الثقافية الـتي لا تخلو مـن الضـدية المنهجيـة امـام السـلطة و المـال و "السـلفية" المعاصرة.

ملاحظات حول مسألة كركوك

ريبين هردي

ترجمة: نبز كمال نوري

لاشـك في ان الحـديث عـن مشكلة كركوك, هـو حـديث عن احـدى اكثـر المشـاكل السياسـية تعقيدا و حساسية, اذ انها وطيلة العقـود المنصـرمة, ظلـت تشـكل نقطة خلاف القوميات المتعايشة في اطار الكيان السياسي العراقي.. كركـوك و مشـاكلها هـي الملخـص السياسـي و الثقـافي و الاجتمـاعي لجمـل تلـك المشاكل السياسـية و الاجتماعيـة و الثقافيـة الـتي تعاني منها الدولة العراقية منـذ

انبثاقها, كركوك هي النموذج للجرائم و الانتهاكات و التجاوزات التي ظلت ترتكب في بقاع مختلفة و بأشكال مختلفة في العراق.. ما حل بكركوك هو مقتضب ما حل بالعراق ككل.. في هذه المدينة تجسدت ظواهر التعريب و الترحيل و التبعيث بأوسع معانيها.. من هنا القول بأننا حين نتحدث عن كركوك, نتحدث عن عموم العراق, شئنا ذلك ام ابينا, و ما نقترحه بشأن كركوك هو في الحقيقة ما نقترحه لعموم العراق.. اذ ما العراق في النهاية الا تجمع مجموعة من الاثنيات المختلفة و المذاهب و الاديان المختلفة في بودقة دولة واحدة, و لا مكان سيصبح نموذجا لنجاح او فشل هذا التعايش كما هو حال مدينة كركوك. كركوك و كل ما يحدث فيها من احداث, هي البوصلة و المعيار الحقيقي لنجاح او فشل تعايش الاقوام و المذاهب المختلفة في العراق, بالاحرى, لو اردنا ان نعرف ما سيحل بالعراق, أي نظام سيسود, أي نمط من العلاقات الاجتماعية ستنشأ بين قومياته, كيف ستتوحد تلك القوميات او كيف ستنفصل؟ يجب ان ننظر الى كركوك.. و عكس هذا القول صحيح ربما.. لو فكرنا في تعايش القوميات في العراق, لو بحثنا عن عالم بعيد عن الاضطهاد القومي و الثقافي, علينا ان نبدأ من كركوك, و سنقدر على انجاح هكذا مشروع على صعيد العراق بقدر ما نتمكن من تحقيقه في كركوك, فإن استطعنا ان نخلق حالة من التعايش السلمي بين مجموعة من القوميات داخل مدينة واحدة و بما يضمن للكل حقوقهم, و ذلك في مدينة كركوك, سيكون بامكاننا ان نضمن نجاح نفس المشروع على صعيد العراق ككل ايضا.. ومن هنا اشعر بان التحدي الاكبر امام القوى السياسية العراقية التي تنشد الديمقراطية هو مشكلة مدينة كركوك.. بل اذهب الى ابعد من ذلك و اقول, درجة التزام او عدم التزام القوى العراقية بمطلب الديمقراطية تتحدد في ضوء درجة اهتمام او عدم اهتمام تلك القوى بكركوك و مشاكلها.. فالذين يتجاهلون كركوك و لا يتداولونها بجد, الذين يتجاهلونها و يؤجلون حل مشاكلها للمستقبل, الذين يتحاشون التطرق اليها و لا يتحدثون عنها, في الحقيقة انهم يتجاهلون الديمقراطية و لا يتناولونها بجد.. و بعكس هذا, يمكننا منذ البداية ان نجد المشروع السياسي الذي نحمله في ذهنيتنا السياسية لعموم العراق من خلال المقترحات التي تطرحها هذه الجهة او تلك بشأن كركوك.. باختصار, نمط التعامل مع هذه المدينة, لن يرشدنا الى افكار و مواقف القوى السياسية و حسب, بل يرشدنا كذلك الى مصير النظام السياسي الذي يراد بنا ان نحيا في كنفه غدا.. بهذا المعنى تكون معضلة كركوك هي معضلة كل انسان عراقي, ليست مجرد معضلة قومية و مشكلة اثنية.. "ليست مجرد قضية مدينة استثنائية لا تمت الى بقية المدن بصلة" بل هي مشكلة العراقيين

فردا فردا من البصرة الى زاخو.. المعتقدون بان قضية كركوك لا تمسهم بما انهم يعيشون في خارجها, المعتقدون بكون كركوك حالة استثنائية لا تشبه أي مكان اخر في العراق, لا يفهمون ان ما يزرع اليوم في كركوك, يحصد غدا في كل العراق, و من هنا اشعر بان النضال الرئيسي لدمقرطة العراق يبدأ من حل مشاكل هذه المدينة و من هذه المدينة اما سينجح, اما سيواد.

من هذا المنطلق, ارى ان هذه المشكلة, ينبغي ان لا تطرح من قبلنا نحن الكرد, كقضية قومية او اتنية, بل ينبغي ان ننظر اليها كمعيار رئيسي تقيس به نجاح المشروع الديمقراطي على صعيد العراق ككل.. لا يجدر قط ان تكون القضية قضية كون كركوك كردية او تركمانية او عربية, هذا الطرح هو اسوأ ما يكون و ربما انه سيقبر نفسه بنفسه, بل يجب ان ننظر الى المسألة كتحد ديمقراطي هو بداية صياغة النظام السياسي الذي يتبع في العراق.. لتوضيح اكثر اقول: انا لا يهمني أي علم سيرفع في كركوك, علم العراق او علم كردستان انما يهمني جدا عودة جميع المرحلين من كركوك الى ديارهم, لا يهمني ان يقال عن المدينة انها كردية او تركمانية او عربية, يهمني عدد الاحياء المهدمة و المهجورة التي يعاد اعمارها و تعويض المتضررين من هدمها.. برأيي ما علينا نحن الكرد ان نعمل له الان, هو ليس اشعال فتيل مناصرات قومية و اثنية حول بعض الشعارات الخالية من أي فحوى, بل هو الدفاع عن المظلومين و المطرودين الذين لا يمكن لاحد ان ينكر عليهم حقوقهم.. ان بشارتنا لكركوك لا يجوز ان تكون تزويدهم بعلم جديد و قولنا لهم ان مدينتهم كردستانية و ليست عربية, بل يجب ان تكون بشارتنا خاصة بالمشاكل الانية و الواقعية لسكان المدينة, اعادة المرحلين الذين يعيشون حتى هذه اللحظة اوضاعا مزرية, اعادة اعمار و تزيين الاحياء التي هدمها او تغافل عنها البعثيون لاي سبب كان, تحرير الحناجر التي لم تجرؤ على البوح بشيء عما في القلوب في عهد البعثيين, فتح المدارس و المكتبات و غرس الاشجار و بناء الحديقة العامة, احتضان كل مواطني كركوك بعيدا عن الانتماءات الاثنية و القومية, و طمأنتهم بالفعل على انهم يعيشون منذ الان في مناخ اكثر حرية و عدالة. يقال ان التركمان ينظمون المسيرات الاحتجاجية ضد الكرد و ضد علم كردستان, يقال انهم يدعون ان المدينة تركية, و لكن الا يحق للتركمان ان يعبروا عما يؤمنون به و يتصورونه صحيحا و ان يعملوا من اجل تحقيق ما يرتأونه.. و حقا.. الا يحق لتركماني و لد في هذه المدينة و كون فيها اسرته و عاش فيها عشرات السنين, ان يعتبر المدينة مدينته؟ ما علينا ان نفعله في كركوك هو ليس معاداة هذا الحق الذي لا ارى أي لبس فيه, بل هو التأكيد على حق الكردي و العربي ايضا على نفس القبيل, هو التأكيد على ان شعور أي كان

بأنـه يملـك المدينـة لا يزيـد و لا ينقص من حقوق الاخرين و لكل مواطني المدينة الحقوق ذاتها. هو التأكيد على انقضاء العهد الذي كان الانتماء لقومية معينة يحـدد حقوقـك.. كركـوك هـي مدينـة الكرد و العـرب و التركمـان.. و أي تحديد لانتماء المدينـة لا يـؤثر في حقوق جميـع سكان المدينـة دون استثناء لا سلبيا و لا ايجابيـا, هـو التأكيـد علـى انـه لا يجـدر لاي شخص ان يغير قوميتـه و ينطق و يتعلم بلغات الاخـرين, الانتماء للقومية التركمانية او العربيـة او الكرديـة لا يتعـدى تحديـد اللغـة التي تنطق بها و التي يحق لـك ان تتعلم بها, و هذا لا يمس كل تلك الحقوق القانونيـة المتساوية الـتي يجب ان يمتلكها المواطنون جميعا.

للتركمان حقوقهم كما للعرب و كمـا للكـرد, ان بشـارتنا و بـدلا من ان تكون الوقـوف بوجـه هـذه الحقـوق, يجـب ان تكـون التأكيـد على هذه النقطة, حيث للتركمـان كمـا للكـرد و كمـا للعـرب حـق تنظـــيم المظـــاهرات و حـــق الاحتجـاج, و ان اسـتطاعوا حـق العمـل لانجـاح مشـروعهم عـبر الالية الديمقراطيـة, انـا ارى ان لا احـد سيتضـرر مـن اشـعال فتيـل المشاكل القوميـة في تلـك المدينـة بقدر ما نتضرر نحن الكرد, كمـا لا احـد سيسـتفيد مـن صـون الديمقراطية في كركوك بقـدر مـا نستفيد نحن الكورد.

هل يعني هـذا ان نتخلى عـن مطالبنا التاريخية؟ هل يعني هـذا ان نـترك المدينـة ونرحـل بصمت بعـد سـنوات طويلـة مـن اراقـة الـدماء و الاستشـهاد مـن اجلـها جيلا بعد جيل؟ طبعا لا.. ولكن ماعدا هذا المشروع القومي الـذي يـثير حساسـية قوميـة في المدينـة اليست هناك طريقـة اخـرى لحـل القضـايا و المعضـلات المزمنـة ؟ الـيس بامكاننـا ان نجلـب القـوى الاخـرى غـير الكرديـة الى صـفنا بدل ان نثيرها ضدنا ؟

علينا ان نعتبر مسألة كركوك مسـألة ديمقراطيـة و نطرحهـا على هذا المنـوال, علينـا ان نفهـم, ان خطوط استتباب الامن في هذه المدينـة, بـل في العـراق عمومـا, ليست مرهونـة بتحديـد انتمائهـا القـومي, بـل مرهونـة بنتـائج الصراع من اجـل الديمقراطيـة, و من هنا لـو تحـدثنا عـن الاحـداث الاخـيرة الـتي حـدثت في كركـوك, اقول بكل صراحة انا ضد كل من اعـترض طريـق احتجاجـات التركمان و اطلق النار علـيهم, انـا ضـد اعـتراض الطريـق و اطـلاق النـار حتـى ضـد الـذين يرفعـون شـعارات تعـادي تطلعاتنـا نحـن, و مهما كانـت تلـك الشـعارات حسـب مـا نـرى باطلـة و زائفـة.. برأيـي كان على القوى الكردية نفسها ان تحمـي تلـك المظـاهرات و تمنـع الاخـرين مـن التطـاول عليهـا.. علينا ان نفهم ان مهمة كل مسلح تـابع للاحـزاب السياسـية هـي الحفاظ على حياة و حريـات اهل هـذا البلـد, هـؤلاء علـيهم ان يبرهنوا بافعالهم على انهم حملوا السـلاح للـذود عـن حريـات المواطنين, دون الاكـتراث لاساليب تفكـير هـؤلاء المـواطنين و مشاريعهم.. بالاحرى اريد القول, يجب ان يكون قـدوم الكـرد لتلـك المدينـة هـو قـدوم الديمقراطيـة, قدوم العدالة و المزيد من الحرية,

و ليس استقدام علم ذي ثلاثة الوان.. حقا يا اخوة.. اية اهمية لهذا العلم في حين انك لم تعمل على اعادة مرحل واحد الى دياره, لم تعوض مواطنا واحدا عن خسائره, لم تبن مدرسة واحدة جديدة, لم تغرس شجرة واحدة في تلك المدينة المتيبة.. اني ارى اننا كلما اعتبرنا القضية قومية, و كلما اصررنا على النظر اليها من زاوية قومية, خسرنا المدينة اكثر و اكثر و لن نربح فيها شيئا, بينما كلما نظرنا اليها كمسألة ديمقراطية, و كلما تصرفنا معها كديمقراطيين, لن نربح المدينة وحدها كما نريد و حسب, بل سنربح حتى المستقبل الذي من المزمع ان نعيش في كنفه في عراق المستقبل.. كركوك ليست لا قلب كردستان و لا قدسها, هذا اسوأ ما يمكن رفعه من الشعارات في الوقت الحاضر, بل هي قلب الصراع من اجل الديمقراطية على صعيد عموم العراق.. و هذا هو الشعار الذي ارى انه علينا النضال من اجله اكثر من أي وقت اخر.

واقع الادب القصصي الكردي المعاصر

وائل عبد الرحمن

يعتبر الادب و الثقافة الكردية في كردستان العراق امتدادا طبيعيا للثقافة العراقية و ذلك لوحدة المراجع الثقافية و تعرضها لنفس المؤثرات السياسية الاجتماعية اضافة الى وحدة الاتجاه في الخطاب الفكري و الشكل الفني في التعبير.

فمع ظهور الفن القصصي في العراق كانت ولادة القصة الكردية ذات السمات الواقعية الاجتماعية حيث يتركز عمل القاص على نقل الواقع و اشكالاته بشكل حرفي دون تدخل, و حتى مرحلة السبعينات لم تشهد القصة الكردية أي تغيير على صعيد المضمون, و مع ان الاتجاه الواقعي قد بسط ظلاله على الادب الروسي خصوصا الا اننا نستطيع تلمس بعض ظواهر التفرد لدى العديد من الكتاب في معالجاتهم الواقعية ذات المستويات المتعددة, فقد برز الكاتب (حسين عارف) بقصصه و رواياته الطويلة التي تعتمد على اللغة اليومية في السرد الى جانب البناء التقليدي المعروف بالمقدمة فالعقدة فالحل, حيث تنتهي قصصه في اغلب الاحيان نهايات سعيدة كما هو مالوف في الادب الروسي, الا انه قد تميز مثلما هو سلفه ابراهيم احمد في روايته الشهيرة (مخاض الشعب) بقدرته على الرصد الدقيق للنماذج الكردية (البيئية المسحوقة و كشف وجدانها الشعبي و الغوص في عمق بيئتها و احلامها الاجتماعية و السياسية فبطل "حسين عارف" نموذج للطبقات

المسحوقة في المدينة حيث تتميز امكانياته الواسعة في رصد البيئة الكردية و نقلها الى فضاء الكتابة بشكل يكاد يقترب و الى حد بعيد من وجودها المادي الملموس. و مع تطور الكتابة لديه ظهرت سمات الواقعية الرمزية في قصصه الاخيرة و لا سيما مجموعة (الذئاب) التي اعتمد فيها على الرمز الاجتماعي و السياسي المبسط و القريب من ذهن المتلقي حيث يهدف الى تنمية روح الرفض لديه و الى جانب هذه التجربة كانت تجارب القاص الكبير "رؤوف بيكرد" تمثل الخطوة الثانية و المهمة في مشروع القصة الكردية, و اذا ما كان الكاتب قد وقع تحت تاثير الادب الروسي الواقعي و لا سيما تاثره بـ(تشيخوف) الا انه استطاع و بلغة شاعرية و شفافية ان ينقل القصة الكردية الى مستوى اخر حيث برز عنصر السخرية و التهكم المبني على اساس رفض الواقع الاجتماعي المتخلف و البنية الاخلاقية و الفكرية للمجتمع الكردي و فضح المؤسسة السياسية التي تقف وراء هذا التخلف و الجهل و الاحباط, فكانت قصصه مثارا للجدل على الدوام و اخص بالذكر هنا قصة (1+1=1) و قصة (نحو القمة) ففي الاول ناقش الازمة الجنسية في وقت مبكر و في الثانية ناقش الهوة بين المقاتل الكردي و قيادته الميدانية و السياسة.

تتنوع البيئة لدى الكاتب "رؤوف بيكرد" بين المدينة و القرية و الجبال, و ابطاله مزيج من المثقفين و القرويين, و المكان لديه لا يشكل بالضرورة صورة فوتوغرافية للبيئة بل جمالي مستقل و مع قدوم عقد السبعينيات تحول اسلوب الكتابة لديه حيث برزت في كتاباته سمات الواقعية الاسطورية مستفيدا من الاساطير و الرموز الكردية القديمة و ذلك بشحنها و بثها بشكل جديد و لاسيما في مجموعة (الصقر). تعد تجربة رؤوف بيكرد و حسين عارف من اهم التجارب الرائدة المؤسسة لقواعد هذا الفن في الادب الكردي المعاصر الى جانب التجارب الاخرى التي رافقتها كتجارب (محمد موكري و احلام منصور و مصطفى صالح كريم و احمد محمد اسماعيل) و مع مجيء العقد السبعيني كانت الانتقالة الكبيرة على مستوى التجريب في كتابة القصة حيث برز الكاتبان الكرديان شيرزاد حسن و رؤوف حسن باساليبهما التي تتقاطع مع جيل الستينيات على مستوى الشكل و المضمون فبالنسبة للكاتب (شيرزاد حسن) اخذت القصة لديه اشكالا عديدة على مستوى الشكل و البناء حيث لم يعتمد الاسلوب السردي و النقل بقدر ما جعل الشخصيات هي التي تتحدث بلغة متميزة معبرة عن بعدها الثقافي و الاجتماعي دون تكلف حيث لم يهتم بنقل الواقع و وصفه حدثا بل كان يركز على القوانين التي تكمن وراء هذا الحدث مستفيدا من طروحات علم الاجتماع و النفس فتجد لديه الجراة على مهاجمة الواقع الاجتماعي القهري و الخرافات التي تتحملها شخصيات هذا الواقع اضافة الى فضحه

المستمر للبرجوازية من خلال تعريتها و كشف انحلالها الخلقي و بشكل فني اثار الجدل الواسع في الاوساط الثقافية الى حد وصفه بالكاتب الذي لا يرى الا القبيح في هذا الواقع. و خصوصا في مجموعتي (الازهار السوداء و حي الفزاعات) حيث يعتمد الاسطورة و الخرافة اسلوبا لتمرير اداناته ضد الواقع و السلطة و بلغة تقترب من الشعر اكثر من السرد النثري, و ببناء فني صوري اقرب ما يكون الى السيناريو السينمائي مبتعدا عن الاسهاب في النقل الفوتوغرافي الصرف. و الى جانب هذه التجربة كان القاص رؤوف حسن يقدم تجاربه القصصية متعددة الاشكال و المضامين حيث عرف هذا الكاتب بعدم استقراره فكتب باسلوب الشكلانية الصرف و اخيرا كتب في الخيال العلمي معبرا بتلك المراحل عن عدم قدرته على الانفكاك لسلطة المرجع الثقافي الخارج و تاثيره الواضح و المباشر, الا اننا نستطيع ان نتلمس لديه القدرة على بناء الاشكال المختلفة للقصة دون التوقف عند شكل محدد و تغير معالجاته الفكرية باستمرار حسبما يقتضيه التطور الفكري لديه, كانسان و ككاتب. حيث يعتمد الى جعل قصصه درسا جماليا لتطوير الذائقة لدى المتلقي غير ان الملاحظة المهمة التي يجب ذكرها حول عدم انتشار الادب الكردي و لاسيما انتشار نتاج هؤلاء القصاصين الاربعة اضافة الى غيرهم من المبدعين الكرد يرجع سببه الى الاوضاع السياسية المعروفة في العراق و ذلك لمحاولة السلطة و باستمرار العمل على قمع و ازاحة الوجود الكردي من الشمال العراقي و عدم السماح بتسليط الضوء عليه الى جانب كتابة هؤلاء الكتاب بلغة محدودة لا يقرأها الا شعب كردستان العراق و لذلك فقد حرموا من الانتشار الواسع الذي يستحقونه لمجاورتهم احيانا و لتجاوزهم احيانا اخرى لاهم كتاب القصة القصيرة في العراق و الوطن العربي.

شهادة حول كردستان

الشاعر علي الشباني- البصرة

للذاكرة ضفاف ساخنة..

كان الزمن القلق لعام 1962, اواخر ايام الحكم المتأرجح للزعيم العراقي (عبد الكريم قاسم) و حربه اللامشروعة ضد الشعب الكردي, فقد دفعه المتآمرون لعداة شعبه و طموحاته, و اشغاله بحروب و عداوات غير مبررة, ليحشدوا له في السر كل ادوات المؤامرة الغادرة و عناصرها الدفينة.. و المقيتة.. كنا في الليل نكتب على جدران

مـــدينتنا الكالحـــة شـــعارات الأحتجـاج و المطالبـــة (بأيقـاف القتـال في كردســتان) و اعـادة الجــيش الى مقراتـــه و اعطــاء الشعب الكـردي و العراقـي عامـة حقوقه الديمقراطية الغائبة.. ثم في النهـار خرجنـا نحـن طلبـة (الأعداديـة المركزيـة) بمظـاهرة حصـتي للمشـاركة فيهـا شـعار (السـلم في كردسـتان صـيانة الجمهورية).. رفعني الطلبة على اكتـافهم مـع رنـين جـرس بـدء الـدوام المدرسـي لأهتـف بالشـعار عاليـاً.. انتهـت التظـاهرة بحقـد الزمرة مـن طلاب الحقـد البعثي المتعاونين مـع اجهـزة امـن الحكم في حينه, لنواجه بارهاب و عنـف لا نسـتحقه في عمرنـا المبكـر.. امضينا الليل معهم و لمسنا الحقد الـــدفين و ملامـــح المـــؤامرة القادمـة.. بعـدها بأيـام انقضـوا على حكومة (عبد الكريم قاسـم) الوطنية.. و سحقوا شعبنا بخسة لا توصف..

اجتـاحوا انبـل مـا في الانسـان العراقـي و اقـدس و حشـدوا في معتقلات كـثيرة الالاف مـن خـيرة الرجـال و النسـاء.. و حتـى الأطفـال.. كنـا في سـجن (الحـي العصـري) الـدموي في الديوانيـة عـام 963 حشـد مـن مناضـلي (الحزب الشيوعي) و اصدقائه, لم يكـن المكـان ليتسـع لتزاحمنـا الكثيـف و جراحنـا الموجعـة.. و لقسـوة الجلاديـن الغريبـة.. و همجيـتهم, كـان في المعتقـل جهـاز اتصـال يعـود لمركـز الشـرطة, يشرف عليـه احـد افـراد الشـرطة الصـامتين بغمـوض.. و انفعـال, كنـا نعـرف عنـه فقـط انـه مـن اخوتنا الكـرد.. و في يـوم مـا مـن عام 63 ابرقت مديريـة الشـرطة العامة بأعتقاله, و قد كان نائمـاً.. و بعــد ان وضــعوه في المعتقــل ســجيناً في غرفــة خاصــة و معزولـة, لحين ارسـاله الى بغـداد, اكتشفوا مـا اثـار رعـبهم, ذلـك ان الكـثير مـن برقيـات الفاشسـت الخطـيرة و توجيهـاتهم المؤذيـة للمناضـلين كـان قـد اخفاهـا.. و مزق الكثير منها!

اروي هـذه الحادثـة لأوكـد لحمـة الدم العراقي النبيـل لشعبنا بكـل فصائله و الوانه بمعزل عن اللون الكالح و المقيت للفاشية البعثيـة, و اتـذكر جيـداً طبيعـة التعامـل الأليـف و الـودي معنـا و عوائلنـا عند زيارتنـا لكردستان الجميلـة.

و للكـــرد في العـــراق طبيعـــة معروفـة في الـود و التسـامح.. و الجد.

و يـوم انفجـرت حـرب الـدكتاتور الأهـوج (صـدام حسـين) القـذرة علـى الجـارة ايـران, بتحـريض امريكـي, التهـب حينهـا الجبـل العراقي الأشم دفاعاً عن شعبنا و كرامته التي اهدرها نظام البعث المتخلف. و غـدت سـاحات الشـرف في كردسـتان مفـاخر للتضـامن و الكفـاح الـوطني الموحـد ضـد عسـكرتاريا الأمـيين الأوغـاد. و مشاريعهم التصفوية,.. كردستان و عـبر التـاريخ الـوطني ظهـير اخـوي دائـم للحريـة الشـعبية العراقيـة لا يمكـن وصـف حقيقـة الرعب و الأرهاب في سنين الحـرب العدميـة المخيفـة و خاصـة لجيـل مـن الشـبيبة الرافضـة, و غـير القادرة على المسير في هذا التيـار الأفنائي الخطير, و لكن لاحل. من العتمـة السـادرة جاءنـا في بدايـة

الثمانينـات احـد اصـدقاءنا الدارسين في كليـة الهندسـة في بغـداد, و هـو مـن الطلبـة الشـيوعيين, تحققـت لـه صـلة بأحـد زملائـه مـن الطلبـة الكـرد من السليمانية و كانت لـه صلة بالحركة الكردية المسلحة (الاتحاد الـوطني الكردسـتاني) دفعنـا صديقنا الـديواني لتوثيـق الصلة بأخيـه الكـردي و اسـتثمارها وطنيـاً بغيـة التحـاق الكـثير مـن الشـباب الـرافض للحـرب و الاضـطهاد بالحركـة الثوريـة الكردية و منهم بفصائل الأنصار التابعـة (للحـزب الشـيوعي العراقي).

تحقـق الأمـر و التحـق الكـثير مـن مناضـلي الديوانيـة بجبـال كردسـتان الحصينة, اذكـر مـنهم الصديق القاص (سلام ابراهيم) و جاسب مهاوي, و كـريم الحلاق.. و محمد حسين, و حبيب ظاهر و حامد و كثير غيرهـم.. حتـى مـن مدن اخـرى, فقـد تحـول بـيتي في الديوانيـة الى محطـة تسـفير للمغادرين الى سـاحات الشـرف.. و النبل و الخلاص.

نبذة مختصرة حول
تأريخ الفن التشكيلي في كركوك

د. فرهاد بيربال

احـاول مـن خـلال هـذه الاسـطر, كمحاولـة متواضعـة و بدائية, كتابة تأريخ حركة الفن التشكيلي في مدينـة كركوك. بما انهـا اول محاولـة لكتابـة هـذا التـأريخ فمـن المؤكـد انهـا لا تخلو من النقص, لـذلك ادعـو فنـاني و مثقفـي مدينـة كركـوك و مـن الـذين لـديهم معلومـات وافيـة حول هذا التأريخ ان يزودوني بها و يصححوا اخطائي ان وجدت و يضيفوا اشياء جديدة, ذلك لأننا و للأسف لم نستطع ان نلملم هذا التـاريخ المشـتت و لم نجـر أي تحقيق فني عليه بل ظلت حركة الفـن التشـكيلي في هـذه المدينـة كـأجزاء مبعثـرة غـير مدونـة و بقيت كمادة خام دون دراستها.

افتتـاح اول معـرض فـني تشكيلي كردي, حسب علمي, هـو المعـرض الفـني الخـاص للفنـان التشكيلي الكردي الموهوب (عزيـز سليم) و الذي افتتح سنة 1934 بـ(6) لوحـات في مقهـى (يـد الله) في حـي الشـورجة, و بيعـت اللوحـات السـت لـموظفي شـركة نفـط كركـوك بأربعـة او سـتة دنانير[1].

كان احد الفنانين التشكيليين الكرد في ذلك الوقت و في مدينـة كركوك اسمه (ابـراهيم خليـل) و كـان مـن اهـالي قضـاء (دوزخورماتو) حيث زار معـرض

عزيز سليم عام 1934 تعارفا في المعرض و بدأت علاقتهما تتوطد و كان ابراهيم خليل يشجع عزيز سليم باستمرار و يحثه على مواصلة العمل و ان يرسم المزيد من اللوحات[2].

يروي الفنان التشكيلي الراحل ازاد شوقي يقول: في عام 1949 افتتحنا معرضاً فنياً مشتركاً في مدينة كركوك مع الفنان محمود العبيدي (و هو رسام و نحاة من اصل عربي) و مع الدكتور سنان سعيد[3]. تحدث الفنان محمود العبيدي في تقريره الذي كتبه لأرشيف الفن التشكيلي في بغداد عن هذا المعرض قائلاً: افتتحنا المعرض في قاعة المدرسة التي كنت مديراً فيها[4].

في سنة 1950 افتتح الفنان التشكيلي الكردي خالد سعيد (و هو فنان موهوب من مدينة السليمانية) معرضاً فنياً خاصاً في قاعة المكتبة العامة بمدينة كركوك و عرض فيه خمسين لوحة فنية عن حياة الكرد و كردستان و مناظرها الطبيعية الخلابة اضافة الى عدد من اللوحات التي رسمها حول حياته في اوروبا و بعض الصور الفوتوغرافية و قدمها لأهالي مدينة كركوك التواقة للفن و الجمال[5]. و كذلك عمل هذا الفنان عام 1955-1956 كمصمم ديكور في تلفزيون كركوك.

اود ان اذكر القاريء بأن اول طالب كردي الذي كان ملهماً بالفن التشكيلي و الذي تخرج عام 1951 بمعهد الفنون الجميلة في مدينة بغداد, هو الفنان التشكيلي الكردي المعروف (بديع باباجان) الذي و لد بمدينة كركوك عام 1923, و بعد اكماله الدراسة الاكاديمية بدأ بمواصلة العمل في هذا المجال و انتج في سنوات عمله الفني العديد من اللوحات الفنية الرائعة بأنامله المبدعة. لكننا لم نلحظ -و للأسف- أي اهتمام يذكر بهذا الفنان الكركوكي الكبير و المبدع و لم نر أي دراسة فنية جادة حول دور و تأثير هذا الفنان الكبير في حركة الفن التشكيلي في مدينة كركوك.

بعض الفنانين التشكيليين الكرد كان لهم دور كبير في نشوء حركة الفن التشكيلي الكردي في مدينة كركوك من بينهم: الفنان **صديق احمد عاشور**

و لد سنة 1915 بمدينة الموصل, و تخرج في دار المعلمين الابتدائية سنة 1934, و اكمل في عام 1939 الكلية العسكرية و عين ضابطاً في الجيش. كان صديقاً قريباً للفنان ازاد شوقي, و يشهد الفنان ازاد شوقي ان صديق احمد عاشور كان كردياً و يتكلم باللغة الكردية و استضافه الى مدينة السليمانية عدة مرات, حيث بدأ يرسم مصيف سرجنار في لوحات فنية رائعة, ثمة عشر لوحات للفنان صديق احمد حول كردستان محفوظة في متحف بغداد[6].

بدأ هذا الفنان الكردي مع الفنان الدكتور سنان سعيد (الذي كان ايضاً صديقاً قريباً لازاد شوقي) و مع محمود العبيدي بتأسيس أول جماعة فنية في

مدينة كركوك بأسم (جماعة فناني كركوك) و ذلك في عام 1953 حيث افتتح لهم معرضاً فنياً مشتركاً في نفس السنة في قاعة مدرسة (غازي) الابتدائية للبنين و اعلنوا فيها تأسيس الجماعة.

منذ بداية تأسيس جماعة فناني كركوك و لغاية عام 1960 شارك الفنان المذكور في جميع معارض الجماعة, و في عام 1955 اصبح عضواً في (جمعية الفنانين العراقيين) و حصل على جائزة فنية من قبل محافظ كركوك[7]. كان الفنان العراقي الكبير شاكر حسن آل سعيد معجباً بلوحاته[8], و كرس عدة صفحات من كتابه (فصول من تأريخ الحركة التشكيلية في العراق) لوصف لوحات الفنان صديق عاشور[9]. كما له عشر لوحات في متحف بغداد الفني حول الكرد و كردستان[10].

محمد مهدي: من الفنانين الكرد في مدينة كركوك, لم نعثر على تفاصيل حياته ماعدا هذه الاسطر القليلة: ينتمي الى (جماعة فناني كركوك) عام 1954 التي اسسها كل من صديق احمد عاشور و د. سنان سعيد و محمود العبيدي. يشارك محمد مهدي في كل معارض جماعة فناني كركوك لغاية 1960 حيث شارك بعدة لوحات في معرضها الرابع[11]. و في نهاية عام 1950 منح محافظ كركوك آنذاك جوائز فنية لكل من محمد مهدي و صديق احمد عاشور و محمود العبيدي. في العام نفسه اكمل لوحته الشهيرة (الفيلسوف كندي) و نال عنها الجائزة الاولى للدولة[12].

عبدالله امين: ولد الدكتور عبدالله امين الملا عام 1923 في قضاء جمجمال التابع لمحافظة كركوك. كتب الدكتور مصطفى زنكنه دراسة مستفيضة حول هذا الفنان و نشرها في العدد الاول من مجلة (صرخة كركوك) الصادرة في اربيل, و يمكنني اضافة مالدي من معلومات اخرى, و هي: ان الفنان الدكتور عبدالله امين التحق بجماعة فناني كركوك سنة 1954 و ساهم بعدة لوحات في معرض مشترك للجماعة مع صديقيه صديق احمد عاشور و محمد مهدي في معرضها الرابع, يتواصل مع الجماعة في افتتاح معارض خاصة و مشتركة لغاية عام 1960[13].

فنانون عراقيون من اصل كردي ولدوا في مدينة كركوك

1-الفنان عطا صبري:

ولد في مدينة كركوك سنة 1913, منذ سنة 1937 و لغاية 1940 بدأ بدراسة الفن بمدينة روما و في عام 1950 حصل على الدبلوم بلندن. في عام 1951 كانت له مساهمة كبيرة في تأسيس (جماعة بغداد للفن الحديث). بتأريخ 1955/11/27 و لغاية 1955/12/3 يزور كردستان بصحبة الفنان التشكيلي البريطاني (آر. روس توماس) و يبدءان برسم لوحات عديدة لمناظر كردستان الطبيعية الخلابة, و يعرضان اعمال هذه

السفرة الفنية في معرض خاص و على قاعة (المدرسة التأسيسية) في منطقة السعدون ببغداد[14].

من المعروف ان لعطا صبري عشرات اللوحات رسمت بأنامله المبدعة حول حياة الكرد و مناظر كردستان.

2-نوري مصطفى بهجت:

يقول صديقه الفنان ازاد شوقي: ان الفنان نوري مصطفى بهجت كردي الاصل و كذلك زوجته كردية, يسكنان في حي امام قاسم بمدينة كركوك, لديه لوحة رائعة رسم فيها محلته - امام قاسم-, للفنان نوري مصطفى دور مهم و كبير في تفعيل حركة الفن التشكيلي الكردي خاصة في سنوات 1930- 1960.

3-الفنان عدنان باباجان - و فنانون آخرون امثال:

فخري جلال, عبدالرزاق شيخار, صلاح شيخار, هاشم اسماعيل[15].

نبذة تاريخية مختصرة لجماعة فناني كركوك

انهي هذه الاسطر بكتابة تاريخ مختصر لجماعة فناني كركوك متمنياً السعي من اجل اكمال هذا المشروع بشكل اوسع.

اسست جماعة فناني كركوك ستة 1953 و كانت تتألف من ثلاثة اعضاء: محمود العبيدي, صديق احمد عاشور, سنان سعيد. افتتح اول معرض مشترك لهذه الجماعة في نفس العام بقاعة مدرسة (غازي) الابتدائية.

في عام 1954 افتتح معرضها الثالث في قاعة المكتبة العامة القديمة بمدينة كركوك شارك فيها كل من الفنانين: عزالدين الصندوق (كان موظفاً في شركة النفط) و صديق احمد عاشور (كان معلماً), في نفس العام يفتتح معرضها الرابع بمشاركة اسماء اخرى كمحمد مهدي و عبدالله امين و هاشم اسماعيل الموصلي و السيدة زاروهي كيورك. في معرضها الخامس الذي اقيم في نفس المكان في سنة 1955 شارك كل من محمود العبيدي, سنان سعيد, صديق احمد عاشور, عز الدين الصندوق, محمد مهدي, عبدالله امين, السيدة زاروهي كيورك, هاشم اسماعيل. و يستمر افتتاح المعارض الى ان بلغ المعرض المشترك العاشر و على قاعة نادي المعلمين. في عام 1957 افتتح المعرض الحادي عشر و الثاني عشر في قاعة المعهد الثقافي الامريكي بمدينة كركوك باشتراك فنانين جدد الذين كانوا ينتمون الى قوميات و اديان مختلفة:

محمود العبيدي, صديق احمد عاشور, سنان سعيد, محمد مهدي, عز الدين الصندوق, ناطق محمد علي, هاشم اسماعيل, طارق احمد علي قنبر اوزدمير, زاروهي كيورك اضافة الى فنان اخر من روسيا.

في عام 1959 ينضم كل من الفنان مؤيد الراوي و الفنان انور محمود سامي و زوجة صادق البحراني الى الجماعة و يشاركون في المعرض الثالث عشر و الرابع عشر بعنوان (معرض الثورة) في قاعة المكتبة العامة الجديدة بمدينة كركوك. في عام 1960

ينضم هؤلاء الفنانون الجدد الى جماعة فناني كركوك: صلاح يري، زين العابدين دامرجي، موفق انطوان الوكيل، و يبدأ افتتاح المعرض الخامس عشر في نفس البناية. و في عام 1960 عندما عين محمد العبيدي مسؤولاً لنشاطات كركوك الفنية ينضم الى الجماعة عدد كبير من فنانين آخرين حيث كانوا يزاولون التدريس في المدارس الابتدائية و الثانوية، نذكر من بينهم: خالد رمضان، محمد عزت، ايدن حسين، كمال طاهر، عباس حسين، ايدن شاكر، اكرم صابر، فخري جلال، عبد الرزاق شيخار، صلاح شيخار، نور الدين عزت، سعاد عزت، سمير بهيه، بولص عيسى، نجم الدين محمد علي، علي النجار.

يقول الفنان شاكر حسن آل سعيد ان بعض فناني مدينة كركوك كانوا اعضاء في (جماعة اصدقاء الفن)، على سبيل المثال: عز الدين الصندوق حيث شارك عام 1948 في معارضها. اما في عام 1955 اصبح كل من محمود العبيدي و صديق احمد عاشور اللذان كانا عضوا جماعة فناني كركوك، اعضاء في (جمعية الفنانين العراقيين).

افتتحت جماعة فناني كركوك عدة معارض فنية خارج مدينة كركوك خاصة في مدينة بغداد و في تركيا[16].

الهوامش:

1-مقابلة تلفزيونية مع الفنان عزيز سليم في شهر تشرين الاول 1997 في اربيل، اجراه: فرهاد بيربال في قناة كولان.

2-المصدر نفسه.

3-مقابلة تلفزيونية مع الفنان ازاد شوقي في شهر تموز 1997 على قناة تلفزيون شعب كردستان - السليمانية.

4-شاكر حسن ال سعيد، فصول من تأريخ الحركة التشكيلية في العراق، ج 1، بغداد 1983 ص 218-220.

5-بعض لوحات و رسوم هذا المعرض محفوظة في ارشيفي الخاص.

6-د. فرهاد بيربال، كرونولوجيا الفن التشكيلي الكردي، مجلة (رامان) ع 29 - 1998.

7-شاكر حسن ال سعيد - فصول من تاريخ الحركة التشكيلية في العراق - ص 218-.219

8-شوكت الربيعي - جريدة الثورة ع 1864 - 1974/9/1؛ كذلك انظر: نوري الراوي - حركة الفن العراقي في ايامها الاولى مجلة المثقف العربي ع 4 سنة 1971 ص 42.

9-شاكر حسن ال سعيد - المصدر المذكور - ص 218-.220

10-متحف الفنانين الرواد، منشورات دائرة الفنون التشكيلية بغداد.

11-شاكر حسن ال سعيد، المصدر المذكور، ص 218-.220

12-المصدر نفسه.

13-المصدر نفسه.

14-المصدر نفسه ص 198، كذلك انظر: دليل معرض التصاوير من شمال العراق من 11/27 الى 1955/12/3 الارشيف التشكيلي - ملف عطا صبري.

15-شاكر حسن ال سعيد، مصدر مذكور ص 110.

16-المصدر نفسه - ص 218-.221

ترجمة:نوزاد احمد

و خرج الكرد من المولد بلا حمص!

العقيد معمر القذافي

هكذا يقال في مصر عندما يخسر احدهم الصفقة. و هكذا خسر الكرد الصفقة.. و خرجوا من المولد بلا حمص! ماذا كسب الكرد من صفقة العراق.. لاشيء. الا معانقة جنود قوات الاحتلال.. و القبلات على الخدود مع الحكام المحتلين الجدد. و الاتهام بالخيانة العظمى. و موالاة الاحتلال. اما وضع الكرد لم يتغير.. بل ازداد سوءً, على الأقل من الناحية الأدبية, و المظهرية, كذلك. كنا نتوقع انه في ساعة من ساعات التاريخ الدرامية.. مثل هذه, ان تكون فرصة تاريخية للكرد. ينتهزونها – كما انتهز اليهود ساعة سقوط برلين.. و هزيمة المحور.. و انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية – و ذلك بإعلان الدولة الكردية الأمل التاريخي للأمة الكردية المضطهدة, و الممزقة.. لاشيء.. اكراد رعايا في الدول التي يوجدون فيها. ما هو الجديد؟ ما هي المكاسب؟ لا شيء.. الكردي هو الكردي مواطن من الدرجة الثانية و الثالثة في كل بلدان الشرق الأدنى. لا يخدعونكم بتولي الأخ هوشيار زيباري وزارة الخارجية في وضع العراق الآن. لقد كان الفريق نورالدين محمود رئيسا لوزراء العراق. و كذلك احمد بابان, و هما كرديان. كما كان وزراء اشغال و مواصلات.. و الداخلية, و العدل, و المالية, و الدفاع اكرادا. و تولي رئاسة اركان الجيش العراقي اكراد مثل الفريق بكر صدقي و الفريق حسين فوزي.. و الفريق امين زكي. بل وصلت نسبة الكرد بين موظفي الدولة العراقية 25٪ و 97٪ في المناطق الكردية. و قد كانت للكرد في مناطقهم في العراق مجالس قروية و مجالس نواحي و مجالس قضاء.. و مجالس الوية.. و مجالس محافظات.

و كانت اللغة الكردية و العربية رسميتين في بعض المحافظات مثل السليمانية, و لغة التدريس في المراحل التعليمية الابتدائية و المتوسطة هي الكردية في المناطق الكردية. و العربية لغة ثانية. كان هذا في العراق في الستينيات الماضية. كان المتوقع انه في ظل الحدث الخطير في المنطقة ان تظهر تحت دخان هذا الانفجار الهائل الدولة الكردية لتكون المنقذ و المظلة الواقية للكرد من الاضطهاد و التنكيل و التقتيل الذي يتعرضون له طيلة تاريخهم المأساوي.

و اذا بنا نعود لترديد العبارة المؤلمة.. و هي ان حظ الكرد هو حظ الحسرات, و الفرص التاريخية الضائعة. رغم الثورات و التضحيات و الانتفاضات. ما هو الجديد.. الكرد مواطنون عراقيون و هذا هو الحال الذي كانوا فيه من قبل. اذن ماذا استفاد الكرد من المشاركة في حفلة المولد التي دمرت العراق بكامله؟ ثم هل الكرد هم الذين في العراق. ان اكثرهم خارج العراق. و اقلهم في العراق. لماذا يتم تجاهل مصير الأكثرية الكردية خارج العراق.. و يجري التركيز على الأقلية الموجودة في العراق.

يا ترى من يتاجر بالقضية الكردية المقدسة؟ من يشرب دم الاف الشهداء الكرد؟ و ماذا يقبض البائع و الشاري؟

هذه هي النتيجة بعد الدماء الكردية الزكية التي اريقت في ثورات و انتفاضات عبيدالله النهري.. بدرخان.. بوتان.. النقشبندي.. شهاب الدين.. الشيخ سعيد.. شكاك.. الحفيد.. احسان نوري.. احمد البرزاني.. رضا.. و مصطفى البرزاني.

اذا كنا امام لحظة تحول تاريخية.. و ادعاء بتحرير الشعوب من مضطهديها و قاهريها.. ليس هناك شعب مضطهد اكثر من الشعب الكردي في كل مكان.. و ليست هناك امة مقهورة اكثر من الامة الكردية, فلماذا الكيل بمكيالين في قضايا مصيرية.. و لماذا لا يتم الوقوف كذلك الى جانب الأمة الكردية, و يعلن استقلالها و وحدتها.. و تنزع السيوف المسلطة عليها, و تأخذ مكانها كجارة و شقيقة للأمة العربية.. و الفارسية و التركية.

من خدع الكرد.. من ساوم بقضيتهم المقدسة.. من باعهم؟

*عن الموقع الخاص للرئيس الليبي العقيد معمر القذافي على الانترنيت.

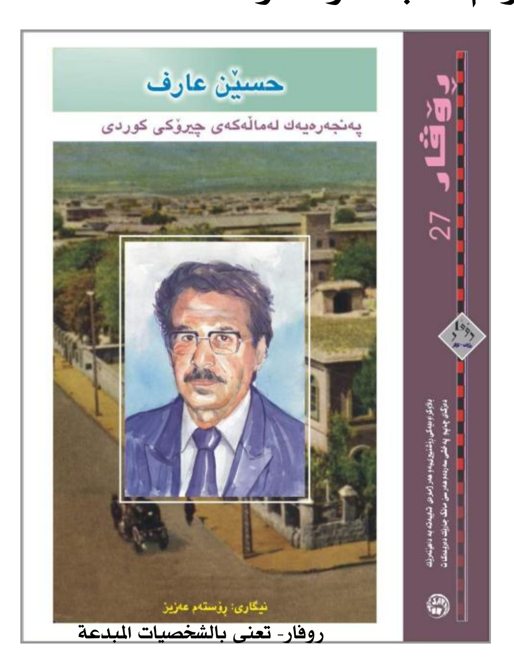
في العدد القادم :

حوار مع الدكتور
نصر حامد ابوزيد
حول القضية الكردية

مجلات تصدرها دار سردم للطباعة والنشر



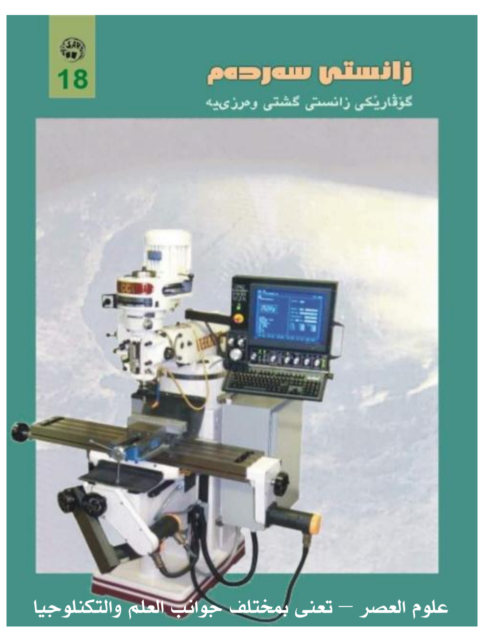
سردم - تعنى بترجمة الثقافة الاجنبية



روفار- تعنى بالشخصيات المبدعة



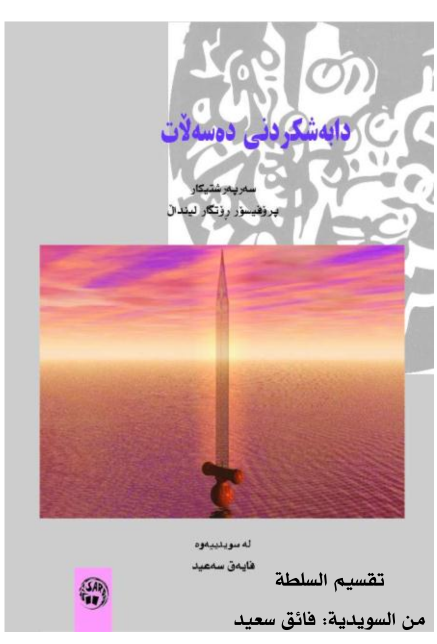
آينده- تعنى بنتاجات الأدباء والكتاب الكرد

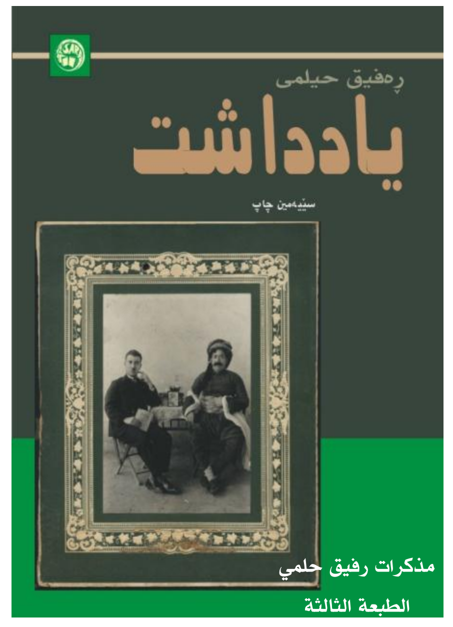


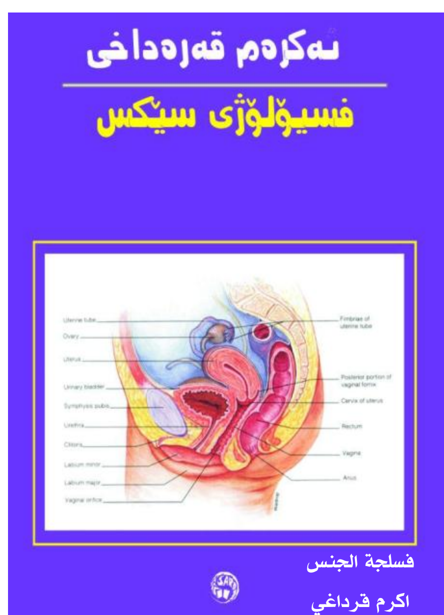
علوم العصر – تعنى بمختلف جوانب العلم والتكنلوجيا

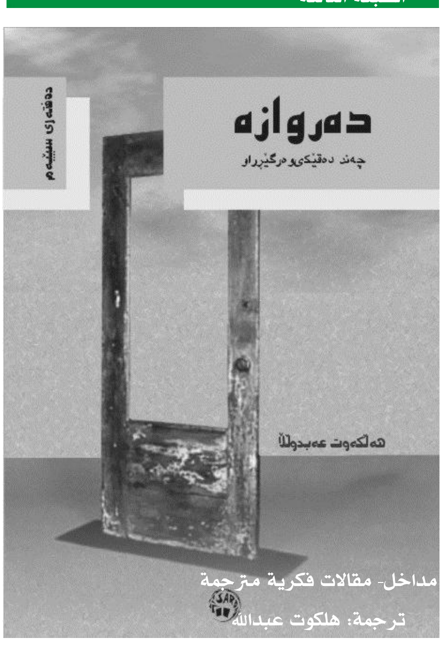
من اصدارات دار سردم للطباعة والنشر

سلسلة الكتب









كتب

عالم الكرد المرعب



تحقيق و تأليف: طه بابان

عرض: دانا احمد

عرف الكرد بأنهم شعب عانوا الكثير من الاضطهاد و القمع و السلب و النهب و القتل و الحروب المتتالية, و قد نكب و استنكب ونيل منه كي لا يستوي على ساقيه.. و خصوصاً في نهاية الستينيات و السنوات التي تليها على يد نظام البعث الفاشي الذي ظلم حتى الطيور التي عاشت في كردستان

طيلة خمس و ثلاثين سنة هدم بيت الكردي و شرد و نفي و سجن عذب بأبشع طريقة, رغم كل ذلك فقد انفل الكرد و مرتين على يد هذا النظام الطاغي.. من هذا المنطلق و هذا التأريخ الحافل بالظلم و الاستبداد بحق الشعب الكردي في كردستان الجنوبية, ولد هذا الكتاب (عالم المكرد المرعب) في (670 صفحة), في مخاض, مخاض كاتب و حاكم كردي عاش معنا في هذه المحنة, و سابر القافلة التأريخية التي اظلمت الدنيا امام اعين الكرد.

هذا الكتاب يتألف من عدة اقسام و هي ظاهرة منع التجول و اثامها, الاسرى شتان بين معاملتنا لهم, محنة المجمعات السكنية القسرية, نبذة عن حملات الانفال العسكرية استعمال السلاح الكيمياوي ضد المدنيين, اللغم, العدو الذي لم يرحل. و خصص القسم التاسع للملاحق: تقرير, معركة بولقاميش, شهداء, قبور, غير هادئة, ضحايا القصف الكيمياوي في حلبجة.

و فيما يتعلق بأسلوب الكاتب فيتميز بسمتين: اولاهما: ان هذا الكتاب اعتمد على الصور الفوتوغرافية من اوله الى اخره, حيث تعبر هذه الصور عن الواقع المر الذي يقوله الكاتب عبر كلماته

المكتوبة, الثانية: اثبات صحة القرارات و البرقيات بالنسخ الاصلية لتلك القرارات, مع ذكر كيفية وصول الكاتب الى تلك الصور و الوثائق.

لقد كان الكاتب متناولاً لكثير من الحالات التي مرت على شعب كردستان, مثلاً الى جانب كل ما ذكر, هناك موضوع (انماط التعذيب) حيث تحدث الكاتب من خلاله عن كيفية تعامل حزب البعث المقبور مع المسجونين و تعذيبهم اشد تعذيب, و كثير غزير من انماط هذه التعاملات مع الكرد الذين طرحوا في السجون و الغرف الانفرادية. لئلا يصل اليهم صوت ذي روح.

الى جانب ذلك فقد كانت للكاتب اهمية بالغة في كشف النقاب عن سجل التأريخ الحقيقي لهذا الحزب امام القراء العرب, كي لا يقعوا سهواً من خلال شعاراته المزيفة, باسم الدين و العقيدة و الدفاع عن الانسانية و مقاومة المستعمرين.. الخ.

ان هذا الكتاب كونه مكتوباً باللغة العربية مهد الطريق امام العرب للتعرف عن كثب الى الكرد و تأريخهم و نضالهم و كيفية التعامل معهم في هذه الفترة التأريخية من الزمن. و حسبنا ان نشير الى اهداء هذا الكتاب: "على القراء الناطقين بلغة الضاد, اهدي مرارة هذه الذكريات فهم احق من غيرهم لأنها من صنع بعض من بني جلدتهم, الذين ما انفكوا يرددون ظلم اليهود لهم, لقد آن ان يعلموا شيئاً عن ظلمهم, هم لنا ان كانوا به جاهلين".

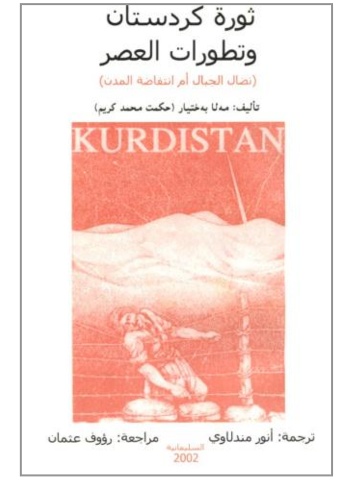
كما ان المؤلف يختتم كتابه بنداء الى الأخوة و الأخوات من بني جلدته الكرد, بأن لا يبخلوا عليه بمساعداتهم له و ذلك بتزويده بالوثائق المتوفرة لديهم. توثيق جرائم الدولة العراقية بحقهم او بحق افراد من عوائلهم او اقربائهم او معارفهم و يأمل ان تأتي تلك المعلومات بصورة دقيقة و مرفقة بالصور ان امكن.

ثورة كردستان و تطورات العصر

[نضال الجبال ام انتفاضة المدن]

تأليف: ملا بختيار (حكمت محمد كريم).

ترجمة: انور مندلاوي - مراجعة: رؤوف عثمان- عرض: دانا



كانت البحوث و الدراسات متواصلة تجارب الشعوب و النضالية من اجل تحريرها و بالتحديد قبل و بعد الحربين العالميتين (الاولى و الثانية), من قبل المهتمين بتلك الشؤون الثورية.

فقد كانت الثورة ظاهرة تأريخية لها كيانها الخاص و تأثرت

بعديد من العوامل الذاتية و الموضوعية و قوانينها الخاصة نابعة من مقتضياتها, فلا يمكن خرق او تجاوز هذه القوانين و الضوابط عنوة. يتكون الكتاب من تسعة فصول و سبعة ملاحق, و قد كانت الفصول مقسمة على مباحث و محاور عدة, و هي: (كوردو - الشجاع) و قد تطرق المؤلف الى دلالة اللفظة في اللغة الكردية و بين ان هذه الشجاعة لا تعبر عن عنصرية الشعب الكردي, لان هذا الشعب و ارضه دوماً يشكوان من المهاجمين في محكمة التأريخ. و بعد ذلك ذكر المؤلف في الفصل الثاني الشروط الموضوعية, فتناول تعريفاً جامعاً مانعاً لهذا المصطلح مستعيناً في كل اجراءاته العلمية على عنصر التأريخ كشاهد صدق حقيقي مؤكد لا يقبل التأويل و الريب. كما تحدث في الفصل الثالث عن الطرائق المختلفة في حرب الانصار و ذكر كوبا و امريكا اللاتينية و نيكاراغوا.. و في الفصل الرابع: النتائج و المستقبل فعالج المؤلف من خلال هذا الفصل قاعدة التغير و التغيير الثورة و التغيير, تغير المواقع الطبقية..الخ. و تطرق الى تشويه الثورة, و في الفصل الثامن توطئة في الاصلاح, و الفصل الذي تلاه: الثورة بين نهجين, الاعداد لثورة كردستان..

و قد كانت الملاحق تتكون من الحركات المسلحة المنتصرة بعد سنوات الحرب العالمية الثانية, الحركات المسلحة المستمرة, الحركات المسلحة المنتكسة, الدول التي قامت فيها حركات مسلحة في قارة اسيا بعد الحرب العالمية الثانية, الدول التي قامت فيها حركات مسلحة في قارة افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية. الدول التي قامت فيها حركات مسلحة في امريكا الوسطى بعد الحرب العالمية الثانية, الدول التي قامت فيها الحركات المسلحة في امريكا الجنوبية بعد الحرب العالمية الثانية, ملخص احصائي بالحركات المسلحة في القارات و المناطق الحيوية في العالم بعد الحرب العالمية الثانية.

ان اولى ميزة بارزة للكتاب هي اعتماده على الاحصاء الرقمي في عد الأحداث و الوقائع الحربية المهمة, كما نلاحظ ان الموضوعية بجلوة في ثنايا الفصول و الملاحق المتراوفة و ما يجدر بالاشارة ايضاً ان المؤلف اهتم بتوالي الفصول و الملاحق اهتماماً بالغاً, كما يعني برصد النتائج التأريخية التي بلا شك ستكون عوناً لنا في نضالنا الآني و المستقبلي.

و قد تطرق الكاتب الى حوادث و حروب الدول التي تشبه اضطهاد شعوبها شعبنا المغلوب على امره, مشيراً الى طريقة نضالها و انبراء ثوراتها و نجاحاتها و هزماتها مع تحليل كل خطوة من خطوتها تحليلاً علمياً و دبلوماسياً دقيقاً.

ان عملية توظيف عناصر الفصول و اللاحق في الكتاب يومئ الى الحدس العلمي و الالمام الثقافي السياسي لهذا المؤلف الذي عاش سنوات طويلة عيشة نضالية, و قد افنى جل فترة شبابه في هذا النضال, فتراكمت لديه خبرات تلك السنوات ماجعله اكثر الماماً بتحليل خطوات الثورة و الانتفاضة. و من اجل ذلك تركز على الانتفاضة و خاض في توظيفه لعناصرها من كل حدب و صوب.

اراء و امثلة حول تطبيق الفيدرالية في العراق

تأليف: عصمت شريف وانلي

عرض: برهان محمد خالد

اراء و امثلة حول تطبيق الفيدرالية في العراق و بشـأن العلاقـات العربيـة – الكرديـة و تطلعـات لمستقبل افضل في الشرق, دراسة سياسية و حقوقية و تأريخية تقدم الى الرأي العام العراقي و العربي و الكردي و الشرقي, نـداء لأجل حركـة ديمقراطيـة لاتحـاد و نهضـة الامـم الشـرقية, هـذا هـو عنـوان الكتـاب الـذي الفـه عصـمت شـريف وانلـي في مدينـة لـوزان بسويسـرا في حزيـران و ايلـول عـام 2003, و نشـر بـدار نشـر حقـائق المشـرق في جنيـف. يقـول المؤلــف في مقدمــة الكتــاب: لا يقصــد مــن هــذه الصفحات القيـام ببحث نظري عـن الديمقراطيـة و الفيدرالية, فمبادئها معروفة و بها كتب كثرة بلغات عديدة, و العراق مليء بـالمثقفين و الحقـوقيين مـن ذوي الخبرة عرباً و كرداً, انما اقدم هذه الاراء للعرب و الكـرد سـواء كمحاولـة في كيفيـة تطبيـق مبـاديء الفيدرالية على اوضاع العـراق, و اسـاس الفيدراليـة هو الديمقراطية و التعددية.

حـول اسـس الفيدراليـة و تطبيقهـا في الدولـة العراقيـة المنشـودة, يقـول المؤلـف ان الفيدراليـة هـي فلسفة سياسـية ترتكـز علـى الديمقراطيـة و توزيـع صـلاحيات الدولـة افقيـاً – أي جغرافيـاً – بـين الجمهوريـات الاتحاديـة المؤلفـة لهـا, و عموديـاً بـين السلطة الفيدرالية و سلطات الجمهوريات الاتحادية و ذلك حسب دستور فيدرالي مثقف عليه, و ان الدولة الفيدراليـة و جمهورياتهـا هـي علـى نقـيض الحكـم المركـزي و الحكـم الـدكتاتوري. و تؤسـس الدولـة الفيدرالية باسلوبين مختلفين: اما عن طريق تحويل دولـة مركزيـة الى دولـة فيدراليـة للاسـتجابة ديمقراطيـاً الى الواقـع القـومي او الجغـرافي او الاقتصـادي او التـاريخي, و امـا عـن طريـق اتحـاد مناطق مختلفة لم تكن تشكل دولة واحـدة. و هنـاك نوع من الدول هي الكونفيدرالية, و هذه تختلف عن الدول الفيدرالية حيث انها تتألف مـن دول مستقلة و لكنها تتفق فيما بينها لتأسيس الكونفيدرالية.

و حـول جمهوريــة كردسـتان الجنوبيــة ضــمن الدولــة الفيدراليـــة العراقيـــة يقـــول ان كافــة الجمهوريات و الاقاليم التي تتحد فيما بينها لتشكل دولـة فيدراليـة هـي دول لهـا دسـاتيرها الخاصـة و مؤسساتها, أي برلمـان منتخب و حكومـة تنبثـق عـن البرلمان و محكمة عليا لممارسة الصلاحيات الاقليمية الخاصـــة بهـا و للمشـاركة في الدولـة الفيدراليـة و مؤسساتها. لا تقتصر كردستان العراقية او الجنوبية كما تسمى تقليدياً على القسم الاعظم مـن ولاية الموصل العثمانية سابقاً, بل تحـوي ايضـاً شـريكاً مـن الاقضية و النواحي من ولاية بغداد العثمانية سابقاً محاذياً للحـدود الايرانيـة كقضاء خـانقين و قضاء منـدلي و الشـريط جنوبـاً حتـى بـدرة و زرباطيـة شرقي بغداد و هو شـريط ذو اكثريـة كرديـة فيلية اصلاً.

في اجتماع مجلس الحلفاء الاعلى في سان ريمـو في شـهر نيسـان عـام 1920 حصـلت بريطانيـا علـى الانتـداب علـى كـل مـن العـراق (العربـي) و ولايـة الموصل بصورة منفصلة, و بعد فشل معاهـدة سـيفر الـتي كانـت تحـوي بنـوداً لتأسـيس دولـة كرديـة في كردسـتان العثمانيـة سـابقاً, قـام البريطـانيون بضـم قسمها الجنوبي الى ميزوبوتاميـا الواطئـة, أي العـراق العربـي, لمصـالحهم الامبرياليـة, أي ان انشـاء دولـة العراق بعد الحرب العالمية الاولى رسمياً و دوليـاً منـذ عام 1925 بقرار من مجلس عصبة الامـم بتـأريخ 16 ديسمبر و وفـق شـروط ادارية و ثقافية لصالح الكرد كنوع من الحكم الذاتي في كردستان قـد حـدث على انقـاض الامـال الكرديـة في دولـة لهـم و تقسيم كردستان العثمانية بين تركيا و العـراق و سـوريا. و احتفظـت تركيـا بحصـة الاسـد مـن كردسـتان العثمانيـة, و كـان تقسـيمها و ظلـم شـعبها السـبب في اسـتفحال القضـية الوطنيـة الكرديـة في تركيـا و العراق ثم في ايران و سوريا.

يمكن القول بأن الدولة الفيدرالية العراقية يجب ان تقوم على الاسس التالية:

أ-الغـاء التمييـز القـومي و الـديني بـين الافـراد و توفير الحريات الدينية و المدنية و حقوق الانسان و فرصا متساوية لجميع المواطنين.

ب-الاتحـاد الاختيـاري بـين الشـعبين العربـي و الكـردي اللـذين يمـثلان القـوميتين الرئيسـيتين في العراق و حق كل منهما في تقرير المصير.

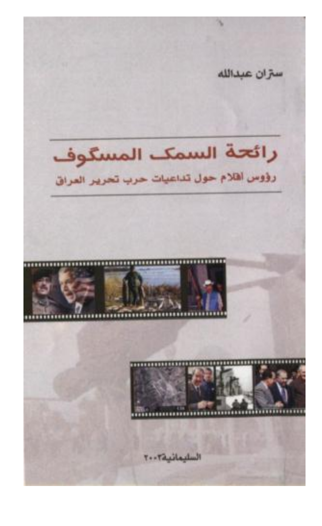
ج-التوحيـد الاداري للالويـة و الاقضـية و النـواحي الـتي كانـت ذات اكثريـة كرديـة في عــام 1957 و الاعـتراف بكردسـتان العـراق المعروفـة بكردسـتان الجنوبيـة كجمهوريـة اتحاديـة ضـمن وحـدة الدولـة العراقية, و ضمان كل من الدستور الفيدرالي العراقـي و دسـتور الجمهوريـة الكردسـتانية للحقـوق الثقافيـة و الحريات الدينية للتركمان و الكلـد و اشـوريين و العـرب الـذين كـانوا يعيشـون في كردسـتان الجنوبيـة في عـام 1957.

د-ارجاع الكرد الذين طردهم الحكـم البعثـي مـن اراضيهم و مـدنهم و قـراهم الى ديـارهم الاصـلية في كردسـتان و ارجـاع العـراقيين او الاجانـب الـذين

اسكنهم البعث في كردستان على حساب المهجرين الكرد الى اماكنهم الاصلية.

و-اخراج جماعة مجاهدي خلق المسلحة من كردستان و بقية المناطق العراقية, و عدم السماح بوجود او تكوين اية جماعة اصولية مسلحة تريد فرض ايديولوجيتها و تغيير النظام الفيدرالي و الديمقراطي في أي جزء من العراق.

و في سؤال بشأن مستقبل الامتين العربية و الكردية يرى المؤلف ان التساؤل في هذا المستقبل شيء طبيعي و يجب ان لا يفهم بأن من شأنه لغم الاتحاد الاختياري بين عرب و كرد العراق في الدولة الفيدرالية التي يؤمل انشاؤها قريباً.



رائحة السمك المسكوف

رؤوس اقلام حول تداعيات حرب تحرير العراق

تأليف: ستران عبدالله

عرض: هيمن حميد

حينما تمر في شارع ابي نواس بمدينة بغداد و تشم رائحة الاريج المفعمة بالاشجار و ندى الزهور و الاوراق الطرية, فجأة تتغير الرائحة لتشم رائحة السمك المسكوف الشهير في هذه المنطقة, من هنا استمد عنوان الكتيب الذي اصدره الكاتب و الصحفي ستران عبدالله و طبع على نفقة وزارة الثقافة لحكومة اقليم كردستان في السليمانية في اواسط عام 2003, و وضع الكاتب عنواناً فرعياً للكتب:

(رؤوس اقلام حول تداعيات حرب تحرير العراق), اذن هذه الكتابات القصيرة او الميني جوب كما يسميها الكاتب عبارة عن زاوية قصيرة كتبت اصلاً لجريدة الاتحاد ابان حرب تحرير العراق, و تتعلق كل حلقة بالحدث الذي صاحب نشرها و الاحداث التي جرت في عموم العراق انذاك بشكل عام.

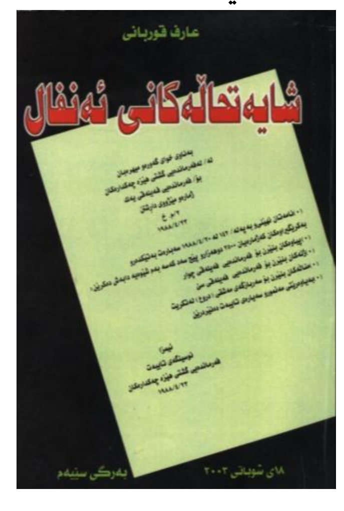
يقول الكاتب في مقدمة كتيبه: كنت اروم كتابة بعض من يومياتي خلال عملية تحرير العراق,

فتلك الايام كانت اياماً تاريخية لكل من عايشها, و لكن تكاسلي المزمن و تبلور فكرة تحرير زاوية في صحيفة الاتحاد تكون بمثابة رؤوس اقلام خاطفة تضرب حديد الاحداث و هي لازالت حامية.

شهود الانفال:
كتاب و واقعة

تأليف: عارف قورباني

عرض: كرم محي الدين الهاجات



الانفال هذه الواقعة التي تدمى القلوب و يندى لها جبين كل من له حس و شعور انساني, نعم اضافت هذه الواقعة صفحة سوداء الى تاريخ الانسانية قد لا ابالغ بالقول بأن كل من شارك في مفردات هذه الكارثة كان اسوء و ابشع مثال لكائن حي على هذه البسيطة, و من هنا يكون واجباً على كل الاقلام الهادفة بأن تغني صفحات التأريخ عن جوانب هذه الواقعة بالدراسة و التوثيق حتى يمكن للأجيال القادمة بأن تستشف الدروس و العبر. و هذه احدى الجهود البناءة التي ولجت غمار صفحات هذه الكارثة المتمثلة بكتاب (شهود الأنفال) للأستاذ (عارف قرباني) حيث صدر الجزء الثالث منه في سنة 2003.

لقد حوى هذا الكتاب في ثناياه الكثير مما يثبت وصفي المتواضع الذي خطة قلمي اعلاه. و هذا عرض عام مقتضب عن هذا الكتاب التوثيقي الخاص بهذه الكارثة. و كما بين الكاتب ان هذا الكتاب ما هو الا محاولة لتوثيق و اظهار بعض الصور الحية لهذه الكارثة المأساوية من خلال الشهادات الحية لعدد من الضحايا الذين نجوا بأعجوبة من محرقة القدر الذي خطته انامل الاجرام و الدكتاتورية في النظام البعثي البائد و الذي تجاوز كثيراً وصفه بالمجرم.

لقد حوى هذا الكتاب حوارات حقيقية للضحايا و الذي بدى واضحاً من خلال كلامهم حول و وقع ما حصل لهم و ما حصل لمن كان معهم من اجرام يندى له جبين الانسانية حيث المعاناة الدامية التي رأوها خلال ساعات و ايام و شهور و حتى سنين و اشباح الموت التي جاورتهم و حامت حولهم, نعم هذا اظهرته كلمات (كلاويز و نازدار و حبسه و ئاواره و نظيره و

محمد حسن) و الكثير من الضحايا, حيث قام المؤلف بتوثيق كلامهم و احوالهم و اسمائهم و اسماء من كانوا معهم و من فقدوا في هذه المجزرة الرهيبة. و لم ينس المؤلف ان يضمن حتى الاهداء بعض الصور الحية التي تبلورت من خلال الكلمات ضمن الاهداء.

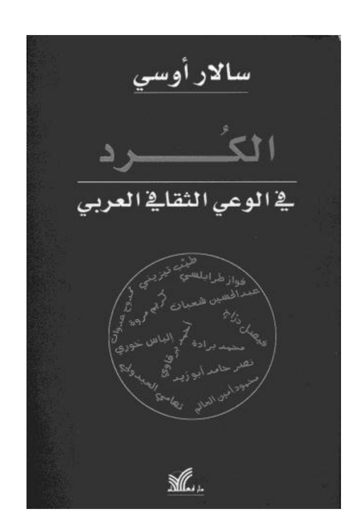
لقد حوت جل صفحات هذا الكتاب وثائق سرية هامة تم الحصول عليها من مصادرها بعد الانتفاضة الباسلة و تحرير غالبية مدن و قصبات كردستان الحبيبة من براثن الاخطبوط العفن الذي عاث في العراق و خاصة كردستان اجراماً و فساداً.

لقد حوى هذا الكتاب الكثير من الوثائق السرية التي تخص عمليات الانفال و غيرها التي كانت تنظم الاجرام بحق الشعب الكردي الذي عانى من هذا الاستبداد و العنف و الاضطهاد و لعقود.

و قد تضمن الكتاب ايضاً الكثير من الجداول المنظمة و بالاسماء و الارقام التي تخص ضحايا هذه الجريمة و تصف احوالهم و مناطقهم. و تضمنت هذه الجداول المئات من الاسماء و الأماكن لمختلف الاعمار لأطفال و نساء و شيوخ و شباب و رجال رغم ان هذه الجداول قد لا تغطي كل الحقائق و التي هي المتوفرة الا انها تكون مصدرا جديدا للتوثيق و الاحصاء.

ان من الامور المؤثرة هي تلك الصور التي تضمنها الكتاب و بالعشرات للضحايا من اطفال و شباب و شيوخ و عجائز و نساء و رجال هذه الصور التي تلكأ الجراح لذوي الضحايا كلما تصفحوا هذا الكتاب.

و لم ينس الكاتب اظهار تفاعل اجهزة الاعلام للنظام البائد التي كانت تزيف الحقائق و تجعل الجرائم نصراً يزهو به الحاكم المجرم الذي كان على رأس ذلك الاخطبوط العفن.



الكرد في الوعي الثقافي العربي

تأليف: سالار اوسي

عرض: نوزاد احمد

"الكرد في الوعي الثقافي العربي" عنوان الكتاب الذي الفه سالار اوسي و طبع في دار ابعاد للطباعة و النشر بدمشق سنة 2002, و هو عبارة عن حوارات حول القضية الكردية مع مثقفين و مفكرين عرب بارزين, حيث حاور مع كل من: الدكتور احمد برقاوي و الدكتور فيصل دراج و الدكتور طيب تيزيني و الدكتور تهامي العبدولي و الدكتور عبد الحسين شعبان و الدكتور فواز طرابلسي و الاستاذ كريم مروة و الاستاذ الياس خوري و الدكتور محمود امين العالم و الدكتور نصر حامد ابو زيد و الاستاذ ممدوح عدوان و الدكتور محمد برادة. و ثمة ملحق و هو رسالة الاستاذ المرحوم هادي العلوي بعنوان "براءة الى اطفال كردستان" حيث قدم سنة 1988 براءته من هويته العراقية الى اطفال كردستان بعد قصف حلبجة بالسلاح الكيمياوي و محاولة ابادة الشعب الكردي و تطهيره عرقياً من قبل النظام البعثي الفاشي.

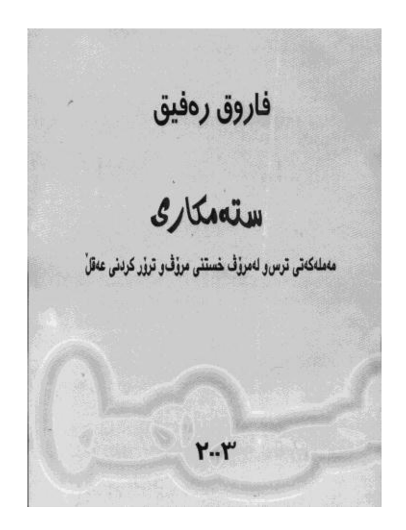
اختار المؤلف المثقف العربي لاجراء الحوار معه حول جوانب مهمة من القضية الكردية لان المثقف – كما يعتقد المؤلف – هو خارج دائرة السياسة و لأنه موضوعياً و يجب ان يكون في موقع ان يعاود طرح الاسئلة الاساسية. اثناعشر مثقفاً و مفكراً عربياً من سبع دول عربية يقدمون اراءهم و مواقفهم من الكرد و القضية الكردية من خلال اجوبتهم عن اسئلة كثيرة في اطار حوارات لا تخلو من الجدل العفوي غالباً. الجامع بين الاسئلة في هذا الكتاب هو: اين المثقف العربي من القضية الكردية و كيف ينظر اليها و ما هي درجة وعيه تجاهها؟

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب: حالت ظروف بعض المثقفين الخاصة دون اجراء الحوارات معهم رغم تقبلهم لفكرة الحوار و استعدادهم لاجرائها, منهم الكاتب و الروائي الدكتور عبدالرحمن منيف و كذلك الباحث الدكتور فالح عبد الجبار, اما الشاعر ادونيس فقد تحفظ في ان يكون محاوراً الى جانب محاورين اخرين و كان اقتراحه كتابة المقدمة للكتاب بعد انجازه تأكيداً على رغبته في ابداء رأيه في الموضوع المعني. و اذ لم يتم ذلك و سببه كان الوقت الطويل نسبياً الذي يحتاجه للقيام بذلك, و كان من شأنه ارجاء طباعة هذا الكتاب الى اشعار اخر, و هو ما لم يتوافق و برنامجنا الزمني المحدد لانجازه".

الاستبداد

(مملكة الخوف و تجريد الإنسان

من إنسانيته و اغتيال العقل)



المؤلـف: فـاروق رفيـق (أسـتاذ محاضـر في كليـة الفلسـفة و العلـوم الإنسـانية في جامعـة كـارلتون – كنــدا)، جهــة النشــر: مطبعــة (رنــج) الأهليــة في السليمانية. 2003.

قراءة: آوات احمد

المؤلف كردي مـن السليمانية, يحمـل الجنسية الكندية. صدر له كتابـان آخـران في العـام الفائـت. كان عضوا في هيئة تحرير مجلة (رهند) الفصلية لمدة طويلة التي تصدر في المهجر. ينقسم الكتاب ألى مدخل تفسيري و سبعة فصول هي:

المدخل: الفلسفة و الاستبداد.

الفصـل الأول: فـن الاسـتبداد؟ "قـراءة حـوار (تيرانيكوس) لزينوفون".

الفصـل الثـاني: الاسـتبداد كعـدوى للـروح و المدينـة " المسـتبد تجسـد لايـروس" تفسـير أفلاطوني.

الفصـل الثالـث: الاسـتبداد: تـدمير المدينـة و اخصاء الإنسان و احتجاز العقل. تفسير ارسطي.

الفصـل الرابـع: أعمـدة الاسـتبداد: الخـوف, العشـق, تقاليـد العبـادة, العزلـة. "قـراءة كتـابين لمونتسكيو".

الفصـل الخـامس: الديمقراطيـة و احتماليـة اسـتبداد لـين و رفيـق. "قـراءة كتـاب "الديمقراطية و أميركا" لالكسي دي توكيفيل.

الفصـل السـادس: الايـديولوجيا حامـل بـذرة الاسـتبداد "تفسـير حنـة ارينـديتي للتوتاليتارية".

الفصـل السابع: التربيـة اللبراليـة و الجامعـة و الاستبداد.

يتساءل المؤلف في مـدخل الكتـاب عـن ماهيـة الاسـتبداد و علاقتـه بالفلسـفة, كيـف يتعامـل الفلسفة مع الاستبداد, و هل يمكن للفلسفة أن تنمـو و تزدهر في ظلال المستبدين و الطغاة. بعـد عـرض و تحليل قصيرين, يكشف الأستاذ الغطاء عـن سـؤال خطير: أليست الفلسفة نفسها جزء من الاستبداد؟ و من خلال فصوله السبعة يجيب علي السؤال بالسلب و يكـرر مـا قالـه القـدامى بـان الفلسـفة أن هـي إلا نقيض للاستبداد و عدوه اللدود.

و لكن, لو حورنا السؤال قليلا و تساءلنا: أليست الفلسفة نوعا من الاستبداد؟ لكان بمقدورنا الحصول على جواب إيجابي له: نعم, و السبب يكمن في ماهية و مسؤولية الفلسفة نفسها. فهي مكلفة بتقديم الأجوبة النهائية للأسئلة المستعصية. و لكنها في نفس الوقت مسؤولة عن طرح الأسئلة التي تشكك في مصداقية الأجوبة المقترحة. دعنا لا نتوسع في هذا الاتجاه, فهو غير اتجاه سياسة الكتاب. بعد طرحه السؤال القاتل أو المخادع عن هوية الفلسفة, يعود ليكشف الإشكالية قائلا" الأجدر بنا أن نتوقف برهة لنسأل ما الذي نقصده بالاستبداد؟ كل محاولة لتعريف الاستبداد هي محاولة انتحارية, نوع من قتل الذات معرفيا, لان الاستبداد هو الكائن الذي يغير ملامحه... إنها ظاهرة متعددة الأبعاد (ص 9).

لننس أن الفلسفة نفسها عصية عن التعريف, و هي الأخرى أيضا ذات أبعاد شتى. لنبق داخل مصطلح التعريف نفسه, فما هو التعريف إلا ممارسة استبدادية جائرة, فكل معرف محصور و محدد و مجرد من التوسع و التفرع. لهذا فالجميع و بينهم الاستبداد و الفلسفة يحاولون الهروب من التعريف و محدداته, لننتهي إلى الاعتراف بان كل محاولة تعريف هي محاولة انتحارية دون أن يخص الأمر تعريف الاستبداد وحده.

و لكن للكاتب أسبابه, فهو يحذرنا من خطر وقوع اعدل و احسن الأنظمة في مستنقع الاستبداد, احتمالية تورطنا معه قائمة أبدا. و لهذا يدعونا كي لا نغفل عن مراقبة السلطة و الاشتراك في اتخاذ القرارات المصيرية, كي لا نتحول من مواطنين إلى رعايا. لهذا يتكفل بفحص و تمحيص الظاهرة المتعددة الأبعاد من زوايا و وجهات شتى, ليقول تارة أن أحدى سمات الاستبداد هي الاستحواذ على المعرفة و مصادرها, والسيطرة على الآراء و وجهات النظر و بالتالي القرارات. يريد الاستبداد فرض خطابه الخاص دون إتاحة الفرصة لخطابات أخرى مغايرة أن تكشف عن نفسها, و لتحقيق غرضه يقوم بعسكرة المجتمع و القانون, معلنا حربا ضروسا ضد جميع الحريات, بل ضد الحرية نفسه كمصطلح.

و يمضي المؤلف في طريق تحليل المصطلح ليقول من جهة أن الاستبداد ليس حكم شخص واحد أو طاغية واحدة في جميع حالاته و نماذج, بل قد يسمى حكم جماعة أو شلة أو حزب أو تحالف و أو غير ذلك, تحت أسماء جذابة مثل: المصلحة القومية, مصلحة الشعب, مصلحة المضطهدين, مصلحة البلاد.. بمعنى قد يكون الدكتاتوؤر المستبد شخصا واحدا يتحكم بجميع القوى و السلطات, أو قد يكون شخصية جماعية مكونة من عناصر متعددة.

كـان الاسـتبداد مشـكلة عويصـة في عصـور ازدهار الفلسفة اليونانية و الرومانية, و انشغل الفلاسـفة بـالتفكير فيهـا و تفسـيرها. و لكـن في العصور الحديثة, مـع توسع المفهوم و تشـعبه, و ولـوله إلى آفـاق بعيـدة, تملـص الفلسـفة مـن مسـؤوليته لدرجـة يمنحنـا الحـق في اتهامـه بالمشاركة في تكملة و تعلية المفهوم, بـالأخص في مجال الفلسفة السياسية المتأسسة تحت تـأثيرات الوضـعية و التاريخانيـة. يقـول المؤلـف" ليسـت صـدفة أن تفشل العلـم السياسي في فهـم جـوهر الاسـتبداد كمـا هـو, لانـه في يومنـا الحاضـر, أن العلم السياسي مشغول البال بعدم إمكانية إصدار الأحكام القيمية في المجال العلمي (ص 13)".

إذن, فمع تملص الفلسفة من مهمته من أحـد همومـه الأساسـية, ظهـرت أنظمـة اسـتبدادية منقطعة المثيـل في التـاريخ العـالمي, طغاة فتكوا بشـعوبهم و بالإنسـانية و وصـلوا إلى حـدود لم يخطر على بال جميع المستبدين السابقين, على مـدار اكثـر مـن ثلاثـين قرنـا. فقـد تحـول الاستبداد إلى شخصية جماعية تحت اسم الحزب أو الجبهـة و مـا شـابه, حـورت هـذه الشخصـية الإجماعية مفهوم الفكر إلى أيديولوجيا و حاولت تأسيس فلسفة خاصة بها, و مـع فشلها في ذلـك, بـدأت بقتـل و إبعـاد جميـع الفلسـفات بمجملـها, سـوى مـا كانـت تضـن هـي نفسـها مفيـدة لاستمراريتها, وهي لم تعد فلسفة أصلا.

يقـول المؤلـف " لـيس المسـتبد وحـده عـدوا للفلسفة و السياسة, بل الجماهير و المتعلمون هما أيضا على النقـيض مـع الفلسـفة و ضـد الفلاسـفة (ص 17)". و السـبب في ذلـك كمـا يقـول المؤلـف نفسـه أن الاسـتبداد في تاريخـه الطويـل جاهـد و يجاهد لتربيـة ذوق مشـوه نـاقص و رؤيـة ذميمـة للعـالم عنـد الـذين يحكمهـم, و واحـد مـن اخطـر إبعـاد هـذه الرؤيـة و هـذا الـذوق, هـو محاربـة الفلسفة و الحقيقة. و هذا مـا دفـع مونتسكيو إلى القول "أن الصداقة في ظل الاستبداد, مستحيلة". و يقول المؤلف أيضا "لا تعيش الفلسفة و الحريـة مفترقـتين, و لا تعـيش الفلسـفة و الاسـتبداد مجتمعين (ص 19)". ينتهي المؤلف إلى القول بـان الاستبداد "قد جردنا من إنسانيتنا, و نحن فقدنا جوهر كوننا أناسا (ص 21)".

و كـذلك يأمـل المؤلـف أن يكـون نتاجـه هـذا خطـوة أولى علـى طريـق دراسـة الاسـتبداد و الطغيـان و بدايـة لمشـروع كـبير خـاص بتلـك الظاهرة المعقدة, و كذلك يأمل أن يتسبب كتابـه في اثـارة أسـئلة عديـدة عـن ظـروف الاسـتبداد الكردي و بداية للتساؤل عـن المـرض الروحـي و السياسي الذي ابتلينا به منذ اقدم الازمان.

في الفصـل الأول يقـدم لنـا الترجمـة الكاملـة لحوار تيرانيكوس لمؤلفه زينوفون, قائلا:"قـدمنا الترجمـة الكرديـة لسـببين: الأول لأهميـة الحـوار

كونه مباشرة عن الاستبداد, و ثانيا كي لا نثقل حديثنا عن الاستبداد, باقتباسات مأخوذة من هذا النص (ص30)".

تيرانيكوس حوار مقتضب بين طاغية سيراكوزة (هيرو) و الشاعر (سايمونيديس), حيث يتذمر الطاغية من حياة الطغاة و المستبدين و ينعتها باتعس حياة, و يتعجب الشاعر من تصريحاته معترفا بأنه كان يتصوره بشكل مغاير و ينعته بأسعد الناس. يقول المؤلف أن النص يحمل رسالة خاصة للشخص العادي, حيث أن "هذا الشخص يرسم صورة للمستبد و حياة المستبد في ذهنه, و لسبب ما يظهر إعجابا تجاه المستبد و اكثر من ذلك يهوى حياة المستبدين كوسيلة للتحرر من هموم الحياة اليومية اللامحدودة (ص 61)". و النص يصدم مثل هذا الشخص و يواجهه بحقائق كثيرة خفية من حياة المستبد, فالنص يصرح بمحدودية حياة المستبد و خلوه من لذات الحياة و جمالها, ويجعل القارئ يراجع ما كونه من أفكار حول امتيازات و رخاء عيش الشخص الذي يوصف بالطاغية.

و كذلك يحتوي النص على رسالة للساسة و الطغاة الذين يطمحون في الفوز بمنزلة الحاكم المطلق الذي لا رد لاوامره, و كيفية إصلاح الأمور و إعادتها إلى نصابها الطبيعي. فـ "المستبدون موجودون في المكان الذي يتجاوز السلطة حدود صلاحياته (ص 61)".

و أخيرا هناك رسالة موجهة إلى الفلاسفة, ينيرهم إلى طرق معاملتهم مع المستبد الطاغية. يقول المؤلف أن نص تيرانيكوس المكتوب من قبل سياسي و فيلسوف و مؤرخ (قد نتردد في إطلاق صفة الفيلسوف على زينوفون, اذا لم تخني الذاكرة, فأستاذ فاروق نفسه قد قال نفس الشيء في الدورة التعليمية التي أدارها في السليمانية منتصف 2001 حين قال لزينوفون أيضا كرونولوجيا لمحاكمة سقراط و لكنه ليس فيلسوفا و هذا يقلل من أهميته نوعا ما دون تردد). على أية حال, فالأستاذ يقسم النص إلى قسمين: النص مكون من 11 مقطعا متباين الطول و التفصيل. من المقطع الأول إلى المقطع السابع (القسم الأول) يحاول هيرو الطاغية أن يثبت لسايمونيديس الشاعر أن حياة المستبد مليئة بالبؤس بعيد عن السرور. و من المقطع الثامن إلى نهاية المحاورة (القسم الثاني) يحاول سايمونيديس أن يقنع هيرو بإمكانية إصلاح حياة المستبد ليعيش حياة هنيئة رغيدة و يجعل الناس يعيشون بسرور و هناء.

أثناء تحليله لنص المحاورة, يقدم لنا الأستاذ ملاحظات قيمة على النص و شخصية المستبد, مستندا إلى البيانات الموجودة في متن المحاورة: يخاف

المستبد من نوعين من الناس, هما: الشجاع و العادل. و السبب بسيط جدا, فالمستبد نفسه ليس شجاعا و لا عادلا أبدا. و نظام الاستبداد نظام فريد من نوعه, فليس الخوف هو الحاكم فيه, بل هو نفسه ينتج رجالا خائفين مرعوبين. الشرف و الجاه اللذان يحصل عليهما المستبد, ليسا أصيلين, لانهما نابعان من الخوف. و أصوات المديح و الثناء المرفوعة إليه, عديمة المعنى, لأنها صادرة عن رعية مرهوبة تنقصها الشهامة. الرجل الحقيقي هو رجل حر, ولكن الحرية لا تكمن في قدرتك على القيام بكل ما ترغب فيه, بل هي ضبط النفس و اختيار حياة المعتدلين. كي يستطيع المستبد إدارة بلده, يجب عليه تقسيمه إلى أجزاء متنافرة و يزرع بذور النزاع و الفرقة بين أجزائه... إلى آخره من الاقتباسات و التحاليل المفيدة.

الفصل الثاني مخصص لتقديم تفسير أفلاطوني لظاهرة الاستبداد واصفا المستبد بتجسيد الـ"ايروس". يقول في مستهله أن كلمة المستبد كانت في اللغة اليونانية القديمة المقابل السيئ لمصطلح الملك. بمعنى كانوا يرون في الملك حاكما عادلا صالحا, بعكس المستبد الذي لا يتمتع بأي صفة جيدة. و يقول كذلك أن الاستعمال الأصلي لكلمة tyrannos (المستبد) كان بمعنى الرجل الذي يغتصب النساء, و بعدها تحول المعنى إلى اغتصاب السلطة و تأسيس" حكومة عديمة القانون, يحكم الناس عن طريق العنف, وفيها لا يحكم الحاكم من اجل الخير العام و لا يضع في الحسبان المجال المدني (ص87)".. يقول أن المؤرخين يحددون الفترة ما بين 650 – 510 قبل الميلاد, من تاريخ اليونان, بالفترة الاستبدادية, كانت فترة اغتصاب الحكم من قبل المستبدين الذين كانوا يتحكمون بجميع أمور المدينة دون الرجوع إلى قانون أو دستور ما. و لا تمضي فترة طويلة و ينقلب عليه مستبد آخر ليسلب منه سدة الحكم ليأتي آخر ويطرد هذا أيضا.

يعطينا المؤلف صورة جميلة من "الجمهورية" لأفلاطون عن المستبد: "يؤجر المستبد خوفا من أعدائه مجموعة من الحراس. يعد الناس بإنجاز أعمال مدهشة, و لا ينجز معظمها, بدلا عن ذلك يشغلهم بالحروب و يحول نظرهم إلى مكان آخر.. و شيئا فشيئا يقضي على جميع الخيرين, بل و يقتل أصدقاءه أيضا إذا تجرأوا و وجهوا انتقادا إليه. (ص93)". و حسب تصور سقراط هناك دائما" شخصية استبدادية نائمة أو متحصنة داخل كل واحد و لا يظهر نفسه إلا في الأحلام, الوقت الذي لا يتردد أحد من ممارسة الجنس مع أمه أو مع الرب, أو يقتل الجميع و يرغب في جميع أنواع الأطعمة (ص93-94)". و أخيرا يستنتج المؤلف

أن الايـروس يجعـل الـروح مسـتبدا, و الشـخص المستبد يريد أن يحكم الآلهة أيضا. و مـن هنـا" الشـخص الغير العـادي مسـتبد يحكـم اسـتبداديا نفسه و مدينته (ص100).

نـأتي إلى الفصـل الرابـع, و يتنـاول الأسـتاذ كتابي "الرسـائل الفارسـية" و " روح القـوانين" لمونتسكيو, و الاخيرة مترجمة للغة الكرديـة مـن قبل ظاهر الشيخ زرار 2003.

يقول: "لكتاب الرسائل الفارسية أهمية بالغة لان عـددا مـن المفـاهيم و الأفكـار الـتي تترسـخ أخيرا في كتاب روح القوانين, مثبتة هنا في شكلها الأول مـن جهـة, و مـن جهـة ثانيـة للكتـاب في مجمله قيمة بيانية و أدبيـة عليا (ص 136)". المهمة الأساسية لكتـاب الرسـائل الفارسـية, إظهـار سمـات و خصـائص الاسـتبداد في شـكلها الشـرقي المتمثـل بـالفرس و الإمبراطوريـة العثمانيـة (الترك). يحللها مونتسكيو من جوانب شـتى, كـي يعتـبر منهـا الأوروبـيين و لا يقعـون في وحلـها القاتـل. و كـذلك نجـد في روح القـوانين, تخوفـا رهيبـا مـن الاسـتبداد أو الحكم المطلـق حيـث أن مونتسكيو يستخدم مصطلح despotism بـدلا مـن tyranny, حيـث يعتقـد بـان الأول انسـب لتعريـف الحكـومتين الشـرقيتين المـذكورتين إضافة إلى الصين.

يقـول الأسـتاذ: " بدايـة يجـب أن نعلـم أن الحكـم المطلـق (ديسـبوتيزم) و الحـاكم المطلـق (ديسبوتيك) لم يعرفا كمفهومين فلسفيين قبـل القرن الثامن عشر, وهو استعمال حديث نسـبيا. اسـتخدم الإغريـق القـدامى كلمـة ديسـبوتيك كإشـارة إلى رئـيس العائلـة... و أفلاطـون نفسـه يسـتخدمها في محـاورة السياسـي كاسـم خـاص بـرئيس العائلـة أو سـيد العبيـد, و لا يخالفـه أرسطو في ذلك (ص 144)". بـل حـين يتحـدث أرسـطو عــن الآسـيويين بنعـتهم بـالبرابرة. و السـبب بـرأي الأسـتاذ يعـود إلى أن اليونـانيين القـدامى و كـذلك مونتسـكيو كـانوا يعتقـدون أن هـؤلاء بعيـدون عــن الحضـارة أو وحشـيون بطبيعـتهم و يحملـون في دواخلـهم عـاملا خلقيـا ليكونوا عبيدا دون تذمر أو احتجاج و هم اكثـر تسامحا مع الاسـتبداد و الحكـم المطلـق. لـذا نجـد مونتسكيو يقول على لسان إوز بـك في رسـالة إلى رهـدي:"إذا ركعـت الأمـة تحـت نـير حكومـة رحيمـة, كمـا يحـدث في ظـل حكومـة وحشـية, فالحالة الأولى اكثر قبـولا, لأنها اكثـر توافقـا مـع العقـل, في حـين أن الوحشـية غريبـة عـن العقـل (ص 136).

في روح القوانين, يمدح مونتسكيو المسيحية و يفضلها كـدين الأمـة بـدلا مـن الإسـلام الـذي يثقـل كاهل الرعية بعبادته الصعبة و التعجيزيـة أحيانـا,

فيقول:" في البلدان المحمدية, كل هذا التبجيل و التعظيم الذي يكنهما الناس تجاه أميرهم, تأتي في بعض أجزائها من دينهم (ص 152). و هذا صحيح نسبيا, لان البلدان الإسلامية يمنحون أميرهم سلطة مطلقة معتبرين اياه خليفة الإله على الأرض, فهم يبايعونه على أطاعته و عدم الخروج من أوامره و يضعون كل شيء في عهدته بما فيه أرواحهم و ممتلكاتهم. و هذا ما جعل المؤلف يقول "أن اسوأ النظم الاستبدادية هي النظم التي تدعي ملكية جميع الأراضي و الأملاك الموجودة في البلاد (ص147)".

يقول المؤلف في نهاية الفصل الرابع:" في روح القوانين, يشير مونتسكيو إلى مبدأ آخر وهو أن الاستبداد يزرع رغبة جمع الثروة في الرعايا, لانهم في هذه الحالة لا يقتربون من المجال المدني و الأمور العامة و المسائل السياسية (ص 156)".

و الفصل الخامس مخصص لدراسة كتاب توكيفيل عن الديمقراطية في أمريكا. من العنوان الفرعي للفصل ينبهنا الأستاذ إلى أسلوب تناوله لموضوعة الديمقراطية الأمريكية و أسباب اختياره لتوكيفيل كنموذج. فهو من جهة يشير إلى الغرض الذي قال به توكيفيل من تأليفه الكتاب, فهو يريد تقديم علم سياسي جديد لعالم جديد في ذاته, من حيث النماذج و العبر الوفيرة التي يمكننا أخذها منه. و من جهة أخرى يعترف في هامش الفصل انه عمل في كتابه في صيف 2001, و لكن بعد ما حدث في أيلول سبتمبر نفس العام لا يتردد في تسمية النظام الأمريكي نظاما استبداديا حقيقيا.

يقول المؤلف "أن توكيفيل كان فيلسوفا سياسيا في القرن التاسع عشر, معلقا آمالا كثيرة على التنوير في أن يخلق نظاما سياسيا يتجاوز قيود و سلاسل الماضي مع الاحتفاظ بأشيائه الجميلة و فضائله (ص163)". و حسب رأي الأستاذ كان توكيفيل يعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أثبتت مقدرة الطبقة الوسطى في إدارة البلاد. كان توكيفيل مهتما بجميع الشعب ككل موحد تتفاعل أجزاءه بشكل دينامي مثمر فيما بينها, فيقول:" ليتهم لا ينسون أن الأمة لا يستطيع أن يكون قويا, إذا كان كل فرد من أفراده ضعيف في ذاته (ص 172)".

و من هذا المنطلق يفكر توكيفيل في استبدادية الأغلبية, ليست أغلبية الأعداد بالطبع, بل بعكس ذلك تماما, في تلك الحالة يكون المجتمع برمته مستبدا أو ذا طابع استبدادي. فلا يشترط وجود أجهزة قمعية في الأنظمة الديمقراطية, لان المجتمع بنفسه يتكفل بتلك الممارسات, لان مثل تلك المجتمعات تخلق جوا نفسيا و اجتماعيا فريدا, بحيث يتشابه الأفراد فيما بينهم, و يتخلقون بأخلاق واحدة و يتنكرون للتنوع و الاختلاف, واضعا عراقيل و محددات صارمة أمام كل محاولة

للخروج من نموذجه السائد. يقول في هذا الصدد:" لا أجد بلدا آخر في العالم فيها نسبة اقل من استقلالية العقل و حرية الحوار, مما أجده ي أمريكا.. في أمريكا يضع الأغلبية محددات و معوقات كثيرة أمام حرية الرأي, حيث باستطاعة الكاتب أن يكتب ما يشاء, و لكن الويل له إذا تجاوز تلك المحددات..(ص180)". لهذا فتوكيفيل يعتقد بان الاستبداد سوف تصل إلى مرحلة الكمال النهائي مع الديمقراطية, حتى دون الحاجة إلى الالتجاء إلى القمع و العنف, و السبب في رأيه هو أن المستبدين القدامى و النظم الاستبدادية التقليدية استخدموا الجسد للوصول إلى مآربهم, أي عن طريق التعذيب الجسدي للذين يعارضونهم أو لا يوافقونهم, كانت الروح حرة طليقة, دون أن يصل أيديهم إليه, لكن مع الديمقراطية, يترك الحرية للجسد و يقيد الروح بسلاسل خفية, و لكن متينة جدا : "أما أن تفكر مثلي, أو تموت (181)".

فإذن هذا النمط من الاستبداد يكون لينا حلو المذاق أحيانا, لا يلجأ إلى الممارسات العنيفة, لا يدمر البنية لاجتماعية و الاقتصادية, بل بالعكس يعمل على تطوير و تنشئة كل ذلك, لكنه يدمر الوجود الروحي للإنسان و يقطع عليه طريق البحث عن المعرفة, و من ثم الكمال و الفضيلة.

في الفصل التالي يهتم الأستاذ بالتوتاليتارية أو النظم الشمولية, مفسرا و محللا آراء الفيلسوفة الألمانية هانا ارينت (حنة ارندت كما يكتبه البعض) عشيقة الفيلسوف العظيم هيدجر. يقول الأستاذ في مستهل الفصل كانت التوتاليتارية ظاهرة حديثة, حسب رأي هانا آرينت و احتجنا إلى فهم جديد لها

يقول الأستاذ أن ارينت في كتابها (أسس التوتاليتارية) مشغولة بأمرين اثنين: الأول إعداد فهرست للخصائص للحكم التوتاليتاري. و الثاني تقديم صورة عن الجذور الثقافية و العقلية لهذا الشكل من التنظيم السياسي و المنظمة السياسية... قسم كبير من كتاب أسس التوتاليتارية مخصص لربط التوتاليتارية بالتطورات السابقة لها, مثل تطور معاداة السامية, القومية, العنصرية و الإمبريالية في القرن السابع عشر و الثامن عشر و التاسع عشر. و ذلك كي يفهم لماذا حدث ما حدث في ألمانيا و الاتحاد السوفيتي بالذات.

كي يفعل ذلك يعود الأستاذ إلى كتاب سابق لارينت و هو " شروط الإنسان", لانه و حسب رأي الأستاذ, يمكننا من فهم افضل لتصورات و آراء ارينت عن فينومينولوجيا نشاطات الإنسان و فلسفته السياسية. فشروط الإنسان تشمل مجمل نشاطات الإنسان التي تصنع البيئة الإنسانية. يبدا الكتاب المذكور برصد الاختلافات بين الأسرة و

المدينة, التي و حسب رأي ارينت أساس جميع الاختلافات المهمة بين المجال المدني و المجال الخاص.

بعد ذلك يعود إلى كتاب أسس التوتاليتارية ليستنتج مع ارينت أن التوتاليتارية وحيدة الجانب في العالم و يعيش في عزلة قاتلة, فهي "تتأسس على خبرة عدم الإحساس بالانتماء إلى العالم, وهم من اخطر الخبرات و اكثر البيئات تسمما و حاضنة جميع الأمراض و منها مرض الأيديولوجيا (ص202)". يعتقد ارينت أن وحشية النظام التوتاليتاري تكمن في الازدياد المستمر للعنف مع كل انتصار تحققها على خصومها, و سبب ذلك يعود إلى استخدامها للإرهاب كوسيلة للحصول على مكسب أيديولوجي و ليس مكسبا سياسيا. و في النهاية يقرر الأستاذ استنادا إلى ارينت أن التوتاليتارية فريدة من نوعها في تاريخنا و لا نجد لها مثيلا في السابق, وهي طفل الحداثة و تربت في أحضانها.

الفصل الأخير مخصص للتربية اللبرالية و تهذيب النفس للتخلص من داء الاستبداد و الطغيان. يقول الأستاذ في بداية الفصل:"بعد أن عرفنا أن الاستبداد احتمال ممكن في الحياة السياسية و الاجتماعية و الثقافية للمجتمعات, يفرض سؤال نفسه علينا, ما الذي نملكه من اواليات للحؤول دون الاستبداد أو التخلص من الاستبداد؟ (ص 221). يقول أن الفلسفة تقترح علينا التربية اللبرالية. ثم يستشهد بمقولة لفيرجيوس الذي يقول:" نحن نسمي تلك الدراسات التي تستحق الإنسان الحر' بالدراسات اللبرالية(ص221)". و كذلك ليو شتراوس الذي يقول في مقال له بعنوان ما هي التربية اللبرالية:" التربية اللبرالية تربية في الثقافة, أو نحو الثقافة ... أنها تربية العقل و تربية العقل و تطويره تحتاج إلى معلم(ص222)". و بعد ذلك يقول لنا الأستاذ بان التربية اللبرالية في جوهرها مشغولة بتوفيق الإنسان مع العالم, مع بعضهم البعض, مع التناقض الداخلي الموجود داخل أرواحهم. ثم يأتي إلى نقطة جوهرية حيث يقول أن التربية اللبرالية تبدأ مع سقراط و يعود بنا إلى سنة 399 ق. م سنة محاكمة الفيلسوف و اتهامه بالإلحاد و إفساد الشبيبة, و يحدد ثلاثة نقاط للتربية السقراطية اللبرالية وهي 1. التأكيد على التفكير النقدي. 2. النظر إلى التربية كعملية مستمرة تؤدي إلى تعليم التلميذ و ازدياد معرفة المعلم. 3. التربية في مجال الفلسفة. ثم يأتي إلى أرسطو الذي يضيف بعدا جديدا للتربية اللبرالية وهو التربية المدنية في الحياة اليومية للسياسة. و هنا يقول الأستاذ باستطاعتنا تحرير الخائف من خوفه عن طريق التعليم. يقول لنا أر سطو رأيه عن احسن الأنظمة, في الكتاب السابع و الثامن من "السياسة":" إنها سياسة تعمل من اجل أن يقوم الناس بتنفيذ إمكانيات حياتهم, إمكانية الفضيلة (ص235)". فهو يرى أن التربية

يجب أن تكون الانفتاح و الالتزام المدني, رحلة من الجزء إلى الكوني و من ثم الرجوع إلى الجزء (ص236)".

بعد كل ذلك يتساءل الأستاذ: ما هو دور الجامعة في هذه العملية, هذا المشروع, مشروع التربية اللبرالية؟ فيعود بنا إلى بدايات ظهور مؤسسة الجامعة في القرن الثاني عشر و يصل إلى القول أن التربية هي أحد أعمدة الجامعة إلى جانب البحث و الدراسة, و يؤكد على مبدأ استقلالية الجامعة قائلا:"للمجتمع و الدولة مصالحهما الخاصة في الجامعة و الجامعة تجيب عن هموم و مشاغل الدولة و المجتمع (ص250)". فحسب رأي الأستاذ أن الجامعة اكثر المؤسسات سياسية لأنها تتعامل مع المعرفة و للمعرفة علاقة وثيقة بالسياسة بمعناها الواسع. و في نهاية الكتاب يرى الأستاذ أن الجامعة بتنفيذها ثلاث مهام يجعل قيام الاستبدادية مستحيلا: 1. البحث العلمي و الفكري و العقلي. 2. التربية و عملية التعليم. 3. تكوين المواطن الجيد الذي ينشغل بمشاكل المجتمع.

3

Vol,1. Winter 2004

SARDAM AL-ARABI

A quarterly Cultural magazine in Arabic issued by Sardam Printing & Publishing House

ADMINISTRATIVE BOARD MANAGER

Sherko Bekas

EDITING DIRECTOR

Nawzad Ahmad Aswad

EDITORIAL STAFF

Rauf Begard
Azad Berzinji
Shaho Saeed
Dana Ahmad



Sardam Printing & Publishing House
www.sardam. net

Kurdistan- Sulaimany